الطريق إلى عدن

دراسة

اسم المؤلف: **علي ناصر محمد**

عنوان الكتاب: **الطريق إلى عدن**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

الناشر: **دار المدى**

الطبعة الأولى: **2019**

Author: **Ali Nasser Mohammed**

Title: **The road to Aden**

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2019**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al–Mada

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

علي ناصر محمد

الطريق إلى عدن

المقدمة

هذا الكتاب محاولة متواضعة، أردت من خلاله أن ألفت الانتباه إلى ما يزخر به مجتمعنا من عادات اجتماعية وقيم ومثل نبيلة، وما في هذه العادات والتقاليد من ثراء وتنوع، وقد جَمَعْتُ مادته من معايشات ومشاهدات وحوارات وأحاديث جرت في رحلة قمت بها أنا ورفاق الرحلة من دثينة إلى عدن، ودونتها في عدة محطات توقفنا فيها، وصغته في قالب حواري يجمع بين اللغة الفصحى واللهجة المحلية.

في هذا الكتاب سلَّطتُ الضوء على الزواج وعاداته، والزراعة وأعمالها، من فلاحة وبذر وحصاد، وعلى عمليات البناء، وروح التعاون السائدة بين الناس من خلال ما عرفتُه وخَبَرْتُه، وما استطعت أن أجمعه من أفواه الناس في منطقة دثينة. وبذلك فإنني أردت أن ألفت الانتباه إلى أنّ هناك الكثير من العادات والتقاليد التي تختلف من منطقة إلى أخرى في طول الجنوب وعرضه، لم يسجلها أحد أو يهتمّ بجمعها ودراستها أي باحث، والعديد منها بدأ يختفي أمام زحف التطور، ونشوء عادات وقيم جديدة قد لا تكون أحياناً أفضل من تلك التي كانت سائدة، كتعاون الناس في تشييد منزل أحد الجيران، أو تعاونهم في حالات الزواج أو الوفاة والعمل الزراعي. كذلك فإنها لا تعني الدعوة إلى التمسك بعادات وتقاليد بالية متخلفة، كعادات الحروب القبلية والأخذ بالثأر التي أوقعت مناطقنا في تخلف مريع.

من هذا المنطلق، إن هذا الكتاب دعوة إلى لاهتمام بدراسة العادات والتقاليد في بلادنا وأنماطها وتأثيرها في حياة الشعب، ودعوة إلى الحفاظ على أفضل هذه العادات وإحيائها وحمايتها من الاندثار، وهو أيضاً دعوة للباحثين والكتّاب، وخاصة المهتمين بالعلوم الاجتماعية، وإلى دراسة

العادات والتقاليد والفنون والأغاني والرقصات والفولكلور الشعبي وتسجيلها وتوثيقها.

وإذا كان المستعربون الأجانب قد أولوا اهتماماً لدراسة المجتمعات العربية، كالمستعرب السويدي «لامبردج» الذي سترد قصته في هذا الكتاب، وما سجله عن واقعة «بلاء شمعة» خلال دراسته اللهجة المحلية والزوامل في منطقة دثينة، فإننا نحن أبناء هذا البلد أولى بدراسة عادات مجتمعنا وتقاليده ولهجاته لأننا الأقدر على فهمها واستخلاص الدروس والعبر منها.

وهي دعوة للدولة وللجامعات، ولمراكز البحث في البلاد، إلى الاهتمام بهذه القضية الحيوية كي لا نفاجأ ذات يوم وقد اختفت هذه العادات والتقاليد أمام زحف التطور، دون أن نسجلها في كتاب، أو ندرسها الدراسة الكافية لتبقى إرثاً للأجيال القادمة تستفيد منه وتأخذ منه ما يصلح لها.

إنها - كما قلت - محاولة متواضعة، أرجو أن تكون مفيدة ودافعاً للمهتمين والباحثين إلى الاهتمام بالتراث الشعبي وإنقاذه من الاندثار. وقد حرصت على تضمين هذا الكتاب صوراً من الحياة الاجتماعية في دثينة وعدن، ومعلومات عن مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية، رصدتها بقدر ما في الإمكان من دقة. وفي هذا الإطار، تحضرني الذاكرة في أننا نظّمنا في ثمانينيات القرن الماضي مهرجانات للغناء والرقص والشعر الشعبي والفولكلور والعادات الشعبية لكل مناطق البلاد ومحافظاتها ووثّقنا ودوّنا ذلك الفولكلور الشعبي والملابس التقليدية والعادات والتقاليد وصوّرناها وسجّلناها بالصوت والصورة.

أخيراً، لا أزعم أنني أقدم في هذا الكتاب دراسة أكاديمية منهجية للظواهر الاجتماعية، فمثل هذا الطموح يتطلب مسحاً شاملاً ودراسات مقارنة معمقة تقوم بها مراكز متخصصة، وحسبي أنني بدأت بهذه الخطوة وأسهمت بهذا الجهد المتواضع.

علي ناصر محمد

الفصل الأول:

الطفولة المبكرة

الطفولة والنشأة

استقبلتُ هذه الدنيا واستقبلتني في مطلع عام 1939م، العام ذاته الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية، وقبله بمئة عام كان الاحتلال الإنكليزي لعدن عام 1839م. أي إنني وُلدت بعد قرن كامل من ذلك الاحتلال في ولاية دثينة.

وُلدت في دَثينة، وقد أجد في الحديث عن هذه البلاد العريقة بماضيها ما يكفيني عن الخوض في تفاصيل حياتي الخاصة التي لا أجد في كثير من وقائعها ما يميزها عن حياة أبناء بلادي.

ولدت في جنوب اليمن الغنية بعلائم التراث والحضارة والتاريخ. هذه البلاد التي تترامى في جنوب جزيرة العرب، قابضة على مداخل البحر الأحمر في نقطة التقائه ببحر العرب وامتداده إلى الشرق حتى الخليج العربي، وإلى الشمال حتى أعالي الجزيرة العربية. وربما لهذا السبب الجغرافي، وبسبب موقعها الاستراتيجي، ولأسباب أخرى لها علاقة بخيرات هذه الأرض، كانت موضع أطماع متواصلة، واعتداءات متكررة في كل حقبة من الحقب، كلما وجدت القوى الاستعمارية حاجة لترسيخ نفوذها وتوسيعه وحماية مصالحها وفرض سيطرتها على أطراف العالم الجنوبية حتى شبه القارة الهندية.

كان ميلادي في قرية أمفرعة، في أسرة فلاحية، وكان والدي مزارعاً دؤوباً، شديد التعلق بأولاده وأرضه، وحريصاً عليهم رغم شواغله الأخرى بالحروب القبلية التي تفرض نفسها عليه وعلى أمثاله.

أمفرعة إحدى القرى الكثيرة المتناثرة في قلب هضبة دثينة، تبعد عن عدن نحو مئتي كيلومتر، وتسكنها قبائل آل حسنة التي أنتمي إليها، وقبائل المياسر، والسعيدي، والعلهيين. وقد أنهكت الحروب هذه القبائل الكاسرة، وآخرها حرب «بلاء شمعة» التي استمرت أكثر من خمسين عاماً (أترك الحديث عنها إلى مكان لاحق من هذه الكتاب).

كان لتلك الصراعات أثر في حياة السكان في دثينة، الذين كان يبلغ عددهم آنذاك نحو ثلاثين ألف نسمة، مثلما كان لها أثر في الزراعة والأمن والاستقرار، وفي طبيعة الحياة والسكان.

يخترق هذه الهضبة عدد من الأودية التي تجري فيها السيول المنحدرة من الجبال الشامخة، كأودية وجر وثوعة ومرّان وكبران وعزان، فتروي أراضيها الزراعية الخصبة، ويستفيد منها المزارعون في زراعة مختلف المحاصيل الزراعية وتربية المواشي، خاصة أوقات السلم والصلح بين القبائل.

أما في زمن الثأرات والحروب والاقتتال بين القبائل، فتتحول هذه الأراضي إلى أرض قفر يباب. ولا يستفيد المزارعون من مياه الأمطارالغزيرة، ولا من مياه السيول المتدفقة التي تذهب إلى وادي أحور الخصب ويصبّ معظمها في بحر العرب. وقد سميت مودية العاصمة بهذا الاسم نسبة إلى كثرة الأودية فيها.

كان الاستعمار البريطاني، ضمن سياسته المعروفة «فرِّق تسُد»، يشجع الحروب بين القبائل الكاسرة، لإضعافها وإنهاكها حتى يتسنى له الوقت المناسب لدخول هذه المناطق المنيعة من غير مواجهة مع قواته، كما حدث لدثينة في بداية الأربعينيات من القرن العشرين المنصرم.

وهذه المنطقة الاستراتيجية، تربط عدن بالمحميات الشرقية: العوالق السفلى، ومشيخة العوالق العليا، وسلطنة الواحدي، وإمارة بيحان، وسلطنة نصاب، وسلطنتي القعيطي والكثيري في حضرموت، وحتى المهرة شرقاً الواقعة على حدود سلطنة عمان. وترتبط هذه المنطقة أيضاً بسلطنتي الفضلي والعوذلي غرباً، ولواء البيضاء في الشمال الغربي التابع للجمهورية العربية اليمنية.

دخل البريطانيون المنطقة عام 1944م بسهولة، دون أن يتكبدوا أي خسائر

بعد أن أنهكت أهلها الحروب الداخلية، ولم يتكلفوا سوى تقديم بعض الدعم المادي اليسير لبعض الشيوخ الذين يحكمونها، متمثلاً في بعض الذخائر والأسلحة وبعض النقود.

وعلى عكس بقية المحميات الشرقية والغربية، فإن أهل دثينة ومشايخها لا يحتكمون إلى سلطان أو شيخ واحد، ولهذا حار البريطانيون في إطلاق تسمية مناسبة عليها، فسموها حيناً حكومة دثينة، وحيناً جمهورية دثينة[1]، وأخيراً ولاية دثينة.

وقد تحدّث المؤرخ اليمني الكبير، الهمداني، في كتابه «**صفة جزيرة العرب**» عن دثينة، وتحدّث عنها أيضاً وعن قبائلها وأنسابها المؤرخ العدني حمزة علي لقمان في كتابه «**القبائل اليمنية**».

إذا رُويت دثينة شبعت ألف مدينة

بدأ الإنكليز بترويض سكان المنطقة الذين كانوا قبائل مقاتلة بالفطرة، عبر تشجيع الفلاحين على زراعة محاصيل جديدة، مثل القطن والخضروات والفواكه. وشكّلوا جمعيات تعاونية لهؤلاء الفلاحين الذين كان عليهم أن يكدّوا ويكدحوا طويلاً ليجنوا في الأخير مبالغ بسيطة وزهيدة من ثمن الطماطم، والبطاطا، والبصل، والملفوف، والباميا، والبرتقال والليمون، بعد أن توقفوا عن حمل سلاحهم وتركوه في بيوتهم، وحملوا بدلاً من البنادق المجارف والفؤوس، وبدأوا بجني المال من بيع المحاصيل الزراعية الجديدة، ومن بيع المحاصيل التقليدية التي كانوا يعيشون عليها طوال مئات السنين، كالذرة الحمراء والسنيسلة والدخن والجلجل «السمسم» والدجر والذرة البيضاء التي كانت مفضلة على كل المحاصيل الزراعية، لأن أفضل الوجبات في هذه المنطقة تصنع منها، ويتباهى الناس بطبخها، ويتفننون في إعدادها، ويتنافسون على من يصنع الأجود منها. إنها «المخلم» (نوع من الخبز الحامض الذي تشتهر به دثينة دون سواها من مناطق الجنوب). ومع ما يرافق هذه العملية من عمل شاق، فإن النساء يتنافسن في ذلك لتحظى أفضلهن في

1- جمهورية دثينة: منحها أهلها هذه التسمية اعتقاداً منهم بأنها كذلك، وتستحق التسمية بجدارة، حيث لم يكن هناك أمير أو سلطان يحكمها.

إعداده بالثناء والمديح. فيما بعد تحوّل الفلاحون وبقية السكان إلى أكل الأرزّ، وما يسمى الملّوح المصنوع من الدقيق المستورد، وإلى الخضروات والفواكه التي تعودوا أكلها بعد ذلك، وأصبحت من عاداتهم الغذائية الجديدة. وكان من أبرز الفلاحين الذين اهتموا بزراعة الخُضَر والفواكه في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، الشيخ محمد سعيد هيثم الظهر، الذي أسهم في إدخال الزراعة الحديثة والتعليم للبنين والبنات إلى هذه المنطقة.

لم يكن أهل دثينة، يأكلون اللحم إلا في المناسبات، كالضيافات والزواج والمآتم، وكان من المألوف بين سكان القرى أن يشتركوا جميعاً في شراء رأس غنم يوزعونه بينهم لتقليل الكلفة، قبل أن تظهر أسواق بيع اللحوم التي تشتري منها حاجتك وفق إمكاناتك. المهم أن يشمّوا رائحة اللحم والمرق ويبلّلوا لقمة عيشهم، ولو بقليل من المرق (حساء)، وخاصة في مواسم الجفاف. ولأن هذه الأرض مشهورة بخيراتها الوافرة، ويأتي إليها الناس من المناطق المجاورة، وخاصة في موسم الرخاء والحصاد، قال المثل الشعبي: «**إذا رويت دثينة شبعت ألف مدينة**». وقد سمعت هذا المثل لأول مرة من السلطان أحمد عبد الله الفضلي الذي كان يتحدث معي عن دثينة وخيراتها.

وبسبب الفقر، كان بعض المزارعين الذين تعوزهم الحاجة، يضطرون إلى بيع أراضيهم، وكان ذلك يُعَدّ عيباً وعاراً في نظر القبائل. ومن أمثالهم في هذا المعنى: «**عليت يا مشتري الطين ولا علي من يبيعه!**». وهذه خلاصة الحكمة التي تكونت عبر أجيال وأجيال، وعبر آلاف السنين. كذلك كان بعض الفلاحين، يضطرون إلى رهن أراضيهم لبعض التجار، ويزرعونها لهم. وكان هؤلاء التجار في العادة لا ينتمون إلى فئة القبائل المحاربة التي تعدّ التجارة والزراعة عيباً، وكانوا أقلّ مرتبة ودرجة اجتماعية من فئة القبائل المنشغلة دائماً بأعمال الحروب والقتال! وكانت المحاصيل الزراعية لهؤلاء المزارعين المرهونة أرضهم تذهب إلى التجار، ومن التجار المشهورين في قريتنا آل بانافع[1]، وآل بن رقية والمحروق.

1- بانافع من بني أمية من نسل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. يقع الموطن الأساسي لأسرة المشايخ الفقهاء آل بانافع في محافظة شبوة، وهي إحدى الأسر الواسعة الانتشار في دثينة وعدد من بلدان المنطقة، وهم مشهورون بالعلم والتجارة.

وكان هؤلاء التجار يخزنون الذرة في باطن الأرض في مخازن تحت الأرض تسمى «المدافن» لا تفتح إلا فى الوقت المناسب بعد أن ينفد ما عند الفلاحين من مخزون، فيلجأون إلى التجار الذين يفتحون «مدافنهم» لإنقاذ المزارعين من الجوع وإعطائهم ديناً يُسترد مضاعفاً حين يُقبل على الفلاحين موسم الخير والحصاد. وكان المزارعون يستدينون من تجار «قاع امتجار»[1] كما يسمونه. وعند الموسم تذهب المحاصيل مرة أخرى إلى التجار. وهكذا تستمر هذه الدوامة ويستمر معها عوز الفلاحين الدائم.

بعد دخول بريطانيا إلى المنطقة، أخذت تفرض الضرائب وتحصّلها من المزارعين، بالإضافة إلى «العُشر» الذي كانوا يدفعونه للزكاة. وهكذا فإنهم كانوا بين مطرقة الضرائب التي فرضها عليهم البريطانيون، وسندان الديون للتجار والحكومة المحلية الذين كانوا يسلفونهم حتى موسم حصاد الذرة. وكانت الفرحة بالموسم لا تكتمل في قلوب هؤلاء المزارعين الفقراء، لأن المحصول كان يذهب لغيرهم ولا يبقى لهم إلا ما يسدّ الرمق.

كان والدي الذي أنجب أحد عشر ولداً وبنتاً، أكبرهم أخي أحمد ناصر محمد، يضطر كغيره من المزارعين إلى الاستدانة من التجار ومن الحكومة إلى موسم الخير، أو الحيمر، كما كانوا يقولون في قريتنا والقرى المجاورة لإعاشتنا، وكانت دثينة مشهورة بالزراعة وبإنتاجها الوافر وبحب أهلها للأرض، وكان أفراد أسرتي كلهم مرتبطين أشد الارتباط بأرضهم الزراعية الواسعة التي يروونها بعرقهم ودمهم ودموعهم. وما زلت أتذكر صور المعاناة اليومية التي تفتحت عليها عيناي، وكيف كان والدي وأقاربي والجيران يتعاونون، علّهم يستقوون على أزمنة القحط والجفاف وعلى ندرة الموارد.

وكانت دثينة تعتمد على مصادرها الخاصة وإنتاجها المحلي لكثير من الأشياء والمتطلبات والأغراض لتلبية احتياجات سكانها، ولم تكن تستورد من خارجها إلا بعض الملابس وبعض المستلزمات الأخرى التي تستوردها من عدن.

كان جلَد الناس وصبرهم وتحملهم وبسالتهم أقوى من قسوة الطبيعة

1- أي أرض التجار.

وشحّ الموارد، ما مكّنهم من تدبّر أمورهم وتسيير حياتهم، رغم كل الصعاب. كانوا يعبرون الجبال الوعرة والوديان الموحشة بأقدام حافية، سواء خلال حياتهم اليومية، أو أثناء السفر سيراً إلى بندر عدن.

وأسهمت الحروب والصراعات القبلية في انتشار حالة العوز والجوع في هذه المنطقة الزراعية الخصبة والواسعة والمعطاءة ، وحالت دون استصلاح الأرض واستخراج المياه الجوفية لريّها بدلاً من الاعتماد على مياه الأمطار الموسمية.

وبسبب الحروب القبلية والجفاف، تعرض الناس للمجاعة، وخاصة أيام الحرب العالمية الثانية، وقد دار حديث بيني وبين المغفور له الشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، بعد ذلك بسنوات طويلة عن الفقر والجوع والمرض بعد الحرب العالمية الثانية التي مرت بها المنطقة، ومما قاله: كنا نفرح كثيراً عندما نسمع بالزواج أو الوفاة من أجل الحصول على وجبة غداء! وسألني: كيف كان وضعكم في الجنوب؟ فقلت له: كذلك كنا نفرح للزواج ونحزن للوفاة، ولكننا نذهب من أجل الحصول على التمر والخبز من أهل الميتم أو العرس! وبعد هذاالحديث مع الشيخ زايد رحمه الله شاهدنا فيلم وثائقي عن المجاعة في وادي حضرموت وقد استمعت إلى احد المواطنين وهو يتحدث عن المجاعة ويقول:

بعد الحرب العالمية جاءت مجاعة... مجاعة، الخلق تعبانين. بعدين بريطانيا القت للناس – شربة – ويسرحون لما شبام يعطونهم ماتيسر. تطورت المسألة كم اشهر بعدين قالوا لا الشربة، بانلقي لهم خبز

أول سنة لما شبام يعطونا قرص انا وكرايمي واخواني يعطونا احنا من قرص ويفتونه ..... وماتوا ناس كثير كثير من المجاعة لكن الحمدلله.

واذا عرفوا ان فلان توفى من المجاعة يشردون (يهربون) لانهم لا يستطيعون حفر القبر واخراج التراب الا اذا دفع اصحاب الميت تمر للحفارة ليسدوا رمقهم ويتحملوا عناء الحفر.

وبعد ذلك كانوا يطالبون برز (خصار التمر) ويعطوا للولد والمرأة ملعقة من الرز وللرجال ملعقتين ويأكلون اللخم والنخاشيش راس اللخم وعظامه) وأحيانا نأكل دجر واأولين ياولدي فيهم رحمة وقلوبهم زينة (طيبة) وكل واحد يساعد أخوه باللي معه. ووأحيانا يأتي الانسان لعند صاحبه يقول له ولدي تعبان يريد القليل من المديد (التمر المذاب في الماء ويستخم لعجن الدقيق لعمل العصيد أو يشرب كغذاء في المجاعة)) يرد الروح فيه يعطونه قعرور تمر (يعمل التمر المضغوعل شكل كرات أو قوالب تسمى قعارير أو بعارير) والطفال يعيشون على لبن امهم وحليب الشاة.

الاول يا ولدي القلوب نفيسة والديار ضيقة ماشي ديار معهم كما ذا حين اليوم قلك ياولدي القلوب ضاقت والديار وسيعة لكن من اول الديار ضيقة ولكن القلوب واسعة.

ولا اشتعقت (تقطعت) القربة يردونها دلو يقسمون نص فيه ونص يلقونه دلو.

والحريم حريم المزارعين يأذن المغرب وعادهم يسنين (يخرجن الماء من البير) في الزراعة إلى قدها ضاوية شلت الهدى في فقرتها وشلت المسقى بيدها «انتهى بعد أكثر من ٧٠ عاما على الحرب العالمية الثانية تتكرر نفس المأساة في اليمن بسبب المجاعة والدمار الذي خلفته الحرب على اليمن وفي اليمن منذ 2015 وحتى عام 2019م، حيث اصبح اكثر من ٢٢مليونا تحت خط الفقر. وتسببت هذه الحرب بمجاعة لم يشهدها اليمن في تاريخه بل ولعالم. وستترك هذه الحرب جرحا في جسم العلاقات بين الشعب في بلادنا وشعوب المنطقة الذين اعلنوا الحرب على اليمن في مارس 2015 دون علم ماتسمى بالقيادة الشرعية في اليمن برئاسة عبد ربه منصور ونائبه خالد بحاح كما أكدا ذلك بنفسيهما.

ان الأمطار الموسمية كانت شحيحة، وأحياناً لا تمطر أبداً، وفي هذه

الحالات كان السكان يلجأون إلى قاضي قرية أمقوز وإمامها، الحكيم العلامة حسين أحمد درامة الذي يدعوهم لإقامة صلاة الاستسقاء طلباً لنزول المطر. وكان درامة يعرف مواسم النجوم ومواسم هطول الأمطار، فيختار التوقيت المناسب لإقامة صلاة الاستسقاء.

وكان لمواسم النجوم، أسماء معروفة وأيام معدودة عند الفلاحين مثل: الإكليل، القلب، الشول، النعايم، البلدة، امقويدم، المرزم، سهيل، سعد لبيب، امناهز، معرج، الخامس، السادس، السابع وغيرها. وكان الفلاحون يستعدون لمواسم الزراعة بحرث الأرض وتسميدها بالسماد العضوي من مخلفات الأبقار والأغنام لتعطي أرضهم أفضل المحاصيل، وعندما يهطل المطر ويتدفق السيل تروى الأرض، وتكفي رَيّة واحدة لكي ينبت الزرع ويأتي المحصول وافراً، نظراً لخصوبة الأرض وجودتها. وكانت لحظات الحراثة، والبذار، والزراعة، والحصاد من أجمل أيام الفلاحين، وأسعد لحظات العمر بالنسبة إليهم فترتفع أصواتهم العذبة بالغناء والأهازيج، وكانوا يرددون أشعار الحميد بن منصور، ويتغزلون بالثيران «الشرعبية» التي تجلب من شرعب في المملكة المتوكلية اليمنية، وكانوا يصفونها بالمسبعة المربعة (طولها سبعة أشبار وعرض ظهرها أربعة أشبار)، ويعتبرونها من أجود أنواع الثيران القادرة على الحراثة دون كلل أو تعب. أما الجمال والحمير، فلا تستخدم في الحرث إلا نادراً، خاصة عندما لا تتوافر الثيران في موسم الحراثة والزراعة، كي لا يفوتهم موسم زراعة القطن والذرة والجلجل.

أما أجمل الأيام والليالي، في حياتنا، وحياة هذه المناطق على الإطلاق، فهي مواسم السيول التي تتدفق هادرة من جبل وجر، كما يسمونه، وشعابه آل 360، فتنطلق بقوة، وتكسر في طريقها «الأعبار» و«المرازم» (السواقي والمصدات) المعمولة لإيصال المياه إلى الأراضي الزراعية لآل منصور، وآل حسنة، وآل زامك، وآل باجعم، وآل هديل، وآل ناصر حسين، وآل محكل، وآل السعدي وآل هادي بن صالح.

وخلال فترة الأمطار والسيول كانت تحدث أحياناً بعض الخلافات والمنازعات بين المستفيدين من الماء على حصصهم منه وعلى الأولوية في السقي، إذ كانت تؤدي هذه الخلافات إلى تبادل إطلاق النار وتبادل الطعنات

بالجنابي وإلى التشابك بالأيدي وإلى الاشتباك بكل ما تيسّر من أدوات العنف والإيذاء. وبسبب هذه النزاعات كانت مياه السيول بعد أن تتجاوز آخر أرض زراعية في أرض الحسني، وهي أرض أسرتنا المسماة «الزهرة» كانت تذهب هدراً وتصبّ في وادي الملح العميق الذي ينحدر نزولاً حتى يبلغ بحر العرب الذي يبعد عن منطقتنا جنوباً بنحو 100 كم.

وحين كانت تُروى أراضينا الزراعية التي تُسمّى «الخداد» و«السعيدية» و«الحجنة» و«الفرش» و«الزهرة» و«رشنة»، كنّا نعتبر ذلك من أجمل أيام الحياة والعمر، ومناسبة تستحق الاحتفال بها، ولكن على طريقة السكان في هذه المنطقة، أي بنحر الذبائح. الذبيحة الأولى عند دخول الماء إليها، والثانية عند بدء مواسم البذار، وثالثة عند حصاد الذرة، وتذبح الذبائح والنذور للتبرك وللحماية من الحسد، وحتى لا تصاب الأرض أو يتعرض المحصول لمكروه! وكان الأهالي راسخي الاعتقاد بمثل هذه الأمور، فإذا انكسر المحراث الخشبي يتشاءمون ويعتقدون أنّ الجنّ هم الذين اعترضوه وسبّبوا كسره، فيتركون العمل ويعودون إلى منازلهم حتى اليوم التالي. وفي هذه الحالة لا بد من ذبيحة و«فدو» (قربان). ويبدو لي أنّ أهل منطقتنا كانوا يبحثون عن أي سانحة، أو مناسبة لكي يأكلوا اللحم الذي يقدمونه في الأعراس والأفراح، كما في الأحزان والمآتم، أو عند مجيء ضيف، أو عودة مسافر، حتى لو غاب أياماً، وكذا عند ولادة طفل، أو عند ختانه، أو في أسبوعه الأول. والجدير بالذكر أنّ سكان دثينة وغيرها من المناطق يسمون كل قطعة أرض من الأراضي الزراعية باسم خاص بها، مثلما يسمون أولادهم، ولا توجد قطعة أرض في المنطقة إلا ولها اسم خاص بها، وكذلك الجبال، إذ لكل جبل أو فرع من أو شعب فيه اسم يعرف به.

يوم الربوع على قرنك وقرن أبوك!».

وكما كانوا يتشاءمون من انكسار المحراث فهم يتشاءمون ايضا وبشدة من يوم الأربعاء، والتشاؤم من يوم الاربعاء متعارف عليه في كل دثينة، وفي العواذل وكذلك عند قبائل البيضاء. فإذا مررت بشخص، أو مر بك وقلت له «يوم الربوع!» فإنه يتطير من ذلك ويرد عليك غاضباً: «**يوم الربوع على قرنك**

وقرن أبوك!». ولذلك لا يحبذون السقر أو عقد الاتفاقات التجارية وسواها من الأعمال إذا كان اليوم يوم الأربعاء.

أما في حمص السورية، وأصول أهلها من اليمن، فيوم الأربعاء – كما هو متداول – يوم الحماصنة ويوم عيد عندهم. وقد وصل اليمانيون إلى حمص مع الفتوحات الإسلامية واستقروا فيها ورفضوا التقدم نحو بقية بلاد الشام. وقد اختارت والدتي، شيخة بنت محمد، أن تكون حمص مستقرها ومأواها الأخير في هذه الدنيا ومدخلها إلى العالم الآخر، عندما وافاها الأجل عام 1996م وجرى تشييعها بحضور عدد كبير من المسؤولين في الحزب والدولة. وأنا حتى الآن لا أعرف سرّ كلمة الربوع، ولماذا يتطيَّر من ذكرها بعض الناس ويتوجسون حدوث شرّ أو مكروه لهم في هذا اليوم. ولكن يبدو لي أن حادثاً رهيباً وفظيعاً حدث في المنطقة نتجت منه مأساة كبيرة، وكان ذلك يوم أربعاء، أو ربوع كما نطلق على يوم الأربعاء. ويبدو أن الأجيال توارثت التطيُّر من يوم الأربعاء، فبقي الخوف والهلع في القلوب من تلك المأساة البعيدة، بينما نسي الناس الواقعة أو الحادثة الرهيبة نفسها.. لكن التشاؤم من يوم الربوع ظلَّ مزروعاً في الذاكرة الشعبية، تتوارثه الأجيال من الأجيال التي سبقتها. وفي محاولة للتهرب من ذكر الأربعاء، أو الربوع، الذي يتشاءمون منه، فإن الناس عندنا أخذوا يطلقون على الأربعاء (يوم امبرك) أي يوم البركة حتى يدفعون النحس عن هذا اليوم.

معلامة (كتّاب) الشيخ صالح بنيص

ما زال في ذاكرتي بعض ملامح حياتي الأولى، وخاصة رغبتي في التعلم، إذ كان الأولاد في عُمري يلتحقون بالكتّاب (المعلامة) عند العلاّمة صالح بنيص أو كما كان يطلق عليه «بوي بنيص». كان المعلم صالح بنيص رجلاً فاضلاً قيل إنه ذهب إلى حضرموت لدراسة علوم الدين وأسسّ بعد عودته أول كتّاب لتعليم الأطفال في منطقتنا امفرعة وامقوز وغيرهما من قرى المنطقة. وكانت الكتاتيبُ مؤسسات التعليم الوحيدة المتاحة في دثينة، ولم تفتح المدارس النظامية الحديثة في دثينة إلا في بداية الخمسينيات من القرن الماضي. وكانت هذه الكتاتيب تعلِّم القراءة والكتابة وتحفِّظ القرآن

الكريم، وتعلِّم الأطفال أصول الصلاة والصوم والوضوء ونواقضه، وقد تعلم إخواني فيها جميعاً، ولم تُتَح لهم فرصة المتابعة، حيث التحق الأكبر سناً منهم بالخدمة العسكرية في جيش «الليوي» و«شبرد» في عدن، وبعضهم اشتغل بحراثة الأرض. ولم يكن ذلك مما يناسبني ويناسب طموحي، حتى في تلك السنّ المبكرة. ولكن بعد هذا الحرمان الطويل من التعليم أصبح في بيتنا اليوم أكثر من خمسةٍ وثلاثين خريجاً من البنين والبنات من أبناء إخواني وهذا من ثمار الثورة التي لم تكن متوافرة في زمن الاحتلال.

أخيراً، حان الوقت الذي دخلت فيه باب المدرسة، وحلّ معه شعور جميل بأنّ عليّ أن أدرس وأن أتفوّق. ولا أدري كيف ارتبطت عندي، في ذلك الوقت المبكر، فكرة الدراسة بالعمل، ولا كيف أنّ التحصيل والمواظبة كفيلان بضمان مستقبل طيب لي، وبما يساعد أسرتي على تجاوز شظف العيش.

التحقتُ مع عدد من أترابي من أبناء قريتنا وبعض القرى الأخرى بمدرسة أحور، وكان يشرف عليها السيد علي المشهور، وكانت تابعة لحكومة معارف عدن، ومن بين الذين التحقوا معي خلال الفترة ذاتها عبد الله أحمد علي من (ناعب) وعبد الله محمد الهيثمي من (كبران) وعبد الله حسين درامة ومحمد حسين درامة من (امقوز) وحسن علي الصغير من (عدن)، وقد سُمِّي بعد ذلك أثناء حرب التحرير باسمه الحركي (بدر)، واستُشهد في 14 مايو 1968م، وفضل محسن[1] وعبد الله محسن الطويل وسواهم.

وكانت مناهج المدرسة هي تلك المعتمدة في مستعمرة عدن، وكان التركيز فيها على مادتي اللغة العربية والدِّين اللتين يوليهما السيد علي اهتماماً خاصاً. وكان هذا من أجمل ما حملته ذاكرتي عن الأيام الأولى للدراسة. لقد أحسستُ منذ اليوم الدراسي الأول بجدية المسار الذي أقطعه، وصار حلمي الجديد أن أكون مدرساً مثل هؤلاء الذين يقفون إزائي، بقاماتهم العالية، أمام اللوح (السبورة) وهم - كما بدا لي - يعرفون كل شيء ولا تخفى عليهم خافية. ولأن المناهج في مثل تلك المدارس كانت متطورة آنذاك، ولأن

1- أصبح فضل محسن مدير مراجعة الحسابات في عدن.

مدرسة مودية كانت تفتقر إلى مدرسين، فقد عدتُ إلى قريتنا بعد أن أنهيتُ الابتدائية في مدرسة أحور، والتحقت مدرساً بمدرسة مودية، وكنتُ أدرِّس التلاميذ، وفي الوقت ذاته أواصل منهج دراستي المتوسطة ثم معهد دار المعلمين بكريتر عدن.

كانت المصاعب أكبر من أحلام صبي بعمري. الحاجة تطوّق خناق الأسرة والأشقاء، ولا تسمح لمثلي بأن يواصل دراسته، مع أنّ تكاليف الدراسة من ملابس وكتب وقرطاسية وما إليها لم تكن مرتفعة. لكن حالفني الحظ بأن انخرط شقيقاي أحمد وعوض في جيش الليوي في عدن، و شقيقي صلاح في الحرس الاتحادي، وكان مرتّبه الأفضل، فخصَّني برعايته الاستثنائية وتكفل ببقائي على مقاعد الدراسة، وقد أخذ على عاتقه مساعدة العائلة بصورة عامة، وهذا ما ضاعف شعوري الدفين بالمسؤولية.

وبعد هذا الحديث عن سِنين دراستي الأولى، سأتحدث عن رحلتنا في الطريق إلى عدن ودراستي لاحقاً فيها.

الفصل الثاني:

بداية الرحلة

وأخيراً...

أخيراً، نجحتُ في إقناع الجميع، وعلى رأسهم الوالد ناصر محمد، بالسفر إلى عدن لمسافة 209 كم، وحينها كانت السيارات تأتي من عدن إلى دثينة وإلى قريتنا، ولم يكن مفهوماً من وجهة نظر الوالد سفري على الأقدام والجمال، ولكن تحققت لي أمنية في هذه الرحلة، وهو ما سنتحدث عنه في هذا الكتاب.

وبدأت استعداداتنا للسفر.

انطلقنا من قريتنا[1] بُعيد صلاة الفجر، مع يقظة الجميع، فالجميع هنا: الرجال، النساء، الأطفال، الجمال، الغنم والطيور ينطلق مع الأذان الأول، ولا مكان للكسالى، إذ لا نوم بعد صياح الديك[2] و«صلاة» الصبح، ولا أتذكر أن أحداً كان ينام بعد شروق الشمس، فبعد انقشاع الظلام الذي يلفّ البلاد والعباد يجب أن يبدأ الكل بالحركة، وكلهم لرزقهم يسعون.

فيما كنّا نغادر القرية، رأينا عدداً من النسوة على حافة بئر قريتنا «عماصير» وهنّ يسحبن الماء من أعماق البئر بالدلاء المصنوعة من الجلد، وحول البئر عددٌ من الحمير والجمال المحمّلة الماء، تتهيأ للعودة إلى القرى والمناطق التي جاءت منها، وبعضها يبعد مسيرة يوم كامل وربما أكثر. كانت «عماصير»

1- قرية الفرعة: تبعد نحو200 متر عن قرية امقوز، ويفصل بينهما وادي وجر.

2- كان صياح الديكة حينها الساعة المنبّهة الوحيدة.

المبنية من أسفلها إلى أعلاها بالحجارة والصخور المرصوفة بإحكام، محفورة في سفح جبل القاهرة ليس بعيداً عن وادي وجر، وقد حفرت بكاملها في جسم الجبل ذي الصخور الرمادية المائلة إلى الاخضرار. كانت هذه البئر من القِدم بحيث لا يُعرف من حفرها ومتى حُفرت. الناس هنا يقولون إن «الكفر» هم من حفرها. وصفة الكفر في الوعي الشعبي البسيط تعني الأقوام الذين عاشوا قبل الإسلام. البعض يقول إنّ من حفرها بنو «غسان»، والأرجح أنهم الأوسانيون.

الدلو

كانت «عماصير»، كما يؤكد كبار السنّ، البئر الوحيدة في المنطقة كلها، وكان الناس يأتون إليها للسقي من مناطق تبعد مسيرة اليوم واليومين، وقد قال أحد الشعراء فيها:

يـا عماصير مـال أهـلـش كمل بختهم
ماتوا من الغبن حما يبصرون الوريدة
هـــادي عـلـي يـا ريـتـنـي عـنـدهـم
ولا محلة معاهم رأس تـاك امحديدة

أي إن أهل «عماصير» يموتون من الحسرة كل يوم وهم يتأملون أجمل الفتيات الفاتنات اللواتي يأتين من كل المناطق للسقي من بئرهم.

وقد أرّخ الشاعر ناصر عوض فرحان لهذه البئر قبل ثلاثمئة سنة عندما ضاعت بعض الدواب لأهل مودية وجاؤوا يبحثون عنها إلى امفرعة، وكانت

الضباع قد افترست الدوابّ بين الأشجار الكثيفة التي كانت موجودة بين امقوز ومودية وكانت مليئة بأشجار (الصرح) التي تستخدم في سقف المباني لقوتها واستقامتها. ويؤكد الأهالي أنّ بعض الحُصون، ومنها حُصن جدنا سليمان محمد، جُلبت كل الأخشاب المستخدمة في سقوفها من أشجار هذه المنطقة التي كانت لا تخلو من الحيوانات المفترسة، كما يقول كبار السنّ نقلاً عمّن سبقهم من آبائهم وأجدادهم. تقول القصة إن دوابّ أهل مودية لم تبقَ منها إلا دابة واحدة وصلت إلى القرية. وعندما جاء أهل مودية يسألون عن دوابهم، وكان بينهم شخص اسمه ابن قاسم علي، وجدوا أهل امفرعة في رقص ولهو بإحدى المناسبات، وقد قال الشاعر ناصر عوض فرحان شعراً عندما رأهم وعرف غرضهم من المجيء:

حمير بـر قـاسـم علي ضاعين وامـدبـة
معانا لا متى يـا مـوديـة بـا تشربوا مأنا

وهذا يعني أنّ أهل مودية كانوا يشربون من بئر «عماصير» في تلك الفترة.

وكان لهذه البئر نبعان، أحدهما ينبع من جهة الجبل الذي يحتضن القرية، وماؤه يميل إلى الملوحة وطعمه غير مستساغ، وكان هذا النبع يُسَدّ بإحكام بما تيسّر من الجلود والخرق والحجارة حتى لا يفسد المياه العذبة التي تتدفق من العين الأخرى التي ينبع ماؤها من جهة الوادي.

ويُذكَر أنّ الشاعر فرحان كان يتاجر على حماره بين أرض آل حسنة والمياسر في مودية، وفي إحدى المرات أخذ «سييرا» (مرافقاً) يحميه، وفي الطريق هجمت عليهما مجموعة من اللصوص وقطاع الطرق وأخذوا الحمار والبضاعة ولم يحمِه أو يدافع عنه مرافقه الذي كان مسلحاً، وكان من قرية تُسمّى أورمة، فقال حينها:

أورمـــــة لاتجيهازكـــنـــك مـــكـــنـــك
مقصور محجور وإلا بـا تـبـان الخبية
خـــذت سيير مـــن عصبة تـشـب البلا
واتقاطبوني طرف موقط[1] جناح العشية

1- موقط: جبل في منطقة آل وليد، ويكنون بآل مجرب.

لا عـد نفعني ولا نـاعـاد عنته بشي
الله يصيبش مصيبة يا الـعـروق الوشية
يـا حـبـال امـعـزف مـا عـاد بـاشـد بش
با تقطعي بي قطع بش في الخبوت الخلية
قـال فـرحـان مـن حـانـق علي يشتحن
يشد كوكب على جنبه بـشـتـرة[1] قوية

1 – ناصر عوض فرحان

انطلقنا إذاً، و ليس معنا حارس أو «سيير» كما كان لفرحان، فقد كان معنا سلاحنا الذي سنحتمي به للدفاع عن أنفسنا، وكانت قلعة «نوبة القاهرة» تراقبنا ونحن نبتعد رويداً رويداً عن القرية وكأني بها ترفض أن تودعنا وتفارقنا وتشفق علينا من عناء السفر ووعثاء الطريق. رحلنا إذاً وتمايلت جمالنا في سيرها كما تتمايل السفن العظيمة في لجة المحيط. سرنا لا نالو على شيء وهدفنا مدينة السحر والخيال وبندر الشواطئ، عدن. سلمنا أنفسنا لجمالنا القوية وجمّالتنا المحنكين.

للجمل والجمّال سلّمنا قيادنا.

ولا أحد يعرف الطريق إلى عدن أكثر من الجمل والجمّال.

1- شترة: تعني الحبل.

2 – الجمل والجمَّال

كان قائد رحلتنا جملاً طاعناً مجرباً، يعرف هذه الدروب الوعرة، ويحفظ هذه المسالك عن ظهر قلب، وخريطة الطريق بكل تفاصيلها مرسومة على باطن أخفافه، لكثرة ما سلك هذه الطرق. وكانت معنا بعض الجمال الأخرى، وبعض الجمّالين والمرافقين الذين يعرفون بدورهم الطريق خطوة خطوة، وقرية قرية، وجبلاً جبلاً.

3 – أحمد مسعود برطم

كان أحمد مسعود برطم، أو «العصار» – كما يُدعى – قائد الرحلة، وكان صاحبَ الجمل الطاعن المجرب، وكان يعرف الكثير، وفيه بعض من صفات الجمل، كالصبر والقدرة على تحمُّل الصعاب، وإن كان – على خلاف جمله – ذا طبيعة مشاكسة وروح ساخرة، وكان يثق بجمله هذا الذي يحفظ الطريق بكل

ما فيها من جبال وسهول ورمال ومنعطفات ومنحدرات ثقة عمياء، ولا يشك في قدرته على تذكر الطريق وتفاصيله مهما كان الوقت ليلاً أو نهاراً.

كان الجمل رسول القرية إلى عدن وبالعكس. يحمل منها وإليها الناس المسافرين المغادرين والعائدين الرسائل والملابس، والمآكل والهدايا، وكانت فرحة قريتنا لا تعادلها فرحة عندما تعود قوافل الجمال من عدن، محملةً أجملَ الهدايا وأسعد الأخبار. لذلك، فإنّ الجمل والجمّال يدخلان كثيراً في نسيج الخيال والشعر الشعبي، يوم كان الجمل وسيلة المواصلات الوحيدة قبل أن تنتزع منه السيارة هذه المكانة، ويصبح جزءاً من التاريخ أو الموروث. أما في الزمن الذي أتحدث عنه، فكان الجمل لا يزال يقاوم هذا الغزو الحضاري، وكانت لا تزال له مكانة أثيرة.

قال الإمام علي كرّم الله وجهه عن الإبل: أُطْلُبُوا الخَيَر فِي َخْفَافِ الإِبِل طَارِدَةً وَوَارِدَةً.

والمراد هنا: اطلبوا الخير من الله تعإلى بالدعاء حينما تبرك الإبل وتلقى أثقالها، أن يجلب لكم الخير أو بالتصدق ممّا جاءت به الإبل، وهكذا إذا كان معنى (طاردة) هو (الذاهبة) وذلك بالدعاء حين رواحها أيضاً.

رويداً رويداً، أخذت قريتا امفرعة وامقوز والقرى المجاورة تختفي عن أنظارنا، ولم يبقَ لنا منها سوى دعوات الوالدين ورعاية الله.

كل شيء جميل وبسيط في تلك القرى، الناس متحابون ومتعاونون في السراء والضراء، في الأحزان والأفراح، ولا همَّ لديهم إلا المطر والزراعة والحصاد، ولا سيما بعد توقف حروب القبائل[1]، والاهتمام بالمراعي للأغنام والأبقار والإبل. وفي دثينة أراضٍ مشاعة لا يسمح بالدخول إليها بالمواشي إلا في يوم واحد يحدده رؤساء القبائل، وأكثر الرعاة هم من النساء بسبب انشغال الرجال بالحروب والزراعة والسفر إلى بندر عدن، وتُعَدّ لحوم الأغنام في دثينة وما جاورها من أجود اللحوم في المنطقة بسبب المراعي، حيث تشمّ أحياناً رائحة الأشجار والأعشاب في الحليب واللحم.

1- استمرت الحرب بين قبيلتي أهل حسنة والمياسر عشرات السنين، وسُمِّيت ببلاء شمعة (مفصلة في مكان آخر من هذا الكتاب).

قصص وحكايات

كان رفقاء الرحلة يعرفون أنّ الطريق الطويلة لا يقطعها سوى الأديث والقصص والحكايات والغناء الشعبي. هذه هي القاعدة المهمة، فكانوا يضحكون ويغنون، ويمرحون، ويرقصون أحياناً، كما هي عادة قوافل السير. وكان المزمار[1] أو «المدراهة» (الشبَّابة)، كما يسميها أهل دثينة، والطبل من لوازم التسلية الضرورية لمثل هذه الظروف، حيث لم يكن راديو «الترانزستور» قد انتشر بعد. وكنتُ بقدر ما أستمتع بصوت المزمار، وقرع الطبول، وبأصوات الغناء، وحركات الرقص، أشارك فيها أحياناً. إلا أنّ متعتي الحقيقية كانت في تتبُّع الأحاديث التي تتعرض لشتى أنواع الحياة على الأرض: الجبال، القبائل، العادات والتقاليد والثأر، الشجاعة والشهامة والكرم، والبحر والشمس، والنجوم وحركة السير. وكنت في سِنّي تلك، أتلقف كل شيء بانبهار، وبمزيد من الفضول لمعرفة الأكثر.

أحياناً كانت قافلتنا تقف لثوانٍ قليلة، لتقرأ الفاتحة على روح المرحوم فلان الذي قُتل في هذا الموقع أو ذاك، وتدلّ على ذلك أكوام الحجارة التي وُضعت مكان مقتله تخليداً لذكراه. ويُسمّى كوم الحجارة هذا «المشهد». وكانت العادة أن يضع كل من يمرّ قرب هذا «المشهد» حصاةً أو حجراً صغيراً، ويُفضل أن يكون حجراً أبيض ويقرأ الفاتحة على روح المرحوم[2].

كان رفقاء الرحلة، كرماء معي إلى أبعد الحدود، فقد كانوا يُرضون فضولي باستمرار، ويجيبون عن أسئلتي عن أسباب هذه الظاهرة أو تلك. ولم يكونوا يرفضون، أو يترددون في الردّ على أسئلتي الكثيرة والملحاحة، وكانت كل معلومة تضيف إلى معارفي ومداركي حقائق جديدة وخبرات إضافية.

سألتُ العمّ سليمان عوض: لمن هذا «المشهد»؟

أجاب: عادك[3] با تشوف الكثير ولازم تقرأ عليهم الفاتحة.

ثم سألتهُ: على أيش قُتلوا؟

1- المزمار يُصنَع من عظمتي جناحي النسر المجوفتين.

2- يسمونه في مناطق أخرى من أبين «مدعة»، أي كومة من الصخور.

3- عادك با تشوف: ستعتاد أن ترى.

أجاب: يا أما على العِرْض، كما حصل في حرب شمعة وفي حروب أخرى، أو على الأرض أو بسبب كلمة أو شتيمة.

سألتُ: هل القبائل كلهم متقاتلون؟

أجاب: معظمهم. أنا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب.

قلت له: أممكن أن تعطينا فكرة عن القبائل والحروب؟

قال: إيه يا بوك، ولكن باجيب لك الذي أعرفه والذي أذكره، لأن الناس تعبت وتدمرت بسبب الحروب بين القبائل حتى دخول الإنكليز إلى بلادنا لوقف هذه الحروب لتحقيق مصالح البريطانيين في هذه المنطقة وغيرها من المناطق شرق دثينة إلى شبوة وحضرموت والمهرة.

وكانت ملاحظة العمّ سليمان عوض المدخل إلى النزاعات والحروب التي شهدتها المنطقة.

نزاعات وحروب

شهدت دثينة الكثير من الحروب والنزاعات بين قبائلها. بعضها على الأرض، وبعضها على العِرْض، وأغلبها لأسباب تبدو تافهة قد تكون بسبب حجر أزيح من مكانه باعتباره حداً فاصلاً بين أرضين زراعيتين متجاورتين، أو على من يسقي أرضه أولاً في مواسم المطر، أو على بقرة دخلت في مرعى غير مخصص للرعي، أو على كسر قرن ثور، أو قطع لسان ماشية، أو على عبور الزرع قبل حصاده، أو على قصّ «نطاق» يهودي، أو على كلمة بذيئة من رجل لامرأة، أو العكس كأن تقول له: «أنت فدوي أو فداء على رجلي»، ولا يمحو هذا العار إلا قطع أنف المرأة، أو على كلمة يقولها رجل لرجل يعدّها معيبة بحقه أو بحق القبيلة التي ينتمي إليها. المهم أن المشاعر دوماً مستنفرة، والأعصاب مشدودة، والسلاح حاضر، والأيدي على الزناد، والويل لمن تفوّه بكلمة أو قام بفعل لا يرضى عنه الآخر. فحياة الإنسان ليس لها ثمن بسبب الفقر والجوع والجهل أو العزة والحمية والعصبية، وهو بموته لا يفقد شيئاً.

يبدو لي – وهذا ما وعيته فيما بعد – أن جذور العنف والكبرياء في الشخصية اليمنية شيءٌ موروث منذ قديم الزمان. وعموماً فإنّ التاريخ الإنساني

قديماً وحديثاً مليءٌ بالحروب والمجازر البشرية التي راح ضحيتها الملايين. والتاريخ العربي، سواء الجاهلي منه أو الإسلامي، ليس بمنأى عن ذلك. فحرب داحس والغبراء التي استمرت أربعين سنة تقريباً كان سببَ نشوبها سباق بين فرسين، وأيضاً حرب البسوس، ولا ننسى أنها كانت بسبب البسوس بنت منقذ التميمية. أما الحروب في العصر الإسلامي بين أهل الإسلام أنفسهم، فحدث ولا حرج، كموقعة الجمل، والحرب بين جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وجيوش معاوية بن أبي سفيان، والحرب بين الأمويين والعباسيين، والتنكيل المتبادل بينهما إلى آخر ما هنالك من حروب، وكلها تؤكد هذه الطبيعة البشرية.. وإذا عرفنا كم حصدت الحربان العالميتان الأولى والثانية من أرواح، ودمرتا من مدن، ومن طاقات، لأدركنا جذور العنف في النفس البشرية منذ أيام قابيل وهابيل. ولا ننسَى أنّ الأطماع والمصالح كانت دائماً محركاً رئيساً للصراعات والنزاعات البشرية، سواء بالنسبة إلى الأفراد، أو الدول.

أما عندنا في دثينة، فقد دارت حروب بسبب الأرض والعِرْض لأنّ كرامة الإنسان وحياته مرتبطتان بالأرض التي تنتج الخيرات وتحقق له الحياة الكريمة، وبالمرأة التي تُنجب البنين والبنات، وهي شيء مقدَّس يرتبط بالعزة والكرامة والشرف، ويجب عدم المساس بها وبأهلها وبعشيرتها وقبيلتها، وقد دارت على أرضنا واحدة من الحروب الأسطورية التي لا تصدق، وكان ذلك بسبب امرأة اسمها (شمعة)، وعُرِفَت تلك الحرب بـ (حرب شمعة) أو «بلاء شمعة»، وقد دارت رحاها بين قبائل أهل حسنة وقبائل المياسر، ولم تتوقف إلا بعد أكثر من خمسين عاماً بعد دخول البريطانيين لدثينة كما أشرنا آنفاً.

«بلاء شمعة»[1] – (1896 – 1945)

يُقال إن دثينة تستأثر دون غيرها من المناطق بنصيب وافر من أدب التراث القصصي والشعري الذي يشكل جزءاً مهماً من حياة السكان وأعرافهم وتقاليدهم، وعُرفت قبائلها بالكرم والشجاعة وحب القتال للدفاع عن الأرض والعِرْض والشرف، وقد جسّدت قصة العشق التي سنتناولها واحدة من أهم ملاحم التراث، وأهميتها تكمن في ما تحمله من

1- البلاء معناه ذروة الحرب.

مضمون يقربها من الحقيقة ويبعدها عن الخيال الأسطوري، وقد تناولها الشعراء في مساجلاتهم الشعرية، وحرصتُ على سرد وقائع (حرب شمعة) هذه وتفاصيلها بين المياسر وأهل حسنة كما وردت على لسان راويها أحمد مسعود برطم، وبكلماته ولهجته وطريقته في السرد لزيادة المتعة عند القارئ، وبهذه اللهجة أوردها المستشرق كوم رولاند بريج ROLAND BRIGE (COM) الذي سمّى نفسه عمر السويدي في كتاب سمّاه «بلاء شمعة» عام 1905م. وقد زخر الكتاب بطائفة من المفردات والجمل والعبارات بلغة ذلك الزمان، وكانت الحرب تلك قد بدأت قبل صدور الكتاب بعشر سنوات، واستمرت بعد صدوره وانتهاء مهمة هذا المستشرق، حتى العقد الرابع أو الخامس من القرن العشرين، ولكن ربما ضمن مظاهر وتجليات أخرى لها صلة بنعرات الثأر والانتقام كنتيجة لقضية أو بلاء شمعة، وقد أسهمت هذه الحرب في إضعاف القبائل مما أدى الى دخول القوات البريطانية الى دثينة.

وسيلاحظ القارئ بعض الغموض في معاني الكلمات وكثرة التفاصيل وعدم اتساقها، وكذلك كثرة الأسماء وازدحام الحوادث والأحداث التي زخرت بها تلك الحرب التي ضغط عمنا أحمد مسعود روايتها في حيِّز ضيِّق جداً أرى أنه بحاجة إلى توضيح أكثر على الأقل في ما يتعلق بأصل الحكاية التي كانت السبب في هذه الحرب الطويلة المدى، وبأقل كلمات ممكنة يمكن تلخيص القصة على النحو الآتي:

كانت شمعة امرأة متزوجة شيخاً ينتمي إلى قبيلة المياسر، وكان شاب من آل الحسني على صلة وثيقة بالزوج. لكن طيش الشباب وفتنة النساء لعبا لعبتهما في نسج أحداث هذه القصة. فقد كان المنحوس الحسني في ربيع شبابه وعنفوانه، وكانت شمعة جالبة النحس في ريعان جمالها. وبقليل من مساعدة الشيطان لم يجد الشاب صعوبة كبيرة في إغرائها بالهرب معه من بيت زوجها والزواج به، ولم تمانع شمعة، وقبلت عرضه بالهرب معه بكل جرأة وشجاعة. واتفقا على كل شيء وحددا موعداً لذلك.

وفي الحكاية الشعبية يقال إنّ الشابّ عمل للمرأة سحراً أحضره من أحد الشيوخ، هو عبارة عن ورقة مكتوبة أذاب مدادها في زيت، وجاء به إليها لتدهن

به رأسها حتى تلبي طلبه وتصحبه في الهرب إلى حيث يشاء. المهم أنها وافقت على الهرب معه، سواء بسبب مفعول الزيت السحري أو مفعول الحب.

كان الموعد بينهما قد حُدِّد عند شجرة العلب (شجرة سدر) في وقت معلوم، وهناك التقيا، ومن هناك أخذها معه إلى بيت خاله الذي رفض قبولهما عنده ونصحهما بالإقلاع عن هذه الفعلة الحمقاء.

بعد ذلك عقد العزم على التمسك بها وعدم التخلي عنها أو عن اتفاقهما الأول، فأخذها إلى بيت صهره الذي قبل بهما عنده مرحباً. ولكنه لم يدخل عليها الا بعد أن طلقها زوجها وتزوجها هو بعد ذلك. وهكذا اندلعت شرارة المعارك التي تحولت إلى حرب بين المياسر وأهل حسنة، واستمرت – كما يقال – أكثر من خمسين سنة، أخذت خلالها الأشعار الشعبية مدىً فسيحاً عبر السنين، معبِّرة عن معارك هذه الحرب ووقائعها التي تذكرنا – برغم الفروق في التفاصيل والأسباب والدواعي – بحرب البسوس بين بكر وتغلب، كما ترد تفاصيلها والأشعار التي قيلت فيها بكتاب **الأغاني** لأبي فرج الأصفهاني، أو بحروب طروادة التي كانت بسبب هيلانة مع عشيقها اليوناني.

وهكذا استمرت الحرب بين أهل حسنة والمياسر، وقد قُتل الكثير فيها، وخربت الأرض الزراعية وأُهملت من الحرث. وقد شهدت هذه الحرب كثيراً من المكائد والمؤامرات، وعندما طالت أرسل هادي علي رسولاً إلى مودية وأوصاه بأن يقول بيتاً من الشعر في احتفال يُقام ثاني أيام العيد عند آل عشال، والشاعر من قرية القوز يقال له ابن مطهر، وصل الشاعر إلى الحفل الذي يسمى المحف، ودخل وقال:

يـا مـوديـة يـا حـيـد مـران الـعـسـر[1]
سـالـت سـيـول الـكـور لا بحر العرب
حـــروا مـعـاقـمـهـا تـصـون أبـدانـهـا
يـا الـكـبـر الـشـعـبـان عـكـفـان الـرجـب

وفهم امهيثمي ابن الخضر القصد وأجاب:

1- العسر تعني الصعب.

مـانـا معي منشار لا الـشـاقـي سـرح[1]
يصبح يـنـذّق بالخشب فـوق الخشب
وش بـايـجـر الـمِـيـح ذي مـالـه طـرف
عـاده سقط في البحر من حيث النشب

ورجع الشاعر بن مطهر إلى الشيخ هادي علي، وقال له: شفه يقول عادكم بادئين الحرب رغم مضي عقود على هذه الحرب.

واستمرت مع حرب البنادق والرصاص حرب أخرى لا تقلّ عنها ضراوة وشراسة، ألا وهي حرب الشعر والقوافي، وفي هذه الحرب شاركت النساء أيضاً حيث ردّت أم محمد وناصر امشيبة على الشاعر ابن رامي علي حين قال:

الـيـوم يـا شـمـعـة شـعـي شـوّاعـتـش
ظلت عُكفهم[2] فـوق عـيـدان النعوش
لّا كـان قـرّيـتـي بـحـصـن امهيثمي
يصرف عليش الوعل عـدات القروش

وقد ردّت عليه أم محمد وناصر امشيبة بلسان شمعة بقولها:

يـا العبد يـا ابـن العبد يـا ابـن الجارية
يـا مـا قُـبـل تُقتـل ومـا تُقتـل طهوش
مـرّان بـا يُـحـرب وثُـوعـة حاربـة
وأهـل الكراسي فـي مطارحكم تُهوش

وكان الشاعر امسعيدي قد مارس دوراً في الفتنة عندما بدأ يهاجم صالح امبدر والد شمعة بقوله:

صـالـح امـبـدر لـك هـذه ولـك مثلها
يا شاعر الهِيف شع بنتك محجّب بذوبة

1- سرح: أي خرج في الصباح.
2- شعرهم

يـا بِـر عـشـال يـا كـابـر عِـلـه كلها
ما يخرجـك كان لا كـُلّن تكفّن بثوبـه
يا امصالية في امجبلة تصلّوا غبش[1]
الظهر والعصر كلّن منّكم شـلّ كوبـة
صـابـك الـلـه يـا الشامخ لبيس العجي
كتّيت مـرّان مـن رأسـه لأسفل شعوبه

وردّ عليه صالح امبدر بقوله:

قـال بـر بـدر لا بنتي قصر شـرعها
يا ما نساوين تعمِـد من قفاهـن مصوبـه
قـال بـر بـدر جتنا أبـيـات لبر امسعيدي
واختجلنـا ولكـن الخضـر مد ثوبـه
خـذت سـالـم ومشبح وبـر عبد الولي
طعِمتهم مثل ما طعم العسـل من طنوبـه
قـال بـر بـدر مـا أنـا شـي قبيلي دلـي
قد خذت الأوعال ذي في الفج محمي دروبه
يـا عـمـر حـنّـت الـغـدرة وخـيّـل لهـا
من حيد مرّان للكنديـل إلى حيد ذوبـة

4 – قرية ذوبة

1- الصبح

واستمراراً للمساجلات الشعرية قال الشاعر والعاقل بن بدر:

حمبلي ضـرب سـاعـة مـن ثنعشر مية
وش بَاله المال يا أهل المال ذي تكسبونه
قـل لعمـك علي يـا امجعلي بـر عوض
عاد البـلاء لاح برّاقة وتُرخـي مزونـه
لا تـجـرجـر[1] ونحن عـاد شـي جرجرة
رع من قتـل يحفروا لحده وبا يقبرونـه
والفسـالة[2] شـعوها لا القبيلي فسـل
ما عاد في مجلـس الناموس با يحسـبونه
يـا لويمـاه دي لـوّم بكـم سـعفكم
ناصر علي ذي يسي المنكر ولا تنكرونـه
حن يا القلب ما أحسن قتل حال العرب
وما أحسن الحب يا أهل الحب ذي تسعرونه

ومن القصائد التي اشتهرت:

يـا خـزيـن الـبـنـادق وش معش مـن خبر
با تخبّرش من حسين امجعلي وبر هادي
ليش بـا احسـب بقر مـا بـا تـوقـف لنـا
ما بحسب إلا إن كان دي يصبح يضامد عنادي

وبعد الانتهاء من الحديث عن حرب شمعة، قال أحمد مسعود: اقرأوا الفاتحة على روحهما.

المجعلي والهيثمي بن الخضر

وبعد أن توقف برطم، تحدث العم سليمان عن هذه الحرب وقال:
في إحدى المعارك التي كانت تدور بين آل حسنة والمياسر، وكانت

1- تكلم كثيرا
2- الجبن من الجبانة

الأسلحة المستخدمة فيها بدائية ومتواضعة – بندق أبو «ذبالة» (فتيل)، وكانوا عندما يتواجهون في الاراضي الزراعية الواقعة بين القبيلتين يتخذون من «أسوامها» (حواجزها) متاريس لهم، وكانت المسافة الفاصلة بين المتقاتلين لا تزيد أحياناً على 200 متر، وكان كل طرف يسمع أصوات الطرف الآخر، فقال امهيثمي ابن الخضر لهادي علي: إذا مرض المريض اش تعملوا له ياهادي؟ ردّ عليه: نكويه بمخيط (إبرة كبيرة). فقال امهيثمي: والله العظيم لا أكويك «بذنب» (مقبض) مقلى. وسكت الجميع.

وكان يسكن لدى القبائل المتقاتلة أناس لا يشاركون فيها يسمونهم «الرباعة» (أشخاص يحظون بحماية القبائل). وكان من هؤلاء شخص من «رباعة» هادي علي استطاع امهيثمي ابن الخضر إغراءه بالمال للعمل لديه جاسوساً يبلغه بتحركات خصومه، ومنهم ابن المجعلي، وهو من أبرز شيوخ قبيلة آل منصور. من خلال هذا المخبر عرف امهيثمي ابن الخضر أن ابن المجعلي مسافر إلى عدن ثم إلى لحج للحصول على دعم من سلطانها الذي كان يمنح القبائل التي تزوره الرصاص والبنادق. فرسم امهيثمي خطة ومكيدة للإيقاع به، فسافر إلى لحج مستبقاً وصول ابن المجعلي إليها، وبدأ بالتخطيط والتنفيذ لخطة الانتقام، إذ اتفق مع إحدى النسوة من فئة الأحجور (فئة من السمر يعملون في الزراعة) وكانت ممن يؤجرن «العشش» (غرف مصنوعة من القش للمسافرين القادمين إلى السلطنة اللحجية للاستراحة والإقامة خلال وجودهم هناك لقضاء أعمالهم مقابل مبلغ 50 ريالاً ماريا تريزا على الاشتراك في مؤامرة حُبكت تفاصيلها بخبث ودهاء للإيقاع بأبن المجعلي. أخبر امهيثمي شريكته في المؤامرة أن ابن المجعلي سيأتي إلى لحج في اليوم التالي، وغالبا سينزل في «العشة» المجاورة لها، والمطلوب منها أن تراقب وصوله، وقبل أن يفتح باب العشة عليها أن تكلم ابنتها بصوت عالٍ يسمعه الجميع ولا سيما المجعلي، وتقول لها: قومي اعملي لنا قهوة لك «الخزوة» (الخزي والعار) كما خزوة ابن المجعلي الذي «يجري بعد» (يغازل) «حجريات» لحج وزوجته تخونه مع عوض بن علي هادي في جول امقليتة.

وأثناء دخول المجعلي قالت المرأة ذلك الكلام بصوت عالٍ وسمعها

المجعلي وعاد أدراجه ولم يدخل البيت وركب «البحري» (الجمل) وعاد على أثره إلى قريته.

وبعد وصوله إلى منطقته، وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى عوض بن علي الذي استنكر عودته السريعة وسأله عن سبب ذلك، غير أنه باغته بضربة من رمحه ألقته صريعاً فنشبت الفتنة داخل القرية وداخل القبيلة بين آل علي هادي وآل المجعلي. قتذكر هادي علي قول امهيثمي بن الخضر له إنه سيكويه بمخيط فقال: لم يكوني بـ«مخيط» ولكنه كواني «بسحب» (محراث). وقد طالت الحرب بينهم لفترة من الزمن. وهذا يدل على دهاء الأوائل في الانتقام من الأعداء.

وواصل قصته بالحديث عن:

حرب آل صالح مع آل فرج وأسبابها (قبل 200 سنة)

أسباب هذه الحرب وتفاصيلها مجهولة لكون الأمية كان سائدةً ولا أحد يهتمّ بالكتابة والتدوين. لكن ما يتناقله الناس، أنّ أمطاراً غزيرة هطلت أدت إلى نشوب مشاكل بين قبيلة آل قنان وآل صالح، وحاول آل صالح طرد آل قنان من بلادهم، فلجأوا إلى آل فرج لطلب العون، الذين أرسلوا المقاتلين إلى حصون آل قنان لحمايتها، ما دفع آل صالح إلى المواجهة، فقتل من قتل من الطرفين، منهم «عمر امبريهم» من آل صالح، والخضر بن حسين عشال جد حسين عثمان، ويلقّب بالطميري. واستمرت الحرب سجالاً بين القبيلتين حتى منتصف القرن آل 20، ووقع بين الطرفين صلح في الثلاثينيات، وأثناء الصلح التقى الخضر محمد عبد الله الصالحي في عدن بأحمد النينوه، وخرجا رفقة طريق، وفي جبل العرقوب غدر النينوه بالخضر محمد فقتله وهرب، ونشبت الحرب مرة أخرى. وبعد عشر سنوات وقع الصلح، وفي أثنائه قتل (شيخ عبد الله العاقل) في مسكنه غدراً وهو نائم في فراشه في الدور الثالث من حصن أبيه الشيخ عبد الله محمد الصالحي، ونشبت الحرب من جديد وخربت الأرض والزراعة، ورفض الشيخ الصالحي أي صلح آخر بعد كسر الصلح مرتين. بعدها لجأ آل فرج إلى السلطان صالح بن عبد الله الفضلي ليطلب صلحاً، وهم يعرفون أن الفضلي إذا لم يحصل على الصلح سيعاقب آل صالح بمنعهم من الدخول إلى عدن عبر أراضيه، وكانت عدن تُعَدّ السوق الرئيس للجنوب ككل. وبالفعل وصل السلطان ومعه

نحو ثلاثمئة فرد من قبائله، وأثناء وصوله كالعادة أقاموا له استقبالاً، وقد تقدم شاعر أهل صالح علي رامي مخاطباً السلطان وهو يقول:

يا الشافعي[1] تـذراء حصم في حيد صم
ما شي حصم ينبت على جنب امصفاه
بعد الخضر وامقبر ذي بيـن املصـم
مرصـم بمرصـم ما جـرى يجري قفاه

ومعنى هذين البيتين أنّ قبيلة أهل صالح ترفض مساعي الصلح مع قبيلة أهل فرج التي قُتل أحد أفرادها ابن عاقل قبيلة أهل صالح (الخضر) غدراً في منطقة العرقوب وأخفى جثته بين الصخور، وقد أكد الشاعر أن الصلح مستحيلٌ مع قبيلة الجاني استحالة أن تنبت الحصى على ظهر الصخور الملساء.

وقد سبقت هذه المراجيز التي قيلت بحضور السلطان الفضلي عملية تراشق شعري بين شاعري القبيلتين، فالشاعر شقيف، وهو من قبيلة آل فرج، قال قبل أيام من زيارة سلطان الفضلي:

قـالـوا لـي امـعـاقـل مـعـطـل مـوديـة
حـانـق على ابـنـه ليش مـا خـذ شاعته
هـاذ السنة سـرنـا على الساحل سوى
والـثـانـيـة بـالـسـبـحـه لا قـاعـتـه

وقد ردّ عليه الشاعر المعروف علي رامي، وهو كما أسلفنا أحد شعراء قبيلة آل صالح بالقول:

1- السلطان صالح بن عبد الله سلطان آل فضل الذي جاء للصلح ما بين أهل فرج وأهل صالح في مقتل الخضر محمد عبد الله الصالحي الذي قتله في العرقوب أهل فرج. وبقصد بالشافعي السلطان الحر لأن الجنوب حُكم في القرن العاشر الهجري بحاكم جائر في صنعاء، وحصل انفصال بعد ذلك، وشعر الجنوبيون بأنهم متحررون أو أن الشوافع متحررون من الزيود ويقول الشاعر علي رامي:

سلامي يا أهل صالح بن حسن — أهل المشالي ذي على حداتها
نهار دقعه كـل أبـوهـا شافعي — كم من ولـد خذتوه في رداتها

لا بـان جـذر امعلب عـنـدك واعـتـرف
مـا بـايـفـيـدك لـنـت مـن قـطـاعـتـه
أم مُـر وامحلتيت سـوهـن فـي وعـاء
والـسـم فـي لـنـسـان يـأخـذ ساعته

والشاعر يقصد أن القتيل الأول قُتل في أرضك يا سلطان، وبدلاً من أن تأتي بلوم جئت تطلب صلحاً وكأنك تبذر حصى في جبل. وبعدما تغدى السلطان رحل إلى امقوز وعزمه آل محكل على العشاء، وبعد عودة السلطان منع آل صالح من المرور في أراضيه، ما اضطرهم إلى أن يسلكوا طريقاً يبدأ من وادي ابن سالم ويمرّ في حدود يافع ومن ثم الحرور إلى أن يصلوا إلى عدن، واستمرّ بهم الحال وهم ممنوعون من الطريق المعتاد، كذلك فإن السلطان أهدر دم الشاعر علي رامي وأمر قبائله بأن يقتلوه أين ما وجدوه. وبعد مدة تزوج السلطان، ودعا سلاطين الجنوب ومشائخها إلى حضور الزواج في شقرة التي كانت عاصمة سلطنته، ولم يدعُ الشيخ عبد الله محمد الصالحي لكونه غضباناً منه لعدم إعطائه الصلح الذي طلبه.

وبعد ذلك أمر العاقل الصالحي الشاعر علي رامي بأن يذهب لزواج السلطان، وقال الشاعر: السلطان سيقتلني يا سيدي.

قال له الشيخ: لسانك دي حنب لك[1] بايخلصك. وفعلًا ذهب علي رامي للزواج بمعية ناصر أحمد بدرق، وكان السلطان قد نصب مخيماً على شاطئ البحر، وفوجئ بدخول علي رامي إلى الحفل وقد أعدّ قصيدة بدأها بقوله:

يا ناشر الليلة من الحد النسم[2]
اعبر دثينة واعبر أخشام الجبل
واعـبـر فـي الـعـرقـوب
بـيـن اخـشـام سـود
لا تـأوي إلا الحصن مـرواح النمر
لا هـزّ رأسـه كـل شـامـخ بـا ينود

1- لسانك حنب لك: تعني أن لسانك هو الذي أوقعك، إشارة هنا إلى بيت الشعر السابق.
2- النسم تعني الواسع.

دي هد في القشرى وروح بالولد
من بين خوته دي يعدونه عدود
يا سيد صالح بيت لا أرض اليمن
رخصة تجيني يا جبل عالي سنود
إن جيت تحت الأرض ما ناشي ولي
وإن جيت فوق الأرض سويت البنود
ما اليوم يا الجمال نـذق بالخطم
شوف بوك صالح نوم أعيون الحسود
دام الله أحكامك ودامــت دولتك
ما دام حيد الصرّية[1] فوق الحيود

قال السلطان: أعد أعد يا ابن رامي وسمّعها مرة أخرى، وقال السلطان: اشهدوا يا من سمع وحضر أن آل صالح أحرار يمرون في الطريق. والذي دعا العاقل لهذا الأمر أنهم في إحدى المرات وهم مسافرون إلى عدن وفي الطريق الذي يسلك وادي ابن سالم وأسفل يافع وقعوا في كمين نصبه الأمير فضل محسن من أقارب السلطان صالح وأبلغوه أن آل صالح يسلكون الطريق والسلطان مانع عبورهم، وكانوا 25 نفراً اعترضهم الأمير فضل وصاح فيهم بأن يتوقفوا، وهو سائر نحوهم، وكان يركب حصاناً ومعه 15 جندياً من حرس السلطان، فتوقف ركب المجموعة وكان معهم «أحمد عمر بن يهم» وقال لأصحابه: «خذوا حذركم شوفوني با عشر طلقة عند السلطان وبا عمر بندقي بطلقة أخرى، وإذا رفض مرورنا شوفوني با اقتله وعليكم بالآخرين»، ووصل الأمير فضل إليهم وأمرهم بالذهاب معه إلى شقرة[2] عاصمة السلطنة، فما كان من أحمد عمر إلا أن أطلق النار في الهواء وعمّر بندقيته وقال للأمير: «هذه

1- قصر السلطان

2- كانت شقرة عاصمة السلطنة الفضلية بعدما كانت الصرّية الواقعة إلى الشرق منها العاصمة الأولى في جبل الدولة المجاور لجبال المراقشة المكونة للسلسلة الجبلية الممتدة إلى مناطق باكازم في مديرية أحور. هذه المنطقة (شقرة/ الخبر) عبارة عن شريطين، جبلي وساحلي، بحرها يكتنز أغنى ثروة بحرية على الإطلاق، وشريطها الجبلي تسكنه بعض القبائل. وسكان الشريط الجبلي عبارة عن قرى وبدو رحل.

عندك وهذا لك وعند الله وعندك تكفينا شرك»، قال الأمير: «خلاص الله معكم اعبروا الطريق»، ورأى الشيخ الصالحي أنه إذا طال الحصار لا بد من صدام يقع، وأن من الأفضل أن يذهب شاعر القبيلة ويحل الإشكال، وهذا ما حصل. وبعد وساطة السلطان الفضلي جاء حسين جعبل يطلب صلحاً، وهو سلطان العواذل، وسبق أن تَحاكم عنده آل فرج وآل صالح في قضية أرض زراعية، وحكم على آل صالح بألف ريال ماريا تيريزا. ويبدو أنه مال في حكمه إلى آل فرج، ورحّب به الشاعر بقوله:

حيا بسلطان العصيب الجاسرة
دي عين يفتحها والأخـرى صرها
من جـده أسقاه الفناجين العسل
وإحـنـا مـن القصبا شربنا مرها

وبالفعل، عاد من دون صلح، وبعد ذلك جاء العاقل الدماني، ولكون الدماني صهراً لآل صالح كان يعتقد أنّ من الممكن أن يحصل على صلح، ورحبوا بالدماني، وقال علي رامي:

حيا بكم يا ذي وصلتوا مرحبا[1] **حيا وبا مُد الفرش هي البجد**
العوذلي قد جاء ولامهرا نجد **هو ما ترانا كلنا في شق حد**

ورجع بدون صلح، وأثناء عودة محسن بن فريد من الحج استضافه في عدن الشيخ سعيد هيثم الظهر، وطلب منه أن يتوسط في صلح، وبالفعل وصل إلى مودية لطلب الصلح، وقال الشيخ الصالحي للشاعر علي رامي: «أنا أبغي أرحب بابن فريد»، ودخل الشيخ عبد الله محمد يرحب بمحسن بن فريد، وقال:

حـيـا الـفـريـدي بـن رويـس العولقي
مثلك يجي عـنـدي ومثلي بـا يجيك
رع دي عـبـر فـيـنـا وجـانـا منهم
ايـش بـاتـقـول الـيـوم لاهـو الأمـر فيك

1- سجاد من شعر الابل او الغنم

بعد ذلك ذهب إلى عند العاقل، وبعد العشاء أخذ العاقل سراج فانوس وقال لابن فريد: تفضّل ونزل به إلى المخزن الذي قتل فيه ولده، وكان هذا المخزن مقفولاً منذ أكثر من عشرين عاماً والدم على الفراش منذ ذلك الوقت، وقال لابن فريد: واحد من أولادي قتل في أرض الفضلي ونحن في صلح، وابني الثاني قتل وهو على فراشه ونحن في صلح، والآن ما هو رأيك هل تلومونني على مواصلة حربي؟ قال: الآن اتضح الأمر لي وأنا الآن لا ألومك لعدم إعطائك صلحاً.

قال ابن رامي علي في الحرب بين أهل فرج وأهل صالح:

ألا قال بن رامي علي العب يا أمحسك[1]
علـى امـزامـيـر وأصـوات أمـطـبـول
مـا بـيـن مـسـمـار[2] **وأمـجـبـلـة يسك**
مـن الـبـنـادق قـلـيـلات الـقـبـول[3]

كان ابن رامي علي شاعراً مجيا فحلاً غزير الألفاظ والمعاني متفق الكلمات والقوافي، ودخل في مساجلات شعرية مع فحول الشعراء في القبائل الأخرى التي تقاتلت مع قبيلته، منها هذه المساجلة الشعرية (بدع وجواب) بين ابن رامي علي وناصر عبد الله عمير امكعبي في الحرب القبلية بين آل حسنة والمياسر في حرب قوشان[4]:

بدع ابن رامي:

يا دي «بمسمار» وكد لك قدح لنته تبا تحلب ازباب امتيوس

1- أمحسك: قرية تقع على جبل صغير قبل مودية
2- مسمار: هو الحصن الواقع بين جبلة أهل فرج وقرن أهل عشال.
3- القبول معناها قليل الخير.
4- قوشان يقال إنه من آل العود، ويسكن في امقوز، وكان صديقاً لشباب من آل فرج وقد تعرض للضرب من شباب من آل صالح ظناً منهم أنه ابن بدر الفرجي، فقامت الحرب بينهم لذلك السبب. وعند خروج آل حسنة وصلوا إلى ريمان. لم يستطع أحد الدخول إليه إلا آل باجعم ومعهم علي هادي، فقتل واحد من آل باجعم من آل عمير وعند عودتهم دارت مساجلة شعرية بين هادي علي وعبد الله ناصر عمير.

(مسمار: مـن حصون المياسر)

جواب ناصر عبد الله:

امتيس يحلب حتى لو نطح با يحلبونه شديدين النفوس

بدع بن رامي:

يـا دي تنشد قـول إنـك فرح با حاربك مثلما حرب البسوس

جواب ناصر عبد الله:

يـا دي تمزمز وتـالـي تنبطح با يبطحونك بعدات الفلوس

بدع بن رامي:

في الموج شف كل منا قد سبح نتسَعر امـذري[4] والدنيا يبوس

جواب ناصر عبد الله:

واحنا قبل من تمنعنا طفح «مسمار» بيدي على ريمه[1] جلوس

كذلك واصل برطم حديثه عن قصص الثأر والحروب والعنف التي شهدتها مناطق الجنوب، ومنها قصة أشبه بالأسطورة أن رجلاً له ثار مع قبيلة أخرى حيث قام بذبح أطفال من يطلب ثأره، والناس غافلون في لعب وسمر، وعندما خرج للسَّمر بعد تنفيذ جريمته رأته إحدى العجائز وأنكرت وجوده وأيقنت أن وراءه مصيبة للقبيلة، وقالت العجوز شعراً لأهل السَّمر جاء فيه:

1- الحبوب
2- سطح البيت

ليه يأهــل اللعب ما تنكـــرون الغريب
والضوع[1] دي في الفريقة ياصريب الصريب

وقد علم الشاب أنها كشفت أمره، فقال:

ألا عسى يا كل عودة لا طرح لش نصيب
أخرج عيونش وساهن في كتور الكريب
والليلة البـــرد يشـــلبني شـــــليب
وأهلي بمرخة وأنا الليلة بوادي حطيب
ولا معي ثوب با أدفى به ولا أهلي قريب
والضوع ذي في الفريقة يا صريب الصريب

وركب حصانه وطار به بعد اعترافه الصريح بذبح الأطفال.

الحرب بين قبائل آل حسنة

وواصل حديثه العم أحمد مسعود برطم، وقال:

كانت الحروب القبلية المستعرة في مناطق الجنوب وبين قبائله تهلك الحرث والنسل وتدمر كل أواصر الأخوة والمحبة، والأواصر الإنسانية والدينية والوطنية بين الناس، وتجاوزت في إجرامها وقسوتها وهمجيتها وعبثيتها كل منطق العقل والتفكير السليم. كان المتناحرون يقتلون الأطفال والنساء ويدمرون المباني ويردمون الآبار ويخربون المحاصيل ويقطعون الأشجار المثمرة. والشواهد والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. ففي الحرب بين آل منصور وآل زامك مثلاً نُسف حصن هادي علي ودُمّر بكمية كبيرة من البارود وُضعت في أسفل الحصن، وقد أدى تفجيرها إلى إحراق الحصن من أسفله حتى أعلاه ما أدى إلى مقتل أطفال هادي علي الصغار ومقتل زوجته الحامل، ولم ينجُ هو من الموت إلا بأعجوبة، حين أنقذته أخشاب الحصن من أن يُدفَن تحت ترابه. وقد استخدم خصوم هادي علي من آل زامك المكيدة في هذه العملية للنيل من عدوهم اللدود، حيث أغرى قردع بن سالم

1- الاولاد الصغار

عبد هادي علي بوضع البارود في أسفل حصن سيده وإحراقه مقابل وعده بتزويجه بجارية جميلة يملكها، وفي التمهيد لهذه العملية دعا قردع سالم عبد هادي علي إلى زيارته بواسطة أحد «الرباعة» لدى القبيلة.

5 – حصن هادي علي وابنه علي هادي (امقليته)

وخلال الزيارة طلب قردع من جاريته الجميلة التزين ولبس أجمل الثياب حين دخولها لتقديم القهوة إلى سيدها وضيفه عبد هادي علي، وطلب منها الجلوس أمام العبد لبرهة لإثارته ولفت انتباهه قبل الانصراف. وبعد أن أدارت الجارية بجمالها رأس العبد خرجت ليبدأ قردع بتقديم عرضه للعبد، حيث سأله بعد خروج الجارية رأيه فيها، فقال العبد إنها جميلة وفاتنة. قال له قردع سالم إنه سيزوجها له إن أراد، ولكن بشرط أن ينفذ طلباً بسيطاً منه. ولما سأله عن المطلوب، صارحه قردع بأنّ المطلوب أن يضع كمية من البارود اسفل الحصن ويشعل النار في فتيل التفجير ويلوذ بالفرار ويأتي لأخذ الجارية ويذهب بها أينما شاء. وافق العبد على الشرط وقبل المخاطرة ليفوز بالجارية الحسناء، ونفذ ما طلب منه بدقة وسهولة، حيث

كان هادي علي يثق فيه ويأتمنه على مفاتيح بيته وحصنه، وكان هو الموكل بإغلاق أبواب الحصن والسهر على حمايته. وفي ليلة التنفيذ أغلق العبد كعادته الأبواب وحين تأكد أن سيده ذهب إلى النوم وإن الجميع قد خلد إلى السكينة، أشعل فتيل التفجير وخرج ليحرق الانفجار الحصن ويقتل أطفاله وزوجته، غير أنه نجا من الموت بعد أن تعرض وجهه للاحتراق بنار البارود المتفجر ولم ينقذه من الموت سوى بعض الأخشاب التي حمته من أن يُطمَر تحت الركام. وعندما أبلغوا قردع بأن هادي علي لم يقتل، قال عبارته المشهورة: «ما خرج هادي من تحت امخشب إلا للنشب»، وقد قال هادي علي شعراً في هذه الواقعة:

قال هادي علي بالله بلا مشرعة
بالله في الحيد ولا في ظبور المباني
قال هادي علي عاتب علي بندقي
من يوم ماتوا عيالي ما قرح من يماني

زيارة عمر بن سعيد

كانت قبائل المنطقة الوسطى تذهب لزيارة ولي الله الصالح عمر بن سعيد في كل عام، وكانت قبائل الحسني تذهب إلى هذه الزيارة مجتمعة رغم الخصام والقتال فيما بينها، وفي إحدى المرات ذهبوا للزيارة، وكانت قبيلة آل منصور متحالفة مع قبيلة الجعمي والوليدي والشعيثي ضد آل زامك، ولكن المنصوري في هذه الظروف ترك القبائل المتحالف معها وأثناء وصولهم إلى النجدة مقرّ الولي عمر بن سعيد عملوا «محف»، وكان أهل القرية ومن معهم يستقبلونهم بقبائل أخرى. وعند نزول آل حسنة إلى المحف تقدموا آل زامك وحصلت إشكالية على «التقدمة» (من يتقدم أولاً) وبعد ذلك قال علي هادي:

التقدمة ماهي على المهزر
التقدمة عند القضاء والدين
إحنا سنان الرمح وعقابه
وإحنا الرمد وإحنا القذا في العين

فردّ عليه ناصر بن مسعود بن هادي:

التقدمة قولوا لبن هادي
لما تقابل كمن أحمر عين
من حربنا قد ترّك أصحابه
همل ضميده والبقر رزين

وبعد هذه الأبيات الشعرية حصلت مشادة بين الطرفين، وأقسم ناصر علي أن يدخل قرية جمعان غازياً، ووقعت معركة بعد ذلك قتل فيها آل حسين ناصر علي، وقال علي هادي:

رد به دان بتبدع من أشجان
فاقد حير ثعبان[1] دي فيه الحمى منطوية
ذا السنة شان والثانية حربان[2]
والثالث به أعوان والرابع خطاب الرعية
يا مقيدح ويا امناطل وقمزان[3]
قلي لأهل جمعان ما بعذر بيوت العنية

وردّ عليه سليمان:

بن سليمان حيا الليلة القبيلة
والفج[4] ميدان والسوقي[5] يرد القدية
سو أربع على مربع يشب الورع
يدخل في العاس بين الكبر[6] الشرعبية
يا علي لا تقعشي أدوع[7] شع أهل الوجع
بايضربونك كلما الجمال شد السرية[8]

1- أي شجاع.
2- الأرض التي لا تزرع في الحرب.
3- المقصود (مراكز للحرب).
4- (أراضي زراعية كانوا يقتتلون فيها).
5- (الرصاص الذي يأتي من عدن).
6- (الثور الضخم للحراثة).
7- (غبي).
8- (كلما الجمال شدّ السرية المقصود السفر).

وقال سالم قردع:

لا قتل بـن علي هـادي حسين اندفن
ذي هو صواعق تقارح من مزون[1] أعجمية
يـا حجر مـن حجار الواقعة بـش حجر
ماشي يقع زيـد بين العصبة الناصرية
وانَّـا قـالـوا يـبـون امـزيـد مـن عندنا
بيني وبين امقليتة نـار شاجب عطية[2]

وقال علي سليمان:

بـن سـلـيـمـان شـبـيـنـا وشـب الـبـلا
وكلما شـاب رديـنـاه فـي أحسن شبابه
يـا ولـيـدي ومـنـصـوري ويـا باجعم
حـلالـي الـفـج ملقي لـي مـرازم وكابة
شـل خـوتـه وسـنـدهـم لـبـيـس[3] العسر
لما خذو الوعل من بيت النشب والصلابة
بيتك اصـطـاب يـابـن هـادي الناصري
يا ليت بوك النمر يذهن[4] ويبصر مصابه

وقال علي سليمان:

يـابـن عـلـي هـادي ويـابـن المجعلي
واجـب عـدتـكـم مـا يـقـع فـيـهـا بـوار
كـديـتـم الـخـراز عـانـي معتني
جـانـي مـرسـل مـنـكـم وسـط الـنـهـار

1- (سحب).
2- (آخر ثلم من الحراثة).
3- (جبل).
4- (يصحى من القبر).

جبتوا بن امشيبه وخيران امعسل
حتى محمد دي قتلتوا خوه ار[1]
جبتو بن امحروق يقتل صاحبه
قلت اضربوا جمعان يوم انتوا بصار

ولم تنته الحروب القبلية في دثينة إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وامتداد النفوذ البريطاني إلى إمارات وسلطنات ومشيخات الجنوب، حيث عُقد صلح شامل في كافة مناطق الجنوب بواسطة البريطانيين والضابط البريطاني فكس، وفي المنطقة الشرقية أخضع الضابط السياسي ماكنتوش في عام 1951م قبائل العوالق السفلى والعوالق العليا، وأصبحت المنطقة تحت النفوذ البريطاني، وقد استخدم معهم سياسة الترغيب والترهيب، حيث كانوا يقدمون إليهم الذخائر والرواتب لكسب ولائهم للسلطات البريطانية. ولكن الأهم من سياسة الحزم في ترويض القبائل، تعليم أبنائهم احترام النظام والقانون والإدارة، وفتح فرص التجنيد والتوظيف لهم.

1- أغار(أي انضم إليكم في الإغارة).

الفصل الثالث

دخول الإنكليز إلى دَثينة عام 1942م

لقد حدثنا العم سليمان عن دخول الإنكليز إلى هذه المنطقة التي أنهكتها الحروب بين القبيلتين المذكورتين وقبائل المنطقة الأخرى مثل: الحرب بين أهل منصور وأهل زامك[1]، وبين أهل باجعم وأهل زامك، وأهل محكل وأهل ناصر حسين، وبين المياسر وآل وليد، وبين المياسر والسعيدي وغيرها من الحروب.

حروب صغيرة وكبيرة، لا تتوقف إلا بتدخل الشيخ[2] أو السيد، أو الضابط السياسي البريطاني.

وهذه الحروب هي التي مهدت الطريق أمام البريطانيين، لمدّ نفوذهم إلى المحميات الغربية والشرقية لعدن، بعد أن كانوا يرتبطون معها بمعاهدات حماية وقّعوها مع سلاطينها.

أما الآن، فبعد أن أنهكت تلك الحروب القبائل الكاسرة القاطنة في تلك المنطقة، فقد دخلت إليها القوات الإنكليزية في الأربعينيات من القرن العشرين من غير قتال، ولم تكن قبل ذلك تجرؤ على أن تطأ أقدامها هذه الأرض.

1- الشيخ هادي علي كان متخاصماً مع آل زامك، وهم من قبيلة واحدة، وتقاتلوا بعد ذلك. وكلف آل زامك أحد عبيد هادي علي تفجير حصنه، وبعد نجاته بحث عن العبد، ولما علم أنه هرب إلى جيبوتي ذهب إلى هناك وأحضره وعلقه في الحصن حتى اعترف بفعلته.

2- الشيخ هنا ليس شيخ القبيلة، بل رجل من سلالة عمر بن سعيد المدفون في قرية امنجدة قرب مدينة لودر، أو من سلالته في المدارة، وأشهرهم علي بهلان (بن هلال) ومن سلالته آل حيدر علي وآل عبد القادر، ومنهم آل شايع وآل علي وآل شفا وآل عبد الحامل، وكان الشيخ عادة يحمل رمحاً وفوقه راية، أو علماً، ويتدخل لوقف القتال بين المتحاربين عندما يخفق الآخرون في ذلك، بالإضافة إلى آل علي امبوباكر وآل المعيليقي.

وكان الإنكليز من موقعهم المريح في المستعمرة (عدن التي احتلوها في عام 1839م) يغذون هذه الفتن والحروب، ويمدون كل الأطراف والقبائل بالسلاح والمال ضمن سياستهم التي عرفوا بها: (فرق تسد).

وقد اكتوت قبيلة أهل حسنة وبقية قبائل دثينة بنيران تلك الصراعات والحروب مما أضعفها وسهّل على الإنكليز دخولها دون صعوبة تُذكر. وقد قال شاعر آل فضل المشاكس منصور عشال عن أهل حسنة ودثينة لدى قبولهم بدخول الإنكليز إلى أراضيهم:

دام البقاء لله يا أرض امحساني
سامحش ويقبلش في خير وإحساني

لكن الشاعر عشال ما لبث أن أُصيب بالإحراج عندما دخل الإنكليز أرض قبيلته في الوضيع التي ينتمي إليها، فقال مبرراً:

أنا لا أدبوني قد تأدب بحر مالي
يعصرونه يخرجوا القير[1] من الحالي

وقال:

ألا سال ما شمسان لما أملى الرمال
خمستعشر ألف دي عديت سركالي[2]
لا كان هو فارس لفارس ما نبالي
با لسي ميدان للفتنة ولقتالي

وفي ذات الموضوع قال الشاعر بن علي مقبل:

يا ابن فرج شع كن حكم الله درج
جات الفرنجية مقاطيع النصيب
من بعد ذاك الهرج والمهرى العوج
عقالكم تصبح كما البحري[3] الأديب

1- المر
2- جنود بريطانيون
3- ابن الجمل الصغير.

وقد ردّ عليه اليهودي منصور صالح:

يـا بـن عـلـي مـقـبـل مـقـاديـر الـسـمـاء
دي جابت المطلوب إلـى عند الطليب
هـذا أعـجـمـي مـاشـي مـعـانـا لـه بصر
ولا مـعـي مـنـشـار يقطع بالقضيب

وهكذا أدرك شاعرنا أن لا مجال لمعايرة الآخرين لعجزهم عن مقارعة عدو يملك كل أسباب القوة، بينما هم في حالة من الضعف والتفكك لا تسمح لهم حتى بالحدّ الأدنى من القدرة على المقاومة الفاعلة ضد الاستعمار البريطاني الذي بدأ بترويض سكان المنطقة الذين كانوا قبائل مقاتلة بالفطرة، عبر تشجيع الفلاحين على زراعة محاصيل جديدة مثل القطن والخضروات والفواكه. وشكَّلوا جمعيات تعاونية لهؤلاء الفلاحين الذين كان عليهم أن يكدوا ويكدحوا طويلاً ليجنوا في الأخير مبالغ بسيطة وزهيدة من ثمن الطماطم، والبطاطا، والباميا، والبرتقال والليمون، بعد أن أقلعوا عن عادة حمل السلاح واحتفظوا به في بيوتهم، وحملوا بدلاً من البنادق المجارف والفؤوس.

بداية التعليم في دثينة

وبعد دخول الإنكليز، والصلح بين القبائل، بدأ الاهتمام بالتعليم الابتدائي من البنين والبنات، وهاتان الصورتان تتحدثان عن التعليم في مدرسة مودية.

6 – طلاب عند دخولهم المدرسة عام 1955 وخلفهم المدرسون هادي حميضة وأحمد محمد علي شيخ والسيد عبد الله محمد الجنيدي

وقد تأثرت مودية بعدن لأن كثيراً من أبنائها هاجروا إلى عدن وإلى خارج عدن، وعادوا إلى مودية ليساعدوا في انتشار التعليم والزراعة وبعض المظاهر المدنية، كافتتاح المطاعم وصالونات الحلاقة وعدد كبير من المحلات التجارية، ودخول الحرّاثات والمضخات لأول مرة لزراعة الخُضَر والفواكه، وفي وقت لاحق الكهرباء، وشُقّت المجاري إلى خارج المدينة والنظام الإداري والمالي، وأعتقد أنها كانت سبّاقة على غيرها من المحميات باستثناء لحج وحضرموت.

7 – أول فرقة كشفية في جمهورية دثينة – 1955

أشرف على هذه المدرسة الأستاذ أحمد علي مسعد وصالح عمر يافعي وسعيد عثمان عشال وهادي حميضة.

وتراهم في الصورة بعدما تنظفوا ولبسوا ملابس الفرقة الكشفية لأول مرة في حياتهم، وكان لعدن تأثيرها في المحميات الشرقية والغربية

إخضاع القبائل وتقليم أظفارها

ومن الأساليب الاستعمارية التي اتبعتها بريطانيا لإخضاع القبائل عندما قررت الدخول إلى المحميات في الثلاثينيات والأربعينيات، إرسال عدد من الضباط البريطانيين المتخصصين في إدارة شؤون القبائل والمحميات بعد أن أعدتهم إعداداً جيداً من حيث دراسة اللغة العربية والتقاليد والعادات الشعبية، وطلبت منهم إخماد الثأر القبلي والفتن والحروب تمهيداً لحكم استعماري مستقر وإدارة حديثة، وكان أبرز هؤلاء الضباط في المحميات الشرقية: (حضرموت والكثيري والقعيطي) المستر أنجرامس[1] ومساعده مستر فيكس.

1– أنجرامس: وليم هارولد أنجرامس وُلد في 3 شباط / فبراير 1897م، وتوفي في 9 كانون

وكانوا يلجأون، كما كتب عن ذلك أنجرامس عام 1939م، إلى الترغيب والترهيب، وقد كتب يقول إنه يشعر بالاشمئزاز من الغارات الجوية التي كانت تشنها الطائرات الحربية البريطانية على القبائل، «لكن عندما لم تنفع التحذيرات اتُّخذت التدابير وأُنزلت العقوبة ووقعت الخسائر». وشرح كيف تُعَدّ الحملات التأديبية، فهذه الوسيلة العنيفة من العقوبة تنفذ من أجل تحقيق النظام وتستعمل فقط ضد القبائل التي تقوم بأعمال السلب والنهب والقتل، حيث كانت مثل هذه القبائل تمنح فرصة لدفع غرامة كبيرة، ويُستدعى الزعماء للحضور في زمان ومكان محددين، على أن يُحضروا النقود والبنادق والجمال بقيمة الغرامة، ويوقّعون في ذلك الزمان والمكان معاهدة مع الحكومة العربية الشرعية التي تضمن سلوكهم السلمي في المستقبل. وإذا لم يستجيبوا لذلك النداء يُوجَّه تحذير أخير ينذرهم بأنهم سيُقصَفون بالطائرات إذا لم يحضروا خلال أربع وعشرين ساعة.

وفي الوقت ذاته يُنصَحون بإبعاد قطعانهم وممتلكاتهم من الأماكن التي ستُستهدَف بالقصف، وتُعيَّن لهم بئر للشرب ويكونون في أمان في الأماكن التي حُدِّدَت، ويُشرَح لهم كيف يرسلون إشارات للطائرات إذا رغبوا في التسليم. وكمقدمة للقصف الجوي تُرمى أولاً القنابل الدخانية فقط، وبعد ذلك يبدأ القصف، ولا يحصل القصف عند رؤية بعض الناس في منطقة القصف، وتتطابق هذه المعلومات مع معلومات رئاسة سلاح الطيران الملكي في عدن عن الاستعدادات المكثفة للحملات التأديبية. وكان للحملات التأديبية في منطقة حضرموت، كما يورد أنجرامس، رغم العدد المحدود للقتلى الذين بلغ عددهم ثمانية قتلى في أربع حملات تأديبية، أثر جماعي واضح، ويعود ذلك –

الأول / ديسمبر 1973م. شارك في الحرب العالمية الأولى من (1914 – 1918) وجُرح فيها جرحاً بالغاً. عُين مساعداً للحاكم العام لمنطقة زنجبار (شرق إفريقيا) وعُين ضابطاً سياسياً في مستعمرة عدن في عام 1934م، وكان المستشار المقيم لبريطانيا في المكلا (1937 – 1944) وحاكماً لمستعمرة عدن بالإنابة في عام 1940 والوكيل الأول بحكومة عدن في عام (1940 – 1942). عام 1930 أخضع الضابط المغامر المستر أنجرامس حضرموت، وفي عام 1934 أخضع منطقة أحور تحت النفوذ البريطاني. تفرد انجرامس ومعه زوجته دورين من زياره كل بقعه في حضرموت والتحدث بالعربيه واتباع التقاليد حتى في اللبس والعادات الاخرى.. وترددت ابنة انجرامس الوحيده ليلي انجرامس في زيارات الى حضرموت في التسعينات وبداية الالفيه الجاريه وهي مهتمه بالشان الحضرمي ومؤسسه للجمعيه البريطانيه الحضرميه وهي جمعيه غير حكوميه .

كما أورد – إلى الطبيعة المسالمة لأبناء هذه المناطق. كتب أنجرامس: «ورغم أنهم اعتادوا في حروبهم التي كانت تستمر لفترات طويلة، أن يسقط عدد أكبر بكثير من الضحايا، إلا أنهم في الواقع سوف يعبِّرون بروح عالية عن شكرهم، فقد تحاربوا وسالت الدماء، وهذا الوضع يمكّنهم من الانضمام إلى «صلح أنجرامس» من غير أن يفقدوا ماء الوجه مع أعدائهم القدامى».

8 – وليم هارولد أنجرامس أشهر المعتمدين البريطانيين في المحمية الشرقية، والذي جرد قبائلها من السلاح معتمداً بينهم الصلح الذي عُرف بعد ذلك بـ «صلح أنجرامس»

ليلى انجرامس ابنة انجرامس

دورين انجرامس زوجة انجرامس

ويقول أنجرامس إنّ المقارنة التي عقدها فيلبي بين تلك الحملات بالقصف الإيطالي في الحرب الحبشية كانت خطأً كبيراً. فالفرق يكمن في أنّ تلك الحملات في حضرموت جاءت استجابة لتوسل قادتها في طلب المساعدة البريطانية لتخليصهم من الحروب المهلكة التي لا تنتهي.

وليس هنا غزو من منطلق الغرور لبلد حُرّ، وليس هنا هجوم من دولة كبرى فتاكة على شعب يدافع عن استقلاله، بل عقوبة على عصابات نهبت وقتلت أبناء وطنها. ليس هنا غزو حربي، ولكن سلطة قانونية تؤسس النظام وتضبط الأمور.

وقد مورست بعض هذه الأساليب في الصبيحة وردفان والضالع والعواذل والعوالق والفضلي ودثينة، حيث حاول مساعده مستر فيكس أن يستفيد من هذه الخبرات والتجارب التي اكتسبها في حضرموت ليطبقها على قبائل دثينة الشرسة في منتصف الأربعينيات. فقد حاول إخضاع القبائل من خلال إجراء تجارب بالمدافع والقنابل على الجبال وتحليق الطائرات والمرور على القرى والجبال لخلق حالة من الرعب لإخضاعها، ومن ثم فرض النظام والاستقرار في هذه المناطق الاستراتيجية التي تربط بين محميات عدن الشرقية والغربية والمملكة المتوكلية اليمنية.

الضابط السياسي البريطاني فيكس

أدّت الصراعات والحروب القبلية بين قبائل أهل حسنة والمياسر إلى الإضرار بالزراعة وبالاستقرار في المنطقة، ولم تكن هي الحرب القبلية الوحيدة في دثينة، فهناك حروب قبلية طاحنة أخرى كانت تدور رحاها، منها حرب الفرجي والصالحي والجعمي والزامكي وغيرها من الحروب.

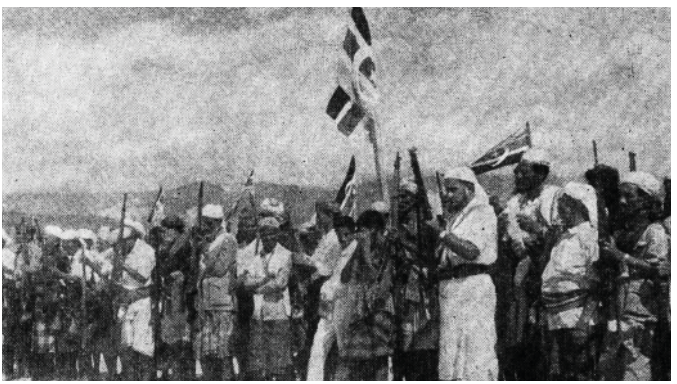

9 – الصورة ليوم احتفال ولاية دثينة بانضمامها
إلى إمارات اتحاد الجنوب العربي 23 شباط / فبراير 1960

وقد وصل إلى مودية بعد الاحتلال البريطاني للمنطقة عام 1942م الضابط السياسي البريطاني الذي اشتهر باسم فيكس أو مستر فيكس وسكن في عمارة علي أحمد قاسم في جبلة آل فرج، وبدأ في وقف أعمال الثأر بالقوة، وبنى مقر الحرس القبلي ومحكمة مودية، وشكّل محاكم عُرفية في مودية وامقليتة وامخديرة لحلّ المنازعات بين المواطنين.

وكان مستر فيكس أثناء خروجه إلى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية في 1946 يزور القبائل كلها ويجمعها تحت شجرة سدر ويتحدث معها عن الصلح وترك الحروب. وفي إحدى المرات أتى إلى منطقة كبران في مودية وجمع القبائل تحت شجرة «علب» (سدر) كبيرة، وكان يتكلم في الصلح، وكان الشيخ فضل محمد الرباش الذي تجاوز السبعين شخصاً طويل القامة عاري الجسد ويلبس مئزراً يستر عورته فقط، وقد تساقط شعر رأسه، وكان حاضراً لهذا اللقاء ويتكلم مع من يجلس بجواره أثناء كلام فيكس عن الكفر والإسلام فسمعه فيكس وهو يتكلم وقال له: اسكت يا غاندي.

10 – محكمة امقليتة بُنيت عام 1944م وقد سُجنتُ فيها لأكثر من أربعه أشهر عام 1963م.

وقد قال ابن رامي علي عن الضابط البريطاني فيكس:

بر رامي علي جاء للشـوامخ دي فكسـها[1]

هزّها وتزعزعت من هـزّة الصرِّيــة[2]

1- فكسها: ضبطها.

2- الصرِّية: اسم جبل بالقرب من ضريح «سعيدة بنت عمر» التي يقام لها مزار سنوي، ويقع على بعد 50 ميلاً شرق مدينة شقرة، وكان يسكنه سلاطين الفضلي، وهو الآن أطلال.

جانا فيكـــس للبوب المقفل دي فكســـها
والمهـــاري لعجمية ردهـــا برِّيـــة
جاب الشمس نصف الليل في أدرى وكسها
قـــال لا با حد يهـــاريني[1] ولا هاريـــه
مسكنا الحوت دي هو صم باللحية مسكها
حكم مستر فيكس يكوي الكبد هي والرية

قال بو حمحمة في نفس المعنى:
جانا فيكس لم الأرض وألقاها عجينة
سمح الـعـوجـان دي كـانـت محاجينة
يـا الطاحنه خلي طحينش فـي هجينه
عـادنـي باحامش المكريب ذا الحينة
لا بـقـبـل الـظـاهـر ولا بـبـطـن دثينة
بـيـنـنـا الـــرجـــاك وإلا فـــي مـراكـيـنـة
يا أهـل السلب يا ذي تـــداوون الكنينة[2]
باطلي مـن ذي لبس ثـوبـي وخـذ لينة

وقد أدى ازدياد النفوذ البريطاني في المنطقة إلى خلق حالة من التململ والحراك السياسي بين قبائلها، وانقسمت الآراء بين مؤيد ومعارض. وتعكس أبيات الشعر المتبادلة بين الشاعر علي هادي المنصوري في رسالته إلى سالم صالح الفطحاني التي يحذره فيها من قوة الإنكليز بعضاً من هذه الأجواء والهواجس:

اليوم يا سالم رع[3] الحبل التوا
مـــن شـقـكـم رعـــهـــا تـــــدور الـــدائـــرة
حبل الحكومة دي زقـــر[4] كـم مـن نمر

1- يهاريني: يكلمني.
2- الكنينة: هو المرض غير المعروف السبب.
3- رع: شوف وانظر.
4- زقر: أمسك.

مـا حـد قـدر لـه وأنـت مـا بـا تـقـدره
دق الـفـرنـسـاوي ودق الـجـرمـني
وأصـحـاب رومـا دقـهـا لا عصمرة
يـصـبـح يـدق الـطـائـرة بـالـطـائـرة
يطلع لـهـا بـالـجـو مـلـقـي[1] عـصـورة
مـا انـتـو حـرابـتـكـم حـرابـة زاحـفـة
لا جـيـشـكـم مـخـلـي وشـي بـا سـيـره
مـا هـل عـلـى يـومـيـن ولا عـاشـرة
وان صـاحـب الـمـيـزر مـسـنـد مـيـزره
والـطـائـرة مـن فـوق رأسـه تـنـدرج
والـجـيـش فـي الـوادي يـسـرك منظره
وأهـل الـخـيـم بـاينـصـبـوهـم عندكم
يـا سـالـم اصـبـر مـن هـدى الـلـه صبره
اصبر مـع أصحابك وشـرعـك دي سير
حـب بـسـيـجـر خـافـهـا ابـرك وافـرة
خـافـك تـبـارك بـه وتـصـلـح أرضـكـم

وردّ عليه الشاعر سالم صالح الفطحاني بالقول:

الـيـوم نـا بـاقـول يـارب الـعـرب
دي الـراي بـيـدك والـقـضـاء والمغفرة
يـالـلـه تـسـاعـدنـا عـلـى ديـن النبي
لا يـنـزلـونـا فـي مـراوي بـايـرة
حجيت والـقـيـت امـفـرنـجـي قبلتك
تـكـذب عـلـى أمـبـدوي وقـبـره تحفره
يـرهـن ويـتـديـن قـفـا صـحـبـاتـكـم
من حكم «ولـسـن» لا سقى الله محبرة

1- ملقي: يعمل.

رع والـنـبـي يـا خـال مـااندي أرضـنـا
والـعـدو والـلـه مـانـجـي فـي تـعـذره
دي انـداكـم أمشاهي وبعتوا أرضكم
والـيـوم كـل بـالـمـسـطـر يـاحـره
يـادي امتلكتم عـظـم الـلـه أجـركـم
مـا أحـنـا وسـيـجـر بـيـنـنـا لـلآخـرة

حرب الرصاص مع حكام صنعاء

11 – السلطان حسين بن أحمد الرصاص

وقال سالم صالح الفطحاني في حرب السلطان حسين بن أحمد امرصاص[1] مع حكومة صنعاء:

قال سالم سلامي يا ضبور المعلا[2]
لا عمد ضيق ساعة عادها با تجلا
والشكك[3] لا خليت عادهـا باتملا

وكان السلطان حسين بن أحمد الرصاص قد لجأ إلى خورة

1- هو حسين بن أحمد الرصاص، اعتقل في عدن بعد معركة مسورة بين الجبهة القومية والرصاص لاتهامه بأنه يؤوي معارضين للنظام، وقد قتل في هذه المعركة منصور مدرم وعبد الله سالم العسل في سنة 1968م.
2- المعلا: قصر السلطان حسين الرصاص في أمصومعة.
3- 50 – أحزمة الرصاص.

بأرض العوالق، ورفضت القبائل تسليمه للحكومة البريطانية وحلقت الطائرات البريطانية على خورة تطالبهم بطرد السلطان، وقامت قبيلة آل ديان بإخفائه عن الإنكليز والإمام، وكتب ناجي المصعبي للشاعر بن لزلم يقول:

قـالـوا إن سلطان بنير حـل فـي خـورة
ذي حارب الزيدية لما اخلص المطياب[1]
يـا العولقي جـاك مـولا الـعـز والشهرة
حسك تلقي ربيعك تلعنك لـغـراب[2]
يـالـكـور قـل لـلـعـوالـق كـلـهـم دفـرة
عاقل وتـابـع وشيبتهم وقـل لشباب[3]
لا تفسلوا[4] في النمر ذي حل في القفرة
ربـيـع جـيـش الـعـوالـق أصـغـر نـاب

وردّ الشاعر ناصر أحمد بن لزلم على قصيدة المصعبي، ويلاحظ أنه أنكر وجود السلطان الرصاص في خورة خوفاً من السلطات البريطانية وحكومة الإمام، حيث ردّ قائلاً:

الـعـولـقـي قـال مـن ربـه كـفـى شـره
مـا بـا طلب العافية مـن ناجي اللعاب
ذي ما أخرجه من بلاد العلة سواء العثرة[5]
وخيط في خيط لما اتشابك الكباب[6]

1- يقصد السلطان الرصاص، بنير: مجموعة من قبائل البيضاء ترجع إلى قبائل الدولة من العوالق.
2- حذار أن تسلم أخاك (ربيعك: الملتجي إليك ويسكن بجوارك).
3- دفرة: جمعاً.
4- لا تخافوا.
5- يقصد ارتكاب الخطأ إشارة إلى أن خروج المصعبي من بلاد بيحان إلى بلاد العوذلي كان سبب الفتن.
6- الكباب: لفة خيط الصوف المغزول يدوياً.

وقـال أبـو صالح ابـن ابنه على شخرة[1]
لا ريـت هاجس وانـا مـا قيس الجواب
البارح امسيت بي صـادع[2] وبي جشرة[3]
وامسيت ملقي بخط المصعبي رحاب
ونحن مـدلاة[4] وازقـر للطرف زقـرة[5]
با تحلق حين ذي سـأ[6] للبيوت أطناب[7]
واحمد[8] يحارب وأبو ناظور[9] في نحره
ظلا يقاسم يصيب للحدي[10] حياب[11]
شف ناجي المصعبي ينقش على بحره[12]
وظـهـرت لـه بالميكنة ذي لها ديـلاب

وهكذا جسّد الشعر الشعبي مقاومة الاحتلال البريطاني وحكم الإمامة في صنعاء.

وقال الشيخ علي هادي:

شـف ذه دثـيـنـة شـورهـا فـي كـورهـا
تضحك مـع الإنـسـان مـا بـا تخدعه

1- شخرة: المقصود بها كلام تسديد لهجة الشاعر.
2- صادع: الصداع.
3- جشرة: سعلة.
4- مدلاة: اسم جبل في حدود البيضاء محاولاً إيهام المصعبي والسلطات البريطانية وحكومة الإمام بأن السلطان الرصاص يسكن في هذا الموقع خارج حدود العوالق، أي انه لا يوجد في منطقتنا.
5- زقرة: مسكة.
6- سأ: سوى.
7- : أطناب: حبل البيت الشعر.
8- أحمد: هو أحمد بن حسين الرصاص.
9- أبو ناظور: نوع من البنادق.
10- الحدي: جمع حداة.
11- حياب: نثر من أشارة إلى كثرة القتلى التي تأكل لحومهم الحدي.
12- ينقش على بحره: أشارة إلى أن المصعبي يحاول أن يحرض علينا السلطات البريطانية ويتجسس علينا.

أن شافته عادل تؤيد موقفه
وأن شافته غلطان لازم تردعه
شف دي قده يدري ويعرف كل شيء
يمشي على مبدأ وخطة واقعة
ما حق له يمشي على دي تنزله
لازم يمشيها على دي تطلعه
هذه نصيحة لك ولا تزعل علي
أوبه تزر الحبل لما تقطعه
لا الطين عاطل كل بوها عاطلة
الهيج عاطل والزهب والمشرعة
ماعادشي فيدة مع دي يزرعه
يحرم عليه الزرع ماعد يزرعه
واسمع نداء الأحرار من صوت العرب
وخطاب ناصر دي طبع في المطبعة
يعلن على أقطار العروبة كلها
لازم يلاقي كل خائن مصرعه
ياراسي الليلة تذكر هاجسك
من طي امات السباع المسرعة
دي يعجب الرامي بها لا شلها
ولا دخل في الخوف ماشي يفزعه

دثينة أول جمهورية في الجزيرة العربية

جمهورية دثينة في محافظة أبين[1] جنوب اليمن، وكانت تحدّها سلطنة الفضلي وسلطنة العوذلي غرباً وسلطنة العوالق العليا شمالاً وسلطنة العوالق السفلى جنوباً. وهناك أسباب سياسة بحتة أدت إلى ظهور هذه الجمهورية.

1- ابين هي نسبة إلى ابين بن ذي يقدم ابن حمير ابن سبأ – وكانت سوق قبائل مذحج. قال عنها القاضي مسعود، اهلها اصح الناس مزاجاً واطيب النواحي تربة وماء وهواء وناسها فيهم الهمة وانفة النفوس. (صفة جزيرة العرب للهمداني).

تُعَدّ جمهورية دثينة أول جمهورية في الجزيرة العربية ورابع جمهورية في الوطن العربي بعد الجمهورية الطرابلسية[1] والجهورية السورية والجمهورية اللبنانية[2]، ثم تحول اسمها من جمهورية إلى ولاية دثينة، وكان لها برلمان. وطالب العاقل الحسني (حسين عبد الله المجعلي) باعتراف الجامعة العربية بها، لكن طلبه قوبل بالرفض. وتؤكد المصادر أن أرض دثينة التي باتت تُعرَف باسم جمهورية دثينة، ثم لاحقاً ولاية دثينة لم تتبع أي سلطنة آنذاك، حيث كانت سلطنة الفضلي والعواذل والعوالق العليا والسفلى تحيط بها من جميع الجهات، ولم يستطع أحد أن يأخذ تلك الأرض أو أن يضمها إلى سلطنته. وتأكيداً لذلك سقطت في عام 1966م طائرة تابعة للجيش البريطاني في ذلك الوقت، وقد تحطمت في أرض دثينة فحُمِّل السلطان الفضلي مسؤولية تحطّم تلك الطائرة، اعتقاداً منهم بأنها تتبع لأراضي سلطنته، وعند استفساره عن مكان الحادث، قال لهم إن تلك الأرض ليست خاضعة لسلطنته الفضلية، وإنها تابعة لدثينة، وهو بذلك لا يتحمل المسؤولية، وحمّل المسؤولية لأبناء دثينة.

مجلس حكم دثينة

دخل الاستعمار البريطاني إلى دثينة في بداية الأربعينيات (1942م)، ولم تكن تحتكم لشيخ واحد، ولهذا شكل لها في البداية مجلس دولة من تسعة أشخاص، ومجلس للمديرين، وكانت الرئاسة دورية بين المشايخ تحت إشراف ضابط بريطاني وضابط عربي، وبعد ذلك عُيِّن لها حاكم سُمِّي (نائب الولاية) بعد أن تغير اسمها من حكومة إلى جمهورية ثم إلى ولاية[3].

1- مع قرب انتهاء الحرب العالمية الأولى 1914 – 1919، وانكسار شوكة الدولة العثمانية وفقدانها لأراضيها في ليبيا، اجتمع وجهاء وأعيان وقادة المقاتلين في جامع «المجابرة» في مدينة «مسلاتة»، وأعلنوا في 18 نوفمبر عام 1918 عن قيام الجمهورية الطرابلسية، وانتخب لمجلس رئاستها كل من: رمضان الشتيوي السويحلي من مدينة مصراتة، سليمان عبد الله الباروني من جبل نفوسة، أحمد المريض من مدينة ترهونة، عبد النبي بالخير من مدينة بني وليد. كما تم انتخاب مجلس للشورى تألف من 24 عضواً، وعيّن محمد سوف المحمودي الطرابلسي رئيساً له. وبذلك تعد أو جمهورية في الوطن العربي

2- الجمهوريتان السورية واللبنانية في عام 1946

3- الضباط السياسيون الإنكليز الذين حكموا دثينة هم: المستر سيجر – المستر فيكس – المستر ولسن – المستر بدون – المستر كيلر – المستر ناش – المستر ميلن – المستر داي،

12 – السير عبد الله حسن جعفر الذي عمل في مودية ضابطاً سياسياً في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين، وقتل في ثمود وهو يعمل في شركة النفط البريطانية

13 – الشيخ حسين منصور نائب ولاية دثينة. وقد فُصل في 1–9–1966 بقرار من مجلس الدولة لأنه تمرد على السلطات الاستعمارية

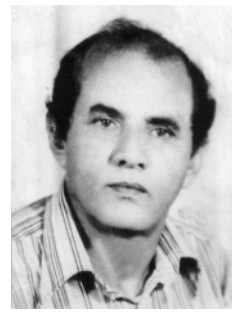

14 – الشيخ عبد القادر شائع أخر حاكم لولاية دثينة

الضباط السياسيون العرب الذين عملوا مساعدين للضباط الإنكليز وهم: عبد الله حسن جعفر العجمي – أحمد حسن مظفر – ثابت عبده نعمان – علي أحمد قاسم – علي عبد الله مدي – فضل أحمد السلامي – محمد علي مرشد – أحمد محمد زوقري – فضل حسن لصفوح – فضل حسن عباس – محمد فريد بن محسن العولقي – حسين ناصر البعسي – حسين منصور باجابر – عبد القادر صالح شائع ، كبار الموظفين الحكوميين في دثينة هم: أحمد علي مسعد – محمد أحمد باشراحيل – حسين سالم باصديق – عبد الله سعيد باعباد – أحمد سعيد باعباد – القاضي الشرعي السيد محمد جعفر السقاف ... وغيرهم.

15 – الشيخ علي هادي عضو مجلس الدولة في ولاية دثينة عام 1961م

16 – برلمان ولاية دثينة

تقسيم دثينة

وفي العام 1954م أنزلت بريطانيا مشروعاً خاصاً بتقسيم دثينة إلى جزأين يقضي بضمّ الجزء الغربي من دثينة إلى ما كانت تُسمى (السلطنة العوذلية) المعروفة اليوم بمديريتي لودر ومكيراس، وضمّ الجزء الشرقي إلى ما كانت تُسمى السلطنة الفضلية المعروفة اليوم بمديرية الوضيع وزنجبار وشقرة. إلا أن ذلك المشروع قوبل بالرفض والاستنكار من كافة الأوساط القبلية والاجتماعية في دثينة، وكان لشعرائها ومواقفهم الباسلة الدور الحاسم في

إفشال المشروع، وعلى رأسهم الشاعر الشعبي الكبير المرحوم ناصر عبد ربه مكرش (أبو حمحمة)، وكذا المناضل محمد علي فضل الصالحي.

أنشد الشاعر ناصر عبد ربه مكرش[1] عندما أرادت بريطانيا تقسيم دثينة وضمها إلى سلطنتي العوذلي وسلطنة الفضلي هذه القصيدة:

بـو حمحمة يـا ثـور در يـا ثـور وافطن
حـد عـمـرك لا تشل الـدفـة المقلوب
لا دولـة ولا سلطان في أرضـي تسلطن
قولها مـن صـدق مـا بـا قولها معتوب

وقال أيضاً:

يـا هـل الـسـيـاسـة والـبـصـر والمعرفة
لا تـقـربـون الكيس ذي لفعاة فـيـه[2]
لا بـا مـع الـفـضـلـي ولا بـا الـعـوذلـي
أنـا مـيـسـري مـكـتـوب وأمـي ميسرية
الـحـر أصـلـه حـر مـا حـد يملكه
لا جـاز لـه بـيـعـه ولا حـد يشتريه

وقال عن دثينة وأهلها:

يـا دان فـي شـعـب الـبـقـر
بقر صميتة لا لها ضـابـط ولا سنيور
لا تـعـرف إلا رعـيـة الـمـاء والشجر
ولا تعولشي على الفيدات والمخسور

ويقصد أن لا أحد يمكنه أن يحكم دثينة غير أهلها وهم لا يقبلون بسلطان أو أمير أو شيخ، فهم أحرار مثلما خلقهم ربهم.

وأضاف العم سليمان: قال ابن رامي علي وبو حمحمة الكثير من الشعر

1- شاعر عله: ناصر عبد الله مكرش أبو حمحمه.
2-

العاطفي والحربي وشعر المقاومة ضد الاستعمار ودخل «أبو حمحمة» الحبس أكثر من مرة بسبب أشعاره تلك، وخاصة عندما قال:

«ما نا سلامي يا حكومتنا وأهل المساني يا هليبية
هو خير لش تسعة من اللجنة أو خير لش ألفين شعبية؟»

(يقصد بذلك لجنة دثينة، وقد قال عنهم أحد الشعراء: تسعة رهط يضرون ولا ينفعون)

وقال الشاعر مسعود أحمد بن مقفل الوليدي في الموضوع نفسه:

ماشي لنا سلطان يا سبلة علة سلطاننا من سود زينات المتون
احنا دثينة شورها في كورها تحكم على امصوران لما يسمعون

وقال الشاعر محمد علي فضل الصالحي في ذات الموضوع وذات المناسبة:

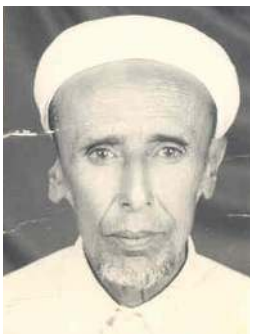

17 – الشاعر محمد علي فضل الصالحي

حيا الله الليلة برميان السلب
دي الدم لحمر من شواهدهن يلوح
يا ذا ويـــاذا وأنـــت يا ذا قل لذا
لا تنهلون الشاه للذيب الشتوح
لا عاد يشاريها ويأكل لحمها
وإنا حنبنا في الشبك لما الميوح

هـو انـتـو تـبـوا ماليتكم فـي أرضـكـم
ولا تـبـوهـا تـنـقـسـم بـيـن الـجـنـوح
الـبـنـت حـاضـي عـنـد أبـوهـا وأمـهـا
مـا حـد ملكها مـن زمـن آدم ونـوح
إن هـو يـبـاهـا قـد عـقـدنـا لـه بها
وإن مـا يـبـاهـا ريـت بـوهـا فـي ذلـوح

وقد خاطب الشاعر في هذه الأبيات مندوبي إدارة المندوب السامي البريطاني، موضحاً لهم أن لا يسمحوا بتسليم «الشاة» (ويقصد بها دثينة) للذئاب الجائعة، ويقصد بهم سلطنتي الفضلي والعوذلي.

حسين منصور وسلطان العوالق العليا

وحول تقسيم دثينة التقيت مع الأخ الصديق والمناضل عبد الله محمد الهيثمي الذي حدثني عن لقاء جرى بينه وبين الشيخ حسين منصور (نائب ولاية دثينة في الستينيات) في القاهرة بعد استقلال الجنوب.

يقول الشيخ حسين منصور إنه سمع أثناء عمله مع الاستشارية البريطانية في عدن أن دثينة ستقسم ثلاثة أقسام: المنطقة الجبلية (عله) وستضم إلى السلطنة العولقية (أنصاب)، ومنطقتا الحسني والميسري ستُضَمان إلى السلطنة الفضلية، ومنطقة السعيدي إلى السلطنة العوذلية. وكان هناك رأي آخر ضمن الاستشارية البريطانية يرفض هذا التقسيم. وبعد الحرب العالمية الثانية، في الخمسينيات، بدأت بريطانيا تمدّ نفوذها نحو المحميات الشرقية والغربية، وعند وصول قواتها إلى سلطنة العوالق العليا بعد تمرد قبائل آل ربيز، رفض السلطان صالح بن عبد الله التفاوض مع السلطات البريطانية واعتكف في منزله. كان الجيش العربي والجيش البريطاني قد أقاما معسكرات بالقرب من أنصاب، عاصمة السلطنة، بقيادة ضابط بريطاني يدعى ماكنتوش، ويرافق هذه القوة حسين منصور باجابر بصفته ضابطاً عربياً استشارياً لدى الضابط البريطاني، وقد رفض السلطان قبول الحماية البريطانية التي فرضت على السلطنات والمحميات الأخرى. وأبلغ المندوب السامي في عدن

وزارة المستعمرات البريطانية أنهم قد سيطروا على منطقة العوالق. وأبلغت الحكومة البريطانية المندوب السامي في عدن أن اللورد مونتباتن (آخر مندوب سامي بريطاني للهند وعمّ الملكة إليزابيث) سيزور عدن، ووضعوا ضمن برنامج زيارته زيارة سلطنة العوالق. فوجئ ماكنتوش بهذا الخبر وشعر بإحراج شديد لرفض السلطان مقابلته وسأل حسين منصور: ما العمل؟

أجاب حسين منصور: تربطني معرفة قديمة بالسلطان، فهل تأذن لي بمقابلته؟

فقال ماكنتوش: لا مانع.

ذهب حسين منصور لمقابلة السلطان، وحين قابله قال له: معي لك رزق.

قال السلطان: ما هو؟

قال: سيأتي مسؤول بريطاني كبير إلى هنا من العائلة المالكة، ويريدك ماكنتوش أن تقابله وتتناول الغداء معهم.

فقال السلطان: وماذا يريدون مني؟

قال: لا شيء، فقط تتناول الغداء وتعود إلى منزلك، وأي طلب لك تقدمه إلى الضيف.

قال السلطان: وإذا طلبوا مني الموافقة على وجودهم؟

قال: لن يطلبوا منك شيئاً.

وافق السلطان على اللقاء مع مونتباتن.

لويس فرنسيس ألبير فيكتور نيقولا مونتباتن (1900–1979)[1]

1– قدّم الإعلام الغربي عامة، والبريطاني بخاصة، اللورد مونتباتن وكأنه شهيد

وقال حسين منصور: أنا لي طلب يا سلطان.

قال السلطان: ماذا تريد؟

قال: أريد منك أن تطلب من هذا المندوب عدم تقسيم دثينة.

وافق السلطان. وقال حسين للسلطان: وأنا معي لك رزق (هدية) مئتا بندقية ومئتا ألف شلن وعشرون صندوق ذخيرة.

فرح السلطان ورحّب بهذه الهدية.

وبالفعل، وصل اللورد مونتباتن وتمت المقابلة واللقاء والغداء، وقال اللورد للسلطان: أي طلب؟

قال السلطان: نعم. الطلب الأول ألاّ تُقسَّم دثينة. والطلب الثاني أن هناك منطقة متنازعاً عليها بين سلطنة أنصاب وسلطنة الواحدي، وتسمى منطقة «آل باهدا» أريد ضمّ هذه المنطقة إلى سلطنة أنصاب.

فقال اللورد: في ما يخصّ تقسيم دثينة، لا مانع أن تبقى موحدة، ولكن في ما يخصّ الموضوع الثاني قال إن هناك وجهة نظر (أي إنهم سيدرسون الموضوع ولم يُعطِ جواباً قاطعاً).

عندها نظر السلطان نحو حسين منصور (الوسيط) دون كلام. فقال حسين: عشاؤك (هديتك) معك يا سلطان. وأنا معي وعد ممكن أن يوفى به أو لا يوفى.

وبعد عشر سنوات من هذا الحديث اختير حسين منصور نائباً وحاكماً لولاية دثينة بإجماع مشايخ المنطقة ومجلس الدولة بولاية دثينة، وهذا يدل

الإنسانية، وذلك البريء الذي راح ضحية البرابرة المجرمين، وجُرّد حادث الاغتيال من معناه الحقيقي كعملية إعدام لرجل يمّثل قوات الاحتلال في إيرلندا، وروّج للعملية وكأنها مجرد صراع بين عصابتين، راح الحمل الوديع ضحية لها.

قبل موته، كان اللورد مونتباتن يتمتع بخيرات إيرلندا، ويسكن في قلعة حجرية، ويمارس هواية صيد القريدس على قاربه الفخم المسمى «الظلال».

تحدث مونتباتن في شيخوخته عن حقوق الإنسان، وقال إنه يحارب التمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللون... أو الدين، ولكن على الصعيد العملي، كان ذلك اللورد على النقيض من ذلك تماماً، وكمثال، فإنه في عام 1947 كان نائباً لملك بريطانيا العظمى في الهند، وعندما حاول المسلمون التخلص من الاستعمار البريطاني والهندوسي في آن واحد، تآمر مونتباتن، وبسببه لا زالت كشمير تنزف دماً حتى اليوم.

على بعد نظره، وهو ليس له قبيلة، ولكن كان يستمد قوته من شخصيته ودعم البريطانيين له الذي مكنه من حكم ولاية دثينة التي كانت لا تحتكم لأحد وكان يحكمها قبل ذلك مجلس دولة مؤلف من 9 أشخاص يتداولون السلطة كل سنة تحت إشراف الضابط البريطاني.

وبعد إفشال ذلك المشروع اضطرت بريطانيا إلى تغيير تسمية المجلس من مجلس الدولة لجمهورية دثينة إلى مجلس الدولة لحكومة دثينة ابتداءً من عام 1954م.

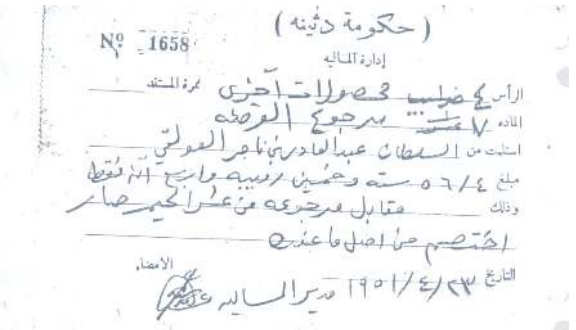
(حكومة دثينه)
إدارة المالية
No 1658
نمرة المستند
الباب
المادة
استلمت من
مبلغ
وذلك
الأمضاء
التاريخ

سند بختم حكومة دثينة

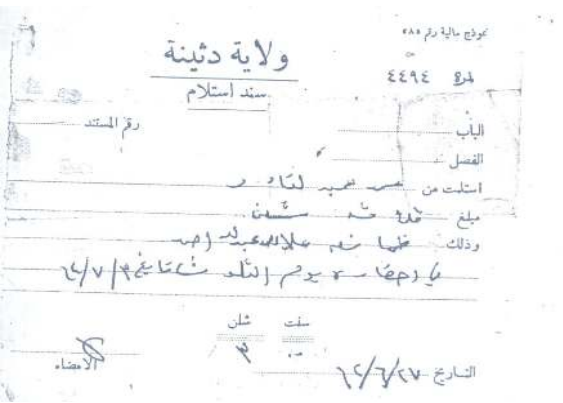
نموذج مالية رقم ٢٨٠
ولاية دثينة
سند استلام
رقم المستند
الباب
الفصل
استلمت من
مبلغ
وذلك
سلف
شلن
الأمضاء
التاريخ

سند بختم حكومة دثينة

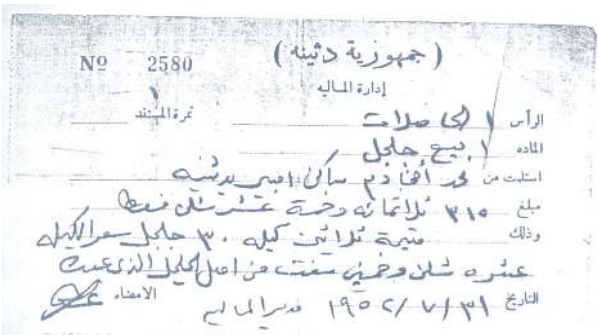
(جمهورية دثينه)
إدارة المالية
No 2580
نمرة المنفذ
الرأس
المادة
استلمت من
مبلغ
وذلك
الامضاء
التاريخ

سند بختم حكومة دثينة

دستور دثينة

دخلت دثينة اتحاد الجنوب العربي في فترة متأخرة، واشترطت الإبقاء على حكومتها السابقة، وقد وافقت بريطانيا على ذلك. واجتمع مجلس دثينة برئاسة نائب ولايتها، وذلك لوضع دستور لدثينة[1]، وكان المجلس يتكون من عدة شيوخ ممّن لديهم بعض الإلمام بأمور الدين والشريعة والادارة، ووضعوا بنود ذلك الدستور في عام 1961م، وسُمِّي دستور ولاية دثينة،

الصورة من احتفالات اقرار دستور ولاية دثينة في ميدان مودية عام 1961

1- دثينة – مشروع أطروحة ماجستير – لبيد حسين الجابري (صفحة 63 – 64).

وهو يتكون من الفصول والأبواب الآتية:

الباب الأول: احتياطات.

الباب الثاني: نظام اللجنة والرئاسة.

الباب الثالث: مجلس المديرين.

الباب الرابع: إجراءات تشريعية، وهو مكون من ثلاثة فصول، هي:

- الفصل الأول: تشريع اعتيادي.
- الفصل الثاني: تشريع مؤقت.
- الفصل الثالث: تشريع بأمر النائب.

الباب الخامس: المالية.

الباب السادس: الإدارة.

الباب السابع: المجالس المحلية.

الباب الثامن: المحاكم، وهو مكون من ثلاثة فصول، هي:

- الفصل الأول: المحاكم المدنية.
- الفصل الثاني: المحاكم العليا.
- الفصل الثالث: المحاكم الاستئنافية.

وقد جرت انتخابات لأول مرة لانتخاب مجلس قروي وهو أشبه بالمجلس المحلي تشارك فيه كل المناطق في ولاية دثينة تحت اشراف نائب وحكام الولاية.

المحاكم في دثينة

كان في دثينة العديد من المحاكم التي تنظر في القضايا بين الناس، ومن هذه المحاكم محكمة مودية ومحكمة امخديرة ومحكمة امقليتة ومحكمة الوضيع، وكان من أبرز القضاة الذين تولوا القضاء في محكمة مودية السيد محمد السقاف، وهو قاضٍ شرعي، والقاضي البابكري، وهو من مدينة بيحان، والقاضي محمد سعيد، ثم القاضي امهيثمي سميح.

وعمل في محكمة مودية العديد من الكتبة، منهم سعيد عثمان عشال وأحمد حسين بانافع وعبد الرحمن شيخ علي. وفي محكمة امقليتة كان

الحاكم محمد عوض الزامكي، وهو من جمعان، وقد نُقل بعد ذلك إلى محكمة مودية. وكان في محكمة الوضيع حاكم يدعى محمد سعيد، وحكام محكمة امخديرة هم من أهلها أنفسهم.

والقاضي محمد سعيد تزوج من المنطقة نفسها وأنجب أولاداً تبوّأوا مناصب لاحقاً في الدولة، وكان عندما يختلف الزوج مع زوجته يأتي إليه شاكياً أنه أخطأ بحق زوجته وطلقها، وأنه نادم على ذلك ويريد من القاضي أن يفتي بعودتها إليه. فيسأله القاضي: هل كانت واقفة أم جالسة؟ فيقول له: كانت جالسة. فيردّ له باللهجة المحلية: «طفّت»، أي لم تصبها الطلقة. وإذا كانت واقفة قال له: «هذه قصرت» أي لم تصل إلى فوق. ويحلّ المشاكل بهذه الطريقة، والمواطنون العاديون كانوا يصدقونه باعتباره قاضياً. أما هو، فكان بهذه الكلمات يحلّ مشاكل الطلاق والزواج ولمّ الأسرة من وجهة نظره.

وفي عام 1960م أصدرت بريطانيا مرسوماً يقضي بتغيير تسمية مجلس الدولة لحكومة دثينة إلى مجلس الدولة لـ(ولاية دثينة)، وعُمل بهذا المرسوم في السجلات والسندات الإدارية الحكومية في ولاية دثينة حتى التحرر من الاستعمار البريطاني والحصول على الاستقلال الوطني في 30 من تشرين الثاني / نوفمبر عام 1967م.

وبعد الاستقلال الوطني أصدرت الحكومة قراراً جمهورياً قضى بالتقسيم الإداري، اعتمد التسميات العددية، حيث قسّمت الدولة إلى ست محافظات تبدأ بالمحافظة الأولى عدن وتنتهي بالمحافظة السادسة المهرة، وقُسِّمت المحافظات إلى مديريات اعتُمدت في تسميتها الطريقة الجهوية (شرقية، غربية، جنوبية، شمالية، وسطى)، ودخلت دثينة حينها ضمن إطار المديرية الوسطى، وكانت عاصمتها لودر، وشملت في ذلك الحين لودر ومكيراس ودثينة وجيشان، وكانت تعرف إدارياً بالمديرية الوسطى من المحافظة الثالثة المعروفة اليوم بمحافظة أبين، وظلت على هذه الحال حتى صدور القرار الجمهوري الخاص بالتعديل الإداري الجديد عام 1972م الذي قضى بإلغاء المديرية الوسطى واستبدال مديريتن بها، هما: شمالية وشرقية، ضمت المديرية الشمالية في ذلك الوقت: لودر، ومكيراس، والوضيع، والجزء

الغربي لدثينة، وضمت المديرية الشرقية مناطق مودية والحسني والمحفد وجيشان وعاصمتها مودية[1].

وفي ما يخصّ نظام الحكم والإدارة قبل الاستقلال، كانت السلطات في يد مجلس الدولة الذي يضمّ في عضويته ثلاثة ممثلين من كل من قبائل: الحسني، والميسري، والسعيدي، وعضوين من قبائل أهل فطحان والعلهين. وكانت رئاسة المجلس دورية بين القبائل الثلاث الأولى. وكان لدثينة قوة عسكرية من الحرس القبلي يتمركز في مودية، وامقليتة، ولحمر، وامصرة، وحصن الشافعية، وامخديرة. وكان لحرس الحكومة مركزان في مودية وامخديرة.

وكان انضمام دثينة إلى الاتحاد الفيدرالي لإمارات الجنوب العربي في 12 آذار / مارس سنة 1960م، وكان يحكمها مجلس دولة مكون من تسعة أشخاص يتبادلون رئاسة المجلس فيما بينهم، وبذلك يمكننا القول إن دثينة عرفت شكلاً فريداً من أشكال تداول السلطة وشكلاً من أشكال الممارسة الديمقراطية يستحق الدراسة والتحليل، حيث كان يتمثل أبناء مناطق دثينة وقبائلها في مجلس الحكم من خلال ممثليهم في المجلس، وينتخب هؤلاء من بينهم في كل دورة انتخابية رئيساً للمجلس وحكومة محلية تهتم بإدارة شؤون الناس داخل ما كان يُسمّى (ولاية دثينة)، وكانت الرئاسة دورية تحت إشراف الحاكم البريطاني. وشكلت دوائر للصحة والتعليم والأمن والزراعة وغيرها من الدوائر التي يشرف عليها أعضاء المجلس. وضمّ آخر مجلس حكم لولاية دثينة قبل الاستقلال الشخصيات الآتية:

1. الشيخ علي هادي – ويمثل قبيلة آل حسنة.
2. الشيخ علي سليمان– يمثل قبيلة آل حسنة.
3. الشيخ علي عبد الله الصالحي – يمثل آل صالح (المياسر).
4. الشيخ عبد الله منصور – يمثل آل فرج (المياسر).
5. الشيخ سعيد محمد سالم امهيثمي – يمثل آل فرج (المياسر).
6. الشيخ أحمد حسين الطلي – يمثل آل ديان.

1- الفقرة السابقة من كتاب «صوت الريف» للشاعر أحمد عمر مكرش.

7. السلطان عبد القادر ناصر – يمثل آل السعيدي.
8. الشيخ الخضر حسن السعيدي– يمثل آل السعيدي.
9. الشيخ مسعود الكنهوش – يمثل آل فطحان والمشايخ.
10. الشيخ عبد الله الحامد[1] – ويمثل الجوف والمشايخ.
11. الشيخ صالح سواد، شيخ أهل فطحان.

وفيما بعد انضم إلى هذا المجلس: الشيخ محمد حسين المجعلي ممثلاً آل حسنة، والشيخ صالح سواد شيخ أهل فطحان، ويمثل آل فطحان، والشيخ محسن امكنهوش، والشيخ صالح علي محمد العلهي – يمثل العلهين عن مركز جيشان.

قبـــائل عـــلة وسعد العشيرة

عُلة هي بطن من قبائل مذحج، وحدودها من خورة حتى العلم قرب عدن. ورأس هذه القبيلة هو علة ابن مذحج، وله ثلاثة أشقاء هم: عنس ابن مذحج ومراد ابن مذحج وسعد ابن مذحج الذي لقب بسعد العشيرة لكثرة أبنائه وأحفاده الذين بلغ عددهم ثلاثمئة شخص، وكان إذا خرج في أي مناسبة يصطحبهم معه ويسير في مقدمتهم، فقيل عنه إنه وأبناءه يشكلون عشيرة كاملة.

ومن علة، قبائل قحطان في السعودية، ومنهم آل الرشيد الذين كانوا يحكمون الرياض قبل عبد العزيز بن سعود الذي أسقط إمارتهم، وكان قبلها لاجئاً في الكويت، ومن الكويت خرج مع أربعين شخصاً واستولى على الرياض وأقام إمارته، أي الدولة السعودية الثالثة على أنقاض إمارة آل رشيد وقحطان.

وتنتشر قبائل علة في الجزيرة والحجاز وزبيد وقعطبة والضالع، ومن قبائل مذحج من سكن عمان، لكن الفرع الأهم من علة هم سكان أبين[2].

وقبائل علة الجبال يسمون العلهين، ومساكنهم جيشان، وهم آل حسين وآل علي وآل منصور وآل امصقرية وآل مردع وآل امقيدة ومرجعهم آل حسين، وشيخهم اليوم عوض علي بن علي محمد، وهم يُعَدّون «مرد»

1- أصبح فيما بعد أول وزير للعدل في حكومة اتحاد الجنوب العربي، وكان أمّياً لا يعرف القراءة والكتابة كغيره من حكام إمارات الجنوب، وقد فاز بمنصبه الوزاري بالقرعة.
2- المرجع عبد الله محمد الهيثمي.

(مرجعية) علة من جهة الجبال، كذلك فإنّ الحنشي مرد علة من ناحية البحر، وقد قال عمر بن معدي يكرب الزبيدي:

لعمرك لو تجرد من مرادٍ عرانينُ[2] على دُهم وجرد[3]
ومن عنسٍ مقامرة طحونا ومن سعدِ ومن علة بن جلد
وتَجمع مذحجاً ويرأسوني ولأبرئت المناهل من معَدِ

وبالنسبة إلى حدود علة، قال الشاعر علي رامي:

يا الشافعي حيا على ما جيت له ذي تِبعتك من جنح خورة للعلم
إن كان حاجة والنبي ما أعطيتها لو با يسيل الحيد والوادي بدم

وهذه المراجيز قالها علي رامي عندما جاء السلطان صالح بن عبد الله الفضلي يطلب صلحاً من آل صالح لآل فرج، وقد قيلت أشعار كثيرة في هذه الحرب كما ورد سابقاً.

وعلة الجبال يوجد منهم آل مَصمع وآل باسنينة وآل البحيث في عطفة آل فطحان مجاورين قبائل ربيز ولهم حروب مشهورة معهم قيل فيها الكثير من الأشعار.

وقد قال الشيخ علي صالح معور الربيزي: أنا مجاور لقبيلتين: الأولى آل سعيد المرازيق، وهؤلاء مثلهم مثل ثعبان انتبهت من نومك ووجدته في أبطك لا تعرف كيف تتخلص منه وقد يلدغك في أي لحظة، والجار الآخر هو الفطحاني، وهم رغم قلّتهم إلا أنني لا أستطيع مواجهتهم إلا إذا أتيت بالعوالق كلها.

وقد قال الشاعر هادي أحمد بن البحيث في شعر متبادل بينه وبين الصَّوة الشمسي:

حيا بمولى الخط ذي جاء من دفع[3]
ما يزجم الراعد وما برقه سنا

1- عرانينُ: شمّ الأنوف.
2- دهم وجرد: خيول جرداء.
3- دفع وادي ربيز.

حييت به وأمسيت منه مشترح
مثل الشقر ذي لعصبه في روسنا
ما اليوم ماعدشي شقر با لعصبه
لما قده يحما بنا قمبوسنا[1]
لما قد الشارة يخيلها غبش
وانّ المصلي من حطيمه يذهنا
حيا مية والفين بك متعنية
يا زامل الصوة مدحمل حصننا[2]
حصن الميازر والحيور الضامية
ما واجب تمدح وهو داري بنا
جيتوا نهار الشك والماطر هشك
وانتوا تنعشر مية واحنا عدنا

ورغم قلة عدد أهل فطحان في عطفتهم إلا أن معور استعان بالعوالق لقتالهم.

والعطفة آخر حدود علة من ناحية شبوة، وجيرانهم آل حميد وآل شمس من ربيز، وقد خربوا العطفة قبل تسعين عاماً انتقاماً لديمح شقيق علي معور الذي قتله آل فطحان، وقد استعان معور بالعوالق واستعان آل مصمع بعلة. وبالفعل طلع من دثينة إلى العطفة آل حسنة والمياسر لعون إخوانهم، ولكن ربيز والعوالق لم يهاجموا العطفة خلال وجودهم هناك، وبقي الذين طلعوا الجبال من دثينة فترة عند آل فطحان حتى أنهكوهم بالمصاريف وهم كما قلنا قلة، وقد أراد معور ذلك لإنهاك آل فطحان اقتصادياً، وعمل على تأخير المعركة حتى انصرف آل حسنة والمياسر إلى مناطقهم، رغم أنهم حاولوا التحرش بالربيز وحلفائهم واشتبكوا معهم في عدة معارك محدودة لإثارتهم، وقيل إن بعض الأفراد من العوالق قتلوا في هذه المناوشات، ولكن معور تجنب الانجرار إلى هذه المناوشات حتى انصرف الجميع من العطفة ولم

1- قمبوسنا: رأسنا.
2- الحصن حصن العاقل سواد.

يبقَ فيها إلا سكانها القليلو العدد. وبعد ذلك هاجم معور العطفة، وكانت معركة غير متكافئة، حيث استولى الربيز على العطفة وخربوا دورها وقَتلوا مسعد صالح شقيق سالم صالح أحمد الربيزي، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل إن العوالق عند مهاجمتهم للعطفة دخلوا أحد البيوت ووجدوا الولد بين اثنتين من النساء، وكان البعض لا يريد قتل الطفل، ولكن أحدهم أطلق عليه رصاصة وقتله. ومن ضمن البيوت التي هدموها حصن العاقل سواد. وبعد خراب العطفة انتقل بعض آل فطحان إلى امصرة، وهي آخر حدّ لهم مع جيرانهم آل حسنة، وقال الشاعر سالم صالح في ذلك:

قـــال ســـالـــم مـــن الـــقـــهـــر جـيـنـا
يـــا الـخـلـي دي عـلـيـش الـمـسـاعـي
مـــن قـــهـــر يـــا عـــلـــه مـثـلـمـانـا
بـــان نـلـبـيـه مـــن غـيـــر داعـــي

وقد قيلت الكثير من الأشعار في حرب ديمح، وقد تأسف معور فيما بعد على ما جرى، وقد أرسل الصوة الشمسي قصيدة طويلة يبدي فيها أسفه لما حدث بين الجيران قال فيها:

يـا نـاشـر الـلـيـلـة مـن الـحـد النسم
خـــذ لا دثـيـنـة مـعـتـنـي واتـيـتـنـا
سـلـم عـلـى سـالـم وخـوتـه ذي معه
قـلـه مـقـاديـر الـسـمـا دي جـاتـنـا
واثـنـي عـلـى ســواد بـيـت المعقلة
ذي اصـطـاب بيته مـثـل لا هـو بيتنا
لا حـط فـي خـــادي ولا لـهـلـه سلم
الـلـه يصيبك وقـت ذي مـا حـد بيننا
هـــذا عـمـل سـالـم وخـوتـه ذي معه
ذي صـاح لـي بـالـشـرف[1] لـمـا لمنا

ويقول الصوة الشمسي في هذه القصيدة الطويلة:

1- الشرف: بنادق إنكليزية من نوع 303 .

عـــاد بـــا تـــــردون الـبـلـى لا أرضـنـا
مـــن حـيـث نـتـــولـــه[1] عـلـى عـاداتـنـا
لـشـعـاب سـلـبـة وامـــحـــرج ولا شنن
ولا فـــريـــعـــة[2] ذي بـهـا ذكـيـتـنـا[3]

وقد ردّ سالم صالح على الصوة الشمسي حيث يقول:

هـــذا الـخـبـر مـــن خـبـارة يـا بـــن علي
لـــكـــن لا ودك ولـــحـــنـــا ودنـــا
ذي حـــل فـــي امـعـطـفـة ورتـــب جابنا
والـــيـــوم بـــرد لـــك مـــطـــارح جـدنـا

ويقصد بذلك علي بن محمد العلهي الحسني «مرد» علة الذي تفاهم مع معور حول مقتل ديمح وألقى باللوم في مقتله على أصحابه آل فطحان، ووقف مع معور ضدهم. لذلك أشار الشاعر إلى أن موقف علي بن محمد العلهي ضد قبيلته هو أحد أسباب النصر الذي حققه الربيزي. وأشار الشاعر سالم صالح إلى شقيقه مسعد الذي قُتل في معركة العطفة مقابل ديمح، حيث يقول:

مـسـعـد بـديـمـح والـبـلـى فـي شعته
مـسـعـد رعـــه بـخـتـك وديـــمـــح بختنا

لكن الربيز ساءهم أن يكون ثأر ديمح بالطفل مسعد، ولذلك قتلوا امزاحف شقيق العاقل سواد، حيث قال علوي بن قدري العبودي الربيزي:[4]

لا قتل خوك يا امزاحف اصبر قد قتل عـاقـل[1] الكور كله

ومن الأشعار المتبادلة بين علة والعوالق في موضوع حرب الربيزي وآل فطحان، ما دار بين ناصر أحمد بن لزلم وسبع الفطحاني حين التقيا في زواج، وقال ابن لزلم:

1- نتوله: نتسلى.
2- فريعة: هي المكان الذي قتل فيه آل فطحان ديمح الربيزي.
3- ذكيتنا: ذبحتنا.
4- عاقل الكور: المقصود هنا ديمح.

يا سبع ما تراشي العوالق ذي خذوا عطفتك والمحلى
حكمنا مثل ما حكم ربي أو كدولة عرب مستقلة

وردّ عليه سبع الفطحاني:

يوم حكمك كما حكم ربي باتحيا العظام المكلة
وإن طلعتوا قد العرش لعلى[1] قل لربي وجبريل قله

وللعوالق مبالغات في أشعارهم، وقد التقوا في زواج، وقال حسين المحجلي العرولي:

يا ناصر أحمد بسألك من جدكم
شفنا على بو زيد[2] ذي عمه ذياب
شفنا عله من جنح خورة للعلم
ذي يهجعون الهيج شاخص كل ناب

وقد ردّ عليه ابن لزلم:

لا علم من جدك ومن منسبك شفنا العوالق ذي تفتح كل باب
والله ورأس اليوم مركزنا القوي ابنك على يدي من الزلات تاب

وسألوا المحجلي بعد ذلك: ويش رديت على بن لزلم؟ قال: هؤلاء فشارين. أي إنهم يزعمون أنهم مشاركون الله في قدرته.

وقال ابن لزلم:

العولقي قدرة من الله مُنزلة
مثل المحاسب ذي يحاسب في اللحود
أشهد لكم وانتو برا من مشهدي
أنه فزع دي هو على سفرة وعود[3]

1- العرش لعلى: العرش الأعلى.
2- بو زيد: المقصود هنا أبو زيد الهلالي..
3- السفرة: هي قطعة من الجلد المدبوغ توضع تحت الطفل المولود، والعود: السفينة، أي راكب السفينة.

وفي لقاء آخر بين ابن لزلم وسالم صالح قال ابن لزلم:

يـــا ســـالـــم الـــعـــطـــفـــة بـــهـــا مـــاطـــر
وانـــتـــوا تـــجـــمـــلـــتـــوا وذريـــتـــوهـــا
واحـــنـــا بـــلـــدكـــم قـــد خـــديـــنـــاهـــا
وانـــتـــوا بـــلـــدنـــا مـــا خـــذيـــتـــوهـــا

قيلت هذه الأبيات بعد معركة شَنّها العوالق مع آل شمس على امعطفة وحاصروا فيها هادي أحمد الفطحاني في حصنه، ولكنه خرج بعد ذلك في الوجيه بحيث لا يجري له شيء، وقال سالم صالح:

إحـــنـــا فـــســـلـــنـــا يـــــوم عـــدلـــنـــا
وإلا قـــد امـــجـــودة طـــرحـــتـــوهـــا
حـــمـــا ســـقـــط واحـــد فـــي الـــمـــحـــجـــى[1]
شـــفـــكـــم بـــصـــرتـــوهـــا وريـــتـــوهـــا

وعندما قتل الجعادنة مسعود صالح، شقيق علي صالح معور، قال الصوة الربيزي:

بـــعـــد مـــســـعـــود يـــا الـــقـــرن الـــشـــقـــي
بـــيـــنـــنـــا يـــا مـــن أقـــــوى ســـاعـــده
والـــــمـــــؤذن مـــن الـــكـــور الـــورب
والـــمـــصـــلـــيـــن تـــحـــت الـــســـاجـــدة

وقال سالم صالح:

قـــال ســـالـــم خـــذيـــنـــا أهـــل الـــجـــنـــن[2]
حـــيـــث مـــاشـــي قـــهـــاوي بـــــاردة
وإيـــــش نـــاجـــاك يـــا مـــولـــى الـــســـبـــب
عـــادنـــا وارد الـــمـــاء وارده

1- المحجى: تعني المتراس.
2- الجنن: جبل منيع تسكنه قبائل آل غسيل، وتُنطق في منطقة دثينة آل أسيل.

ولسالم صالح أبيات شعر فيها حكم منها:

قال سالم كلامي قيسه وأعطي السر ذي با يفهمه

ياعضه[1] خوزراني ليصه[2] ذي نبتي على عقلة همه[3]

وله أيضاً بعد حرب ديمح وبعدما تركوا أرضهم قال:

قـال بن صالح أمـه وجيعة لا بخيرة ولا مـوت جاها

تعبتني ودقـــت عظومي يا الله اليوم تقطع رجاها

ويقصد بأمه الأرض.

وقال سالم صالح عندما قتل آل وليد أخوه مبارك:

قال سالم عجز لا يرتجز والمعشر عجن عافيتها

مطرحه كان في كمن شجز والغنم في حمى راعيتها

وقيل إن آل فطحان عندما ذهبوا ليأخذوا ثأرهم من آل وليد، أشرف عليهم صالح أحمد أبو سالم صالح من الحصن، وقال لهم: لا تقتلوا إلا بر بقيشة، فلما دخلوا أرض آل حسنة يبحثون عن ابن بقيشة مكثوا عشرة أيام ولم يجدوه، فخاف سالم صالح انكشاف امرهم، وقال لجماعته: دعونا نقتل أي شخص من آل وليد، فقالوا له: لكن أبوك قال لا تقتلوا إلا بر بقيشة ونخاف إن قتلنا أحداً آخر أن يزعل، قال سالم صالح: أنا أتكفل بأبي. وقتلوا شابين من آل وليد وعادوا إلى بلادهم، ولما اقتربوا من امعطفة، قال سالم صالح شلوا هذا الزامل:

خذ ما سهل يا صالح أحمد شع ما سهلشي بر بقيشة

واليوم با ذوق وبا كل قد لي سنة ماذقت عيشة

1- العضة: الشجرة وتنطق في دثينة علة.

2- ليصه: وتعني مرن.

3- عقلة همة: مقر تجمع المياه، واسم الموقع «همة» وماء هذه العقلة لا ينضب وموقعها بالقرب من بيت أحمد حسين العرماني بالقرب من امصرة.

الفصل الرابع

عـــادات وأعـــراف

17 – طريقة التقاضي القديمة

يبدو في الصورة الشيخ عبد الله منصور وقاضي مودية السيد محمد السقاف

كانت القبائل قبل دخول الإنكليز إلى المنطقة تعتمد في حلّ مشكلاتها على الأعراف والعادات القبلية السائدة في المحميات، حيث تقدم الدعوى إلى حجيرة دثينة التي كانت تتكون من العقّال، أي مشائخ القبائل والأعيان، وكانوا إذا ما واجهوا أمراً اجتمعوا وتناقشوا في ذلك الحدث إلى أن يتوصلوا إلى حلّ. وهؤلاء الحكام أو المشايخ يتمتعون بالنزاهة لكونهم مرجعية القبيلة الأم «علة» وأحكامهم لا تنقض. والجدير بالذكر أنّ هذه الحجيرة لا يرأسها أحد. وإذا كان الأمر الذي اجتمعوا من أجله يخصّ طرفين لم

يقتنعا بالحل، يختارون أحد المشايخ أو أحد الأعيان الذي يُتَّفَق عليه بين الأطراف المتنازعة، ويكون الإشعار بإرسال رسالة أو رسول إلى الشخص أو الأشخاص المعنيين، ويجب أن يقدم الحضور «وجهاً» (ضماناً) أو أن يودعوا مستنداتهم وأقوالهم للحاكم، وتجري المرافعة علناً أو سراً على» السَّلقة»[1] ويبدأ المدعي بقوله: (عند الله وعندك) وبالله وبك يا حاكم العرف بأنّ فلاناً أي المدعى عليه... ويشرح قضيته وهم جلوس على ركبهم أمام الحاكم ويبدأ «الجدل» كما يسمونه في المنطقة، أي الترافع، وتوجه إليهم الأسئلة، وبعد أن تُستكمل الإجراءات يصدر الحكم، ويسألهم الحاكم عمّا إن كانوا قابلين بالحكم، وإذا لم يقتنع الطرف المتضرر من الحكم يُلجأ إلى حاكم آخر أعلى درجة ومكانة في المجتمع يقتنع به الطرفان لإصدار حكم في النزاع.

وحين لا يرضى أحد الأطراف لأيّ سبب من الأسباب بالحكم في مراحل التقاضي الأولى، يرفض الإذعان له، وتستمر المشكلة إلى ما شاء الله من الزمان، ويستمر معها مسلسل القتل والثأر والدماء. وأحياناً قد يؤدي الشخص الذي يُحتكَم إليه دوراً غير نزيه بين الأطراف تحت أي مؤثر من المؤثرات، كالإغراءات المالية والمادية وبعض الروابط الخفية، أو لشعوره بالنفور من أحد الأطراف، فيعمل سراً لمصلحة أحد الأطراف على حساب الطرف الآخر. والمثال على ذلك أن أحد أبناء القبائل تنازع على أرض مع قبليّ آخر، وبينما هما على «سلقة» العاقل الذي يحكم بينهما، دخل ابنه الصغير الذي جاء من خارج المجلس وارتجل أمام الحاضرين شعراً قال فيه:

هندي وسندي هرجهم ما هو فتي
حمّا في الوادي يكمون النخوس
حمّا أبصر السعدي يكلم لسودي
ما ودي أنك قمت من بين الجلوس

ومعنى ذلك أن الصبي الصغير شاهد العاقل الذي يحتكمون إليه وهو

1- السلقة: بساط مصنوع من السعف.

يتبادل الحديث الهامس مع غريم والده في الوادي المجاور، فحذّر أباه من أن الحكم لن يكون لمصلحته وأن العاقل ليس نزيهاً.

فما كان من والده إلا أن ردَّ عليه شعراً وقال:

قـل يـا لله الـهـادي ويـا مـولـى الهدى
تـسـقـي بـلـدنـا مـن تـقـاديـم الـلـبـوس
حـــدّي بـلـد جـــدي ولا بـــنـــدّي قـدي
بـا نصرف السعدي بزينات الخموس

ومعنى ذلك أنه لن يفرّط في شبر من أرض جده، وسيدافع عنه بالسلاح ولن يقبل الحكم.

ومثل هذه القصة عن عدم القبول بأحكام العقال كثير، ويعود السبب إلى صعوبة إقناع النفس البشرية بالاعتراف بحقوق الآخر، وإصرار كل طرف على أنه صاحب الحق وحده دون الآخرين، وينطبق هذا حتى على المحاكم الحديثة.

وإذا ما لمس أي طرف من أطراف النزاع من الشخص المختار أي ميل نحو الطرف الآخر، فإنه ينتقل إلى «سلقة» أخرى، وإذا لم يتفق طرفا النزاع على شخص معين للحكم بينهما، يختار كل منهما من يمثله ويفوض إليه أن يتفق مع من يفوض إليه الطرف الآخر اختيار من يحكم بينهما. وحين يرى الحاكم الجديد أن القضية طالت أكثر مما يجب، يصوغ حكماً أو اتفاقاً بين المتخاصمين ويُسمّى هذا الاتفاق «الرّشو« (بتشديد الراء وتسكين الشين) يوقِّع عليه المتنازعان، وليس لأي طرف منهما إلا ما حكم به، ويصبح هذا الاتفاق ملزماً وواجب التنفيذ.

ومن المرجعيات المهمة في دثينة، ويعتبر حكمها نهائياً، المرجع القبلي شيخ قبيلة الحنشي، ويُسمّى «مرد علة» من ناحية البحر، والشيخ «العلهي» في جيشان، ويسمّى «مرد علة» من الشمال. وعند وصول المتخاصمين إلى أحد هذين المرجعين، يُعَدُّون ضيوفَه لعدة أيام، يعرضون خلالها مشكلتهم عليه، ويقوم هو بدراستها وفهم تعقيداتها ليصدر حكمه بعد دراسة وافية دون تسرع أو استعجال. وبعد أن يصدر حكمه، يصبح نهائياً ولا يمكن نقضه، وكأنه محكمة استئناف عليا.

عقوبات وأحكام

مع ذلك، فإن الأعراف القبلية أو كما يسمونها «شروع القبيلة» التي كانت تنظم حياة القبائل كانت موجودة وحاضرة دائماً ولم تترك شاردة ولا واردة في حياة أبناء القبائل إلا وسُنَّت لها الضوابط والأحكام، سواء في ما يتعلق بالجرائم والجنايات ذات الطابع الجنائي من قتل وإصابات، أو من جرائم الاعتداء على الممتلكات، كالأراضي والسواقي والأشجار والحيوانات، أو في ما يتعلق بالأمور المدنية المرتبطة بشؤون الحياة اليومية، كالزواج والموت والمصاهرة والنسب وغيرها.

فمن الأحكام القبلية ما عالج قضية تقنين استعمال السلاح وتنظيم استخدامه حتى لا يرفع في وجه الآخرين بمناسبة أو دون مناسبة، ومن دون الحاجة إلى ذلك. فأحد حكماء العرب قال: أنا لا أشهر سيفي حين تكفيني يدي، ولا أرفع يدي حين يكفيني لساني، ولا أخرج لساني حين يكفيني حلمي. وهذا يدلُّ على حرص العرب على عدم استخدام السلاح إلا في الحالات القصوى، كالدفاع عن النفس والعرض والمال ونحوهما.

وكانت قبائل الجعادنة إذا اختلف أفرادها ولم يعد للكلام فائدة في تهدئة النفوس الثائرة يقومون جميعاً برمي «جنابيهم» وبنادقهم ويتقاذفون بالحجارة حتى تسيل دماؤهم، ثم يتدخل أحد شيوخهم من كبار السن ليصلح فيما بينهم، ويكون الإصلاح حينها ممكناً، ولو استخدموا في هذا الشجار الخناجر والأسلحة النارية لأُزهقت الأرواح، ولاستحال إصلاح ذات البين بينهم.

وفي العرف القبلي، كان من العيب أن يرفع القبيلي سلاحه في وجه شخص لا ينتمي إلى فئة القبائل أو يقتل طفلاً أو امرأة أو يقتل عدوه من الخلف، ولا بد أن يقول لخصمه قبل أن يقتله: «وجهك يا فلان»، حتى يلتفت إليه ثم يقتله. وكان من العيب أيضاً أن تقتل خصمك إذا كان في ضيافتك أو ضيافة أحد أفراد قبيلتك، أو أن تغدر بخصمك بأي أسلوب كان.

ومن القصص التي رواها لنا والدي، أن مجموعة من أبناء قبيلة أهل

وليد، كانوا في ضيافة أحد سكان قريتنا من أهل امقيلب، وكان ممن حضر وليمة العشاء التي أقيمت للضيوف شخصان من قبيلتنا «أهل باجعم» واللذان ما إن شاهدا بنادق الضيوف الجديدة حتى بدأ أحدهما يسأل الضيوف إن كانوا يجيدون فكّ هذا السلاح وتنظيفه وصيانته، فقالوا إنهم لا يعرفون، فقام وزميله بفكّ بنادقهم وأخفيا إبرها، وكان في نيتهما أن يجهزا على الضيوف بعد خروجهم من الضيافة ثأراً لمقتل أحد أبناء القبيلة، أو ربما طمعاً في أسلحتهما الجديدة، وعندما أبلغ والدي بما جرى، اشتاط غضباً من هذه الفعلة المعيبة وأجبرهما على إعادة البنادق إلى وضعها السليم وقال لهما: «إن كنتما رجلين، فعليكما بمواجهتما وجهاً لوجه، وليس باستخدام هذا الأسلوب»، ورافق الضيوف حتى آخر حدود القبيلة.

وكانت أرض قبيلتنا أهل محكل، كما قال العم سليمان عوض، أرض أمان لكل القبائل المتقاتلة، وأدت حنكة والدي وحكمته في تحويل أرض قبيلتنا إلى ما يشبه الملاذ الآمن الذي لا تجرؤ أي قبيلة، بما فيها قبيلتنا الأكبر أهل باجعم، على قتل الخصوم على أرضها.

وقد قال الشاعر أحمد عمر بن هديل في «بلاء امحبيل» الذي استمر عامين بين أهل ناصر حسين وأهل منصور بعد مقتل علي ناصر هادي ورفض والدي الانضمام إلى قبيلتنا آل باجعم ومعهم قبيلة آل منصور وجزء من قبيلتنا (آل محكل) في الحرب ضد جيراننا في امقوز، آل ناصر حسين، ما أدى إلى معاناة كبيرة لأهل القرية.

وقد جرت في هذه الحرب مراجيز مشهورة بين علي هادي وسليمان محمد منها:

علي هادي:

امـــقـــوز حـكـمـه لـــي وعـــشـــره لي
وانـــتـــوا لـكـــم طـيـبـه وشـبـابـه
يـــا الـمـكـتـلـف رد الـبـــلاء مـنـا
مـــن بـنـدق أهـــل امـــقـــوز وأصـحـابـه

رد سليمان محمد:

يـا دي تـقـول امـقـوز فـي حكمك
وش عـرفـك وش دخـلـك بـابـه
قـد كـان لـيـه نـصـف فـي الـمـطـرح
والـيـوم خـذت امـقـوز بـاطـنـابـه
قـولـوا لـبـر هـادي عـلـي يـسـري
عـشـريـن شـواعـة ورتـابـة
قـد مـا خـرجـشـي الـمـاء فـي امـبـصـراء
مـاهـل يـبـا قـاحـل مـع أصـحـابـه
امـداربـي بـشـعـة لـمـن عـانـى
إن كـان لا خـلـى تـرتـابـه
خـذت امـنـمـر والـمـال كملته
وانـتـه قـفـا عـشـقـة ومـلـعـابـة

وقال عمي سليمان: «لم يكتف والدك ناصر وقبله والده وجده ومعهم أخوتهم وأبناء عمومتهم من أهل محكل بمنع القتل على أرض قبيلتنا وجعلها أرض أمان للجميع، بل إن جدك محمد سليمان فتح حصنه وآوى بعض أفراد قبيلة آل زامك، وهي أكثر قبيلة تقاتلت مع قبيلتنا، فشبوا وترعرعوا في حصن جدك محمد سليمان بعد مقتل والدهم، وقد دخلوا امفرعة وهم أطفال صغار، وخرجوا منها شباباً في سنّ القتال، وقد حماهم جدك محمد سليمان رغم رغبة البعض من أفراد القبيلة في إطفاء نار هذا البيت الشجاع».

ومن الأمور الطريفة التي تنمّ عن احترام القبائل لروابط الجوار والقربى أنّ بعض أفراد القبائل عاشوا وسط أفراد القبائل المتقاتلة مع قبائلهم، وكانوا لا يمسونهم بأي سوء، وعندما تنشب الحرب، بين الطرفين يسمح لهم بالالتحاق بقبيلتهم والاشتراك في الحرب. فمثلاً أهل جوهرة كانوا يعيشون بين أهل منصور، رغم انتمائهم إلى قبيلة أهل باجعم المتقاتلة معهم، وأيضاً أهل هادي بن سالم وأهل ناصر بن علي كانوا يعيشون مع أهل منصور، رغم أنهم ينتمون إلى أهل زامك ألدّ أعدائهم.

وعودة إلى الحديث عن العقوبات التي جرى التعارف عليها باعتبارها

أحكاماً لمختلف القضايا في الشرائع القبلية التي كانت سائدة، فإن من يمسك قبضة جنبيته بقصد سحبها على خصمه لإخافته أو تهديده ولم يخرجها لوجود مانع حال دون ذلك، يحكم عليه بغرامة قدرها 12 ريالاً فرنصة (ريال ماريا تريزا الفضي) مع «مسند وتعشيرة»، حيث يذهب الجاني وقبيلته في موكب قبلي يُسمَّى مسند يطلقون النار في الهواء أمام بيت الشخص المجنيّ عليه كنوع من الاعتذار وطلباً في مسامحة الجاني. وجرت العادة أن يرحب أهل المجنيّ عليه بالضيوف ويذبحون لهم الذبائح ويكرمونهم ويقبلون اعتذارهم، وفي أحيان كثيرة يردون الغرامة ويكتفون بالاعتذار.

18 – الجنبية

أما إذا أخرج الجاني جنبيته وأصاب الشخص المستهدف دون أن يقتله، فتدفع قبيلته نصف الدية، وكانت 300 ريال فرنصة مع «مسند وتعشيرة»، أما إذا كان الطعن بطريق الخطأ، فتحل المشكلة بالتراضي يميناً وتعشيرة، أي أن يقسم الجاني اليمين أنه لم يكن متعمداً وتعتذر قبيلته في مسند وتعشيرة.

ومن «شحَّن» (عمَّر) بندقيته على شخص أو أشخاص دون إطلاق النار عليهم يحكم عليه بثلاثين ريالاً ومسند وتعشيرة، وإذا أطلق النار ولم يصب خصمه يغرم بنصف الدية (300) ريال ومسند وتعشيرة، وأما إذا أصاب أحدهم إصابة غير قاتلة فيحكم عليه بنصف الدية (300) ريال ومسند وتعشيرة، وأما إذا قتل شخصاً فيحكم عليه بالقتل، إلا إذا قبل

أهل المجنيّ عليه الدية (600) ريال «ماريا تريزا»، وإذا اشتركت مجموعة من الأشخاص (قبيلة) في إطلاق النار على شخص وقتل ولم يعرف القاتل تدفع القبيلة الدية (600) ريال إذا قبلت قبيلة المجنيّ عليه الدية، أما إذا لم تقبل فإنها تأخذ ثأرها من القاتل أو أحد أفراد قبيلته، حتى وإن كان بريئاً بحسب المثل القائل: (إذا لم تجد القتَّال (القاتل) اقتل ابن عمه). وقد ميَّز العرف القبلي بين القتل المتعمد والقتل الخطأ، ووضع العقوبة بما يتناسب مع كل حالة على حدة. لذلك، إن من يقتل دفاعاً عن ماله وشرفه وأهله، يُعفى من الدية، ولا تستطيع أسرة المجنيّ عليه المطالبة بدمه، وإذا لم يثبت أنه كان يدافع عن ماله وعرضه يدفع 25 ريالاً. وقنّنت هذه الأعراف كل الأنواع والحالات في إطلاق النار واستخدام السلاح وحتى التشاجر البسيط، فمن يرمِ حجراً على شخص ويُصبه يعاقَب بـ12 ريالاً ومسند وتعشيرة.

وفي ما يتعلق بقضايا الأرض والسواقي والزراعة، فإن الأحكام القبلية لم تترك شاردة ولا واردة إلا تعرضت لها في أدقّ تفاصيلها، ما يؤكد الخبرة العظيمة التي توارثها الأجداد في تنظيم الزراعة وشؤونها وشجاراتها، فكل شخص يقطع عبراً «ساقية» أو يقطع «جربة» (أرض زراعية محاطة بحاجز طيني لحجز الماء) إلى أرضه والماء مستمر إلى طين غيره، وأدى ذلك إلى حرمان طين الغير الماء، مع توافر قصد إثارة الفتنة، يدفع 50 ريالاً ويلزم بإصلاح الأضرار التي أحدثها في السواقي والأرض. أما إذا ترك الماء يذهب إلى طين الغير بقصد إتلاف مزروعاتهم فيدفع قيمة الأضرار ويصلح ما أحدث من أعطال. أما إذا حرث شخص أرضاً دون موافقة المالك فيعَاقب بـ25 ريالاً وإصلاح الأرض وإعادتها إلى صاحبها، وكل شخص يقوم بإزالة سوم أو دحره بقصد توسيع ملكه يعاقب بغرامة مالية قدرها 30 ريالاً، وكل شخص يقوم برفع أو خفض سوم مشترك يعاقب بعشرة ريالات وإعادة السوم إلى وضعه السابق، وكل شخص يؤجر أرضه على شخص آخر ويبسط عليها قبل نهاية المدة المحددة يعاقب بعشرين ريالاً وتعويض الضرر الذي ترتب على بسطه، ويسري ذلك على المتأخر الذي يرفض إعادة الأرض دون سبب مقنع.

وكل شخص يدخل أبقاره إلى طين غيره يعاقب بـ 25 ريالاً، وكل شخص يدخل ماشيته عمداً في مزروعات الغير وأتلفها أو أتلف بعضها يعاقب بخمسة ريالات مع التعويض المضاعف للمتضرر. وكل شخص أدخل مواشيه إلى أرض زراعية وأتلفها يدفع خمسة ريالات وقيمة المزروعات التالفة.

ولم تترك هذه الأحكام والأعراف صغيرة ولا كبيرة إلا تعرضت لها، ولو التزمها الناس وتقيدوا بأحكامها لتجنبوا الكثير من المشاكل والمصائب.

زنّارة اليهودي[1]

وللقبائل عادة حماية المستجير بهم (الربيع) مهما كانت حالته أو ديانته.

قال العم سليمان: اعتدى بن عبادي على يهودي «ربيع» ساكن في ذوبة وقطع «زنّارته» (خصلتي شعر تتدليان من الصدغين) عندما رفض تسليم حماره لبن عبادي ليقوم بتحميل شوال «دوم» (ثمر شجرة السدر) عليه. وعندما أخذ منه الحمار بالقوة واتجه به إلى قرية جمعان، صاح اليهودي وسمعه محمد امشيبة وسليمان بن حسين فأطلقا النار على بن عبادي وقتلاه، وبعد ذلك استمر القتال بين أهل باجعم وأهل زامك وهم من قبائل آل حسنة ثلاثين عاماً، قتل وجرح خلاله العشرات من الطرفين بسبب (نطاق) اليهودي.

وكان اليهود قد غادروا اليمن إلى فلسطين المحتلة عام 1948م، وقد جُمِّعوا في منطقة حاشد بالقرب من الشيخ عثمان، ومن يهود قريتنا الذين غادروا: منصور اليهودي وعوض وسالم اميهودي، وغيرهم من اليهود في الجنوب في عملية نقل جوي سُميت بساط الريح.

1- في إحدى المرات كان هناك مشكلة بين قبيلتي آل فرج وآل صالح على قضية وذهبوا إلى سلطان العواذل حسين جعبل، فحكم بأربعين يميناً على آل فرج. وعند عودة آل فرج إلى قريتهم لم يجدوا العدد الكافي إلا 35 وأضافوا 5 يهود وعملوا لهم عمائم تغطي لهم الزنانير وأدوا اليمين كلهم. وبعد أيام تسرب الخبر إلى آل صالح. أن آل فرج أضافوا خمسة يهود إلى عددهم وحلفوا اليمين، وحدثت مشكلة بين القبيلتين فقال أحدهم وهو من قبيلة آل صالح: كلهم يهود. وضحك الجميع.

19–20 – يهود جمهورية دثينة يغادرون عدن عام 1948م
إلى فلسطين من منطقة حاشد بالمنصورة (حالياً)

21–22 – صورة أثناء الحريق الذي أصاب ممتلكات اليهود عام 1947م

23 – اليهود في معسكر ميتروم حاشد

24 – موري عوض

وبعد النكبة في فلسطين عام 1948م نشأت حالة من الحقد على اليهود وعلى الصهاينة، فاندلعت انتفاضات ضدهم في معظم المدن العربية والإسلامية، وفي الجنوب ثار الشعب عليهم أيضاً واستشهد في هذه الانتفاضة الشهيد عتيق، وكانت الهتافات في جنازته تقول: يا عتيق يا بو الصلاة... لا إله إلا الله. وقد رُحِّل معظم اليهود برعاية الوكالة اليهودية وبتسهيلات من قوات الاحتلال البريطاني عبر عملية بساط الريح[1].

25 – يهود يمنيون في مطار عدن الدولي بانتظار ترحيلهم إلى إسرائيل

1- تكفلت الوكالة اليهودية بنقل اليهود من اليمن شمالاً وجنوباً بين عامي 1948 و1949 بموافقة الإمام أحمد والسلطات البريطانية في عدن، ورُحِّل أكثر من 50 ألف يهودي إلى فلسطين، ودفعت الوكالة اليهودية كافة تكاليف النقل البري والجوي.

ســـوق الســـبت

وبعد الحديث عن النزاعات والحروب القبلية ودخول بريطانيا المنطقة والأحكام العرفية في دثينة. كان علينا أن نجدَّ في السير ولا نتوقف. وكان علينا إذا أردنا أن نأكل أو نشرب أن نفعل ذلك ونحن سائرون قبل أن نحطّ الرحال في محطتنا الأولى في هذه الرحلة. ولم نتوقف في القرى التي مررنا بها: امداره، والشافعية، والبطان، فمنزل منصور هادي.

كان على يميننا سوق السبت، وعلى يسارنا قرية المحفحف التي تقع في حضن جبل بركاني ويسكنها المشايخ أهل عبد الحامل (يقال إن المشايخ هم من سلالة عمال الدولة الأموية وولاتها).

26 – الشيخ حسين منصور نائب ولاية دثينة

27 – افتتاح مطار السبت في دثينة عام 1962 وتبدو في الصورة طائرة داكوتا

قال العم سليمان: شوف سوق السبت ما أكثر امتسوقين الله أكبر عليهم، (أُنشئ بعد ذلك حوله مطار للطائرات).

قلت له: هذا السوق لمن؟

قال: لأهل امجعلي، والناس يتسوقون فيه يوم السبت، يأتون من كل مكان من أرض أهل حسنة والمياسر وامجعادنة، ويتبادلون فيه الغنم والسليط والذرة والسمسم، والذي عنده قروش وريالات فرنصة (ماريا تريزا) يشتري. ومثل هذا السوق يوجد مثيله في سلطنة العوذلي بلودر[1] واسمه سوق الأحد، ويوجد سوق الثلوث في الوضيع. وفي هذه الأسواق يتبادل المتسوقون البضائع بدل النقد أحياناً.

28 – سوق السبت في عام 1945

قال العم سليمان: في إحدى المرات عسكر في سوق جحزوم (سوق السبت) الجيش البريطاني، وعملوا رمَيْ بالمدافع وخوفوا خلق الله بالمدافع والطائرات، وبعض القذائف انفجرت وسط السوق، وقُتل وأُصيب بعض الناس، وحصلت مشاكل كثيرة.

وبعض الناس أخذوا «الخشرة» (خرطوش المدفع) وحولوها إلى

1– وكان يُسمى سوق الأربعاء، ويقال إنه حدث قتال بين قبائل من العواذل وقبائل من علة، وقتل عدد كبير من الناس، وجرح آخرون، وقطعت آذان البعض، ولذلك يقولون عن الأربعاء أمبرك أو يوم النوم.

مناحيز[1] لدقّ البن والزنجبيل بعدما دقونا بهذه المدافع أبو 25 رطل، الله يدقهم.

توقف بعد ذلك العم سليمان للحظات وواصل حديثه قائلاً:

وكان لقبائل أهل حسنة ثلاثة أيام في الأسبوع يمنع فيها قتل أي شخص يتجه إلى السوق وهي: الجمعة والسبت والأحد، أي يوم الذهاب إلى سوق السبت والتسوق فيه والعودة يوم الأحد، وإذا حدث قتل في هذه الأيام الثلاثة فإن أهل حسنة يمنعون قبيلة القاتل من دخول السوق حتى يدفعوا ما يسمى «باللوم» أي مبلغ من المال مقابل التعدي على حرمة السوق ويذهب لعاقل أهل حسنة، وهو صاحب السوق، وهذا هو العرف الحسني الذي أصبح متعارفاً عليه بعد أن سنّه عاقل آل حسنة الشيخ عبد الله حسين المجعلي، فأصبح السوق وطريق الذهاب إليه والعودة منه بضمانة الحسني.

وعلى سبيل المثال، فإن امعلوي، وهو من قبيلة المراقشة، قتل شخصاً في السوق وقام جميع من في السوق ضد قبيلته وقتلوا منهم تسعة أشخاص، ومنهم القاتل امعلوي، وأصبح مثلاً للشؤم حيث يقول الناس «مسراح امعلوي»، أي إنه ذهب ولم يعد.

وكان تأمين مياه الشرب للمتسوقين في سوق السبت يتولاه الشيخ ناصر أحمد امارم الذي تضع قبيلته المياه للذاهبين والعائدين من السوق تحت الأشجار على امتداد الطرق المؤدية إلى السوق ومنه.

وقال العم سليمان: كان لسوق لودر حرمتها الخاصة التي يعاقب بموجبها كل من يحاول التعدي وانتهاك حرمة السوق، إذ - وفقاً لهذه الأعراف - إن من يرتاد هذه السوق يكون آمناً من القتل أو السلب حتى اليوم الذي يلي يوم السوق الذي كان يقام كل أحد من كل أسبوع، وفي حالة انتهاك حرمة السوق في مثل هذا اليوم فإن ذلك يكون سبباً كافياً للحرب بين القبائل، وقد كانت حماية سوق لودر تقع تحت مسؤولية قبيلتي البجيري والطهيفي.

وكان للعرب أسواق شعبية تقام طوال الأسبوع، كسوق عكاظ وسوق

1- في بعض البلدان العربية يسمونه الهاون.

دومة الجندل التي عرفها العرب قبل الإسلام، وفي شمال اليمن هناك أسواق شعبية كسوق الخميس والسبت والجمعة وغيرها.

وفيما استغرق العم سليمان في حديثه عن سوق السبت، تذكر قصة بن حويدر[1] (عوض أحمد عمار الحنشي) والمساجلة الشعرية التي جرت بينه وبين الشاعر أحمد بن قاطش المارمي في سوق السبت. فقال: في يوم من أيام امسوق التقى ابن حويدر بابن قاطش وقال له قبل ما يردّ عليه السلام:

يا حاز بحزيك يا أحمد من حجر واقعة
تدرج في الأرض من هو با يقع في دراها

فرد عليه ابن قاطش وقال:

خـافـه امـقـتـل دي بيني ودي بينكم
والحجر ما تـدرج إلا حيث تلقى وطأها

وكان بن حويدر يقصد الحرب ومن سيكون القادم في نارها.

قال برطم: ونعم والله من قبيلي بر حويدر.

قال عمي سليمان: مرة جاعوا أصحابنا وراحوا لحج يشتوا (يريدوا) حب (حبوب) من سلطان لحج و«حما» (عندما) «استندوا» (أقبلوا)على لحج قال لهم سلطان لحج: معي يا بدو شاعر إذا جوبتوا عليه باعطيكم حَبْ وإذا ما جوبتوا أنتوا أدرى بأنفسكم. قالوا له أصحابنا: خلِّ صاحبك يبدع وماله إلا جواب. وسألهم الأمير أحمد فضل القمندان وقال: **شي أخبار شي أعلام يا حلال مبرق وذوبة.**

وأضاف: هيا أوجزوا يا بدو (أي هاتوا الشطر الثاني)

فخرج بن حويدر وقال:

1- هو عوض أحمد حويدر المشهور بابن حويدر، ويكنى بأبي نور من قبيلة آل سليمان الحنشي. عاش في قرية مبرق التابعة لمنطقة النقع شرقي مدينة الوضيع بنحو 15 كم.. ولد عام 1840م، وسكن حصن مبرق الذي بناه له صديقه السلطان فضل بن محسن العبدلي الذي حكم لحج منذ عام 1281هـ إلى عام 1291هـ، ويتكون من ثلاث طبقات حجر. يفصل كل طبقة عن الأخرى خط من الحجر الأحمر.

ساكنة لا بها ميت ولا حد قتل ملا بها الجوع دي ماشي مداوي لصوبه

بمعنى أن الأرض مستقرة وهادئة ولكنها تعاني الجوع لأنها أرض قاحلة وليست كدلتا تبن بلحج التي كانت تشهد استقراراً ونهضة في الزراعة ويأتي إليها الكثير من أبناء المحميات لزيارتها وشراء متطلباتهم من الحبوب والأعلاف والمواشي منها. وبعد ردّ ابن حويدر، رحب السلطان بالقادمين، وأكرم وفادتهم إعجاباً بسرعة بديهة الشاعر، وجرياً على عادة سلاطين العبادل في إكرام الضيوف ومساعدة المحتاجين.

فقال الأمير القمندان:

الله أكبر على بوك يا بدوي، أحسنت الجواب. وأعطاهم السلطان ما أرادوا.

قريـــة امـــــدارة

عندما وصلنا إلى قرية امدارة سمعت العم سليمان وهو يمازح واحداً من أهل شائع بالقول: [1]

يا أهل امداره شلكم ما فلكم[1] جبتواعشاء حامي زقر بأكبادكم

فردّ عليه ابن شايع:

نحنا نقفلها ونكسر بابها ما دامت العسكر تشل أسلابها

(أي سلاحها)

وتفسير البيت الشعري الذي أورده العم سليمان أن أهل امدارة كانوا يقدمون العصيد ساخناً للضيوف حتى لا يأكلوه فيضطروا بسبب سخونته إلى ترك جزء منه لأصحاب البيت ليسدوا بعضاً من جوعهم.

وفي الأصل فإن سكان امدارة من المشايخ، ومنهم صالح شائع الذي أصبح ابنه عبد القادر شائع حاكم ولاية دثينة حتى عام 1967م، وكان رجلاً طويلاً نحيفاً يركب الخيل ويحمل الرمح الذي يضع عليه الشارة أو علم علي

1- شلّكم ما فلكم: بمعنى أخذكم الله ما أمهركم.

بن هلال (بهلال)، وهو شيخ قبيلة المياسر يقومون بزيارته والتبرك به في يوم معلوم من السنة[1].

ويقال إن صالح أحمد السيد الملقب بالصيدي سافر بحراً إلى جيبوتي في بداية القرن العشرين وإنه قابل هناك أحد المغتربين ممن يدّعي أن عنده كرامة وشارة الأولياء، ودخل معه في تحدٍّ حول شارة الصيدي، ووضع الصيدي حبلاً على بيت وسحبه، وأن المغتربين بعد ما شاهدوه من كرامة الصيدي أكرموه وأعطوه خيولاً وأبقاراً أحضرها معه إلى دثينة.

صالح أحد السيد (الصيدي)

قال برطم: هذا الكلام ما دخل رأسي إنه يسحب بيت بحبل.

قال العم سليمان: اسمع يا برطم، هذا إنسان عنده كرامة مثل جده عمر بن سعيد صاحب «امنجده» (قرية امنجده تقع قرب مدينة لودر)، هل تعرف أن «عمر بصعيد» عصر امحيد (أي عصر الجبل).

ضحك برطم، وقال: هذه أكبر منهن كلهن ليش امحيد (الجبل) جلجل (سمسم) حتى ينعصر؟!

قال العم سليمان: يا برطم، لا تسخر من الأولياء شعهم با يصيبوك.

قال برطم: ونعم الشيخ عمر، لكن أنه عصر امحيد، هذه كبيرة وما تدخل في العقل!

1- في نهاية 1967 احتكم امجعادنة وباكازم لعلي بهلان، وقبيلة الجعادنة هو راس آل بليل، وآل بليل يتكونون من 16 قبيلة: جعدني، مارمي، حنشي، محوري، محثوثي، اصحري، عويني، سعدي، صلاحي، فجاجي، قيناشي، وآل طميسي. وينتمون جميعاً إلى علة.

قال: ما سمعت أن الحبيب النسيب العيدروس عندما دخل عدن «صبّت» (امطرت) السماء لبن من بركاته.

قال برطم: ونعم بالأولياء وسكت ولم يعلِّق على هذه البركات والروايات التي رواها العم سليمان حتى لا يختلفوا.

قال العم سليمان: الصيدي رجل صالح ومصلح عندما يدخل على حصانه رافع شارته البيضاء على رمحه توقف القبائل الحرب والقتال، فقد أوقف القتال بين امجعادنه وأهل امارم وحقن دماءهم وقد تنازلوا له عن جزء من أرضهم في منطقة الوضيع. وأضاف: إن شيخنا عمر بن سعيد مولى «امنجدة» هو والد ولي الله الصالح سعد في (امنقع) وسعيدة في «الساحل» (على بعد خمسين كيلومتراً من شقرة)، والكل يزور الأولياء كل عام. وهؤلاء المشايخ يعيشون من القبائل ومن الأرض التي يزرعونها.

وكل قبيلي من سكان منطقة دثينة يخصص تلماً[1] من محصول أرضه لعمر بن سعيد يحصده خدم الولي وأبرزهم أسرة علي عبد الله التي رافقت ولي الله الصالح عمر بن سعيد الكندي، وهم من قبائل الصيعر من كندة، وقد رافقوه إلى منطقة العواذل، وهو كان رجل علّامة وأتى كرجل مصلح، والمنطقة تعيش حالة حروب بين قبائلها، وقد التقى بالعيدروس وعمر بن علي في منطقة الحافة، ومعهم شخص رابع علّامة وتعاهدوا على إصلاح ذات البين بين القبائل المتصارعة، وقد قاموا بدور فعال في الصلح بين القبائل. وانتقل عمر بن علي إلى الوهط بلحج، وهو جدّ السادة أهل الوهط، وله مقام تزوره قبائل السعيدي من دثينة سنوياً، وبقيت بعض أسرته في الحافة ويُعَدّون مناصب دثينة، أي آل السعيدي، وقد اجتمع هؤلاء العلماء المصلحون في مسجد سُمِّي باسمهم في أسفل مدينة لودر سُمّي مسجد «مربعة» (الأربعة) اعترافاً بفضلهم، وأصبحت المنطقة كلها تعطي من كل جربة «قطعة أرض» تلماً من الزرع لعمر بن علي في منطقة السعيدي ولعمر بن سعيد في منطقة الميسري والحسني حتى يوم الاستقلال عام 1967م.

1- التلم: شريط من الأرض ويبدأ من بداية قطعة الأرض حتى نهايتها ومحصوله لخدم الولي عمر بن سعيد.

29 – مقام سعيدة بنت عمر

وقال العم سليمان إنهم يذهبون مشياً على الأقدام إلى «امنجدة» كل عام لزيارة قبر وليّ الله الصالح عمر بن سعيد، وهم يتزملون ويمشون من الصباح إلى قبل غروب الشمس، وينزلون في منازل الخدم بعد أن يصلوا ويقبّلوا قبر هذا الوليّ، ويأخذون حفنة من التراب من قبره يتبركون بها، ويستغيثون: يا عمر بن سعيد، وكان الخدم (السدنة) يستضيفون القبائل في منازلهم ولكل قبيلة عائلة تخدمها، وهم يعيشون من الأموال والحبوب التي يحصلون عليها من القبائل سنوياً.

وفي وقت لاحق انتقل أبناؤهم للعمل في عدن والتحقوا بالجيش والأمن والتجارة واعتمدوا على أنفسهم بدلاً من اعتمادهم على هذا الولي الصالح، وكما التحق عدد منهم بالثورة، وأبرزهم الرجل الثائر والساخر علي عبد الإله، الذي كان يسخر من السلاطين الذين كانوا ينتقدون هؤلاء الخدم، لأنهم بدأوا يبنون بيوتاً أفضل من بيوت السلاطين، وأصبح بعد ذلك ضابطاً كبيراً وقائد لواء في جيش جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وأتذكر أيضاً أن أسرة الضابط حسين الحاذق كانت تأتي وتسكن عندنا حتى ينتهي موسم الحصاد لتأخذ نصيبها المخصص للوليّ وتعود إلى قرية امنجدة.

الوصول إلى الوضيع

وقبل الوصول إلى الوضيع، شرح لنا العمّ سليمان عن الوضيع وسكانها وشيخها علي بن ناصر جبران الجعدني وشعرائها، وحكى لنا عن السلطان حسين بن عبد الله الفضلي والشاعر منصور عشال الذي أصيب

بالجدري عام 1945م. وقال إنه شاعر فحل وكان يحب السلطان لأنه رجل كريم وشجاع، وقد شرح لنا قصّة شخص من قبائل الوضيع طعن السلطان حسين بن عبد الله الفضلي لأنه لطمه في وجهه، وفي نظر القبائل لا يغسل العار إلا الدم.

30 – النائب حسين بن عبد الله الفضلي

وقد نقل السلطان إلى لندن للعلاج، والجاني إلى سجن أبين، وقد أجمع حكام أبين ومشايخها على إعدامه، ولكن السلطان رفض وقال: أنا غلطان بحقه، وعفا عنه فكبر في نظر الناس (راجع مذكرات محمد مرشد ناجي).

قال برطم: ونعم من سلطان، والعفو عند المقدرة.

وواصل العمّ سليمان: لكن السلطان رجع من لندن ومات في حادث غرق سيارة مع ضابط إنكليزي بالقرب من المخزن «رحمه الله».

وقال منصور عشال شعراً في السلطان حسين الفضلي:

يـا دولـتـي يـا أهــل التقارين الرجـاب
حســين فيكم والنبي ما شـلته لمزاب[1]
الليلة دخـل بـرد الشتاء من كل بــاب[2]
ما عادها شي الأولـة عاب الفرنجي عاب

1- امزاب: جمع مزب، وهو مهد الطفل ويُصنَع من الجلد ويعلَّق على ثلاث عصي تسمح بتأرجح الطفل حتى يهدأ وينام.

2- المقصود هنا دخول الإنكليز إلى المنطقة عام 1942.

يـا بـاطـلـي يـا مـنـكـري يـــا راب راب
على ملكنا دي طلع في بقعته خطــاب

إلى أن قال:

حسين الظبا يبكين وانـتـه يـا الـغـراب
وراك ساكت قدم الدعوى على الضرّاب
الحق والبيضـاء لســودات القصاب
والـمـوت سـنّـة مـا هـلّا الـقـدر يُهتـاب
لا تـنـدبـوشـي مـــال للهيف الـنـداب
الجيد شرعه لا بلي يصيب ولّا أصطاب

ومعنى الأبيات أن الشاعر يتحسّر على أيام السلطان حسين، ويأسى لما حلّ بوطنه بعد دخول المحتل، ويحثّ قومه على الموت بشجاعة دفاعاً عن الحِمى بدلاً من البكاء كالنساء.

وقال أحمد برطم: أما الشاعر محسن الوحل، فقد كان يحرض على مولى الجبل بقوله:

مولى الجبل قـالـوا مـن الحيد انسحل
هبت رجيله فـي الـوحـل مـن قامتين
الـشـهـر لـــول هـل والـثـانـــي دخـــل
وأنـا أحسـب أنـه يطحن الدنيا طحين

وقيلت هذه الأبيات في حادثة حدثت للوحل أثناء ما كان يسوق بضاعته، وهي ألبسة مصبوغة بالنيل، فاعترضه بدوي ونهب الحمار وما عليه، وذهب الوحل للشيخ علي ناصر بن جبران شيخ الجعادنة بالوضيع يشتكي وقال له: «ما عليك خلال أسبوعين سيعود لك الحمار مع الحمولة»، وانتظر الوحل الشهر الأول والشهر الثاني ولم يأتِ الحمار ولا حمولته، وفي أحد الأعياد قال الوحل هذه الأبيات. وعندما سمع الشيخ ناصر منصور هذه الأبيات طلب من قبائل الجعادنة قطع أذن الوحل أينما وجدوه، ولمّا بلغ هذا الكلام الوحل، خشي من ذلك، وكانت امرأته حاملاً وقال:

إن جـــاء ولـــد بـدعـيـه نـاصـر
وإن هـــي ولـــيـــدة بـالـولـيـدة

وقال أيضاً:

الـشـك مـاشـي الـشـك يـا جـرو النمر
يـا دي تـصـفـون امـقـذا مـن كـل عين
ما هل لبا هدة (غـزوة) تشيع أخبارهـا
الـكـور يسمعها وتسـمعها دثين

فعفوا عنه وأعادوا إليه أغراضه.

المشايخ:

يسكنون في مختلف مناطق دثينة، وهم مزارعون وتجار مستقرون في القرى، وتوجد في منطقة الحسني خمس أُسر منهم، وفي منطقة السعيدي ثلاث، أهمها:

- أهل عبيد وأهل عمير امفضل في عراكبي.
- أهل سرائيل في البطان وأهل امدارة أولاد الشيخ عمر بن سعيد، ومنهم أهل شائع.
- أهل حيدرة بن علي وأهل امعيليق أولاد الشيخ عمر بن سعيد في امقرية.
- أهل عبد الحامل في المحفحف[1].

المسفح وذيل البكيلي

قال العم سليمان إن أهل امداره فتنوا بين القبائل بسبب كلمة واحدة.

قلت: كيف؟

أجاب: سمعنا من آبائنا وأجدادنا أن كبشاً لعاقل أهل حنش (أبو محمد)

1- حمزة لقمان: المرجع السابق ص259.

هرب ووصل إلى وادي مران، أي إلى المسفح، وقام بعض أهل قمرح، وهم من الغساسنة بشق «ذيلة» (إلية) الخروف ومصّوا شحمها وعاد الكبش إلى مبرق بأرض أهل حنش، فشاهدوا الدم وتتبعوا أثره إلى المسفح، وحصل خلاف على «ذيلة» كبيش أبو محمد واتفقوا على لقاء في امدارة، وعلى أن يقطعوا ذيل حصان عاقل أهل قمرح واسمه البكيلي مقابل إلية كبش أبو محمد، وذهب أهل قمرح إلى جوعر وشاهدهم أهل امدارة وقال واحد منهم: حقيبك[1] اليوم يا ذيل البكيلي من قوم تحقن دمها، وسمعهم عاقل أهل قمرح وقال: ينبغي نرجع إلى قمرح، وعندما جاء أهل حنش إلى قمرح وإلى المسفح تقاتلوا وسال الدم حتى سفح الأرض وسمي المسفح نسبة إلى سفح الدم.

وتضيف الأسطورة أن «البكيلي»، وهو حصان عاقل أهل قمرح، كما أسلفنا، كان حصاناً قوياً وشرساً، وازداد شراسة بعد قطع ذيله ولم يسمح لأحد بأن يمتطيه، وفي غمرة الاقتتال بين أهل قمرح وأهل بو محمد، امتطى أحد الفرسان «البكيلي» وأبلى في المعركة بلاءً كبيراً، ولكنه قبل أن يمتطي الحصان قامت ابنة عاقل أهل قمرح، وكانت فتاة جميلة تدعى حسناء، بمحاولة منعه من امتطاء حصان والدها، وكانت يداها مخضبتين بالحناء، ما ترك آثاراً على ظهر الفارس المجهول.

وعندما هدأت المعركة أخذ الناس يتساءلون عن الفارس المغوار الذي امتطى الحصان وأبلى ذلك البلاء ولم يعرفوا من هو، وكلما ظنوا أنه فلان من الناس، تبيّن لهم أنه ليس ذلك الشخص، وكلما حاول أحدهم أن يدعي أنه ذلك الفارس كانت الفتاة تفضحه وتؤكد أنه ليس الفارس الذي رأته، وعندما جرى تداول كل الأسماء ولم يكن ذلك الفارس من بين أصحابها، قال والد الفتاة: لم يبقَ في الأرض إلا سعيد البقيرات في «وجر»، فطلبوا منه الحضور، وعندما حضر عرفته الفتاة وأكدت أنه هو الفارس الذي امتطى الحصان، ودلَّلت على ذلك بآثار الحناء على ظهره. فقام والد الفتاة بتزويجه ابنته حسناء التي تنسب الأسطورة نسب آل حسنة إليها.

ولهذه الأسطورة أبعاد أخرى حول فروع قبيلة أهل حسنة وهي بحاجة

1- حقيبك: يا عيباه.

إلى دراسة وبحث أوسع، لما تحفل به من أحداث وتفاصيل. ويقال إن آل حسنة ينتسبون إلى الحسن والحسين وهذا ليس صحيحاً لأن آل حسنة ينتسبون إلى منطقة، لا إلى عائلة، فهم يتكونون من عدة قبائل كما هو الحال بالنسبة إلى المياسر وآل السعيدي.

الفصل الخامس

سلطنة الفضلي[1]

تبلغ مساحة أبين 3000 ميل مربع، وكانت تسمى «سلطنة الفضلي» نسبة إلى سلاطين أهل فضل الذين حكموها قبل الاحتلال البريطاني وأثناءه، وكانت عاصمتها شقرة حيث يوجد قبر أحمد بن حسين مؤسس السلطنة.

وللسلطنة شريط ساحلي من حدود العبادل قرب العماد وحتى حدودها مع سلطنة العوالق السفلى - أحور، وتحدّها من الشمال يافع السفلى والعوذلي، ومن الجنوب بحر العرب وخليج عدن، ومن الشرق دثينة والعوالق السفلى، ومن الغرب لحج وعدن. وفي السلطنة ثلاث مناطق تُسمى الألوية: **لواء المنطقة الغربية وعاصمته** زنجبار، وهي العاصمة الإدارية للمنطقة وعاصمة السلطنة، **لواء المنطقة الوسطى ومن مدنه شقرة الساحلية، ولواء المنطقة الشرقية وعاصمته** مدينة الوضيع.

وكان عدد سكان سلطنة الفضلي في الخمسينيات يبلغ نحو خمسة وسبعين ألف نسمة ينقسمون إلى القبائل الآتية:

1. أهل فضل.
2. المراقشة أهل الساحل.
3. المراقشة أهل الحيد (الجبل).

1- حكم السلطنة الفضلية السلطان حسين بن أحمد، ثم ابنه أحمد، ثم السلطان عبد القادر، ثم عبد الله بن حسين، ثم صالح بن عبد الله. وسنة 1948م تولى السلطنة عبد الله عثمان، وبعده حسين عبد الله، وبعده السلطان أحمد بن عبد الله الفضلي الذي تمرد على الإنكليز وانتقل للإقامة في مصر. وبعده تولى السلطنة ناصر بن عبد الله آخر سلاطين أهل فضل.

4. أهل الجبل.
5. النخعين.
6. آل بالليل. (حنشي، محوري، مارمي، جعدني، محثوثي، قيناشي وامصلاوحة وامصحران).
7. أهل شنين.
8. أهل حيدرة منصور.
9. أهل فليس.
10. السادة والمشايخ.
11. أهل شداد.

قصة تأسيس السلطنة الفضلية

يُحكى أن سفينة جنحت نحو ساحل شقرة وعليها أميرة تركية، وكانت حاملاً وتحمل معها أمولاً وصناديق ذهب وفضة وخدماً ونزلت إلى قرية شقرة واستقرت هناك وبنت لها داراً وضعت فيها ابنها الذي تزوج ابنة شيخ قبيلة المراقشة، أكبر قبيلة في المنطقة، وأنجبت له ولداً سمّاه فضل نسبة إلى جده لأمه. كبر الولد، واتفق المراقشة على تعيينه سلطاناً عليهم، وسُميت السلطنة نسبة إلى فضل. وعندما أراد السلطان أن يمدّ نفوذه إلى المناطق الجبلية التي تسكنها القبائل المذكورة، اختلف مع شيخ آل حنش على الحكم، فاتفق الطرفان على الذهاب إلى أحد الحكماء في اليمن الأسفل واستضافهما الشيخ الحكيم وبقيا عنده عدة أيام وهو يراقب تصرفاتهما، وقيل إنهما طلبا المداعة (الشيشة) وقام الحنشي بإعداد المداعة، وبعد ذلك قدمها إلى اللسلطان، وبعد كم يوم من مكوثهما عرضا المشكلة على الحكيم، وقال: الحكاية واضحة. الحنشي يتبع السلطان. ومن هنا تأسست السلطنة الفضلية وامتدت إلى القبائل المذكورة.

بعد عناء مسير يومنا الأول، ها نحن في محطة استراحتنا الأولى في الوضيع التي يحكمها نائب السلطان الفضلي، ويحكمها أيضاً شيخ قبلي اسمه علي بن ناصر الجعدني، شيخ قبيلة الجعادنة، وابنه صالح الملقب بـ «جواس».

31 – الشيخ علي ناصر الجعدني

وعلمتُ من العمّ سليمان أن والدي سمّاني باسم هذا الشيخ الذي تصادف وجوده في منزلنا لحظة ولادتي ومجيئي إلى هذه الدنيا، وكانت التسمية تعني أشياء كثيرة في عادات القبائل العربية، ولست هنا بصدد الإسهاب في الحديث عنها[1]. كان علينا في «الوضيع» أن نرتاح، ونشرب، ونصلي، ونسقي جمالنا ونتركها تأكل وترتاح، بعد أن مررنا بأرض آل حسنة والمدارة والبطان والشحطة، وفضلنا المبيت خارج منازل القرية، وكانت هذه المرة الأولى التي أبيت فيها خارج منزلنا، وهناك أشعلنا النار لسهرتنا الأولى، وتحلقنا حولها للتدفئة بينما كان إبريق الشاي يغلي فوقها. وكان الجمر بحمرته المتقدة أفضل ما تكون حالته «لتعمير البوري».

32 – صورة لقرية الوضيع

1– التسمية عادة تكون باسم شيخ قبيلة أو باسم سيد أو رجل له مكانته، وتكون إما للتقرب من هذا الشخص، أو لتجنب الخلاف والفتنة والثأر. وتقدم الهدايا من الطرفين للمولود والأم، وفي المقابل يردّ الأب هذه الهدايا في مناسبة أخرى.

كانت هذه اللحظة من أجمل اللحظات التي ينتظرها العمّ سليمان عوض لتعمير «البوري» وتجليس الرشبة «النارجيلة» وعلى وهج النار، وسط قرقرة «المداعة» (الرشبة) ورائحة الدخان، وعلى ضوء النار التي كنا حولها شاهدت التجاعيد على وجه العمّ سليمان الأسمر، وهو ينفخ البوري والشرر يتطاير منه، وبعد أن سعل وتنحنح وشرب من فنجان شاي صيني[1] أمامه، سألته: منذ كم سنة تدخن «المداعة»؟

قال: قطبت (قطعت) صدري يا بوك لي 30 سنة أو أربعين والله أعلم.

قلت له: وكم عمرك؟

التفت نحوي مستغرباً السؤال: أيش قلت؟!

قلت: قد سمعتني.

قال: والله يا بوك مانا داري كم عمري، ولا يعلمه إلا الله، إحنا يا بوك ما نحسب شي من ولد ومن مات إلا إذا كتب إمام المسجد الشيخ صالح بنيص في امختمة (المصحف)، لأنه بحر في العلم، يقولوا إنه تعلم في تريم بحضرموت بلاد السادة أهل البيت ويقرأ لنا القرآن ويصلي بنا الجمعة وهو دائماً يردد:

ألا يا بخت من زار أهل البيت واقصر[2]
إليهم معتني كل مطلوبه تيسر

(كان شيخنا وإمام مسجد قريتنا وغيرها من القرى يدعون في خطبة الجمعة لسلطان الباب العالي خاقان البحرين والبرين وإمام المسلمين، ويبدو أن هذه الخطب كتبت وطبعت ووزعت منذ أكثر من قرن من الزمان وما زالوا يرددون «اللهمّ انصره وانصر عساكره». والمصلون يرددون بعد الخطيب: آمين، غير مدركين أنه قد مات وسقطت الإمبراطورية العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى).

وأضاف العمّ، سليمان: الشيخ صالح نفعنا كثير يا بوك يصلي بنا ويقرأ

1- الصيني: إناء الخزف المجلوب من الصين.
2- واقصر: واقتصر على ذلك

لنا المولد ليلة الجمعة وفتح لنا معلامة ختموا فيها كثير من عيالنا من أمفرعة وامقوز وامحبيل وذوبة وبعض أرض أهل حسنة، وإحنا يا بوك كنا عميان قبل ما يفتح الله علينا بالشيخ صالح بنيص الذي علّم عيالنا كيف يقرأون ويكتبون الرسائل التي تأتينا من أولادنا في بندر عدن ومن برّ العجم في الحبشة والصومال وجيبوتي، وخاصة من عيال عوض برّ علي، أحمد عوض وحسين عوض، ومن قاحل ودعدع.

قلت: فهمت يا عمّ سليمان وجزاه الله خيراً في التعليم، ولكن قل لي، كم عمرك تقريباً؟

قال: أيش تبا[1] من هذا امهرا (الكلام) لا أنا ولا بوك ولا جدك ولا أهلك يعرفون متى ولدوا، ولكني سمعت أني ولدت سنة «امسالط» (الجدري) عندما مرضوا وماتوا قوم كثير من قبيلتنا وقبائل كثيرة، وحتى عمك عوض عبد الله ملط وجهه امسالط.

قلت: ومتى وقع «امسالط»؟

قال: سنة دخل سعيد باشا في الحرب مع أحمد السركال[2].

قلت: تقصد الحرب العالمية الأولى بين الإنكليز والأتراك.

قال: هذا امهرا (الكلام) ما أنا شي داري به وخاصةً الحرب بين الدول، سمعنا بها ولا إحنا دارين مع من، المهم إن امسبار[3] نقص علينا في البلاد بسبب حرب سعيد باشا على عدن.

قال برطم: يا سليمان أنت كبير وقد ولدت قبل سعيد باشا.

قال: وأنت كم عمرك يا أحمد مسعود؟

قال: أنا ولدت أيام حرب الزيود وأهل قاسم علي في العواذل، وسنة هجموا المرازيق على أهل حسنة بسبب امجوع والجفاف.

1- تباً: تبغي.

2- يطلق اسم السركال، وهي كلمة عامية محرفة عن اللغة الهندية «سردار» على الحاكم أو السلطان أو المهراجا أو صاحب الأمر والنهي، ويقال في اليمن إن إضافة اسم أحمد إلى السركال ترمز إلى إمام اليمن أحمد. ويذهب آخرون إلى أن المقصود بها هم الإنكليز في عهد الاستعمار.

3- امسبار أي المواد الغذائية (المونة).

قلت لهم: ضيعتمونا ولا عد دريت كم أعماركم، مرة تقولوا سنة امسالط ومرة سنة حرب شمعة ومرة حرب الزيود والمرازيق ومرة سنة امجراد.

قال العمّ سليمان: هذا دي نعرفه والله أعلم، وعيالنا فيهم الخير والبركة يقرأون ويكتبون، وبعضهم سافر إلى عدن وتعلموا وتعسكروا في شبر والليوي، ومن الآن يقدرون على تسجيل أولادهم وأولاد أولادهم.

الزواج في دثينة

تناهى إلى سمعنا أصوات الطبل والمزمار والشرح، منطلقة من قرية الوضيع، وتمنيت أن أذهب وأشاركهم هذا الفرح، وأشهد عاداتهم وتقاليدهم في مثل هذه المناسبات، لكن الظرف لم يكن يسمح، ولا الوقت. وكنت أخشى أن تفلت مني هذه الفرصة السانحة، ولما أدركت أن الذهاب إلى هناك لمشاهدة ما يحدث أمر مستحيل، ولن يوافقني العمّ سليمان عليه، فقد طلبت منه أن يحدثني عن عادات الزواج وتقاليده في منطقتنا دثينة، التي كنت أعرف القليل منها في ذلك الوقت بحكم صغر سني، وكان يحدوني الفضول لمعرفة المزيد عنها.

قال العمّ سليمان:

– يا بوك، شعنا تعبانين، وبكرة يومنا طويل، ويجب أن ننام ونرتاح، ونقوم. عندما يطلع الفجر ونأبش (أي نبكّر) عندما يطلع الفجر.

ولكنني أصررت عليه.

وكانت الأشياء التي حكاها لي الرجل رحلة في عادات وتقاليد تكونت عبر الزمن، وكانت ذاكرة الرجل مذهلة، وهو يروي أدقّ التفاصيل بلهجته الشعبية التي لا أستطيع أن أجاريه فيها الآن، وأنا أنقل كلامه من الذاكرة إلى الورق حتى لا يثقل ذلك على القارئ.

وأرجو وأنا أفعل ذلك ألّا أفقده بساطته ومحتواه، لأنها تعبير عن شخصيته التي تكمن قوتها في بساطتها. وقد حاولت أن أوفق بين اللهجة الشعبية واللغة العربية المبسطة.

قال العمّ سليمان عوض:

تبدأ قصة الزواج من اللحظة التي يبحث فيه أهل الشاب عن «حريوه»

(عروس) مناسبة لابنهم. هذه هي سنّة الكون. والإنسان خلق ليعمر الأرض، والزواج والإنجاب جزء من رحلة الإنسان لمواصلة الحياة وعمارة الكون.

أول ما يحرص عليه الأهل، وهم يبحثون عن زوجة مناسبة لابنهم، «بنت ناس»، أن تكون من أسرة ذات جاه، ومركز اجتماعي يتناسب مع مركزهم الاجتماعي. وأن تكون الفتاة نفسها ذات صحة، وشباب، وجمال، وقدرة على الإنجاب والعمل. إذ إن على الفتاة بعد زواجها أن تعمل في بيت أهل زوجها في الطبخ والكنس وتربية الأولاد، وجلب الماء والحطب من مسافات بعيدة، أو المشاركة في أعمال الزراعة ورعي الغنم.

وطبقاً لعادات تلك الأيام، لم يكن متاحاً للشاب أن يختار «حريوته» (عروسه) بنفسه، أو العكس، أو أن يتعرف أحدهما إلى الآخر ويرتبط معه بعلاقة حب إلا ما ندر، فقد كان ذلك من الأمور المحرمة والمعيبة، ولكنها مع ذلك لم تكن مستحيلة الحدوث أيضاً.

كان يكفي، في إحدى المراحل التمهيدية، أن ينظر الشاب إلى عروس المستقبل خلسةً من مكان لا تراه منه. ويتم لهذا الغرض، تُخرَج الفتاة بالاتفاق مع أقاربها دون أن تدري ليتمكن الشاب من رؤيتها[1]، وهي تحمل ماءً أو حطباً أو علفاً على رأسها، ويتأكد من خلوّها من أي عيب، وتمتعها بالصحة والشباب، والجمال طبعاً، وهو ما يعني أنها قادرة على إنجاب الأبناء، وأداء الأعمال المنزلية، والعمل في الأرض.

وهذه الخطوة تأتي بعد أن يكون «الحريو« (العريس) المنشود وأهله قد تحققوا من فضائل الفتاة، ومكانة أهلها، وما يتمتعون به من كرم وشجاعة.

ومضى الرجل في سرد قصته.

أهل دثينة يوظفون الزواج توظيفاً اجتماعياً خطيراً، والسبب في ذلك رغبتهم في توسيع المعارف، وعقد الأحلاف القبلية، بالترابط مع القبائل الأخرى بصلة النسب والمصاهرة. والأسر الكبيرة ذات المكانة والنفوذ تبحث لأبنائها عن زوجات من الأُسَر التي تماثلها في المكانة الاجتماعية،

1- ويحصل أحياناً أن يُطلعوه على بنت جميلة، لكنه يفاجأ ليلة الدخلة بأنهم قد زوجوه واحدة غير التي شاهدها، والسبب في ذلك يعود إلى أن الأب لديه ابنة كبيرة في السنّ يريد تزويجها قبل أن يفوتها قطار الزواج.

وتضاهيها في القوة والنفوذ، ولا تمانع أن تكون في مكانة أعلى منها مادام ذلك سيجلب لها مزيداً من الرفعة والقوة، ويسودهم الاعتقاد بأن النسل الذي يأتي من هذه الزيجات يحمل صفات موروثة جيدة، مثل القوة والشجاعة والكرم، وغيرها من الصفات الحميدة التي يتحلى بها أهل الفتاة المختارة. وهم في هذا لا يخرجون عمّا قاله الرسول (ص): «تخيّروا لنطفكم فإنّ العرق دساس».

وهذا الاعتقاد يصاحبه إدراك للدور الذي تقوم به الأم في تربية الأولاد، ونقل العادات والموروث الثقافي والاجتماعي الذي تربت عليه في بيت أهلها إلى أبنائها، وكذلك تأثير أشقاء الأم وأقربائها في أبنائها، وتأثرهم وأخذهم صفات أخوالهم.

اجتذبني حديث الرجل، وقصته المستمدة من الواقع، وحتى أشجعه لكي يمضي في قصته، ولا يذهب إلى النوم، كنا نصبّ له أقداح الشاي، و«نعمر» له المداعة ونضع عليها الجمر كلما خبت نارها.

قلت لنفسي: لن أتركه ينام هذه الليلة حتى أعرف منه كل شيء وهكذا سألته: حدثنا عن إجراءات الزواج يا عمّ سليمان:

فأجاب وهو يجترّ أنفاساً من رشبته، وينفث دخانها في الهواء:

– يرسل والد الشاب شخصاً موثوقاً به إلى أهل الفتاة التي وقع عليها اختيارهم، وأحياناً يقوم والد الشاب بهذه المهمة بنفسه، فيبلغهم رغبتهم في المصاهرة، والاتفاق بصفة أولية على موعد زيارة «الحريو« (العريس) المقبلة ليحصل خلالها الاتفاق على موعد الخطوبة، وإجراءات الزواج وشروطه في حال قبول والد الفتاة تزويجها.

وأضاف العمّ سليمان أن والد الفتى بعد أن يحظى بالقبول، يقوم بصحبة عدد قليل من الأشخاص الموثوقين من أفراد الأسرة، بزيارة والد الفتاة في بيته، ويذبحون (رأس غنم) أمام البيت.

وعادة تكون هذه الزيارة بعد صلاة العصر، وخلالها يحصل الاتفاق بين الطرفين على موعد الخطبة، وشروط «الحراوة» (الزواج)، وموعده، وإجراءاته.

«الحريوة»... آخر من يعلم!

وتحاط هذه المرحلة من مراحل الزواج، وهي مرحلة الاستعدادات للخطبة، بالسرية. ولا يُعلَم الناس بأمرها. وبعد الاتفاق على الخطبة، تُخبَر الفتاة التي هي آخر من يعلم، بأمر الخطبة والاتفاق الذي حصل مع أهل العريس، وهنا لا يشترط أبداً رضى الفتاة، أو موافقة أمها، يكفي أن يوافق الأب لتحصل الزيجة، وعادة ما تكون موافقة الأب وفقاً لشروط وضوابط معينة تتعلق بمكانة أسرة الشخص الذي تقدم لخطبة ابنته، ومدى ما تتمتع به من نفوذ، وخصال من كرم وشجاعة. ولا بد أن تتناسب مكانة أسرة العريس مع مكانة أسرة العروس، فإن كانت مكانة أسرة العريس أدنى فلا مجال للموافقة على الإطلاق. والأب حينها يتعلل بمئة عذر، كأن يقول: بنتي لا تزال صغيرة، أو أنها غير ماهرة في أعمال المنزل، أو أنها غير جميلة، أو أن ابن عمها تكلم بشأنها، وطلب يدها، وغيرها من الأعذار.

أما إذا وجد أن مكانة المتقدم للزواج من ابنته مناسبة ومشرفة من وجهة نظره، فإنه يعطي موافقته بلا تحفظ.

وأنشد العمّ سليمان قول الشاعر الشعبي حسن ابن حيدرة:

بنت امحصون امعالية لنته تباها
راض أبوها وأمها ولا ترضاها
أما البدوية لنته تباها راضها
وأبصر وين مأواها وممساها

أي إذا طلبت بنت الأشراف المحصنة فاسترضِ أباها وكن مطمئناً، وأما البدوية فهو يعرفها من خلال رؤيتها لها مباشرة وهي ترعى الأغنام أو غير ذلك.

قبائل دثينة المستقرة التي تعمل في الزراعة، وتعيش في قرى، وفي بيوت وحصون مبنية من الحجر، لا توافق على أن يكون لبناتها دور في قبول العريس المتقدم للزواج منها. أبناؤها أكثر تحفظاً، وتزمتاً في العلاقات الاجتماعية، وخاصة ما يتعلق منها بعلاقات الرجال بالنساء، على عكس بعض أبناء القبائل

الرُّحل في هذه المنطقة، الذين يتمتعون بحرية أكبر في هذه المسألة ولديهم تسامح في نظرتهم إلى علاقات الحب والغرام، حيث تتمتع المرأة بحريتها الشخصية، خاصة الفتيات غير المتزوجات، والنساء الأرامل والمطلقات، ولا يرون ما يستحق أن يبعث على الرقابة الصارمة أو الاستنكار، حتى وإن أقمن علاقات مع رجال من غير قبائلهن، وهناك ثار قبلي مع قبائلهم، خاصة أثناء مواسم الصلح بين القبائل، التي تتبع هطول الأمطار ووفرة المراعي، وذلك بحكم التنقل من منطقة إلى أخرى حيث تستقبل المرأة الضيوف وتُكرمهم وتُسامرهم في غياب زوجها بحكم العادات والتقاليد.

اقترحتُ على العمّ سليمان عوض أن يؤجل الحديث في هذه المسألة إلى ليلة أخرى، ويواصل حديثه هذه الليلة عن إجراءات الزواج في دثينة.

ونزولاً عند رغبتي، وافق ونظر إليَّ الآخرون بحنق، إذ كانوا يرغبون في أن يسترسل في الحديث عن قصص البدويات الساحرات ومغامراتهن الصريحة والجريئة قبل الزواج.

وأنا نفسي كنت تواقاً إلى ذلك، لكني كنت أخشى أن يسرقنا الوقت فيداعب النوم أجفان العم سليمان، فلا يكمل حديثه عن الزواج في دثينة. فقال: يا بوك تعبنا من هذه «امهاري امخلية» (الكلام الفارغ)، ولكني استطعت أن أقنعه ليواصل أجزاء الحكاية ولكنه اشترط تعميرة بوري وقام أحمد مسعود برطم بتعميرة وتقديمه له.

وها هو ذا يواصلها:

– بعد الزيارة التمهيدية، التي يتم خلالها الاتفاق على شروط وإجراءات الخطبة والـزواج، يتم الاستعداد للخطبة، وتستغرق هذه العملية عادة أسـبوعاً أو أسـبوعين، ويقوم أهل العريس بإرسال «مخلاة» حب(شوال كبير) و«قرعة»[1] بن وزنجبيل، وكيلة ملح، و«بركالة»[2] سوداء مذبلة شغل أهل فرحان أو الصبن في مودية، ورطل هرد[3] وخمسة أو ستة رؤوس غنم، وبعدها يوزّع أهل العروس الحب والبن والزنجبيل على البيوت، والأسر

1– وعاء من جلد الماعز.

2– ثوب أسود.

3– نبات يستخدم للزينة، وهو أيضاً نوع من البهار ويعرف بالكركم أو الكركيّ أو الرهو.

والقرى المجاورة، للمساعدة في «رهيه»[1] وطحنه، لأن من التقاليد أن يساعد الأقارب والأصدقاء أسرة العريس في الاستعداد للعرس. ويحدث هذا بعد الاتفاق مع أهل العريس على ليلة الخطبة، ويجري إبلاغ الأسر التي قبلت المساعدة بموعد الخطبة لإعداد الخبز الحامض (المخلّم) في هذا الموعد.

وفي هذه الأثناء، يُبلغ أهل العريس، كل من طرفه، المدعوين لحضور الخطبة، ويُحدَّد عدد المدعوين ويُختارون بما يتلاءم مع عدد الذبائح بهذه المناسبة، حيث إن أية زيادة في عدد المدعوين من طرف العريس يُسبب إحراج أهل العروس، ويدفعهم إلى ذبح أغنام إضافية لتكفي الضيوف. ومع ذلك، فإن العادة قد جرت بأن يذبح أهل العروس أغناماً إضافية على سبيل الاحتياط، أو يُظهروا الكرم والحفاوة بأهل العريس (أصهارهم المقبلين).

وفي حالات نادرة، يذبح أهل العروس عدداً أقلّ من الأغنام التي أهداها إليهم أهل العريس، لكن ذلك يجعلهم محلَّ سخرية الآخرين وتندرهم. وهذه الأمور تعود إلى المستوى الاجتماعي، ودرجة الثراء، وصفات الإنسان ومدى كرمه.

وفي ليلة الخطبة، وقبيل صلاة المغرب أو بعدها مباشرة يحضر أهل العريس (الحريو) والمدعوون من طرفهم إلى بيت العروس (الحريوة) يتقدمهم وجهاء القوم ومشايخهم وعقّالهم وسادتهم وكبار الشخصيات في الأسرة والقبيلة، بحسب مكانة الشخص الاجتماعية ودرجة ثرائه، ويُقدَّم العشاء للضيوف.

والعشاء يكون عادة من اللحم والمرق والخبز الحامض «مخلّم»، وأحسن المرق هو الذي تعلوه طبقة سميكة من الدهن والشحم تُسمّى (الصفو) ويغمس الخبز المخلم في المرق قبل التهامه، وتُعَدّ هذه الوجبة من أفضل وجبات الطعام في دثينة.

وتُوزَّع أطباق الطعام المصنوعة من سعف النخيل «نخيل النبيذ»، ويُسمّى العزف[2]، حيث تُفرَش وسط المجلس. ويقدم المرق إلى الضيوف عدة

1- رهيه: تليينه وطحنه بالمرهاة.

2- وهو يشبه سعف النخيل وأشجار الطاري في الحسوة بعدن.

مرات في الغرف والمحاسي[1] المصنوعة من الخشب والطين المحروق، وعادة يقدَّم المرق قبل نصف ساعة تقريباً من تقديم العشاء ريثما يُقطَّع اللحم ويُوزَّع على الأطباق، بعدها تُحضَر «المخامر» (وهي أوعية خشبية مصنوعة من خشب الأثل) مليئة بالمرق وتوضع وسط «المسارف»[2] وتوضَع الأطباق، مشكلة دوائر متقاربة. وفي الوقت الذي يبدأ فيه الحضور بتناول العشاء، وغمس كسرات خبز «المخلم» بالمرق لترطيبها وتبليلها ليسهل ابتلاعها، تُوزَّع قطع اللحم على الحاضرين، مبتدئين بأكبر الضيوف مكانة، السيد، الشيخ، كبير القوم، أو الأكبر سناً.

33 – 34 – أطباق متنوعة. (مسارف)

وبعد أن تُوضَع قطعة اللحم الخاصة بالضيف الأول أمامه يسأل من يتولى توزيع وتقطيع اللحم عن الشخص الذي يليه، فيقال له: فلان، فيختار قطعة لحم مناسبة له، وهكذا حتى يصل التوزيع إلى الأطفال الذين يوضَعون في مكان خاص بهم حتى لا يحدثوا الضجيج والضوضاء. وكلما تدنت مكانة الشخص، صغرت قطعة اللحم التي تقدم له، أي إن اللحم يوزع حسب المكانة الاجتماعية للشخص، فأفضل القطع يحظى بها الأعلى مكانة، وهكذا. لكن ذلك ليس شرطاً في كل الأحوال، حيث يُكرَم بعض الأشخاص وإن كانوا من مرتبة اجتماعية أدنى، كالشاحذ والخراز والدوشان، تجنباً لألسنتهم وذمّهم. وبسبب كثرة الضيوف، يحصل أحياناً ألّا ينال الأطفال نصيبهم من اللحم،

1- المحاسي: جمع محساة، وهي آنية يُحتسى منها المرق.
2- المسارف: أطباق مصنوعة من العزف، يوضع عليها الطعام.

وربما ذهبوا خمص البطون، لكن ذلك يحدث نادراً، خوفاً من الفضيحة، حيث يطوف الأطفال بعد مغادرتهم بالقرى المجاورة وهم يرددون الكلمات الحانقة التي تشهِّر بأهل الفرح كقولهم:

«**الحراوة داخشة والعشاء... زبّ الحمار**» وغيرها مما يردَّد في مثل هذه المواقف.

سكت العمّ سليمان لحظة ليرى إن كنا نتابع حديثه باهتمام، وعندما وثق من أننا نتابعه بشغف واصل الكلام:

– بعد العشاء، تقدم أقداح القهوة اللذيذة الممزوجة بالزنجبيل والهيل والحليب، ويتخلل ذلك تبادل أحاديث المجاملة، وتـداول الأخبار والأحاديث عن المواسم الزراعية، وخبرات الزراعة، وقصص الأجداد، وهموم الحياة، وغيرها من الأمور التي يستدعيها التعارف والمجاملة. ثم بعدها، يقوم أكبر الضيوف مكانة أو سناً، فيأخذ زمام الحديث قائلاً:

– اذكروا الله يا أهل بو فلان أو يا فلان أو يا أخوان.

فيردّ الحاضرون عليه:

– حق، لا إله إلّا الله.

ويتوقف الحاضرون عن الأحاديث الجانبية، وينصت الجميع إلى ما سيقوله كبير الضيوف، فيبدي سعادته بهذا الزواج الذي سيربط بين الطرفين، وكيف أن المصاهرة شرف لأهل العريس والعروس، ويعرض العلاقات الطيبة التي كانت تربط بين الأسرتين في السابق، والتي ستتعزز وتقوى بالزواج الجديد في المستقبل. وفي الأخير يتمنى للجميع الخير والسعادة.

ثم يتوجه بحديثه إلى أهل العروس وإلى والدها تحديداً، أو وليّ أمرها إذا كان الأب متوفىً أو غائباً، فيطلب منه أو منهم أن «يطرحوا» (يخفضوا) له إكراماً لمكانته جزءاً من الشرط المتفق عليه (مهر العروس والهدايا) حيث يقول:

– **أيش با تطرح لي من امشرط (الشرط) يا فلان؟** مخاطباً والد العروس.

فيردّ عليه: والله إنك كبير عندنا يا فلان، وحضورك شرف كبير لن، طرحنا لك من امشرط كذا. وقد يكون ذلك عشرين قرشاً، أو خمسة قروش، أو عشرة

قروش[1]، وعدداً من الغنم، وعدداً من مكاييل الحب، بحسب مكانة الشخص ومدى ما يحظى به من احترام.

ويجيبه كبير الضيوف:

– وفيت يا فلان وأكرمت، **وهذا عشمي**[2] **فيك**.

ويتلوه في الحديث الشخص الذي يليه في المكانة، فيكرر الكلام السابق ذاته، ويتكرر الرد نفسه، وهكذا حتى لا يبقى من «امشرط» إلا اليسير اليسير الذي لا يجرؤ الضيوف على طلب خفضه أكثر من ذلك، وإلا عُدّ تصرفهم نوعاً من الإحراج، وقلة الذوق، وقلة الأصل.

ولكن يحدث أحياناً – وإن كان هذا نادراً – أن يتجاوز الضيوف حدودهم في المطالبة بخفض الشرط، أو أن تستولي على والد الفتاة نشوة الكرم والمبالغة في إكرام الضيوف، فيقوم بالتنازل عن شروطه، ويتكفل هو بتجهيز ابنته من جيبه الخاص، وتعتمد هذه المسألة على شخصية طرفي الزواج.

– وتحدث أشياء أخرى في بعض الحالات.

– مثل ماذا يا عمّ سليمان؟!

– يحدث أن الأب بعد أن يسمع كلام كبير الضيوف، وبنوع من الذكاء والشطارة، ولكي يتجنب مطالب الضيوف، يسأل كبير الضيوف إن كان يراد منه أن يطرح له من الشرط باسم الجميع، أو أن كل ضيف يريد أن يطرح طلبه بنفسه. وهنا تحدث أمور طريفة. فأحياناً يقبل الضيوف ما يطرحه والد الفتاة من الشرط إكراماً لكبير القوم ولهم في شخصه، وبذلك لا يثقلون على صهرهم. وقد لا يقبل الضيوف ذلك أحياناً، فيقولون كل واحد «بوجهه» (تعبير عن المكانة المستقلة)، وأن كل واحد له طلبه، فالسيد يريد أن يكون له «وجهه» والعاقل له «وجهه» والشيخ أيضاً، وفلان من الناس يريد أن يكون له «وجهه»، وهكذا يوزّع والد الفتاة شرط ابنته إكراماً للضيوف كل بحسب مكانته.

1– ريالات ماريا تريزا النمساوية. سُكَّت في عهد الملكة النمساوية تريزا. وهي من الفضة وما زالت تتداول في اليمن وبعض بلدان الخليج بوزنها من الفضة.

2– العشم: الطمع والأمل المرجوّ.

وكان شرط العروس (مهرها)، في أواخر القرن التاسع عشر حسبما قال لنا العمّ سليمان عوض بين 10 و40 قرشاً، إضافة إلى خمسة أكياس من حب الذرة (نحو 250كغ) ورطلين فضة لابنة الوجيه أو المتوسط المكانة، وكان رطلاً لابنة الأقل مكانة. ورطل الفضة كان يساوي 12 قرشاً، ومكيال ملح، و«فراسلة» زنجبيل، ومكيال بن، وكرعة[1] سليط و«بركالة»[2] سوداء. وكان المهر عند بعض القبائل، مثل قبيلة الجعادنة، عشرين بكره (ناقة) وقعوداً صغيراً. وقد اختفت هذه التقاليد عندنا، ولكنها ما زالت باقية في جنوب إفريقيا والقارة السوداء، فقد دفع الرئيس نلسون مانديلّا 60 ثوراً مهراً لعروسه الثانية لجراما ماشيل، وحسب التقاليد الإفريقية فإن المهر عادة يتكون من المواشي، ولا سيما الأبقار والثيران.

وبعد أن تنتهي مراسم خفض شرط العروس إلى الحد الذي لا يمكن تجاوزه، وبما يكفي لتجهيز العروس من المستلزمات مثل زينتها الفضية، وتتكون عادة من حزام من الفضة، وأخـراص[3] وقلادة وعضد وحجل وخلاخيل وغيرها، وكلها مصنوعة من الفضة، من صنع منصور وسالم اليهوديين[4]، إضافة إلى الأواني والتجهيزات المنزلية التي تقوم أم العروس بتجهيزها.

وقد أخبرنا العمّ سليمان أن الدفع الكامل على الزوج يكون ثلاثمئة ريال فرنصة (ماريا تريزا) توزع على النحو الآتي:

200 ريال للأب والعقد فيها

50 ريالاً مهراً وفتحة

20 ريالاً ثوب الأم

5 ريالات للخال

5 ريالات للعمّ

1- وعاء من الجلد لحفظ الزيت.

2- ثوب أسود.

3- أقراط.

4- كان بعض اليهود يسكنون في قريتنا، وهاجروا إلى فلسطين في عملية بساط الريح في بداية الخمسينيات من القرن الماضي.

5 ريالات للأخ
5 ريالات للشاحذ (ضارب الطبل)
5 ريالات للخراز (الجزار)
5 ريالات للثياب الأخرى.
كذلك يشترط توفير الأشياء الآتية:

1. أربع غنم واحدة مدخل وثلاث شل.
2. عشر أكيال حب.
3. الدهن والكساء شرع الزوج.
4. سامان البيت على الحريو (العريس) يرسله مع الشل أو قبله.

ويتكون «السامان» (الجهاز) من الأغراض الآتية:

1. (2) «طسوت» (قدور)، واحد كبير وواحد صغير.
2. (2) «كتالي» (أباريق)، واحد صغير وواحد كبير.
3. (1) «بالدي» (سطل).
4. (1) منخل (غربال للطحين).
5. (4) صحون صغيرة وكبيرة.
6. (2) فوانيس.
7. (4) مطايب.
8. (1) صحن حق تصبون (غسيل الثياب).
9. (1) مقلاة.
10. (1) بجاد أو اثنين (أشبه بالسجاد من وبر الأغنام والجمل).

ويتفق والدا العروسين على الإجراءات الخاصة بالزواج ومتطلباته، وموعده في مكان آخر، بعيداً عن الضيوف الذين يستأنفون أحاديثهم الخاصة. وعندما ينتهيان يعودان إلى المجلس ويقوم السيد «بـترتيب» الفاتحة (قراءة الفاتحة)، ومباركة الزواج. عندها يتفرق الضيوف ويعودون إلى منازلهم.

وحول ترتيب الفاتحة وارتباط ذلك في الذهنية الشعبية البسيطة بشرب

القهوة، أورد العمّ سليمان قصة طريفة جرت بين أحد السادة وأحد مشايخ قبيلة الجعادنة، فبعد أن انتهت مراسم الوليمة التي أقامها شيخ الجعادنة (وهي قبيلة تقع شرق منطقة الحسين بدثينة وجنوبها) في إحدى المناسبات، قدَّم الشاي وطلب من السيد ترتيب الفاتحة، فاستنكر السيد ذلك وسأل: أين القهوة حتى أرتّب الفاتحة؟ فقال له شيخ الجعادنة شعراً:

يـا فـــارع الـشـــر افـرعـه يـا الـشـيـخ خـل القربعة
إن شـي تبا الشاهي شعه الـمـــر عـــاده فـــي سعه

(ويقصد بالمر هنا القهوة)

وطلب منه ترتيب الفاتحة فوراً وبما يشبه الأمر.

وعاد العمّ سليمان ليواصل حديثه عن إجراءات الزواج في دثينة وقال:

ومنذ هذه اللحظة، تبدأ التحضيرات، والتجهيزات للزواج الذي يكون بعد الخطبة بنحو شهرين، ولأن الزواج مناسبة مهمة لأهل العروسين ولأهل القرية كمناسبات الأعياد، فإنهم يستعدون لشراء الملابس الجديدة وهي الزيّ الشعبي الذي يرتديه أبناء المنطقة، وكان يتميز باللون الأسود، وهو قماش مصبوغ بالنيلة[1] السوداء المائلة إلى اللون الأزرق والذي يتكون من قطعتين هما المعوز والرداء، حيث يُصبَغان باللون الأسود، وبعد أن يمرا تحت الكمادة (المدق الخشبي) تظهر عليهما اللمعة ويسمونها»الصقلة».

35 – عمامة بالنيلة

1– صبغة من مواد نباتية كانت تحمي البشرة من الحر والبرد.

والصباغة عمل محلي يقوم على مادة النيلة التي تزرع ويجري تجهيزها في براميل وينقع القماش فيها لمدة محددة، ثم يُخرَج ويُعصَر ويُوضَع تحت قطعة من الخشب ويضرب بالكمادة حتى يظهر اللمعان، وتفصّل منه ملابس للرجال والنساء، وعمائم سوداء للرجال يفتخرون بلبسها، وهي تلمع بألوانها الزرقاء الداكنة، ويسكب على رأس المرأة زيت سمسم (سليط) وأيضاً الرجل حتى ينزل من رأسه إلى ظهره أحياناً، أو يقطر السليط من أطراف ثوب المرأة ويتحول لون المرأة والرجل إلى السواد، ومن أبرز الذين يقومون بهذا العمل في المنطقة عوض عمر الصَّبان ولبهص ومديهس وعوض الجبل وصالح الجبل وأهل فرحان في امفرعة وغيرهم.

ذكر الرحالة الألماني المغامر هانر هولفريتز الذي زار اليمن عام 1934م في كتابه **اليمن من الباب الخلفي** هذه المهنة التي شاهدها في الجنوب، حيث وصفها كالآتي:

«إن حريب تعتبر من أهم مراكز الجنوب العربي في إعداد النيلج «النيلة». وهذه العملية شاقة ومضنية. إذ إن النيلج يؤخذ من بذور نبتة خضراء صغيرة. وفي الأراضي التي تقع أمام كل مدينة، مساحات شاسعة تداس أرضها بقسوة، ثم تجمع البذور في الليل. وفي الصباح الباكر، وقبل أن تشرق الشمس تبدأ عملية الاستخلاص، إذ تدرس البذور بمدارس من الخشب ثم تغربل وتطحن. وتوضع البذور السمراء الجميلة بعد ذلك في أوعية كبيرة من الفخار ملأى بالماء. وهنا يتأكسد النيلج ويتحول إلى سائل بني غامق من طريق اتصاله بالهواء. ولا يسمح باستمرار عملية التخمير هذه أطول من عدة ساعات. وعند الظهيرة، عندما تكون الشمس في كبد السماء، يمضي كل رجل إلى وعائه، ويحرك السائل بعصا خشبية، منشداً أناشيد رتيبة وهو يقوم بتحريكه. ويلون نسيج القطن بالمادة التي تم استخراجها، وتصبح جاهزة للارتداء».

ومن طبيعة النيلج أن يتحلل، وهكذا فإن البشرة سرعان ما تكتسب لوناً أزرق. ولكن هذا لا يعتبر نقيصة، بل على العكس، فإن البدو يدهنون أحياناً أجسادهم بالنيلج. وهذا هو السبب في اختلاط لون البشرة السمراء، في هذه المناطق، بالزرقة. وقال إن سلطنة العوالق العليا مشهورة بصناعة الكساء الأسود، وهو من أجمل الملبوسات في المنطقة. وكتبت الدكتورة كلودي فايان صاحبة كتاب

كنت طبيبة في اليمن الذي يتحدث عن زيارتها لمأرب عام 1952م أنها شاهدت الرجال يلبسون ثياباً مصبوغة بالنيلة الزرقاء القاتمة أو الفاتحة، وقد امتصّت بشرتهم مع مرور الأيام هذه الصبغة واستحقوا أن يطلق عليهم لقب البدو الزرق.

وقال العمّ سليمان: سأحكي لكم قصة قبل ما ننام الليلة حتى لو طولت عليكم عن قهوة العديني[1]، وعن الحُب والشباب. في الماضي كان رعاة الأغنام من الشباب والشابات يسرحون في الغنم رعياناً وكانوا عند خروجهم يتفقون فيقول أحدهم للآخر مثلاً: نحن خليط أم لا؟ فإذا اتفقوا منذ البدء على إعلان أن يختلط الغنم ساقوها إلى المرعى معاً، وإذا لم يتفقوا سار كلٌّ وحده، وكان يحصل التعارف بين الشباب والشابات، وعندما تتوثق العلاقة بين شاب وشابة يصارحها الشاب بحبه لها، وإذا قبلت به يبدأ الشاب بزيارة الأسرة ويسامرهم في الليل، وأحيانا يأتي بالبُن معه من أجل القهوة. وفي مرة من المرات وبعد تعارف أحد الشباب بإحدى البنات قال لها: أنا آتي أسمر عندكم، فرحبت به البنت، وبعد ذلك أخذ يتردد على الأسرة.

ويبدو أن الأب والأم أدركا أنّ تردد هذا الشاب سيوصل في النهاية إلى طلب يد أبنتهما، وكانا غير موافقين على ذلك، واتفق الأب والأم على أن يصرفا هذا الشاب بطريقة مؤدبة، وراحت الأم وأخفت البن المدقوق الذي كان يوضع في ما نسميها (ربعة)، وهي وعاء يتسع لنحو كيلو من البُن، وهي مصنوعة من الخوص عزف النخيل، وأخفت المقلاة التي يُحمَّص فيها البُن حتى إذا فكرت البنت أن تبحث عن البن الذي لا يزال حبوباً لا تجد مقلاةً لتحميصه وأخفت أيضا ما يسمى المنحاز، أي الهاون الذي يُدَقّ فيه البُن، وأخفت كذلك «غرب» الماء، وهو وعاء مصنوع من جلد الغنم المدبوغ، وكانت توجد في البيت (مزلالة)، وهي تتكون من أربع خشبات عمودية فوقها عدد من ألواح الخشب الراسية، تشكل ما يشبه الطاولة الحديثة توضع عليها أوعية الماء «الغروب»، وتسقف المزلالة من الأعلى حتى لا تتعرض أوعية الماء لأشعة الشمس حتى تظل باردة، وبعد أن أخفت الأم الماء بحيث لا تستطيع البنت عمل القهوة، قام أبوها وأمها بسرعة بعد العشاء وتظاهرا بالنوم. وبعد فترة جاء العاشق الولهان

1- نسبة إلى وادي ومنطقة العدين في إب.

وأحضر البُن معه، فقامت البنت لعمل القهوة، فلم تجد الهاون فاستخدمت المرهاة أو المسحقة التي يسحقون عليها الحبوب، وسحقت البن، والسحق يكون من غير صوت، وذهبت إلى المقلاة ولم تجدها فاستعملت حجر الحرض المسمى «ملوحة»، وهو آنية مخصصة لقلي البر (القمح) البلدي، فأخذتها ووضعتها على النار وحطت البُن فوقها وحركته بعود حتى تحمص وعادت وسحقته إلى أن أصبح ناعماً، وجاءت تريد الماء ولم تجده، وذهبت للأغنام وحلبت لبناً في الجَبَنَة ووضعت عليه البُن وشربوا قهوتهم باللبن بدلاً من الماء، وبعد شرب القهوة انصرف الشاب وهو في حالة سيئة، وعلم بأن هذا العمل هو من أجل أن يقتنع بأنهم لن يزوجوه ابنتهم، وقد صرفوه بطريقة مؤدبة. وبعد انصراف الشاب ذهبت البنت وجلست وبدأت تدندن وتقول في غنائها:

قهوة عديني لمحبوب الكبد سويتها
لاهي على الماء ولا في المحمس اقليتها
ولا سمعني عرابي حين دقيتها

36 – غرب للماء

37 – الربعة (الربعي)

وسمع أبوها وأمها هذه الأبيات المعاتبة لهما بصورة غير مباشرة على العمل الذي قاما به من إخفاء البُن والمقلاة والهاون ليعجزوها عن القيام بواجب الضيافة لحبيبها، وأخيراً قال الأب لزوجته: من كان عملها هذا فلن يعجزها شيء للوصول إلى ما تريد، ووافقا على زواجها بالشاب.

فقال له برطم: سهرتنا وتعبتنا على هذا الحب الطائش بين الرعيان، وعندنا يحصل مثل هذا الكلام بين الرعيان، ويحصل تفاهم وحب وزواج ودعونا ننام.

قال العمّ سليمان: والله يا برطم ما عمرك حبيت في حياتك غير رعي الغنم والجمال ومعصرة الصليط (زيت السمسم).

تعجبت كيف يعرف العمّ سليمان كل هذه التفاصيل، وبهذه الدقة. ولكن أهم شيء أنه كان يمنحني المتعة والمعرفة معاً. لا بد أنه يعرف أشياء كثيرة، ويعرف الكثير من القرى والمدن، ولديه الكثير من العادات والقصص التي جمعها من أسفاره.

السماء واسعة لا نهاية لها، والنجوم تزينها كاللآلئ المشرقة. نظرت إلى وجه العمّ سليمان، كانت إشراقة وجهه واضحة وهو يتحدث على وهج النار، ولم أرَ أثراً للتعب عليه، رغم أن النوم كان يداعب عيوننا جميعاً. كنت أعرف أن رحلة طويلة مرهقة تنتظره وتنتظرنا فجر الغد، وثمة تفاصيل كثيرة عن موضوع الزواج لم يحكها بعد. والمشكلة أن الوقت يدركنا، وأمر النوم ومواصلة رحلتنا إلى الغد يشغل فكرنا، لذلك كان على العمّ سليمان أن يتوقف عن الحديث الممتع عند هذه النقطة، وهكذا افترشنا الأرض، وذهبنا في سبات عميق.

أول شعاع في الفجر

مع البدايات الأولى للفجر صلينا، وانطلقت قافلتنا من جديد في طريقنا إلى حبيل امسجد وقرن ابن امحوزة (امحميشة) ولبو وضبة فأرض النخعين وجحين ورهوة المقانع وجربة الوبري وأهل امزمل إلى امسلول، وهم مراقشة الساحل، ويسكنون في العرقوب إلى الساحل[1]، نركب

1- وبعد الوضيع مررنا بآل امارم وآل طميس والمحاثيث والنخعين وقرية كورة حليمة وكورة العسعوس وآل امزنو وقرية اللصيمة وجحين الدولة وآل امزمل ومراقشة الساحل ينتشرون من حدود أحور إلى العصلة ووداي حسان.

الجمال أحياناً، ونسير خلفها أحياناً أخرى. نعطش ونشرب، ولا نتوقف عن السير، كانت الإبل، يتقدمها ذلك الجمل العجوز[1]، تسير بنا في طريق جبلية، متعرجة، ومتشعبة، ووعرة. كنا نتهامس: «هل نحن في الطريق الصحيح؟»، فيجيب أحمد مسعود: إن «الجمل» وقد تمزقت أخفافه «المفلطحة» في هذه الدروب الوعرة التي يقطعها في رحلاته الدائمة بين دثينة وعدن لن يضلّ طريقه أبداً. وتستمر القافلة في سيرها يتقدمها الجمل العجوز الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتبرم وهو يندفع إلى الأمام، وتذكرت فيما بعد قول الشاعر:

يا قافلة عاد المراحل طوال وعـــاد وجـــه الليل عابس
يا قافلة بين امسهول وامجبال الله معش حامي وحـارس

كان هذا الجمل العجيب يسبح بنا في دجى الليالي، رغم أنه لا أثر لطريق يمكن مشاهدته. وكنا نخاف أن يضلّ بنا في الدروب الموحشة، لكن كان علينا أن نثق به مثلما يثق به صاحبه الذي قال وهو يفتخر بجمله العجوز، المجرب، الذي يشمّ رائحة الجبال والرمال والطرق ومنعطفاتها:

«لا تخافوا، إنه لا يتوه، ولن يتوه»!

قالها واثقاً من جمله ورفيق دربه العجوز الذي شاركه رحلة العمر هذه لزمن طويل.

كنا نسير خلفه وكأننا نسير خلف «المحمل المصري» في الطريق إلى قبلتنا عدن.

وتساءلت: كيف يعرف الجمل كل هذه الدروب التي يمكن أيّ امرئ أن يضلّ فيها؟

كانت الجمال تندفع إلى الأمام لا يشغلها ماء ولا غذاء. فهي تجتر الطعام عند الحاجة، كذلك فإنّ الجمل يختزن الماء في جسمه، لهذا يمشي ساعات

1- يسمى الجمل الذي يتصدر القافلة «السديرة» لمعرفته بالمسالك والدروب الوعرة في الطريق.

طويلة دون أن يحتاج إلى الماء. لعدة أيام، كما هي الحال بالنسبة إلى جمال صحراء نجود والربع الخالي.

يقول الشاعر كعب بن زهير:

أمست سعاد بأرضٍ لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

ويقصد الجمال التي تتحمل مشقات السفر للوصول إلى حبيبته.

والجمل صفته الصبر (والصبر عند الجمل يعني ترحيل الحسابات مع من أساء إليه)، ويقال أيضاً «الحقد». وقد خبرت ذلك بنفسي. وقد ذكر القرآن الكريم الجمل بوصفه من مخلوقات الله العجيبة من بين قلة من الحيوانات بقوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) ويقال إن ولادته تكون عسيرة جداً، وأصعب من سائر المخلوقات الأخرى.

وقد تذكرت وأنا أسير خلف هذه الجمال أن لي ثأراً معها، أو بالأصح مع أحدها. فقد أصبت بطريق الخطأ أحد الجمال في قريتنا في عينه ونسيت الأمر تماماً، لكن الجمل على ما يبدو لم ينسَ لي ذلك، ولم أكن أعرف حينها أن من صفات الجمل الحقد.

فبينما كنت أسير في إحدى الأيام في الطريق بالقرب من قريتنا غير عابئ بشيء إذا بالجمل يهاجمني على غير توقع مني، ولم يكن أمامي سوى الجري، فقد فاجأني الموقف تماماً، والجمل يربع ويجري في إثري ويحثّ خطاه، وفي لحظة ما أمام رعب الموقف صرخت والتقطت حجراً من الأرض، محاولاً ضربه وإبعاده عني، لكنه كان مصمماً على الوصول إليّ والانتقام مني. كان موقفي حرجاً، وفجأة وجدت أمامي شجرة كثيفة الأغصان (سمرة)، فهرعت إليها، لكنه جدّ في إثري، وكان الخوف قد استولى عليّ، ولا أدري ماذا أفعل ولا كيف أنجو. وأخيراً، دخلت تحت الشجرة، لكن الجمل الحقود برك على ركبتيه ومدّ رأسه ورقبته الطويلة إلى داخل الشجرة فهربت، فأخذ يلاحقني. وفي هذه اللحظة تدخلت عناية الله حين أقبل مصادفة من مكان لا أدريه رجل من قريتنا اسمه «صالح الحاج»، وعندما رأى الصراع الدائر بيني وبين الجمل الهائج الحاقد تدخل وأبعده

عني. وأنا مدين لهذا الرجل بحياتي. فلو لم تتدخل عناية الله في تلك اللحظة، لكنت في عداد الأموات. لكني تعلمت الدرس جيداً، فكنت كلما أرى ذلك الجمل من بعيد أبتعد عن طريقه وأهرب منه.

ومن جملة من وصفوا الجمل بطريقة حسية وعلمية الرحالة الألماني المغامر هانز هولفريتز الذي زار اليمن عام 1934م. فقد ورد في كتابه **اليمن من الباب الخلفي** وصف قافلة الجمال التي رافقها أثناء دخول صحراء الربع الخالي حيث تفرقت في جبهة واسعة وقد انشطرت إلى مجموعات فردية. وكانت كل مجموعة تضم سبعة أو ثمانية من الإبل مقطورة، وقد رفعت رؤوسها المتكبرة، المشدودة بحبل إلى أذنابها، وقد ازدانت هذه الأذناب بعقد صغيرة مزخرفة.

والغريب في هذه الحيوانات، أن المرء لا يفلح في إقامة علاقات صداقة شخصية معها، كما هي الحال مع الجياد مثلاً، وهي تؤدي عملها بصبر وهدوء، ولكنها تحيط نفسها دوماً بموجة من عدم الرضى والسخط، وفي وسع الإنسان أن يحكم فوراً بأنها تكره استغلالها، ولكنها في الوقت نفسه، تحتقر كل أشكال الحياة الأخرى، حتى حياة الجنس البشري، وكل ما يصدر عنها من عواطف يعبّر عن الكراهية والسخط، وإذا ما أثقل ظهرها بالأحمال، أو نخزت للوقوف، صدرت عنها أصوات غاضبة حانقة، وكشّرت عن أسنانها الصفراء الطويلة، وكأنها تحاول أن تعضّ من يقف أمامها، حتى ولو كان صاحبها الذي يعني بأمرها، ويوليها اهتمامه. وعندما تصل إلى مرحلة الجهد والإنهاك، تصدر عنها أصوات ناحبة تقطع نياط القلوب. لكن على الرغم مما في هذه الحيوانات من بشاعة منظر يتمثل في تشقق شفاهها العليا، وفي سنامها القبيح، وفي طيّات ركبها الكثيرة التجاعيد، وفي رائحتها النتنة التي تفرزها، فإن عيونها الباكية، التي تحيط بها أهداب طويلة، تضفي عليها جمالاً لا يضاهى. وفي هذه العيون نظرات تائهة، تتطلع إلى الخواء، دون اكتراث بما حولها أو ما يحيط بها. وكثيراً ما تلتفت برؤوسها إلى الوراء، وتتطلع إلى راكبيها في وجوههم بنظرات قاسية متفحصة. وفي هذه النظرات كل معاني الألم الممزوج بالاتهام والازدراء. وليس في وسعي أن أتصور شيئاً يمكنه أن يفسد عليها حالتها النفسية.

38 – لوحة لقافلة من الجمال في الصحراء

مع ذلك، ورغم الوصف القاسي للرحّالة الألماني للجمل (ربما لأنه جاء من بيئة لا تعرف الجمال ولا تعرف قيمتها) إلا أنه يبقى الحيوان الأهم والأكثر منفعة في جزيرة العرب وصحاريها الواسعة، وأيضاً في الصحاري الإفريقية. فالجمل بحق، سفينة الصحراء، وهو وسيلة المواصلات والنقل التي يعتمد عليها دائماً دون أن تكلف صاحبها إلا النزر اليسير من الغذاء والماء، وهو أيضاً مصدر مهم للغذاء، وحليب النوق مشهور بفوائده الصحية، ولا يحتاج إلى شهادة[1]، ولحومها من ألذّ اللحوم، وتحتوي على نسبة بسيطة من الدهون، فضلاً عن أنّ للجمل منافع أخرى كثيرة.

وفي منطقتنا لا يميلون إلى أكل لحم الأبقار ولا الجمال، وأتذكر أنني لأول مرة أكلت لحم الجمال في أحد المعسكرات بالعبر في محافظة حضرموت، وبعد ذلك في عدد من المآدب في دولة الإمـارات العربية المتحدة، فهم يتنافسون في شراء الجمل الصغير (القعود) ويطبخونه في

1- وشرب الحليب يكسب الجسم عدد من الفوائد من ضمنها علاج للصفار الناتج عن أمراض الكبد وأمراض الرشح والانفلونزا ولمرض السل وهشاشة العظام بالاضافة علاج لمرض الاطفال وفقر الدم واضطرابات الجهاز الهضمي، مشكلة الامساك ومعالجات الشعب التنفسية وأمراض النفس والربو ويعملعلى تنظيم ضربات القلب ويقلل من مستويات السكر في الدم وفوائد اخرى لا حصر لها ويقال ان الشخص الذي يتنازل حليب الابل لايقبل جسمه المخدر كما علمت لاحقا من احد الاصدقاء انه عندما وضع عليه البنج لم يستجب له فاستغرب الطبيب وساله ماذا كنت تأكل وعلموا في مابعد أن سبب ذلك حليب الابل كما ويقال انه مقوي جنسي

الأفران ويقدمونه على الموائد، وألذ وأطيب أكل هو اللحم الذي يقع تحت السنام. وسكان الصحراء في الجنوب ودول الخليج يحبون أكل لحوم صغار الإبل «قعدان» ومفرده قعود.

أما الفرنسي جيل – جرَفيه كورتلمُون في كتابه **رحلتي إلى مكة** فقال عن الجمل: «لم يكن أمامنا سوى وسيلتين للنقل، ويجب أن نختار إحداهما لقطع مسافة آل 87 كلم التي تفصل مكة عن مدينة جدة: الجمال أو الحمير. كنت أرغب في امتطاء الجمل الذي أحب خطواته التي تشبه المهند ومشيته الاسترخائية. الجمل هو المطية الحقيقية في هذه الأماكن المقفرة والقاحلة. إنه الجمل المثير للسخرية والمعاند، على الرغم من أن مواقفه غريبة، إلا أن قلبه طيب. إنه الجمل الذي لا يتوقف عن الشكوى، سواء عند تحميل الأغراض عليه، أو عند إنزالها في الوقوف أو البروك، لكنه يسير دائماً دون أكل أو شرب. إنه حيوان مناسب أرسلته العناية الإلهية، خُلِقَ للصحراء لمواجهة كآبة هذه البلدان العتيقة الميتة ولعزلتها التي لا نهاية لها».

وللجمل صفات محمودة كثيرة، أهمها الصبر وقوة التحمل، وهو حيوان وفيّ، وذاكرته قوية لا تبليها السنون. وقد كان لوالدي جمل عرفناه ونحن صغار السنّ، كان ينام داخل الحصن الذي نسكنه دون سائر الحيوانات المملوكة لنا، وكان هذا الحيوان إذا حلّ المساء يزحف على صدره بعد أن يطوي ساقيه ليتمكن من الدخول من باب الحصن الذي لا يتناسب مع حجمه الضخم، ثم يواصل الزحف بعد دخوله حتى يحتل إحدى زوايا غرفة المدخل التي كنا نسميها «امسوق».

وكان هذا الحيوان رفيقاً لوالدي في أسفاره إلى عدن لفترة من الزمن، ولكنه باعه بعد ذلك، وبعد عام أو أكثر، كان والدي في سوق «الشيخ عثمان»، وشاهد الناس يهربون من السوق وجمل هائج يجري وراءهم، وكانت حالة من الرعب والفوضى تعمّ السوق، وما أن رأى والدي الجمل وعرفه حتى اتجه إليه لتهدئته، فحاول البعض منعه خوفاً على حياته من الجمل الهائج، لكنه لم يبالِ بتحذيراتهم، واتجه إلى الجمل الذي ما إن عرفه حتى هدأ وبدأ في تشمم والدي من رأسه حتى أخمص قدميه في ما يشبه العناق. قال والدي بعد ذلك، وهو يصف لنا الموقف: كان الجمل يبكي وهو يشمّني والدموع

تسيل من عينيه، ولم أتمالك نفسي فنزلت الدموع من عينيّ تأثراً، والناس في حالة اندهاش من الموقف. وهذا على نقيض الصورة التي رسمها الرحالة الألماني هانزهولفريتز للجمل بأنه لا يمكن إقامة علاقة صداقة معه.

ومن القصص التي تشهد على وفاء الجمل، وعاشتها قريتنا، أن ابن العمّ سليمان عوض، قائد رحلتنا إلى عدن، وكان اسمه عبد الله، كان لديه جمل ارتبط معه بصداقة حميمة قوية، وكان لا يفارقه أينما ذهب، ودائماً ما كان يشاهد على ظهر جمله، فحدث أن مرض الصبي ومات، فسار الجمل مع المشيّعين وراء الجثة حتى ووريت الثرى، وظل لأيام يدور حول القبر وهو «يحنّ»، ما دفع العم سليمان إلى بيعه حتى لا يذكره بوفاة ابنه. وبعد ذلك بسنين قرأت خبراً عن وفاة الحاج علي النعنع وجمله، وهي كما يأتي:

عُرف المرحوم الحاج علي النعنع وسط أهل قريته بحبه للحيوانات ورعايته لها. وعندما توفي أخيراً سار جمله في جنازته ورفض مبارحة القبر. وحاول ابن المرحوم النعنع إجبار الجمل على مغادرة مكانه بجوار القبر، لكن الجمل كان يعود في كل مرة إلى القبر فور تخلي الابن عنه. وقالت أرملة النعنع إنها أشارت على ابنها بترك الجمل، موضحة أنها تخشى عليه من معاناة فراق صاحبه.

39 – الجمل عند قبر صاحبه

وبعد هذه الذكريات عن الجمال ووفائها وفوائدها ومعاناتها في الماضي في غياب السيارات والطائرات، فإنها اليوم تحظى باهتمام كبار المسؤولين

ورجال الأعمال والمال والمواطنين في الدول النفطية، وفي عدد من الدول تُنظِّم سباقات سنوية للهجن وتجري المراهنات على أفصل النوق في السباقات، وأصبحت لها أسماء مشهورة في الخليج، ويجري التنافس في اقتناء أفضلها، وقد تجاوزت قيمة البعض منها ملايين الريالات، بل إن بعضها ازدان بملايين الدولارات من الذهب.

40 – الناقة «الهنوف» ترتدي ذهباً بقيمة 16مليون ريال سعودي، أي ما يساوي نحو 4.5 ملايين دولار بمناسبة فرحها على الجمل «عجلان» عام 2017

وبالعودة إلى رحلتنا، فقد كان الجمل العجوز «السديرة» يقودنا ونحن مستسلمون، وقد مررنا ببعض القرى والقبائل من أهل امزنو، آل امارم، ولم نلاحظ أننا قد أوشكنا على الوصول إلى محطتنا التالية، وادي أهل جبير، وقد اخترناها لمنامنا هذه الليلة بوصفها منطقة مأمونة ومألوفة.

كانت المنطقة جرداء إلا من بعض أشجار السمر وبعض الأشجار الصغيرة والأعشاب التي أحرقتها أشعة الشمس والطبيعة القاسية والجفاف الذي لا يرحم. وغير ذلك لا أثر لشيء: لا ماء، لا سكن، ولا حياة.

بدأ الظلام يخيّم علينا، فأخذنا نستعد لمواجهته بكل ما نملك من إمكانات لم تكن كثيرة، لكنها ضرورية: الكبريت والحطب والماء والشاي والخبز الذي كان علينا إعداده، وأخيراً «المداعة» رفيقتنا في الليل والسمر.

41 – صورة لرجل مع المداعة أو الرشبه، وهو يشبه العمّ سليمان

بعد أداء الصلاة بدأنا بإشعال النار، أخذ وهجها الأحمر يبدّد ظلام الليل. تحلقنا حولها كما هي عادتنا كل ليلة. ولكن أهم شيء أن هذه النار تجتذب إليها أرتال البدو الذين ما إن يرون النار المشتعلة حتى يبدأوا بالتوافد. كان البعض قد سبقوا بالوصول، وجاء بعدهم شخص آخر. وبدأوا بالتحية: – سلام – قلوب – علم.

بمعنى السلام عليك «بالقلوب»، يعني لا داعي لأن نسلّم على بعضنا بالأيدي أو نتبادل القبل كعادتنا اليوم. و«علم» تعني «ما أخباركم؟!» كلمات سريعة قصيرة مختزلة وكأنهم لا يجدون وقتاً للكلام والسلام لكثرة مشاغلهم!

سمعت همساً بين العمّ سليمان وبرطم عندما بدأ الضيوف بالتوافد علينا يجذبهم ضوء النار، بدا وكأن العمّ سليمان وبرطم وأفراد الرحلة الآخرين يشعرون بالحرج من هؤلاء الضيوف الوافدين من مناطقهم وقبائلهم على غير توقع، فالماء قليل والطعام لا يكفي إلا لبعض الوقت ونحن على أبواب رحلة طويلة بين أهل جبير وشقرة. والرجلان خبيران بهذه المناطق التي لا تسمع عند مرورك بها إلا كلمة «شخطة» أي كبريت، وظل هذا مطلب هؤلاء البدو حتى بعد دخول السيارات.

قلت لهما: هل يوجد خطر من هؤلاء على حياتنا؟

قالا: لا، لكننا نشعر بالخطر على غذائنا ومائنا.

قلت: لا تكونا مثل البخيل المشهور أبي الأسود الدؤلي الذي تحدثت عنه العرب عندما جاءه ضيف عابر سبيل.

قال العمّ سليمان: ماذا عمل؟

قلت: وقف أعرابي على أبي الأسود وهو يتغدّى، فسلّم فلم يردّ عليه أبو الأسود ولم ينظر إلى جوعه، وكلما سأل الأعرابي سؤالاً ردّ عليه أبو الأسود بجفاء وإيجاز حتى أتى على طعامه كله.

وأضفتُ: أو كذلك الذي قال لأمه: بولي على النار حتى لا يشاهد المارّة مكانهم، وإذا بالت فعليها ألّا تبول إلا قليلاً حتى إذا جاء ضيف آخر بالت، وأطفأت النار. كما جاء في البيت:

قوم إذا استنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأمهم: بولي على النار

فتمسكُ البولَ شحّاً أن تجود به وما تبول لهم إلا بمقدار[1]

قال العمّ سليمان: أما هذه فكبيرة يا علي بر ناصر ولو سمعتها من غيرك والله ما أسكت عليه، ونحن كرماء وأبناء كرم طول الزمان، وأنت تعرف أننا خارج بلادنا وبيوتنا، ومقطوعين في هذه الجبال والأودية، فهم على رؤوسنا وأهلاً بهم.

وقال: والله لولا هذا السفر وهذا الليل، لنحرت لهم بعيري، كما ذبح حاتم الطائي حصانه وأخرج خنجره وهَمَّ بذبح الجمل كردّ للإعتبار.

قال برطم: ليش أنت أكرم من حاتم الطائي؟

أجابه العمّ سليمان: أنا أحسن من حاتم الطائي ومنك يا برطم.

شعرت بأنني جرحته فاعتذرت له وبدأنا السهرة.

وكما هي العادة بدأت الأسئلة توجه إلينا من قبل هؤلاء البدو: من نحن؟ ومن أية قبيلة؟ وإلى أي المناطق ننتمي؟ وبعد أن يعرفوا من نحن يبدأ الحديث عن القبائل: أهل حسنة، المياسر، السعيدي، الجعادنة، أهل حنش، المحاثيث، إلخ...

1- الأخطل.

وعن بقية القبائل والعشائر، من قُتل، ومن مرض، ومن ما زال على قيد الحياة. ويتطرق الحديث أيضاً إلى المطر والسقي والماء والغنم والمراعي والجفاف، وهذا هو الهمّ الأول الذي يشغل هؤلاء البدو. ففي نظرهم هذه هي أهم أخبار الدنيا. وبعد أن يعرفوها ينامون قريري الأعين، غير عابئين بهموم الدنيا في انتظار يوم جديد، وكأن حدود الدنيا تنتهي عند المناطق التي ذكروها والأمور التي استعلموا عنها. وعلى أية حال، فقد كانت تلك حدودهم بالفعل. فماذا يمكن أن يشغل هؤلاء البدو سوى الرعي والمطر والغنم؟ ولماذا يشغلون فكرهم بأمور لا يعرفون عنها شيئاً، أو حتى يتخيلوها مجرد التخيل؟!

«الكتلي» (الإبريق) فوق النار يفور ويثور وبدا الزبد يظهر ويتكسر على أطراف الفوهة، والمداعة في يد العم سليمان عوض، يسحب منها أنفاساً، وأحمد مسعود والآخرون يعدّون الخبز الذي يوضع على أحجار ملساء فوق النار، ويضعون داخل كل قرص حجراً مكوراً أملس لإنضاجه من الداخل، ويُسمى (قرم). وترسل النار دخانها في الهواء المنعش، في هذه البقعة الجرداء التي سنبيت فيها ليلتنا. وقد عاودني الحنين إلى سماع بقية الموضوع الذي بدأه العم سليمان في الليلة السابقة، وانتظرت أن يبدأ الحديث من تلقاء نفسه، وفكرت أنه يحسن بي أن أدفعه إلى الحديث قبل أن يتذرع بالتعب ويذهب إلى النوم، فتضيع مني بقية التفاصيل عن إجراءات الزواج في دثينة.

42 – الكتلي

لحظتها قال العم سليمان وكأنه يقرأ أفكاري:

- يا بوك عادك تبا (تريد) تسمع قصة أمحراوة[1]، ولا با تعرينا ننام!!

قلت محرجاً بعض الشيء:

- لا بك طافة شعنا نباك (نبغاك) تكمل قصة امزواج.

قال دون أن تفارق عيناه وجهي:

-أبشر يا بر ناصر.

فأفرحني أنه سيواصل بقية الموضوع.

تفحص وجوهنا بعناية قبل أن يقول:

- حكيت لكم البارح[2] عن إجراءات الخطبة، أما اليوم فستعرفون مني إجراءات الزواج، وأنتم الشبان تهمكم هذه الأمور.

أخذ عدة أنفاس من دخان «الرشبة»، واستوى في مجلسه بارتياح وقد هيّأ نفسه للاسترسال في السرد ثم قال:

- تتحمل أم العروس العبء الأكبر في الإعداد والتجهيز لزواج ابنتها. وعليها تقع مسؤولية الإشراف على شراء كل صغيرة وكبيرة من جهاز ابنتها الذي يضمّ تشكيلة كبيرة من اللوازم الكافية لتأسيس بيت جديد.

- سألناه: ما هذه اللوازم؟

- فقال:

- تضم الأواني والأوعية والمعدات المنزلية، وتُشرف الأم على شراء الأوانـي المصنوعة من سعف النخيل، وعددها كبير، وتضم «التوار» و«الجعاب» والأطباق بأحجامها وأشكالها المختلفة، ولكثرة عددها فإن تزيينها «بالودع»[3] وتقويتها بالجلد بعد شكّها بـ «المراير» بالكاد تكفي عشرة أيام لإنجازها.

1- الحراوة: الزواج أو العرس.

2- وهي الكلمة التي تنطق البارح، أما بقية الكلمات في دثينة وبعض المناطق فتبدأ بـ «أم» وفي بلاد الشام ومصر تنطق «امبارح» كما يغنيها السيد مكاوي «ليلة امبارح ماجانيش نوم».

3- أصداف بحرية.

فعدد «التوار»[1] يبلغ عشرين، عشر منها كبيرة وعشر صغيرة، والصغار تسمى «رباع»، وعدد «الجعاب»[2] عشرون. عشر كبار وعشر صغار. أما الأطباق، فعددها يبلغ الأربعين، موزعة على أربع فئات كل فئة منها تتكون من عشرة أطباق، وأسماؤها «مناشير»، ومفردها «منشور»، وهي ذات طرف أحمر.

43 – «جعبة»

«والزنوان»، ومفردها «زنو»، هي الأطباق الحمراء بلونها القاني. أما الأطباق التي في وسطها دائرة، فتُسمى «مجفى»، وجمعها «مجافي». إضافة إلى «المقارب» وهي أطباق بيضاء اللون.

44 – الزنوان والمجافي والمقارب

1– جمع تورة: وهو وعاء مصنوع من سعف النخل كالحقيبة يستخدم لحفظ الخبز.
2– مفردها جعبة، وهي أيضاً من سعف النخيل، وتستخدم لحفظ الأطعمة المطبوخة (الناشفة).

قلت للعمّ سليمان:

– أليس ذلك كثيراً؟

– أجاب:

– ليس هذا كل شيء، فقد بقي الكثير مما تُجَّهز به العروس. فبالإضافة إلى ما ذكرت، تُجَّهز العروس بعدد آخر من الأطباق من أحجام مختلفة، منها عشر «مقاشر»، وأربعة أطباق كبيرة، واحد منها لصناعة الخبز، حيث تُرَصّ أقراص الخبز الحامض (المخلم) فيه بعد صناعتها تهيئة لإدخالها في «الميفى»[1]، وهناك طبق آخر يسمى «منزل» وجمعه «منازل»، توضَع أقراص «المخلم» الناضجة بعد إخراجها من «الميفى» فيه قبل دهنها بالسمن أو السليط وإدخالها ساخنة إلى التورة التي تحفظ حرارتها لمدة طويلة. بالإضافة إلى طبقين آخرين كبيري الحجم للرهي. وتوضَع «المرهاتان»[2] عليهما. وأحدهما يخصص لقشر الخبز الخشن، والآخر لـ«سدفه»[3] (طحنه ناعماً) وبطبقين آخرين لـ «امتنصوب»[4]، وواحد لنخل الطحين الذي يطحن بالرحى.

45 – مطحن للحبوب (الرحى)

وواصل العمّ سليمان عوض حديثه، فأخذ يذكر أسماء الأواني التي

1– الميفى: التنور.
2– حجران لطحن الخبز.
3– أي طحنه ناعماً.
4– لجمعه.

تجهزها الأم لابنتها كأنه يقرأ من كتاب مفتوح. وجاء الآن دور الحديث عن الأوعية الجلدية التي تستخدم في حفظ الماء والسمن والعسل، وكانت كثيرة، وأحجامها وتسمياتها متعددة، وتستخدم لأغراض شتى. ويبلغ عددها كما قال لنا (22) قربة. وعشرة «أروب»[1] و«قربتان»[2] و«كرعتان»[3]، واحدة منها للعسل، والأخرى للسليط، وقربتان أو ثلاث قرب للماء واحدة للراعي، والأخرى لـ«الشارح»[4]، و«أربان» للأبتال[5]. ويصل عدد الجلود التي تقوم أم العروس المسكينة بدباغتها والتي تستخدم في تجهيزات الزواج ما يقارب مئة جلد من مختلف الأحجام، ويستخدَم في دباغتها الملح و«القرض»[6] ودم شجرة «القيطام» الأحمر ذو المفعول العجيب. فبعد ثلاثة أيام فقط من دبغ الجلد بدم هذه الشجرة يكون صالحاً للاستخدام. وتظهر آثار لونه الأحمر على ماء الشرب في الأيام الأولى من استخدام الجلد المدبوغ لماء الشرب، ثم يختفي بعد ذلك نهائياً. كذلك يُستخدَم أن دم شجرة «العشر» الأبيض في دباغة الجلود.، وتزيل هذه المادة شعر الجلد بصورة مذهلة.

46 – شجرة العشر

1- قرب من جلود الأغنام لحفظ الماء.
2- نفس السابقة ولكن بحجم أصغر.
3- من أواني الجلد.
4- حارس المزارع.
5- الفلاحين.
6- نبات للعلاج ودباغة الجلد.

«الدباية» (الدباغة)

وواصل العم سليمان حديثه عن «الدباية» الدباغة) فقال:

وعندنا النسوان «يدبين» (يدبغن) الإدمان[1](جلود الاغنام)، أربع أو ست مرات، أولاً تملحها بذرّ الملح عليها وتتركها تجفّ في الشمس لعدة أيام، وبعد أن تجفّ تنقعها في ماء في جحف[2] لكي تترطب وتترك لمدة يوم أو يومين ثم تعلقها بعد أن تضع عليه دم شجرة العُشر[3] لإزالة الشعر منها. وتُقطَع أغصان شجرة العُشر حتى يقطر دمها الأبيض ويجمع ويوضع على جانب الجلد المجاور للحم.

بعد ذلك تقوم المرأة «بملط» (تنزع) الشعر بيدها، حتى يتخلص الجلد من كل الشعر العالق به.

بعد ذلك تدق «القرض» (نبات له خواص علاجية) في مدقة. وتلف الإدمان و«تطرح» (تضع) فيهن القرض المدقوق ثم تضعهن في الجحف وعلى كل أديم تضع أوراق شجرة «العبب».

وتترك الجلود يومين أو ثلاثة أيام حتى ينجحين (ينضجن). وبعدها تقوم «تدباهن» حيث تجلس على مجلاسها تتفرشخ، والمدباة بين أرجلها في القاع، وتمسك الجلد بيدها وتضربه فوق المدبغة.

وتستمر في ذلك نحو ساعة أو أكثر وعندما تكمل «الدباية» (الدباغة) تخرج القرض من الأديم وتنفضه وتضع بدلاً منه «الجلجل» (السمسم) الذي طحنته على المرهاة. ووضعته على التفال[4] ثم تنفض المرهاة من بقايا الجلجل بيدها.

وتصبّ الجلجل المطحون في كعدة[5] ثم تغسل المراهي من أجل أن تكون نظيفة واحدة بعد الأخرى.

1- يدبغن الجلود عندما تكون طازجة وطرية.

2- وعاء يصنع من ثمرة القرع الجافة، كبير الحجم، يصبح بعد تجفيفه صلباً ويقطع من الأعلى لكي يستعمل لحفظ الزيت أو السمن أو العسل أو اللبن، إلخ.

3- نوع من النبات.

4- وتسمى أيضاً مسرفة، وهي مفرش واسع مصنوع من سعف النخيل. والثفال بالفصيحة جلد يبسط تحت رحى اليد ليسقط عليه الدقيق.

5- آنية عميقة واسعة من الخشب المتين لأشجار العلب تستعمل لتناول الطعام.

ثم تقوم «بشك» (ربط وتعليق) الإدمان في حبل وتعلقها وتعريها (أي تتركها) يوماً وليلة معلقات حتى تجف، وبعد ذلك تنزلها من المعلاق وتنفضها من الدهن الذي رشن بها (علق بها).

قلت له: يا عمّ سليمان، هذا الكلام ما فهمت منه شيء.

وبرغم ملاحظتي فإنه مضى في كلامه مستطرداً فيقول:

– فإذا و«طتها»[1] (أنزلتها) من المعلاق نفضتها مما يرشن[2] بهن من الدهن.

ذهلنا لكل تلك التفاصيل والجهد الهائل الذي تقوم به الأم المسكينة من أجل تجهيز ابنتها للزواج. فهذه العملية تستغرق وقتاً وجهداً هائلين لا يستهان بهما، ويستغرق ذلك في بعض الأحيان الشهرين كما عرفنا من العم سليمان عوض الذي قال مضيفاً:

– يا بوك، الأمر لا يقف عند هذه الحدود.

قلت: ماذا أيضاً؟!

قال:

– صحيح أن أم العروس تعفى خلال هذه الفترة من أداء أعمال المنزل والزراعة، وتتولى النساء الأخريات مهماتها، لكن الأم لا تعرف الراحة حيث تجدها تقوم بشكّ حلي ابنتها ومعاصمها ودق «قرضها» وطيبها، وتساعدها بعض النساء في طحن كمية كبيرة من الطيب الذي يجري ذرّه على رؤوس الناس بعد دهنهم بزيت «الجلجل» (السمسم) فيعطي رائحة طيبة تبقى فترة طويلة في شعر الرأس. وتجدها أيضاً تُعدّ وتجهزّ أواني الطبخ كـ«البرام»[3] و«المحاسي»[4] للبتول. إضافة إلى أوعية حفظ وتحميض الخبز والحليب المصنوعة من القرع المجفف، حيث تجهز العروس بأربعة «أجحاف» مفردها

1– أنزلتهن.
2– يعلق أو يلصق.
3– أوانٍ واسعة لطبخ اللحم، مصنوعة من الحجر المنحوت.
4– آنية مصنوعة من حجر الحرض.

«جحف» واحد منها «للحموضة»[1] والثاني «للرهي» والثالث «للمعونة»[2]، ويوضع فيه خبز الناس الذين يلجأون إلى مساعدة الأسرة في «رهي» خبزهم وطبخه، عندما يكون لديهم زواج أو موت أو خلافه، حيث تتعاون الأسر المختلفة في إعداد الخبز لأعداد الضيوف الكثيرة الذين يتوافدون عليهم في مثل هذه المناسبات. ووجود «جحف» في كل بيت للمساعدة دليل على أن روح التآخي والتآزر والتعاون جزء من شخصية أبناء دثينة.

ونعرف من العم سليمان أن العروس تجهز بـ»مرهاة»[3] وبمجموعة من الأواني الخشبية التي تصنع محلياً من خشب العلب في دثينة، أو تجلب من أحور، وتنحت من خشب الأثل. وهذه الأواني تستخدم لأغراض مختلفة، «فالكعاد» مفردها «كعدة» تجهز العروس بكعدتين منها، واحدة تتسع لكيلة ونصف[4]، والأخرى سعتها كيلة. ويوضَع الخبز المهروس في هذه الكعاد ليقدم للضيوف أو أهل البيت حيث يُغَمّس الخبز في زيت السمسم أو الحليب أو العسل أو «الصعة»[5] في هذه الكعاد. وتُجهَّز العروس أيضاً بـ24 «مخصرة»[6] «درزنين»[7] درزن صغار ودرزن كبار، ويوضع في هذه المخاصر مرق اللحم، حيث تُغمَّس كسرات الخبز لتبليلها حتى يسهل ابتلاعها، وتوضع المخصرة في وسط طبق الأكل المصنوع من سعف النخيل، ويجلس الآكلون حول هذا الطبق. وتجهَّز العروس أيضاً بعدد من «الصحاف»، ومفردها

1- سائل حامض يتكون من اللبن والماء والثوم وطحين الذرة، ويطبخ به العصيد الحامض.
2- أي المساعدة.
3- حجر مستطيل لطحن الذرة المبلولة بواسطة حجر أسطواني مدور تمسكه المرأة بيديها من الطرفين ويسمى «عالي» وتقوم المرأة بسحق الذرة به على المرهاة في حركات متتابعة إلى الأمام وإلى الوراء حيث يتحول إلى مسحوق ناعم متماسك يسمى»رهي» ثم تضعه في «الجحف» حتى يتخمر ويأخذ مذاقاً حامضاً يمكن التحكم فيه من خلال طول أو قصر فترة التحميض.
4- كيلة: ووزنها 4 أثمان تساوي نحو 4 كيلوغرامات، ويوجد أصغر منها، وهي «ربوعة»، يعني 3 أرباع ويوجد نص كيلة وثمينة وتساوي 1 كيلوغرام. وهناك مثل «ضاعت الكيلة في الثمينة» تعبيراً عن اختلاط الأمور وضياع المقاييس.
5- سائل كثيف مطبوخ يتكون من اللبن المخلوط بالطحين، ويوضع وسط حفرة وسط الخبز المهروس أو العصيد وتسمى «مخصر».
6- وعاء خشبي مصنوع من خشب الأثل متوسط الحجم يجلب من أحور.
7- درزن أي دزينة وعددها 12.

«صحفة»[1] وبأوعية خشبية مختلفة، منها وعاء يسمى «مشربة»، وهو مصنوع من خشب الأثل، ويتسع لنحو نصف (تنكة) من الماء وتستخدم للاغتسال، إضافة إلى وعاء خشبي يسمى «أرفة»، وهي مخصصة ليشرب منها الراعي. ووعاء خشبي آخر مع غطاء يسمى «عس» ويحفظ فيه اللبن الحامض.

وتجهز الأم ابنتها بمنحاز كبير[2]، وآخر أصغر منه لدقّ البُن، والزنجبيل، والبهارات وغيرها، وهما مصنوعان من خشب العِلبْ يقوم بحفرهما وتجهيزهما أهل العود المشهورين في أعمال النجارة وصناعة الأواني الخشبية.

47 – المنحاز

وقبل العرس يحضر الحداد إلى بيت العروس، ويقوم بعملية «ترزيز» هذه الأواني، ووضع حلقات معدنية لها (رزز) حتى يمكن تعليقها. وبعد شكها في حبل يضعها في «شوال» كبير مصنوع من الجلد استعداداً للعرس حيث تُحمَّل مع أشياء العروس الأخرى على جملين أو ثلاثة جمال، وتسير بعد العروس في قافلة العرس، وبعد أن تصل هذه الأغراض إلى بيت الزوجية تعلَّق في سقف بيتها لتراها النسوة، وتبقى معلقة حتى يُحتاج إليها، وقد تبقى

1- وعاء مفتوح مسطح أقل عمقاً شبيه بصحون الطعام، يوضع فيه أيضاً العصيد والخبز المهروس، ويختلف عن (الكعدة) الأكثر عمقاً، لأن الخبز يبرد فيه بسرعة.

2- المنحاز هو الهاون الكبير الحجم، منه ما هو مصنوع من الخشب، أو منحوت من الحجر، أو مصنوع من أنواع المعادن.

لسنوات طويلة معلقة في غرفة الزوجية. كذلك تجهَّز العروس «بدرزنين»[1] من الفناجين مخصصة لشرب القهوة مصنوعة من الخزف. وفي تلك الأيام كان هناك نوعان من الفناجين، هي «أبو شهر» و«قرنفليات». وعندما انعدمت لجأ الناس إلى الأقداح المصنوعة من الطين «محاوس حيس» التي تجلب من منطقة حيس في تهامة وتنسب إليها.

موكب «امسيف»

ورغم أن العمّ سليمان قد أفاض في وصف عملية إعـداد الأواني والأدوات التي تأخذها العروس معها إلى بيت عريسها، إلا أن الليل كان لا يزال في أوله، والحديث لا ينتهي أبداً، وكنت بالذات في حاجة إلى معرفة المزيد، وكأن العمّ سليمان يدرك ذلك، فأخذ يحدثنا عن «امسيف». ولما سألناه: ما هو «امسيف»؟ قال:

– إنه يوم الاحتطاب، ويسبق الزواج بنحو أسبوع، وهذه العملية تجري لدى طرفي الزواج. ولكل طرف «سيفه». في هذا اليوم، وفي ساعات فجره الأولى يذهب شباب القرية ورجالها من أصدقاء أهل العروس والعريس وأقربائهم لإحضار الحطب الذي سيستخدم لطهي ذبائح الزواج وأطعمته الكثيرة التي تتطلب إيقاد الكثير من الحطب. و«امسيف» كما قال لنا العمّ سليمان هو أحد مراسم الزواج في دثينة، ويبدأ بخروج الشبان والرجال للاحتطاب بعد صلاة الفجر مباشرة حيث يرتحلون بالجمال إلى إحدى المناطق التي تكثر فيها الأشجار ويتوافر فيها الحطب الجيد والجاف، وخاصة حطب السمر والضبيان. وبعد تحميل الجمال بالحطب ينطلق موكب السيف عائداً إلى القرية. وقبل نحو كيلومتر من القرية تقيد القدمان الأماميتان للجمل الأول في قافلة الحطب بحبل لا يسمح له بأن يخطو إلا خطوات قصيرة تُبطئ من حركة قافلة «السيف».

وتُعلَّق زينة نسائية: حزام فضي وأساور على رقبة الجمل الأول، وأيضاً الجمال الأخرى في القافلة، ويوضَع ثوب نسائي على ظهر الجمل منصوب على «عاسيل» (نصب هرمي يتكون من ثلاثة عيدان مربوطة بحزام جلدي

1– 24 فنجاناً.

من الأعلى عبر ثقب في رأس كل عصا يسمح بمرور السير الجلدي عبره، ما يسمح بنصبه وتثبيته على الأرض في شكل هرمي ويستخدم «العاسيل» لتعليق مهد الطفل عليه، ما يتيح للأم أرجحة طفلها وهدهدته وتهدئته عند بكائه، ويسمى المهد المعلق بالنصب الخشبي «مزب»، وهو تصميم بدائي للمهد المتأرجح للأطفال حالياً.

48 – الهندول ويشبه «المزب» في تصميمه

وعند سير قافلة «السيف[1]» يقوم الشبان المرحون الممتلئون صحة وحيوية بالرقص والمرح وترديد الأهازيج والتصفيق، وإطلاق الأعيرة النارية في الهواء.

وما إن يقترب «امسيف» من القرية، حتى يخرج الأطفال والنساء والرجال لمشاهدة موكب الرقص وهم يهللون ويرحبون ويزغردون ويشتركون في هذه المراسم السعيدة، ولحظة وصول الموكب يُفَكّ قيد الجمل الأول، ويُنزَل الحطب والزينة عن ظهره، ويُنزَل الحطب عن ظهور الجمال الأخرى.

ويتواصل الرقص واللعب على أصوات الطبول، والزغاريد والأعيرة النارية ابتهاجاً بهذه المناسبة. وفي هذا الوقت تدهن أم العروس، أو أم العريس رؤوس الشبان بزيت السمسم وترشّ الطيب عليها، إكراماً لهم

1- وهم يلعبون بالسيف، ولهذا سمي باموكب السيف.
وهم يغنون ويرددون:

قـولـوا على امسيف وعـلـى امـسـيـف

واحتفاءً بهم. وطوال فترة تحرك موكب السيف يردد الشبان: «وَعْلى امسيف عَلَى امسيف»، إضافة إلى العديد من الأشعار والكلمات التي تقال تعبيراً عن الفرح في هذه المناسبة. وتستمر حلقة اللعب والرقص والطرب حتى وقت الظهر، ليتفرق بعدها الجميع إلى منازلهم. وأتذكر أنني بعد ذلك التاريخ حضرت عرساً لأحد الأصدقاء في قرية المجحفة التي يسكنها صديقي علي السلامي وأسرته وأقاربه وعشيرته آل سلام في لحج، وسمعتهم يرددون الكلمات والرقصات ذاتها: «وَعْلَى امسيف عَلَى امسيف».

ليلة «امشل»[1]

كان العمّ سليمان عوض يحكي لنا هذه التفاصيل مثلما خَبرَهَا بنفسه. وقد حان الآن الوقت لكي يحدثنا عن أهم اللحظات التي تحمّلنا في سبيلها تلك الأشياء التي حكاها لنا بالتفصيل الممل. إنها «ليلة امشل» أو ليلة الزواج وذهاب العروس إلى بيت عريسها. وكان علينا أن ننصت الآن إليه بانتباه أكثر. فهو سيحدثنا بلا شك عن تلك الليلة التي حلم بها كل «حريو« (عريس) وكل «حريوة» (عروس) في هذه الدنيا، ولا شك في أن العمّ سليمان وعدداً من الحاضرين قد مرّوا بهذه الليلة من قبل.

وقال إن الشعراء كانوا يتبارون بالشعر في الأعراس والمناسبات، يعبّرون بشعرهم عن عواطفهم الجياشة وعن مواقفهم وأحياناً عن مواقف الآخرين وعواطفهم. يشعلون العواطف كما الحرب، وأداتهم الشعر والتحريض بالشعر. وكان علي رامي هو الأشهر بين هؤلاء الشعراء، وقد التقاه (بو حمحمة) الذي لا يقلّ عنه فحولة في سهرة زواج في (مودية)، وكان معظم حضورها من الشعراء. واتفق الشعراء، وعلى رأسهم (بن رامي) و(أبو حمحمة) على أن يبدأ أحدهم بشطر من بيت ويكمل الشاعر الثاني الشطر الآخر منه. وكان الاتفاق بينهم على أن يخرج من لا يستطيع الرد على الشطر الأول من البيت من هذه السهرة التي تحضرها أجمل النساء، ووافق الجميع وابتدأ (ابن رامي) فقال:

«ليت السماء في الأرض والأرض السماء»

وسكت، وطلب من الآخرين واحداً بعد الآخر أن «يجيزوا» بقية البيت، أي

1- أي ليلة الشلّ حيث يُستبدل باللام ميم، و«الشل» هو ليلة الدخلة عند المصريين.

الإتيان بالشطر الثاني من بيت الشعر الذي قاله، فلم يتمكن أحد منهم من ذلك. حينها برز إلى الحلبة الشاعر ناصر عبد ربه مكرش المعروف بـ(أبو حمحمة) منتشياً كالطاووس بين الجميلات، فأكمل الشطر الآخر من البيت الذي قاله (ابن رامي)، وكان ذلك إيذاناً للشعراء الآخرين بترك ساحة المبارزة الشعرية للشاعرين أبو حمحمة وابن رامي. وكان الشطر الآخر الذي قاله (بو حمحمة):

با حط لي في الأرض وإلاّ في السماء با طير

وهكذا طار الشعراء الآخرون من السهرة ليحتكرها ابن رامي وأبو حمحمة.

وخلال المبارزة الشعرية رأى «بو حمحمة» امرأة تخرج من «الشرح» (حلقة الرقص) إلى «المخدم» (المطبخ)، وكانت في غاية الجمال فقال:

بو حمحمة:

بو حمحمة بيه ظمأ بيه ظمأ

علي رامي:

لا بك ظمأ أشرب شف الماء جنبنا في الزير

وقال علي رامي:

بن رامي علي يا غيل ماء يا غيل ماء

فأكمل بو حمحمة:

إيش اخرج الماء يا المخبّل من قعور البير

بو حمحمة:

بو حمحمة ماشي كما ماشي كما

وردّ عليه بن رامي علي:

لا الغير كما الحالي ولا الحالي شبيه الغير

ابن رامي:

بن رامي علي ما لملما ما لملما

وأكمل أبو حمحمة:

كما فروق النوب لا التمت بجنب المير (النوب: النحل)

بعدين قال رامي لبو حمحمة:

الليله البيضاء لمن...

رد بو حمحمة:

لحلاب العصوص...

رامي:

دي دق دوم امعلب...

بو حمحمة:

لما خرج امفرصوص...

وهنا تقاسم فحول شعراء دثينة: بن رامي وأبو حمحمة من ربع بيت إثباتاً لعبقريتهما الشعرية وفحولتهما وإبداعهما.

ثم قال برطم إن بو حمحمة وابن رامي علي من أفضل الشعراء في منطقتنا.

هنا أكمل العمّ سليمان حديثه عن مراسيم الزواج بعد أن أخذهما الحديث عن عبقرية شاعري دثينة الأشهرين، فقال وهو يسحب أنفاس رشبته ويرسل دخانها في الأفق الفسيح:

في هذه الليلة يحضر أهل العريس مع وفد يمثلهم يسمونهم «الشواعة»[1] إلى بيت العروس، ويحضرون معهم ثوب العروس الأسود «البركالة» وغطاء رأسها الأبيض المصنوع من القطن «المجول» ويبلغ طوله ستة أذرع، وتُغطى به العروس من رأسها حتى أخمص قدميها، إضافة إلى «امشرط»[2] الذي يتكون من عشرين رأس غنم وكيلتين بن، وثمينة «طعم» (زنجبيل)، وكرعة سليط وكيلة ملح.

ونعرف من العمّ سليمان أن ما يحضره أهل العريس من «شل» يذهب بعضه إلى الخرّاز في بعض قرى دثينة، إضافة إلى رأس غنم له، ورأس غنم آخر للشاحذ. وفي قرى أخرى يذهب «الشل» كله إلى بيت الخرّاز، حيث

1- الخَطّاب.

2- مهر العروس.

يأخذ الخرّاز الجمل بكل ما يحمله من شل إلى بيته ولا يدخل بيت أبي العروس أي شيء من الشل عدا رأس غنم يذهب للشاحذ. وأخذ الخرّاز «للشل» كله قد يثير بعض الأسئلة عن مدى أحقيته لذلك، أو لماذا الخرّاز دون غيره، وما الدور الذي يقوم به الخرّاز حتى يستحق «امشل» كله، أو الجمل بما حمل كما يقال.

وعندما سألت العمّ سليمان هذا السؤال قال:

– الخرّاز يقوم بعمل كبير ومرهق في المجتمع القبيلي في دثينة، ليس فقط في أثناء الزواج أو الموت أو المناسبات، لكن أيضاً في الحياة العادية لهذا المجتمع. فهو الذي يقوم بخرازة «التوار» و«الجعاب» و«الافتار»، ويقوم «بتعوين»[1] الحب والبُن (توزيعه) على القرى لمساعدة أهل «امشف»[2] في إعداد خبز «الرهي» الذي يتطلب عملاً مرهقاً وطويلاً من النساء، ولا يمكن إعداده وتجهيزه إلا بمساعدة من الآخرين، خاصة عندما يكون عدد الضيوف كبيراً.

ونعرف أن الخرّاز وحده من يذبح الأغنام مقابل أجرة من أهل المناسبة، وأجرته عبارة عن رأس غنم من الأب، ومثله من الأم، كذلك يضنع ويُصلح كل الأشياء الجلدية من أحذية وأحزمة وغيرها. غير أن الشاحذ يساعد الخرّاز في بعض هذه الأعمال، إضافة إلى عمله في قرع «المرفع»، وهو طبل كبير يُقرَع بأمر عاقل القبيلة في وقت الحرب، لكن العبء الأكبر في تنفيذ كثير من الأعمال يقع على عاتق الخرّاز، منها قصّ الشعر، والكيّ، وعلاج الأغنام المريضة، وختان المواليد الذكور، وغيرها من الأعمال التي لا يستطيع أن يقوم بها سواه من أبناء القبائل الذين يأنفون من ممارسة هذه الأعمال التي يعتبرونها معيبة في حق ابن القبيلة.

ليلة الزواج

وعاد العمّ سليمان إلى حديثه السابق عن ليلة «امشل» فقال:

– حين يصل موكب أهل «امشل» الذين يحضرون معهم شرط العروس، يُستقبلون بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء، تعبيراً عن الترحيب، والحفاوة،

1– مساعدة أهل العريس بالطبخ

2– المناسبة.

والفرحة بهم. وبهذه المناسبة، وعبر القرى التي يمرّ بها الموكب يُستقبَل بإطلاق الرصاص كنوع من المشاركة الشعبية في الفرح. وبعد إنزال «الشل» تقدم القهوة إلى الضيوف. وفي الوقت نفسه، يستمر اللعب والرقص والغناء والابتهاج. وبعد شرب القهوة يجري الاتفاق مع والد العروس على موعد تحرك موكب العروس إلى بيت زوجها، الذي عادة ما يكون في الصباح الباكر لليوم التالي أو منتصف الليلة نفسها.

وفي الصباح تخرج العروس من بيت أهلها، فتنطلق أصوات الزغاريد، والطبول، والأهازيج، وتمزق أصوات الرصاص السكون، وتوقظ النائمين، فيذهبون لحمل بنادقهم وإطلاق النار بدورهم في الهواء تحية للعروس وأهلها.

ونعرف من العمّ سليمان أنّ العروس تجلس على جمل جُهز مسبقاً لهذا الغرض، وتحمَّل أغراضها وأشياؤها التي جهزتها لها أمها على جملين أو ثلاثة جمال تقطر إلى جمل العروس.

وبعد أن يتحرك الموكب الميمون تلتفت العروس ثلاث مرات تجاه بيت أهلها، ملقية نظرات أخيرة على البيت الذي يختزن ذكرياتها، وشهد لعب الطفولة ومرحها، والأشياء العزيزة التي ستفتقدها حتماً، فقد أصبحت الآن امرأة وتنتظرها واجبات ومسؤوليات في بيت زوجها حيث أهلها الجدد والحياة الجديدة.

تجهيز العروس

ومن الأمور الطريفة التي رواها لنا العمّ سليمان تجهيز العروس للزواج. حيث تُخفي العروس في إحدى الغرف قبل ثلاثة أو أربعة أيام من ليلة العرس بعد إلباسها «بركالة» سوداء مصبوغة «بالنيل»، وخلال هذه الأيام يُدهَن جسمها وشعرها بزيت السمسم، ويُمرخ جسمها بأوراق العبب وبالهرد والورس اليافعي، ويُوضَع الطيب على شعر رأسها. وتتكرر عملية الدهن والمرخ للعروس عدة مرات في اليوم، وتشارك فيه كل امرأة زائرة، وسط الأغاني والأهازيج التي ترددها النسوة مثل:

«هدياني[1] واهداني[2] هدان وابرك هداني
هدياني واهداني هدنت[3] لش يا كناني»
يقابلها في عدن: هدياني وهوداني يا دون
أو يرددن:
«ألا يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل دي رحل بش
(بش: بكِ، وبأهلش: وبأهلك).
وتردد النساء:

على أمسيري.. على أمسيري ألا بسم الله الرحمن
على أمسيري.. على أمسيري عسى الله يقرع الشيطان
على أمسيري.. على أمسيري حنيشة وأهلها حنشان[4]
على أمسيري.. على أمسيري إلا ما قدر الله كان
على أمسيري.. على أمسيري ألا يا به كثر خيرك
على أمسيري.. على أمسيري ألا ربيتني لغيرك

وعندما توصل العروس إلى بيت عريسها يقولون:

على أمسيري.. على أمسيري ألا حيا ملى الوديان
على أمسيري.. على أمسيري ألا يا ليلة الرحمن
على أمسيري.. على أمسيري ألا خذني ولد شجعان

وقد طورها فيما بعد الشاعر أحمد الجابري ولحنها وغناها الفنان محمد مرشد ناجي على النحو الآتي:

على امسيري على امسيري ألا بسم الله الرحمن
على امسيري على امسيري ولا موذي ولا شيطان

1- هدياني: موال.
2- واهداني: موال.
3- هدنت: غنيت لك.
4- الحنش: الأفعى، كناية عن حصانة المرأة ورفعة نسبها.

ألا يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل ذي رحل بش
على امسيري على امسيري تخطي في دراج اهلش
ألا يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل ذي رحل بش
فرشنا امودي بالريحان ومن أجلش سرينا ليل
على صوت الفرح والدان الأحيا ملّى الوديان
ألا يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل ذي رحل بش
سلام مني لمن أقبل على عيني وفوق الراس
قمر لا بان في المحفل سلب عقلي أنا يا ناس
ألا يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل ذي رحل بش
ألا لصوا البخور والعود ورشوا الورد يا أهل امبيت
وهاتوا لنا معاگم عود أباگم ترقصوا في امبيت
ألآ يا مرحبا بش وبهلش وبالجمل ذي رحل بش

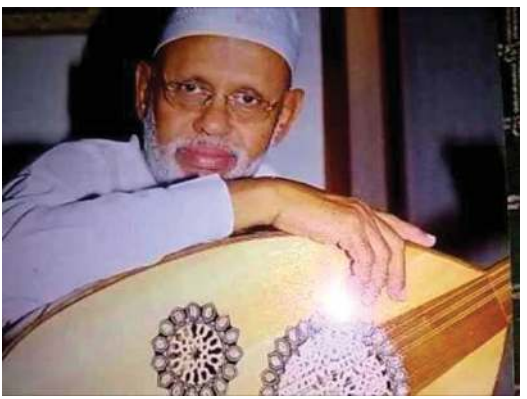

الفنان محمد مرشد ناجي

وخلال ذلك تقوم أم العروس أو «الراضحة»[1] بدهن رأس كل امرأة أو رجل يأتي للزيارة والمشاركة في الفرح ثم وضع الطيب عليه.

1- الراضحة: ويقال لها في عدن المكدية، وهي سيدة متقدمة في السن تقوم بمرافقة العروس الصغيرة في ليلة زفافها إلى بيت أهل زوجها.

وبعد مراسم الدهن والمرخ للعروس، وقبيل خروجها إلى بيت زوجها، تغسّلها أمها «والراضحة» بمسحوق من أوراق العلب الخضراء والعصار المدقوق، وتُزال كل الأوساخ المتراكمة على جلدها بفعل الدهن والغبار، ويُغسَل شعرها «باللجن»[1] و«اللجب»[2] وتكحَّل وتُبخّر بالعنبر والعود. وتلبس العروس الثوب الأسود الذي أحضره أهل العريس، ويراعى عند خياطته صقله ولمعانه وخلوه من التجعيد، ويُخاط بخيط أبيض يظهر بوضوح للعيان. أما «المجول»[3] الذي يوضع على «الشباك»[4] الذي يغطي وجهها فيكون شكه وخياطته بشوك السمر الحاد الأطراف الذي يُختار من المناطق التي تشتهر بأشواك سمرها الطويلة والقوية والحادة. ويتبارى لأداء هذه المهمة الشبان والرجال، ويشك «المجول» بنحو مئة شوكة من رأس العروس حتى قدميها.

وخلال مرور موكب العروس بالقرى المؤدية إلى بيت زوجها، تستقبل بإطلاق الأعيرة النارية في الهواء ترحيباً بها وتحية لها، وهو ما يحدث عندما تصل إلى قرية الزوج حيث تستقبل بزخات الرصاص الكثيف، تتخللها أصوات الطبول، والأهازيج والرقصات والزغاريد. وبعد أن تنزل عن ظهر الجمل الذي حملها، وقبل أن تتخطى عتبة بيت الزوجية يوضَع طبق مليء بالحبوب على باب الدار، ويمرّ الزوج والزوجة فوقه[5]، وتُذبَح ذبيحة على رجل العريس الذي يضع رجله على رجل عروسه. ويسمى هذا «فِدو مرجيل»، أي «فدية الأرجل». ويرمز هذا إلى أن بيت الزوجية سيكون بيت رخاء وثراء وأن هذه الذبيحة، بمثابة قربان للرب ليجعل زواجهما مباركاً، وبيت الزوجية عامراً بالخير والمحبة والثراء، وهذه الذبيحة يأخذها الشاحذ إضافة إلى طبق الحَب.

1- مسحوق يصنع من اللحاء الخارجي لجذع شجرة العلب.
2- من أنواع اللجن.
3- منديل الحجاب.
4- شبك من القماش يغطى به الوجه جزئياً.
5- يقال إن الشاعر فرحان ذهب إلى زواج عند آل حسين، وهم من آل زامك، وعندما شاهده شاعر من آل حسين قال: حيا لفرحان دي جانا يبا امتسبلة
فرد فرحان وقال: لابيت حبك ولا با يمبطن لي كله
فقال الشاعر: لا عولقي خالص ولا انه من علة
فقال فرحان: عولقي بوي وانته بيتك معي توسلة

49 – هودج العروس – مهرجان الأعراس – لحج 1984م

وبعد أن تدخل العروس بيت الزواج تجلس، فيطلب منها العريس أو أبوه أو أمه أن تخلع «المجول»، لكنها تمتنع قبل أن يدفع الشرط، ومقداره عشرون أو ثلاثون قرشاً (ريال ماري تيريزا)، إضافة إلى قرشين «لنسيبتها» التي سُميت بها. ولا تخلع العروس المجول الذي لا بد أن أشواكه سببت لها الكثير من المضايقات إلا بعد دفع الشرط وحق النسيبة، فتقوم «بِصَرِّ» (ربط النقود في صرّة أو قماشة) حق النسيبة وهو قرشان من الفضة وتعطيه للشاحذ الذي يسلم المبلغ لنسيبة العروس، ويحتفظ «بالمجول» لنفسه. أما أم العروس، فلها قرشان أو ثلاثة، وأحياناً لا تعطى شيئاً. أما الراضحة، فلها قرش واحد، والأم لها قرش من أم العريس ورأس غنم.

ودور «الراضحة» ويطلق عليها في عدن وبعض المحميات المكدية كما عرفنا من العمّ سليمان، هو مؤانسة العروس في بيت زوجها حتى حضور أمها. وهو دور يشبه دور الوصيفة في أيامنا هذه. وعادة ما تحضر الأم في صبيحة اليوم التالي إذا ما زفت ابنتها في الليل، أو في عصر اليوم ذاته إذا زفت ابنتها في الصباح. وبحضور الأم ينتهي دور الراضحة التي تغادر بيت الزوج بعد ثلاثة أيام. وبوصول الأم تتولى الاهتمام بابنتها وتنام معها حتى يسلّمها الزوج شرط ابنتها، ولا تغادر بيت صهرها إلا بعد أسبوع، بعد أن «تنثر» (تفك) شعر ابنتها و«تمرددة» (تضفره جدائل صغيرة ورفيعة والفعل «مرددته» أي ضفرته. وعندما تحضر الأم إلى بيت صهرها تحضر معها ذبيحة مطبوخة ومقطعة إلى قطع صغيرة، يقوم الخراز بتوزيع

لحمها على النساء اللواتي يقمن بإعطاء الخراز ما تيسّر من النقود، وهذه يسمونها «امرديّة».

ومن العادات التي لا تزال سائدة إلى يومنا هذا، حق العم وحق الخال، وهو أن يذهب أهل العريس إلى عم الفتاة يستأذنونه ويأخذون موافقته على إقامة العرس، ويأخذون معهم رأس غنم، وبعد العمّ يذهبون إلى الخال، وكان بعضهم يأخذ فلوساً من أهل العريس، وإن كان هذا نادر الحصول.

ومن العادات المتبعة يذبح أهل العريس قبل الزفاف بيوم غنماً ويعزموا الناس، ويسمى هذا «إثَّاث» (بكسر الالف وتشديد الثاء وفتحها) أي تأسيس للحياة الزوجية الجديدة وكانوا يعزموا الناس في الصباح، ثم تحول موعد العزائم مع مرور الزمن إلى المساء.

«يوم املجن»

ويمضي بنا العمّ سليمان عوض في حديث السَّمر تحت أضواء اللهب والنجوم الساطعة في السماء. ويقترب الحديث من نهايته عندما يصل الحديث عن «يوم املجن»، وهو اليوم الذي تُقدَّم فيه الرفدة[1] وفيه يلبس العريس ثوب «مريكني» جديد وعمامة سوداء تُلَفّ حول رأسه وتطعّم بالرياحين والأزاب والشقر والحنّون. ويلبس أيضاً «مقطباً»[2] أسود ويلفّ حول خصره حزام الرصاص (الشكة)، والجنبية التي تتحدد قيمتها حسب مكانة الشخص وثرائه. ويحدّد قيمة الجنبية مقبضها إن كان مصنوعاً من قرن وحيد القرن، ويُسمّى «الصيفان»، وهو أثمن الأنواع، أو من قرون الوعول أو قرن الفيل أو بعض الحيوانات الأخرى. وتُطَعَّم الجنبية بالذهب والفضة من طرفيها، وقد حافظت على حضورها في المجتمع رغم زحف الحياة العصرية، متكئة على تقاليد وأعراف لا تستطيع القفز عنها، فهي تُعَدّ رمزاً لـ«الرجولة»، والوجاهة، والقوة.

ويتبارى اليمنيون بنوعية «الجنابي»، التي يحتزمونها على خصورهم، ومدى جودتها، وتاريخها، حيث يسود اعتقاد عند القدماء بأن المرء يُعرف بـ«جنبيته». وخصوصا «الجنبية الصيفاني».

1- مبلغ من المال يدفع للعروسين كمساعدة، ويسمى في بعض البلدان العربية «النقوط».
2- رداء كالفوطة أو المعوز.

ويعود تاريخ الجنابي إلى عام 3000 قبل الميلاد، وهي هلالية الشكل، وكان يرتديها السبئيون والحميريون. ويتداول الناس حكايات لمزايا وخواص اتصفت بها بعض الجنابي، أبرزها «البراقة»، و«العوراء»، وتروى حكايات عن مزايا هذه الخاجر تصل إلى حدّ الخرافات، فالبراقة مثلاً يمكنها قتل الخصم بإصدارها ما يشبه البرق، فيصرع الشخص المستهدف، والعوراء التي توقف النزف، وثالثة لها القدرة على امتصاص السُّم من الشخص الذي يلدغه ثعبان، غير تلك الجنابي المسموم نصلها التي لا تشفى جروحها أبداً.

ويرتدي العريس إلى جانب الجنبية «الحدوة»، وهي مصنوعة من الفضة المصبوبة من الريالات الفضية، ويدلّ وجود الحدوة ووزنها وعدد الريالات الفضية التي استخدمت في صناعتها على درجة ثراء الرجل، وهي مصدر لتباهيه وفخره. ويضع العريس في يوم «املجن» (يوم استقبال المهنئين) في يده سيفاً أو فأساً وأحياناً، سلاحاً نارياً، ويلبس حذاءً جلدياً جديداً مقدَّماً من أم العروس ضمن جهاز ابنتها. وكان سائداً أن يتوافد في يوم املجن، وهو نهار الرفدة، الضيوف الذين يأتون من القرى والقبائل المجاورة، لتقديم التهنئة، وتقديم المساعدات المالية للعريس أو ما يعرف بالرفدة. وتقدَّم في شكل مبالغ نقدية تُرمى إلى ثوب يُفرَش أمام العريس بعد تدوير هذه المبالغ فوق رأس العريس، كنايةً على أن المبلغ يقدم فداءً لرأسه.

ويأتي «الرفّادة» من كل القرى والقبائل في صفوف طويلة مع طبولهم ومزاميرهم وشحذهم، ويتجمعون في مكان فسيح. كل قرية أو قبيلة تتجمع في مكان محدد، وأهل العريس في الوسط، وبعد أن يقوم الرفّادة بتقديم الرفدة يخرجون في طوابير وهم يرددون المراجيز والأهازيج والأشعار، ويتقدم أول واحد منهم ويقول:

«**ليك بين يديك وأنا ذيب علة**[1]»، ويقال إن علة من بني هلال التي نحن منها.

1- علة: هم آل عمر ويتفرع عنهم العلهيون – وآل حسين – آل علي – آل مردع – آل الصقرية – آل منصور – العواسج – آل امقيد – آل عرمان – آل فطحان – آل عرول – آل سليمان – آل حاتم – آل حميد. ومن علة أيضاً آل حسنة والمياسر – وآل فضل، وخاصة الجعادنة – وآل حنش – ولآل فشاشة والمحاثيث وآل المارم، أما آل السعيدي، فداعيتهم إلى علة ويقال إن آخر حدود علة مسجد الأربعة بلودر باتجاه الشمال، أما غرباً فحدودهم حتى العلم، كما يشير البعض.

49 – محف قبلي

ويُصدر صوتاً يشبه عواء الذئب، ثم يتبعه آخرون حتى يتشكل طابور طويل يمرّ أمام القبائل الأخرى، وهم يرجزون ويرددون الأشعار. وعندما ينتهون يعودون إلى موقعهم، فتبدأ قبيلة أخرى بالرفادة والرجز. ويوم «المحف» هو أجمل يوم وأهم يوم في العرس، ففيه تقام حلقات الرقص والرجز والمباريات الشعرية بين القبائل حول السياسة والقضايا الاجتماعية وتفاخر كل قبيلة بأصلها وفصلها ونسبها وكرمها وشجاعتها. وبعدها يعودون جميعاً إلى مواقعهم السابقة. ويبدأ أهل العروس وأصحاب القرية والقرى المجاورة لها بحصر عدد الذبائح التي ذُبحت وكل شخص يتقدم بحصاة أو حصاتين أو أكثر بحسب عدد الأغنام التي قدمها. وبعد أن ينتهوا من حصرها يوزّع الضيوف بدءاً بكبار القوم فالسادة، فالمشايخ على مائدة كبار القوم. وأحياناً يبدأ خلاف على من يفوز بمقام الضيف الأول الذي هو أكبر مكانةً، وفي الأخير يؤخذ عن طريق القرعة حتى لا يتحول الفرح إلى مأتم، وأحياناً يحدث هذا فعلاً، ويتحول إلى عراك وخصام وإطلاق نار وقتل، ويهرب الأطفال الذين ينفذون بجلودهم من هذه المعركة وهم يلعنون هذا اليوم الذي جاؤوا فيه للزواج، فالأطفال يفرحون بالزواج والموت، فلا يهمهم من يتزوج ولا من يموت بقدر ما يهمهم أن يأكلوا بسبب الفقر والجوع.

وعلمنا من العمّ سليمان أن «املجن» يوضع على رأس العريس يوم الزواج. واملجن عبارة عن مزيج لزج مصنوع من شجيرات اللجن «يشبه

الملوخية بعد إعداده « وتقوم بهذه العملية أم العريس، أو الرضّيحة، أو إحدى قريباته، وتشارك فيها قريباته وأقرباؤه. وتتكرر عملية اللجن أو المرخ للعريس في يوم املجن عدة مرات، وخلال عملية تقديم الرفدة يجلس العريس على «منحاز» كبير بعد قلبه على وجهه المجوف طوال النصف الأول من النهار حتى تكتمل عملية الرفادة، بعدها يغتسل العريس ثم يذهب للدخول على عروسه.

50 – السلام على العريس وتقديم الرفدة

وقال برطم: كيف تقاليد العرس في أرض أهل عوذالله (العواذل) والبيضاء؟

فأجاب العمّ سليمان: في العواذل والبيضاء التقاليد هي نفسها تقريباً، الموافقة بُن والتحية إطلاق نار. فالعريس يزهو في يوم عرسه وسط فرح أصدقائه وأهل عشيرته به، حيث يغني الجميع ويرقصون رافعين البنادق، ويحيّونه وسط الأغاني والأهازيج التي تجسّد مدى الحب والتكاتف الأسري والقبلي، ليذهب مصحوباً في زفة كبيرة إلى بيت العروس التي تأتي محاطة بصديقاتها وإلى جوارها امرأة تحمل بخوراً[1] في مجمرة يعطِّر أجواء العرس، وتعمل على تخضيب العروس وسط رقصات نسائية، ولا تلبث العروس أن

1- البـخور: اشتهرت بعض المناطق بتجارة البخور واللُّبان وتصديره إلى الخارج ويعرف اللُّبان باسم اللُّبان العماني وشجرة اللُّبان تنتشر في شبه الجزيرة وشمال الصومال وأثيوبيا، وكانت تعتمد على تجارة اللُّبان حضارات قديمة مثل مملكة معين. كذلك ارتبطت تجارة اللُّبان بطريق البخور، وهو طريق تجاري يربط الهند بالجزيرة العربية ومصر. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الملكة المصرية القديمة حتشبسوت (1500ق.م) كانت تجلب اللُّبان المقدس من بلاد (ظفار) وجزيرة سقطرى، نظراً لما كان يمثله اللُّبان من أهمية للإمبراطوريتين الفارسية والرومانية في الطقوس الدينية.

تعود إلى خيمتها بعد أن تنتهي من عملية الحناء[1]، ليعود بعد ذلك العريس وأهله وأصدقاؤه مرة أخرى إلى خيمة العروس يُستقبَل ويُرَحّب به.

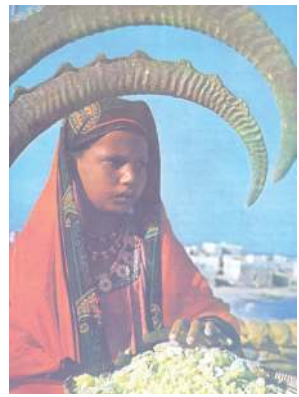

51 – اللبان العربي في مرباط ظفار، وهذه فتاة تجلس تحت قرني الوعل الوحشي الذي ينتشر في ظفار، ويوجد اللبان أيضاً في محافظة المهرة وسقطرى

ومما لاشك فيه، أن حفلات الأعراس تختلف من مكان إلى آخر، وتمتاز كل منطقة بعادات وتقاليد معينة تصبّ جميعها في إطار واحد، هو التعبير عن الفرح. وعندما ترغب الأسرة في تزويج أحد أبنائها يكون اختيار الزوجة المناسبة له من طريق أحد أفراد العائلة، وبعد الاتفاق على تحديد الزوجة

1– الحنّة: هي العشبة السرية التاريخية المقدسة، ولها استعمالات كثيرة، من دواء إلى صبغة ونوع من العطر. وتُستخدم الحناء لصباغة شعر النساء والرجال في طقوس الزواج، حيث يقومون «بتحنية» العريس والعروس وبعض الضيوف، وهو يوم خاص يسمى «يوم الحناء»، وهناك زفة وأغنية خاصة تقول: يا على امحنا .. يا على امحنا .. سعد يا مسعود .. سعد يا مسعود .. بخروا بالعود .. بخروا بالعود. ويستعمل النساء الحناء في النقش على الكفوف وصبغ الشعر، حتى الشابات من النساء يستعملن الحناء ليكسب الشعر لوناً جميلاً حيث يتمازج لون شفق المغيب وسواد الليل. وأعظم من خلد ذلك قصيدة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان «نالت على يدها»، إذ إنها قصيدة الحناء الخالدة التي لحنها وغناها الفنان الراحل محمد جمعة خان:

نَالَتْ عَلَى يَدِهَا مَا لَـمْ تَنَلْـهُ يَـدِي ... نَقْشاً عَلَى مِعْصَمٍ أَوْهَتْ بِهِ جَلَـدِي
كَأنـهُ طَـرْقُ نَمْـلٍ فِـي أَنَامِلِـهَا ... أَوْ رَوْضَةٌ رَصَّعَتْهَا السُّحْـبُ بالبَـرَدِ
وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَـتْ ... وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُـنَّابِ بِالبَـرَدِ

يجري التواصل مع أسرتها بإرسال رجل أو امرأة للتفاهم ومعرفة ما إن كان لديهم رغبة في تزويج ابنتهم، وتُسمى هذه خطبة مبدئية، ويحمل الخطيب معه كأساً من البُن يعتبر قهوة أهل البيت.

ترحِّب أسرة العروس بالخطبة وتطلب مهلة أسبوع للرد، وخلال الأسبوع يجري التشاور بين أفراد الأسرة وأقاربهم ومعارفهم، وفي الموعد المحدد يأتي الرد، فإن كان الرد بالرفض، يكون الاعتذار بصورة مؤدبة وبعذر مقبول، يُرجَع البُن إليهم، وإن كان الرد بالقبول، يقبل البُن ويُحَدَّد موعد للخطبة الرسمية.

طقوس العرس

وفي الخطبة الرسمية ينتقل والد العريس، ومعه حشد من الأقارب والشخصيات الاجتماعية إلى بيت والد العروس، ومعهم كأس من البُن ومبلغ من المال يسمى (قهوة)، وهناك يستقبلون بالحفاوة والترحيب ويقدم لهم البخور والقهوة ويتحدثون في شؤون الدنيا وأحوال الزراعة والمطر، ويبدأ الضيوف بالكلام حيث يعلنون رغبتهم في مصاهرة العائلة وخطبة البنت التي وقع عليها الاختيار لتكون زوجة لابنهم، فيأتي الرد بالترحيب والقبول والموافقة، وبعد ذلك يحصل الاتفاق على التفاصيل النهائية، مثل تحديد المهر والدفع، وتحديد موعد الزواج وموعد العقد. بعد ذلك يرسل والد العريس الزنبيل ويتكون من: (مكحلة، ومرآة، ومشط، وبدلة ثياب للعروس، وهرد، وبرعم (من أدوات التجميل)، ورأس من الغنم، وكيس حب بر، وذرة، ودبة سليط، وكأس بُن).

وفي موعد الـزواج تبدأ المراسيم الخاصة بالزواج حيث تقام في اليوم الأول والثاني حفلات تسمى الحناء، تقدم فيها الأناشيد والأهازيج والزغاريد، وتعقد فيها جميع أنواع الرقصات الشعبية والزوامل والمساجلات الشعرية، وتبدأ هذه الفعاليات بأداء الرقصات الشعبية المتميزة، وهي: رقصة المخموسة، وهي عبارة عن رقصة بها خمس قفزات تؤدى بحماسة، ورقصة العسكرة، وفيها أيضاً خمس قفزات تؤدى بنحو هادئ ومنظم ومصحوبة بالشعر، ورقصة البيحانية وبها ثلاث قفزات تؤدى في شكل أكثر هدوءاً، وتؤدى هذه الرقصات أداءً ثُنائياً، ورقصة البرع، وتؤدى أداءً رباعياً أو سداسياً

ويكون الراقصون شاهري جنابيَّهم (أي خناجرهم)، ورقصة السفيح وتؤدى ثنائياً وبحماسة كبيرة، وبعد هذه الرقصات يأتي الهدان، وهو عبارة عن غناء جماعي يشتمل على حركات متنوعة وتتردد فيه الكلمات الآتية:

«ألا هدان بسم الله الرحمن
ألا هدان واخزا الله الشيطان
ألا بدعيك يالله ياعظيم الشأن
إلا صلى على ذي سكن عدنان»

ثم توضع الحناء في كف العروس على إيقاع الأبيات الآتية:

«على امحناء على امحناء
ألا بسم الله الرحمن
على امحناء على امحناء
ألا وأخزى الله الشيطان
ألا سالم نزل
جاب امقرنفل وهيل
ألا رع مواله
غراء وحجل أقبلين»

ثم تخرج العروس بعد الحناء يصحبها رقص وغناء النسوة، وهنّ يرددن:

«اخرجوا حناء حبيبي
يا خروج العافية
واضربوا سبعين بندق
تسمع البيضانية»

وليمة وتعشيرة

وفي اليوم الثالث تقام وليمة طعام رسمية يدعى إليها أهالي المنطقة، ويدعى أيضاً ضيوف من مناطق أخرى ممن لهم صلة أو قرابة بأهل

العروس. والعادة عند وصول الضيف إلى أمام البيت، أن يقوم بتعشيرة، وهو إطلاق أعيرة نارية تعتبر تحية، ويردّ عليهم أهل العروس بتعشيرة مثلها كردّ للتحية.

وبعد الانتهاء من الوليمة يقوم جميع الحاضرين بما يسمى اللاجن، حيث يوضع العريس في مكان بارز يراه منه الجميع، ويقوم المزين بمشط رأسه ويوضع عليه اللجن، وهو مسحوق ناعم من ورق العلب، ثم يطلق الجميع الأعيرة النارية، ويبدأ موسم طويل من الفرح الذي تعبِّر عنه الأغاني والرقصات، ويستمر حتى المساء، حيث تستعد أسرة العروس للشواعة، التي تختلف من منطقة إلى أخرى، فبعضها ينقل العريس ومعه مجموعة من أقاربه وأصدقائه إلى بيت العروس، والبعض لا ينقل العريس مع الشواعة، وتصاحب الشواعة الطبول والزوامل، ويستقبلون بالحفاوة والترحيب، وتُردَّد زوامل الترحيب بالضيوف، ومنها:

«منا سلام ألفين كلا يسمعه
ما حن أبو مسمار من زين القصاب
جينا على أسلاف امحراوة وامنسب
لا حدكم من حيث قال القلب حاب»

الشواعة واللوبيل

قبل خروج العروس يسلِّم الأكبر سناً من الشواعة لوالد العروس «رديف» لكي تغطى به العروس أثناء خروجها ونقلها إلى بيت زوجها، والرديف يعتبر رسالة من الزوج لزوجته بأن يحقق لها الأمان والحماية والمودة، تخرج الزوجة من بيت والدها وتستقبل في بيت زوجها تصاحبها زفة تسمى امسيري وتقول كلماته كما أشرنا آنفاً:

«على أمسيري على أمسيري ألا بسم الله الرحمن
على أمسيري على أمسيري ولا موذي ولا شيطان
على أمسيري على أمسيري خطيوة قسميها أعشار
على أمسيري على أمسيري تخطي في دارج أهلش»

بعد دخول العروس بيت زوجها يجتمع الرجال والنساء ويؤدون رقصة اللوبيل مصحوبة بالشعر والزجل، والرقصة جماعية يؤديها الرجال مع النساء، صف يقابل صفاً، وأثناء رقصة اللوبيل يتحاور الشعراء في أثناء المسجلات الشعرية في موضوع الساعة وما يحدث أثناء المناسبة، وخلال العرس. وحدث أن أحد الحاضرين، وهو شاعر يدعى أحمد، تزوج بامرأة بعد عناء شديد وغرامة طائلة كلفته مبلغ أربعمئة ريال فرنصة، وخلال الرقص انتاب الزوج الشك في أن بين زوجته وأحد الحاضرين شيئاً يسيء إليه، فعبّر بالكلمات الآتية:

«يا بال يا الليلة البالة علا ولوبيل
يا بال يا الليلة البالة علا ولوبيل
بن طالب يقول في الدنيا بواطل وحق
من حل عند أهل طالب يلحقوه املحق
مطوا علي شرخة امدسمال لما انشعق
دسمال عديت فيه أربعمية في طبق»

قال برطم: شكراً يا سليمان، وهذه العادات والتقاليد لا تختلف عن عاداتنا في دثينة.

فقلت: نحن شعب واحد وتقاليدنا واحدة تقريباً في كل محميات الجنوب.

الصعود إلى «العرقوب»

أخذ النوم يداعب جفوننا بعد أن شارفت قصة الزواج على نهايتها. كان أمامنا في صباح الغد رحلة طويلة مضنية قد تستغرق يوماً أو أكثر. وكانت وجهتنا المحددة «جربة الوبري»، لكن لكي نصل إليها كان علينا أن نتسلق جبال العرقوب، السوداء الجرداء التابعة لسلطنة الفضلي، ونمرّ بجحين وعدة مناطق أخرى.

يسكن في جحين أهل يحيى، وهم من قبائل أهل فضل، وهم في غالبيتهم

مزارعون يستقرون في مختلف أرجاء المنطقة، ولهم تسع أفخاذ إحداها «أهل يحيى»، ومنهم من كان وما زال من القبائل الرحَّل، وهذه القبائل الفضلية، وبطونها موزعة بين الجبل والساحل في أبين.

بعد نوم عميق، بدأنا رحلتنا عقب صلاة الفجر، ووضعنا كل أمتعتنا على ظهور الجمال، وانطلقنا لا نلوي على شيء إلى محطتنا الثالثة «جربة الوبري» الواقعة على رأس جبل العرقوب. إنها قطعة صغيرة ووحيدة من الأرض الزراعية لا تزيد مساحتها على فدانين تقريباً فوق هذا الجبل البركاني المحروق الذي يمتدّ من هذه المنطقة إلى قرب قرية شقرة الواقعة على ساحل البحر. جبل أجرد لا شجر فيه ولا بشر إلا ما ندر من بعض الأعشاب التي تظهر في وقت المطر وتختفي وتحترق بحرارة الصيف في هذا الجبل البركاني.

52 – جربة الوبري

وصلنا إلى هذه المحطة بعد يوم مضنٍ وشاقّ، وبدأنا في جمع الحطب، واختيار المكان الذي سنبيت ليلتنا فيه، وإيجاد مرابض لجمالنا. أخذنا نجمع الأحجار الملساء التي سنستخدمها لطبخ أكلنا، وبدأنا في إعداد الشاي، والمداعة، وإعداد الخبز بوضع الأحجار الملساء في العجين، لتوضع فيما بعد على أحجار أخرى موضوعة على النار والجمر لإنضاج الخبز الذي يسمى «القرمة». وأحياناً كانت بعض الأحجار تتفجر وتتحول إلى شظايا في الخبز، وأحياناً يندفع الشرر إلى الجالسين حول «المكريب» أو النار.

وبرغم الإرهاق الذي كنا نشعر به لشدة ما عانيناه من تعب خلال رحلتنا الطويلة هذه، فقد كنا نجد القدرة في أنفسنا على الضحك والمرح والسعادة

ونحن نراقب الطعام الذي يجري إنضاجه والذي سنأكله بعد قليل مع زيت السمسم «الجلجل»، ونبتلعه مع الشاي أو القهوة. أما المداعة أو الرشبة، فكان علينا إعدادها بعد ذلك بقليل، فهي رفيقة سهرتنا في هذه الليالي الطويلة، ورفيقة السمر والحكايات الجميلة مع العم سليمان.

ويؤكد الشاعر القمندان أهميتها ومكانتها في جلسات السمر بقوله:

«ليتني في السمر بوري برأس المداعة»

ومن شعر هيثم عوض أورد لنا العمّ سليمان هذه القصيدة:

هيثم عوض قال ريت الأرض في ودرة
با سلي القلب ما با موتشي مغبون
حتى ولا الناس با تلقي علي سمرة
القلب ما طاع يقنع والهوى مسنون
من موسمك بيت لي راعد وبا مطرة
بعد العشاء تسلي المكروب والمحزون
يا الله من الزين زانت حين با نظرة
وبا جنا (بين) في تشرين أو كانون
هيثم عوض قال يا مدهون بالخمرة[1]
لا هانت الناس أنا حاشا علي ما هون
ما يسهر الليل إلا من به القمرة
وذي صبح جسمه الظاني كما العرجون[2]
يا بوي نا يا ضنى حالي من السجرة
سقى سقى الحيد والوادي مطر عثنون
هيثم عوض قال باعطي خاطري جبرة
ما دام في القلب نبرة باذلح المخزون

1- نوع من الطيب المخلوط بأطياب أخرى ذات رائحة زكية.
2- العرجون خيل النخل المنحني من ثقل التمر يصبح بعد أن ييبس شبيهاً بالهلال.

هيثم عوض السعيدي والذي لقب برسول امذري ارسل من دثينه الى لحج لكي يجيب ذري امعطب (القطن) وعند وصوله لحج دخل في مساجلات شعرية مع القمندان وحينها عجب عليه القمندان وقال له: انت ماشي لك مخرج من عندنا لك بيت وزواجه وكل شي. وبعدها شم فل الحسيني وقال تستحق المحله هنا. وجلس عندهم بلحج ونسي أرض دثينه وأهلها. وبقي المثل في دثينه من تأخر في شي قالوا له رسول امذري، عاش في لحج وتزوج هناك وبعدها قال بايروح دثينه يبيع قسمه في الأرض حقهم. ولما جاء دثينه رفظوا خوته يشتروا منه الارض او يبيعها لا احد ، وحينها قال فيهم تلك القصيده المشهوره والتي غناها فيصل علوي واخرين .

وقد ذكرتني قصيدة هيثم عوض بقصيدة مسرور مبروك المعارضة لها[1]التي تشبه هذه القصيدة في الوزن، وليس في المعنى.

ومن أبياتها:

موصوف هيثم عوض بين العرب ذكره
مشهور في الشعر والأدب والقانون
وبومحمد علي هيثم عَرض أمره
عساه يقرأ حروف الخط والمضمون

53 – مسرور مبروك

1– تفاصيل القصة والقصيدة في الملحق.

في هذه الأجواء الحماسية ارتجز العمّ سليمان بيتاً من الشعر يحاكي المعنى والقافية، وقال:

سليمان عوض قال ليت الأرض في ودرة

باسلي القلب ما باموتشي مغبون

وقال برطم: كأنك رجعت شاعر يا سليمان.

قال العمّ سليمان: نعم أنا باسلي القلب بالمداعة. وأصدر أمره: ياالله عشوا الجمال.

كان على أحد رفاق الرحلة أن يُطعِم الجمال، وفي المقدمة «شيخ الجمال» كما أطلقنا عليه. أما الماء، فلم نكن نملك منه إلا القليل، لذا كان ثمة صعوبة كبيرة في إسقاء وإرواء الجمال في هذه المحطة، معتمدين على قدرتها المعروفة في تحمّل الظمأ واجترار ما تكون قد اختزنته من مياه في جسمها، إذ لا أثر للماء في هذه الأرض البركانية الجرداء القاحلة السوداء إلا ما تحمله جمالنا على ظهورها من ماء مخزون في القِرَبْ أو الزمزميات، وهو لا يكاد يكفي لشربنا وطهو طعامنا.

مع ذلك، ورغم شحّ الماء معنا إلا أننا كنا أحياناً نسقي بعض المارة في الطريق رأفة بهم وإثباتاً لحسن نياتنا تجاه بعض البدو الذين لا يطلبون غير ذلك لشحّ المياه في هذه المناطق. وأحياناً يطلب منا هؤلاء البدو الكبريت أو «الشخطة» كما هي عادتهم في جحين. وقد استمرت معهم هذه العادة حتى (بعد الاستقلال)، فقد كانوا يتابعون القوافل حتى مسافات طويلة وهم يطلبون «الشخطة». وبعد ذلك أخذوا يطلبونها من أصحاب السيارات وهم يرددون: شخطة... شخطة ويجرون خلف السيارات، حتى وإن لم يرمِ لهم بعض الركاب أو السائقين بالشخطة. وأحياناً لا يكونون محتاجين إلى الكبريت، إلّا أنها أصبحت نوعاً من العادة عندهم، وقطع العادة عداوة كما يقولون، وكانوا يركضون خلف القوافل والسيارات حتى تختفي عن الأنظار.

«**جربة الوبري**» التي اخترناها لمبيتنا هذه الليلة هي بقعة أرض محاطة بسور دائري من الجبال البركانية القاحلة. ويقال عنها «سومها الجبل»، وتقع

في أعلى جبال العرقوب البركانية في أبين على الطريق المؤدي من عدن إلى حضرموت. هي أفضل موقع في هذه المنطقة، واسم «الوبري» يطلق على حيوان صغير يشبه الجرذ، وهو أصغر قليلاً من الأرنب ويُسمّى علمياً خنزير غينيا أو حيوان البايكا، وهو يُصطاد ويؤكَل لحمه، ويقال إن للحمه فوائد صحية كثيرة، وهو عندما يشاهدك لا يهرب، بل يستمر في الوقوف والتحديق فيك، حتى لو وجهت إليه سلاحك، ويظل يحدق والسلاح مصوب نحوه، إلى أن يصاب بطلقة في رأسه أو في أي جزء من جسمه، ولهذا يقال «كبر الوبري» (**أي كبرياء الوبر**)، ويقال المثل في من يموت وهو يواجه خصمه وجهاً لوجه بكبرياء، حتى وإن أصيب برصاص في جبينه. وهذا الحيوان الصغير لا يأكل إلا الأعشاب ويتسلق الأشجار ليأكل أوراقها وزهورها، وقد بدأ يختفي بعد دخول الأسلحة كما اختفى الكبار والكبرياء اليوم من البلاد مع الأسف.

54 – حيوان الوبري

كان علينا أن نبيت ليلتنا في هذه المنطقة الجرداء. ومن مكاننا كنا نستطيع أن نسمع هدير السيارات من بعيد، في صعودها ومحاولاتها للوصول إلى قمة ذلك الجبل. وكلما تقدمت إلى الأعلى، كان أنينها يزداد، أو يخيَّل إلينا أن الجبل هو الذي يئنّ من تحتها. وتصل إلينا أصداء الأصوات التي تختلط بين السيارات والجبال، والناس الذين يترجلون لتخفيف الحمولة عن هذه السيارات الصاعدة إلى تلك القمة العالية، في طريق غير معبَّد تكثر فيه المنعطفات والمنحنيات، وكأنه أفعى تمتدّ وتتلوى كشريط لا نهاية له لتجد لها منفذاً في وسط هذه الصخور الصلدة. وأحياناً تشاهد من أعلى الجبل

الطريق الأفعواني، والسيارات القادمة من شقرة إلى قمة الجبل، وهي تنحدر نحو «جحين» و«امصره» وتمرّ بطرق أكثر وعورة.

ومن الطريف أن الطريق يبدأ بـ «العرقوب»، «فالركبة» ثم «الصرة» ثم «العين» ثم «رأس الظاهر» أو «الكور» باتجاه «مكيراس». وكما هو واضح من هذه التسميات، فإنها تنطبق على جسم الإنسان، بدءاً من العرقوب وانتهاءً بالرأس. ولا أعرف تفسيراً لذلك. أجاءت هذه التسميات بمحض المصادفة، أم أن التسمية مقصودة فعلاً لكي تتشابه مع جسم الإنسان، أم أن هناك أسباباً أخرى لهذه التسمية!

لقد مكثت لوقت أتأمل غرابة هذه الأسماء، ولم يخرجني من شرودي إلا أحد رفاق الرحلة وهو يناديني لتناول العشاء.

عقب العشاء جاءت كؤوس الشاي المنعشة، وانتصبت الرشبة مجلجلة ترسل قرقرتها وعبق تبغها. وأضفى وهج النار التي كنا نتحلق حولها بهجة لا حدود لها على ذلك المكان الموحش، فغدا مألوفاً. وكانت الجمال وهي تجترّ طعامها المخزون ترتاح بعد يوم مضنٍ من الترحال، وهي تمدّ رقابها الطويلة ورؤوسها نحو الأرض.

كان لا بد لنا من حديث نقطع به هذا الليل الطويل، ومن مشهد الزواج وعاداته وتقاليده، ننتقل إلى مشهد آخر للحياة، لنتابع أعراف الإنسان في منطقة دثينة فرحاً وحزناً وحياة.

وفي هذه الليلة طلبت من رفاقي أن يحدثوني عن الزراعة، وعن مواسم البذار والحرث والحصاد، وكل ما يتعلق بالدورة الزراعية.

قال الحطاب:

-أيش تشتي من هذه امهاري؟![1]

ولكنه دون أن يسمع جوابي، انطلق في حديثه كأيّ خبير زراعي متمكن.

1- المهاري: الأحاديث أو الكلام والتعبير البدوي «مهاري خلية» تعني بالفصحى كلاماً فارغاً.

الفصل السادس

الـزراعـــــة والمجاعة

الأمطار الموسمية في هضبة دثينة شحيحة إلى متوسطة، وتختلف من منطقة إلى أخرى، وتختلف كميتها من عام إلى آخر، ويصادف أحياناً ألّا تمطر إلا كل سنتين أو ثلاث. وفي هذه الحالات كان السكان يلجأون إلى قاضي قرية امقوز، الحكيم العلامة حسين أحمد درامة الذي يدعوهم إلى إقامة صلاة الاستسقاء[1] طلباً لنزول المطر. وكان درامة يعرف مواسم النجوم، فيختار الموسم المناسب لتساقط الأمطار، ويختار التوقيت الذي يقيم فيه صلاة الاستسقاء التي تقام خارج المسجد وخارج القرية، وغالباً ما تقام صلاة الاستسقاء في الأراضي الزراعية المجاورة أو على رأس أحد الجبال حيث يتجمع في مكان يتجمع فيه الأهالي ويفترشون الأرض حتى يأتي الشيخ حسين ليتقدم الصفوف لصلاة الاستسقاء حيث يخطب الإمام بعد الصلاة خطبتين يستغفر الله في افتتاح الأولى تسعاً وفي الثانية سبعاً ويكثر فيهما من الصلاة على رسول الله ومن الاستغفار، ويقرأ فيهما:

(استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكُم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا). وبعد الخطبة يدعو بدعاء النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهو:

اللهم اسقنا سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، لا سحقاً ولا بلاءً ولا هدماً ولا غرقاً. اللهم على منابت الشجر وبطون الأودية، اللهم حوالينا ولا علينا. اللهم اسقنا غيثاً

1- يوجد شرح مفصل في الملحق

مغيثاً، هنيئاً مريئاً، مريعاً غدقاً، مجللاً سحّاً، عاماً، طبقاً، دائماً. اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهم اسقنا الغيث والرحمة ولا تجعلنا من الآيسين. اللهم أمن العباد والبلاد والخلق من الأهواء، والجهد والضنك. اللهم أنبت لنا الزرع وأدرر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض. اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنّا من البلاء ما لا يكشفه غيرك.

55 – مسجد ناصر محمد في امحبيل

56 – الشيخ العلامة حسين درامة إمام مسجد امقوز

ويستقبل الإمام القبلة في أثناء الخطبة الثانية، ويحول رداءه من يمينه إلى شماله، ومن شماله إلى يمينه، ويجعل أعلاه أسفله ويتركه إلى أن ينزعه مع ثيابه، ويفعل الناس مثل الإمام.

وقال العمّ سليمان إنهم عندما كانوا يخرجون مستسقين ويطلبون من الله أن يجود عليهم بالخير، يأخذون معهم «جلبة» أو «جلبتين» (ذبيحة أو ذبيحتين) للذبح عند رأس حيد الحمام (أحد الجبال المحيطة بقرية امفرعة)، وبعد الصلاة يقومون بذبحها وشيّها وأكلها، وكانوا يأخذون معهم امعواقب امصغار (الأولاد الصغار) و«امشيوبة» امزحيف» (الكبيرة السن الضعيفة الصحة) وأغنامهم الهزيلة حتى ينظر الله إليهم ويعطف عليهم.

وكان الشيخ صالح بنيص والشيخ حسين درامة يدعوان الناس إلى ترك الظلم والحسد والحقد والمعاصي والذنوب، وإلى الرحمة وصلة الرحم والتصدق على الفقراء. وكانوا يصومون قبل صلاة الاستسقاء ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع يخرجون للصلاة.

وكانت الأمطار تهطل في مواسم النجوم، وكانت لها أسماء معروفة وأيام معدودة.

ويحسب المزارعون مواسم المطر والزراعة والحرث وفقاً لحساب النجوم، وتبدأ المواسم وفق الحساب الآتي: التاسعة/ ربيع/ الإكليل/ التويد/ المزرع/ سعد/ سهيل/ امقترة/ امخامس/ امسادس/ امسابع/ امحيمر/ بو رقيبة/ ، وغيرها. وفي هذه المواسم يزرعون الذرة البيضاء والحمراء والسمسم والدخن والسنيسلة والدجر، وفي وقت متأخر بدأوا بزراعة القطن والخضار والفواكه[1].

57–58 – الذرة الحمراء والذرة البيضاء في أبين

59–60 – الدخن في أبين

1– –[1] في محافظتي أبين وشبوة وبعض المحافظات يقسمون السنة إلى أربعة فصول، ويطلقون على كل فصل أسماء النجوم في الربيع والصيف والخريف والشتاء: الجبهة، الزبرة، الصرفة، عوى، السماك، القفر، بواردة، إكليل، القلب، الشول، النعيم، البلدة، القويدم، المرزم، سهيل، سعد، القترة، أعرج، الخامس، السادس، السابع، الثريا، بركان، هقاع، هناع، ذراع، نثرة، الطرف. المصدر كتاب **الهواجس** لأحمد علي خشاع الطوسلي.

61–62 – سنابل الذرة (الحيمر)

والزراعة عمل مضنٍ يبدأ باستصلاح الأرض وتسويتها وحرثها وتسميدها وانتظار ما تجود به السماء من أمطار وسيول لريّها أو سقيها بمياه الآبار السطحية والجوفية بعد ذلك. وبعد ريّ الأرض الطيبة يبدأ المزارع ببذر البذور بزراعة البذور بيديه أو عبر المذراة، وهو يسير خلف المحراث والبقر على الأرض بقدميه الحافيتين اللتين هما سماد الأرض الحقيقي، ونادراً ما كان ينتعل المزارعون الأحذية أو النعال في أثناء الحراثة والسقي والبذار وزراعة المحاصيل، وتتمزق أقدامهم على تربة الأرض وتتسخ ملابسهم وتتضمخ بترابها، وتختلط أرواحهم بالأرض الطيبة التي يستمتعون بشمّ رائحتها الجميلة كالطيب، بل إن رائحتها أزكى من الطيب والعطر لديهم، فهي سرّ البقاء والوجود لديهم.

63 – فلاح يحرث الأرض بواسطة المحراث

ويتغنى المزارعون وهم يعملون بالأناشيد المتوارثة، ويرددون قصائد الحميد ابن منصور وأشعاره هو وغيره من الحكماء الذين يحفظون ويتوارثون اشعارهم وحكمهم لمئات السنين. ويرعى المزارعون مزروعاتهم منذ بزوغها وخروجها من التربة كما ترعى الأم ابنها الصغير الذي يترعرع في أحضانها لينمو ويكبر ويصبح رجلاً صالحاً يعود بالخير على نفسه وعلى أسرته. ولا يكلّ ولا يملّ المزارعون من هذا العمل المضني الذي تتكرر دورته وطقوسه وإجراءاته عند زراعة كل محصول سنوياً، وفي أثناء ذلك قد تتعرض المزروعات للظمأ والأذى من القرود والطيور والحشرات والآفات والأمراض واعتداءات اللصوص. وهذا فإنه في سباق مع الزمن للحصول على ثمن جهده وعرقه للتعويض عن جهده وعرقه وتعبه، ولا تخيب الأرض الحنون رجاءه، ومن يزرع خيراً يحصد خيراً.

كان المزارعون يسمِّدون أرضهم بالسماد البلدي العضوي الناتج من مخلفات الأبقار والأغنام، وكانوا لا يعرفون الأسمدة الكيماوية والمخصبات والمحفزات والمبيدات الحشرية التي تنتشر هذه الأيام، وعندما يهطل المطر ويتدفق السيل تُروى الأرض، وتكفي الأرض ريّة واحدة لكي ينبت الزرع ويأتي المحصول وافراً، نظراً لخصوبة الأرض لزراعة الذرة والمحاصيل الأخرى.

لحظات الحراثة والبذار والحصاد من أجمل أيام الفلاحين، وأسعد لحظات العمر بالنسبة إليهم فترتفع أصواتهم العذبة بالغناء وبترديد الأهازيج والمواويل الجميلة وأشعار الحميد بن منصور. وكانوا يتغزلون بالثيران «الشرعبية»، ويعتبرونها من أجود أنواع الثيران القادرة على الحراثة دون كلل أو تعب. أما الجمال والحمير، فلا تستخدم في الحرث إلا نادراً، وخاصة عندما لا تتوافر الثيران، وحتى لا يفوتهم موسم زراعة القطن والذرة والجلجل.

وكان المزارعون يستيقظون مبكراً للصلاة، فيما النسوة يذهبن إلى المطبخ لإعداد القهوة وفطور صباحي سريع، ويتوجه المزارعون بعد ذلك مع ثيرانهم إلى الأرض لحراثتها بالثيران والعمل فيها حتى الساعة العاشرة صباحا لتأتي النسوة لهم بالأكل على رؤوسهن، وهو عبارة عن الخبز أو عصيد الذرة، ليواصلوا العمل بعد ذلك حتى الظهيرة.

خلال هذه الفترة الصباحية ينجز البتول حرث نحو «ضمد» من الأرض

(ما يساوي 1000 متر مربع) ليعود وقت الظهيرة إلى منزله للاغتسال وصلاة الظهر، ومن ثم تناول وجبة الغداء (كان بعض الناس يأكلون وجبة الغداء قبل صلاة الظهر، ونادراً ما يكون بعده).

64 – راديو

وبعد صلاة العصر يعودون مرة أخرى إلى حقولهم ومزارعهم ومراعيهم مع أغنامهم وأبقارهم، ويبقون هناك حتى قبيل غروب الشمس، وكانوا بعد صلاة المغرب وتناول العشاء من عصيد الذرة والدخن يبدأون سهراتهم وأسمارهم، يتجمعون ويتحدثون في أمور الأرض والزراعة والمطر والقتل والسفر. فيما بعد دخل جهاز الراديو شريكاً في أسمارهم يستمعون من خلاله إلى الأخبار والأغاني والبرامج المختلفة، وكان جهاز الراديو حينها عبارة عن صندوق وبطارية كبيرة، وكان إرساله مشوشاً وغير واضحاً، وكانوا يلجأون إلى مدّ سلك طويل لتقوية الإرسال، ثم ينامون بانتظار يوم جديد، وهذه آخر حدودهم وهمومهم.

65 – سحب رعديّة على جبل جحاف.

أما أجمل الأيام والليالي، في حياة أهل هذه المناطق على الإطلاق، فهي في موسم السيول التي تتدفق هادرة في الأودية، آتية من جبل وجر وبقية الجبال المجاورة له.

66 – صورة قديمة لي (في الوسط) في أحد حقول الذرة بالقرب من منزلنا، وبجانبي محمد حسين درامة (على يسار الصورة) وعلى اليمين عوض علي فرحان

وحين كانت أرضنا، التي تسمى الخداد والسعيدية والحجنة والزهرة (حنيشة) تروى، كنا نعدّ ذلك من أجمل أيام الحياة، ومناسبة تستحق الاحتفال بها، ولكن على طريقة السكان في هذه المنطقة، أي بنحر الذبائح. الذبيحة الأولى عند دخول الماء إليها، والثانية عند بدء عملية البذار، والثالثة عند حصاد الذرة، وتذبح الذبائح نذراً وتبركاً حتى لا تُصاب الأرض بالجدب، أو يصيب المحصول أي مكروه.

ولأن الأرض مصدر الرزق، ورعايتها محور الحياة، فقد اعتاد أجدادنا تسمية كل «جربة» (قطعة) منها باسم خاص بها، تماماً كما كانوا يختارون أسماء أولادهم. والمدهش أن لكل جبل أو هضبة أو سهل أو قطعة أرض أو حتى شجرة سدر اسماء تُعرَف بها، وهي مسجلة وموثقة في وثائق الملكية الخاصة بها ويتوارثها ويتداولها الأبناء عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل، وهم يحافظون على وثائق ملكية أراضيهم كحفاظهم على حدقات عيونهم، لأنها تستخدم أثناء الخلاف بين الفلاحين، فهي تحدد مساحة الأرض وحدودها.

وأذكر أن أبي رحمه الله حين اشترى أرضاً كبيرة في أسفل هضبة دثينة في بلاد الحسني، اسمها الزهرة، تنطلق بعدها مياه السيول في وادٍ صخري عميق

منحدراً إلى دلتا أحور على بحر العرب، وقد قسّمها والدي إلى اربع قطع، وأطلق على كل قطعة اسماً خاصاً بها، مثلها ابناءه الأحد عشر الذين يحمل كل منهم اسماً خاص به. وقد علّمنا أن نحبها ونهتم بها كأنها واحد منا.

الوالد ناصر محمد

67 – صورة تجمع أشقائي: صلاح وعوض وعبد الله ومنصور، ومعهم علي عوض القاهرة وصالح علي قرقع في احد الاعياد عام 1966م

69 – هادي ناصر محمد وابنه الدكتور أحمد

وكنا نتعامل مع الأرض التي نملكها بمحبة واحترام، فمن خيرها أكلنا وكبرنا وتعلمنا وتزوجنا، فكم هي رائعة الأرض التي تمنح دون حدود أو شروط، ولا تنتظر إلا المطر ورعاية أصحابها واهتمامهم ومحبتهم.

وكان أكبرنا هو أحمد ناصر والذي عانى كثيرا من المرض وفقد النظر كما استشهد أولاده محمد وناصر عام 1986 وفقد بعدهم هادي الذي كان يدرس في جامعة موسكو وتخرج منها وانتقل إلى التدريس لاحقاً في معهد عبدالله باذيب وقد استشهد عام 1993 بمدينة اللاذقية واقيم له جنازة كبيرة شارك فيها الآلاف من المواطنين ومن كافة انحاء اليمن وقد كتب عنه الكثير ولكن أهمها ماكتب عنه

السفير والصديق عبد الله الحنكي في ذكرى استشهاده :

أحمد هادي ناصر

«سبأيُّ المقلة والقسمات هادي .. ورديُّ البسمات . رفيق الطفولة ، رفيق الصبا ، رفيق الشباب.. رفيق الدراسة ، رفيق الحياة التي خسرت جلّ من يُعاش في أكنافهم الندية . رفيق مدفأة المذاكرة الواحدة وقنديلها في فناء السكن الداخلي للمدرسة . أترى كم أوحَشَت القناديل بسمتُك الأصفى ؟ أترى دموع المواويل تسيل على خد بلادك الحزينة طوال الغياب ؟ . هادي ، هادئٌ كشجرة زيتون تزيدها الرياح ثباتاً وثمرا ونضارة هادئٌ في فكره ، في طبعه ، في فلسفته في الحياة ، جيّاش في عاطفته دونما صخب أو ضجيج .. يعرف كل من عاشره أن ليس للتطرف إلى طباعه من سبيل إلا في حالتين – كرم النفس المجبولة بمحبة الآخرين ، تحسبه غنياً من العطاء .. ومن التعفف إذا اعتزل

الناس حتى ميسرة من راتب ، فيخرج شاهراً سخاءه . – الإبتسامة الحنونة الوردية التي لاتفارق محياه، كأن الله خلقه مبتسما . هادي توأم الروح الذي فقدته وفقده كل من عرفه في حادث غدر جرى في اللاذقية مطلع ديسمبر 93. ضحية واحدة من فرق الإغتيال التي كان يرسلها نظام «الوحدة» لعمه الرئيس علي ناصر حتى بعد نفيه من صنعاء . هادي ، الهادئ البسّام أبدا والفائق الأناقة تهذيباً ، لايغيب عن الذاكرة .. لكنه الشتاء .. يعيد حزن فراقه كل مرة بمزيد من الأسى جاء الشتاء 25 مرة راح الشتاء 24 مرة وذكرى هادي في موضعها في القلب كل لحظة وحين. لاتترك إبتسامته الزاهرة بيتها .. بيتها الذي في أعالي القلب... مسيّجاً بالرضوان والسلام الأبديين على روح هادي».

عبد الله سالم الحنكي

أدوات الزراعة في دثينة

وتعتمد الزراعة في هضبة دثينة على الري بمياه السيول والأمطار الموسمية، واستعداداً لهذا الموسم، يهيّئ المزارعون الأرض لاستقبال الأمطار المحتملة بتنظيفها من الحشائش والأشجار والشجيرات الضارة وإصلاح السواقي والحواجز المكسورة والمدمَّرة وتسوية الأرض وتمهيدها وحرث الأرض وتقليب التربة وتسميدها بالأسمدة العضوية المفيدة.

وكانت الآلات الزراعية في ذلك الوقت تتكون من «الهيج» و«الزهاب» و«المحر» و«السحب» و«الضمد».

الزهاب: يرتبط بحبل إلى الهيج، وتقع الذراة وسط الزهاب، والسحب مرتبط بها، وهناك قصبة لذَرْو الحيمر (الذرة) تكون في الوسط، وينزل منها الحب إلى التلم في الأرض.

السحب: سهم (محراث) حديدي يقدَّر وزنه بنحو عشرة كيلوغرامات، يوضع على «امزانة»، هي بعض العيدان تكون مهمتها تثبيت السحب ليشقّ الأرض بواسطة ثورين، وعلى رقبتيهما قطعة خفيفة من الخشب تسمى «الهيج». ويصنع «السحب» من الحديد الصلب، حيث يضع الحداد قطع الحديد في «الكير» (فرن الصهر) حتى تصبح حمراء وليّنة، ويضعها على السندان، ويقوم بطرقها وتشكيلها بواسطة المطارق الثقيلة ليصنع منها «السحب». وتجري عملية صهر الحديد وتسخينه وتليينه في فرن المحدادة، وهو مبنى له أكثر من فتحة لخروج الدخان والشرار والدخان وألسنة اللهب أثناء نفخ الحداد في الكير.

ومن أبرز الحدادين في أرض أهل حسنة القرن حداد يدعى امعبد ابن اموزنة، وهو شخص نحيف وظريف ولطيف، وهو أيضاً من أشهر المحبين للرقص و«الشرح» في الزواجات والأفراح ومع المعنيات (الغجريات) حين زيارة المعن (الغجر) للمنطقة.

70 – المحدادة القديمة التي تُصنَع فيها الأدوات الحديدية المختلفة في جبلة الوزنة بمنطقة آل حسنة

ومن معدات الحراثة:

الهيج: يصنع من خشب شجرة الصرّ.

الزهاب: يصنع من خشب شجرة العتم.

الذارة: يصنع من خشب شجرة الصرّ.

السحف: يصنع من خشب شجرة الصرّ.

المذنبة: يصنع من خشب شجرة الشوحط.

المحر: هو لوح من الخشب الصلب يبلغ طوله نحو متر ونصف متر، وعرضه نصف متر، وتقوم الثيران بجرّه ليجرف معه كمية من الطين لغرض وضع الحواجز (أسوام) أو مساواة الأرض، ويصنع من خشب شجرة العلب.

الثيران[1]: يجرّ الزهاب أو المحر ثوران، أحدهما أقوى من الآخر ويسمون القوي «الكابر»، أما الضعيف فهو الردي، ويوضع الكابر في الجهة اليسرى والضعيف في الجهة اليمنى. والميزة أنهما عندما يصلان إلى طرف الطين يكون الاتجاه يساراً، وفي هذه الحالة يظل الكابر في موضعه ويتحرك إلى اليسار بمساعدة الفلاح أمام الردي الذي يتحرك ببطء، فيظل في اليمين.

1- يستخدم الفلاحون ثورين في عملية الحرث ومساواة الأرض ووضع الأسوام. يوضع أحدهما في الجانب الأيمن، ويسمى الردي، ويوضع الآخر في الجانب الأيسر ويسمى الكابر، ويوضع فوق رقبتيهما عمود فيه مشاعب ترتبط بحبال على رقبة كل منهما، وتستخدم كميزان لضبط حركتهما، حيث إن الزهاب الذي يستخدم في عملية الحراثة هو لوحٌ من الخشب في طرفها الأيسر سهم حديدي يسمى السحب يتصل بوصلة تسمى امزانة متجهة إلى أعلى يمسكها الفلاح بيده اليسرى، وأما اليمنى فيمسك بها عصا لتوجيه الثيران تسمى موهر.

وأما في عملية تسوية الأرض، فثمة لوح خشبي متصل بالثورين بسلاسل حديدية ثلاث تجرها الثيران وتسحب كمية من التراب، في حالة وضع الأسوام فإن الفلاح يضع قدميه على المحر حتى يسحب كمية كبيرة من التراب إذا دعت الحاجة.

71 – الزهاب الذي يحرث الأرض قبل دخول الحراثات

72 – بتول وضمدفلاح ورأسين من البقر

73 – الهيج

74 – المقلاع

جبل وجر:

جبل «وجر» (وجر بن ناصر)، كما يسمونه في بلاد الحسني، تتدفق سيول شعابه آل 360 على أرض الخضر سالم وأهل السلطان وعوض بن علي في أعلى الوادي، وعلى أرض أهل منصور وأهل زامك وأهل باجعم وأهل حسين وأهل محكل وأهل محمد ناصر وأهل علي محمد وأهل هديل وأهل هادي بن صالح.

والأراضي التي ترويها السيول أخصب من غيرها، وهي غنية بالأسمدة و«الطفال» (الطمي)، وتعطي محصولاً ممتازاً من الذرة البيضاء «الحيمر»، ومن رية واحدة طوال السنة، ولكن السيول تدّمر أحياناً وتجرف الأودية والسواقي في طريقها من شدّة الانحدار، فهي تجلب الخير دوماً وتجلب

الشرّ أحياناً بين القبائل الذين يتقاتلون على ماء السيول. لذلك، ما إن تنزل السيول حتى تسمع الرصاص يلعلع من أعلى الوادي حتى أسفله بين القبائل في صراعها على مياه السيول، وذلك لعدم وجود نظام ريّ ينظّم توزيع المياه كنظام الريّ الممتاز الموجود في وادي زبيد منذ مئات السنين.

وشاءت الأقدار أن أزور هذا الجبل بشعابه عام 1964 – 1965 فترة الكفاح المسلح، وأتذكر أن ضابطاً سياسياً اسمه حسين ناصر البعثي تدخل لوقف الحرب بين القبائل والمشايخ، فجمعهم وسألهم: من بدأ بإطلاق النار؟ فلم يعترف أحد منهم بأنه هو الذي بدأ اطلاق النار، وقال بلهجته وحلف باسم الوليّ السيد صالح: «إنكم باتبقوا بالسجن حتى تعترفوا»، وخرج وغادر محكمة امقليتة وسجن كبار القوم لأول مرة. وفي السجن اتفقوا وتصالحوا ووقفوا يداً واحدة ضد الضابط البريطاني لأنهم جميعاً اعترفوا بأنهم معاً كانوا السبب بإطلاق النار، وكان من دهاة هذه المنطقة الشيخ علي هادي والشيخ علي سليمان.

بعد أن تستقر المياه في الأراضي الزراعية يأتي دور المزارع والبقر مرة أخرى، ولكن في هذه المرة يرافق الفلاح الذاري «البَذَّار» الذي يمشي إلى جانبه وهو يبذر على الأرض الحبوب المراد زرعها بعد أن يشقّ السهم الحديدي الأرض أمامه.

الشـارح[1]

بعد أن ينمو الزرع، يُخاف عليه من الحيوانات الأليفة وغير الأليفة ومن الطيور، وهو أمر لا مفر منه، لكن الشارح (الحارس) الذي يتحرك على الأسوام في حالة انتباه دائم ومعه «الوضف»، أو كما ينطقها أهل دثينة «الولف» (بتضخيم اللام) وبها يقذف الشارح الحجارة إلى مسافات بعيدة لطرد الطيور والحيوانات الشاردة، ويصدر «الوضف» صوتاً مزعجاً شبيهاً بإطلاق الرصاص، ما يمكّنه من إخافة الحيوانات والطيور والحفاظ على

1- صالح فقيه: شراح وتخبروا العراف ولا تعالوا واسلألوني من قبل ما تبكوا على أموال وأرواح.

الزرع إلى أن يحين الحصاد. و«الولف» عبارة عن حبلين طول الواحد منهما نحو متر يلتقيان عند قطعة من الحبال الصغيرة المتشابكة على شكل كفّ مضمومة أو ما يشبه العشّ. توضع في هذا الجزء حجارة متوسطة أكبر قليلاً من حجم البيضة، وفي أحد طرفي الوضف ما يشبه الدائرة الصغيرة تدخل فيها إبهام الشارح لتثبيتها في يد الشارح حتى لا تسقط منه عند رمي الحجارة أو عندما يلوِّح بها لإصدار الفرقعات الصوتية لتخويف الطيور. أما الطرف الآخر للوضف، فهو رفيع ويسمى «مشحر» وهو مصدر الصوت القوي الشبيه بصوت الرصاص، ويضع الشارح الحجارة في بطن «الولف»، ثم يمسك بطرفي الحبلين ويحركه فوق رأسه في عدة حركات دائرية سريعة ثم يحرر الطرف الحرّ للوضف فجأةً ويمسك بالطرف الآخر الذي يثبت بإبهام اليد في حلقة دائرية مخصصة لاستيعاب الإبهام التي تدخل فيها وتمسك بها طرف الوضف، وهكذا تُقذَف الأحجار إلى المكان المراد التصويب إليه.

وقد تحدث عن الوصف الشاعر صالح فقيه من لحج في قصيدته «شراحي»، وقال وهو يخاطب المسؤولين عن حراسة البلد وليس حراسة الزراعة:

شراحي كيه سمعوا الأوظاف[1]
باعطي شراحه لاتوكنوني[2]
وإلا طرحتوا الطين باجيب شراح[3]
شراحي لا يخدعوكم، خاف
بعد الحماسة تفضحوني
وبايقول الناس يا خس شراح[4]

1- الأوظاف، أداة يستعملها الشارح لرمي الطيور بالحجارة، وأحياناً ينفضها بيده فتعطي صوتاً لتخويف الطيور والحيوانات.
2- يقصد بذلك أنه سيعطي مكافأة للافضل.
3- ويقصد بذلك أن الشعب سيجلب بديلاً للحكام في حال عدم حفاظهم على الأمانة الموكلة إليهم (حكم البلد).
4- وينبه الحكام من الإنكليز وخداعهم، لأن الناس سيقولون عنكم إنكم لستم بمستوى الامانة والحكم.

الصراب

يوم الصراب (الحصاد) يوماً مشهوراً بين الناس حيث يتجمع عدد كبير من الرجال والنساء، ومع كل منهم «مصرب» (شريم) وهو منشار حادّ معقوف لقطع السنابل وأعواد الذرة، ويردد الناس الأغاني وهم يقطعون السنابل ويجمعونها في مساحة يسمونها «الوصر»[1]، ويقوم بعد ذلك «اللّباج» وهو ممن لديهم الخبرة والتخصص في هذا العمل بضرب السنابل بعصا طويلة وكبيرة تسمى «ملبج» حتى تخرج الحبوب منها، ويسمون الشخص الذي يقوم بهذا العمل «اللباج»، و«يلبج» يعني يضرب بالعصا، ويُسمى الملباج. وحين يكون المحصول وافراً تستخدم الأبقار والجمال في درس سنابل الذرة تحت حوافرها والدوران فوقها مرات ومرات حتى تتفتت السنابل وينفصل حبها عن أكوازها. وتسمى هذه العملية «الدوامة»، وبعد جمع المحصول في «الوصر»[2] وتنظيف الحبوب وتنقيتها، تُخزَّن في المنازل، وما زاد يجمعونه ويودعونه في المدافن.

1- الوصر: البيدر.

2- الوصر: أرض نظيفة صلبة ومستوية تجمع فيها الحبوب لدرسها وفصل الحبوب من سنابلها.

75 – فلاح في جبل جحاف بالضالع يستخدم الملباج
(العصى) لإخراج الحبوب من السنابل

أما حصاد «الجلجل» (السمسم) فإنه يختلف عن المحاصيل الأخرى حيث تُنزَع شجرة السمسم من جذورها بعد نضجها ويأخذونها إلى مساحة تسمى «وصر» (البيدر) وتترك عدة أيام تحت الشمس حتى تجفّ ثم يهزّون الفروع بعد أن تكون قد جفّت من الرطوبة، فتتساقط منها الحبوب، فيقومون بجمعها وخزنها أو بيعها. وهو محصول مهمّ للفلاحين، وهم يعصرونه في معاصر زيت السمسم ويحفظونه ثم يستخدمونه في وجبات الأكل كـ «العصيد» و«الزاد» و«المخلم»، ويستخدم لجسم الإنسان، وفيه فوائد كثيرة وهو من أفضل أنواع الزيت في المنطقة.

76 – حقل مزروع بالجلجل (السمسم)

الأدوات المستخدمة لفصل الحب عن «السبول» (السنابل):

الملباج: عصا مقوَّسة تصنع من شجرة الصر، وهي شجرة قوية، تقطع العصا ثم يجري إمرارها على النار فتُربَط وتُشدّ أطرافها إلى بعض ويوضع حجر على المكان الذي يُراد له أن يتقوس وتترك فترة من الزمن نحو أسبوعين أو قد تصل إلى شهر حتى تأخذ الشكل المقوس.

المعر: هو غربال مصنوع من سعف النخيل شبيه بالمنخل، وله فتحات طويلة.

المنطفة: (غربال) وهي تشبه المعر إلى حد كبير، مع الفرق أن فتحاتها صغيرة مربعة مثل المنخل وتستخدم لاستخراج الرمل من المحصول.

77 – منخل

78 – قفة – لوضع الحبوب

المدفن: وجمعها مدافن، وهو عبارة عن مخزن تحت الأرض لخزن الحبوب له منفذ صغير يسدّ بإحكام بالحجارة والخلب (الطين المعجون

بالماء) بعد امتلاء المخزن بالحبوب، ما يحافظ عليها لفترات طويلة دون أن تتعرض لأيّ تلف، ولا تفتح المدافن إلا في مواسم الجوع والجدب (الجفاف)، عندما ترتفع أسعار الحبوب، ومعظم هذه المدافن يملكها التجار الذين يشترون الحبوب من المزارعين في مواسم الحصاد لتباع لهم مرة أخرى في سنوات الجدب بأسعار مضاعفة، وأشهر من كان يمتلك المدافن أهل محمد ناصر وآل محروق وآل بانافع وآل بن رقية.

79 – أحد مخازن الحبوب (مدافن)

أخذ العمّ سليمان يضحك، فسألته:

ما الذي يضحكك يا عمّ.

قال: تذكرت قصة عن الجوع والجدب.

سألته: ما هي؟

قال: مرّ علينا قحط، رفض التجار أن يدينونا حباً حتى موسم الحصاد، لأنه لا توجد بشاير للمطر، فقام عمي عبد الله علي وأخذ ماءً وعجنه مع التراب، وذهب في الليل إلى تاجر اسمه حيدرة، وهو بعيد عن منطقتنا، فقال له: أنا الآن جيت من «رشنة» (اسم منطقة زراعية)، وقد جاد الله عليها بالمطر ورويت فأعطني حباً لبذارها، وعندما نحصد أردّ لك القيمة ضعفاً، فأعطاه الحب، وعند الصباح ذهب إلى سوق السبت يسأل عن المطر، وإن كانت رشنة قد شربت، فقالوا له إن المطر لم يسقط وإن رشنة لم تُروَ فعرف أن عمي

عبد الله ضحك عليه فسكت. وبعد فترة ذهب عمي عبد الله إليه للحصول على حب، فقال انتظر إلى أن نتعشى، وعندما أحضر العشاء وكان «كعدة» (وعاء من الخشب) «زاد» (عصيدة) قال التاجر حيدرة هذا الشعر:

من هو قبيلي لا يكلم حيدرة في حب عيشة دي يقع كعدة وزاد

لا با نسلف حد ولا با نستلف لما نشوف الخير في هذ البلاد

فقام عمي عبد الله ولم يكلمه في الحب.

تجرأتُ على مقاطعة العمّ سليمان الذي أخذ الحديث قبل ذلك من برطم مستأذناً منه مواصلة الحديث عن الزراعة لأهميته قبل الانتقال إلى حديث الشعر، توقف العمّ سليمان قليلاً عن الكلام وهو يمعن النظر في وجهي، وربما ليزن كلماتي.

واستوى في جلسته محكماً ربط حبيته[1] حول ظهره وعلى ركبتيه، وبعد أن سحب بعض أنفاس رشبته الأثيرة (المداعة) تنحنح ثم قال:

– شف يا بر ناصر محمد وأنتوا اسمعوا يا جماعة كلكم، رعوني با قول لكم دي أعرفه عن الزراعة والجوع وخير الدنيا وشرها.

شعرت بالارتياح الكبير لتجاوب عمنا سليمان مع طلبي، وحولت حواسي كلها إلى آذان صاغية لما سيقول، وكان مما قاله:

إن المزارعين أيام الجوع يذهبون إلى التجار أصحاب المدافن يطالبونهم بفتحها ليشتروا حبوبهم – التي سبق أن باعوها للتجار – من جديد، ويرهنون الأرض مقابل الحصول على حفنة من الحبوب يسدون بها رمقهم ورمق أولادهم الذين يتضورون جوعاً، أو يستدينون الكيلة مقابل كيلتين من المحصول أو الخير المنتظر كما يسمونه.

وكان المزارعون يحرثون الأرض بانتظار المجهول، ويسمدون الأرض بمخلفات الأغنام والأبقار «الروث» والدمن الذي يجمعونه من الحظائر، يكومونه أمام المنازل، ويسمون كومة المخلفات هذه «امكدمة». والبعض

1– الحبية طوق مصنوع من القماش المتين، وهي تشبه الحزام، لكنها ليست حزاماً. يستخدمها البدو عندما يجلسون القرفصاء لشدّ الجسم أثناء الجلوس على الأرض دون تعب.

يستخدمه سماداً لأرضه، والبعض الآخر يبيعه على ملاك الأراضي، وهم يرددون في أثناء الحرث قول الحميد بن منصور[1]:

«عليت يا مشتري الطين
ولا علي دي يبيعه»

أو قوله:

«قريب الطين ظنّي
والبعد رحمة بلا ظن».

أو قوله:

«لُعِنْت وَا بَايِعْ الطِّيْن
لا ترهنه لا تبيعه
الرَّهن مثل العليله
والبيع مثل الذي مات»

وقوله أيضاً:

«بوصيك يا بني محمد
بوصيك أربع وصايا
الأولة بر نفسك
وأخرج مع الصوت لول
والثانية في ابر عمك
قاتل معه قبل يقتل،

1- الحميد بن منصور: حكيم وشاعر ومزارع، وهو شخصية شعبية معروفة في اليمن، وقد تجاوزت شهرته الآفاق، وهناك خلاف في تحديد منطقة معينة بذاتها مسقطاً لرأسه،ويقول البعض إنه مزارع من شرق مدينة البيضاء سكن أسفل منطقة صرُوم بين البيضاء ومنطقة خورة. وهناك من يذكر أن الحميد بن منصور يرجع أساساً إلى أسرة بني هلال وموقع سكناها تحديداً في «مرخة» ناحية من نواحي شبوة حالياً. وقد تنقلت أسرته في المناطق اليمنية وسكنت في كثير من المناطق اليمنية فيما بعد. ويشتهر الحميد بن منصور بأقواله الحكيمة في تدبير شؤون الحياة وعدم الغفلة عن الزمن والحثّ على الزراعة والعمل والسعي لكسب الرزق والتخلق بالأخلاق الحسنة.

والثالثة في دخيلك[1]،
عجّل بأكله ولا قل[2]
والرابعة حُرمة الويل[3]
طلاقها قبل تحبل»

وعند حديث العمّ سليمان عن «الدخيل (الضيف)» والأكل، تذكرنا الأكلة المفضلة في دثينة، وألححنا على العمّ سليمان وبرطم أن يحدثا عن «المخلم» (نوع من الخبز الحامض) ويسمى أيضاً «الرهي»، فربما أنسانا الحديثُ الجوعَ، فاستهلّ برطم قائلاً:

والله ذكرتمونا بأقراص المخلم الذي يصنع من حب «الحيمر» والسنيسلة، ولو أن حب الذرة أفضل لرهي المخلم، وطريقة إعداد أقراص المخلم تبدأ بسحق الحبوب بعد نقعها في الماء وتليينها لتسهل عملية سحقها إلى معجون سميك ناعم يسمى الرهي، وتسمى هذه العملية «القشر» تليها عملية الطحن الناعم «السدف» وتجري عملية السحق بمرحلتيها على المرهاة، وهي قطعة مستطيلة من الحجر شبيهة بالرحى تسحق عليها الحبوب بواسطة عمود أسطواني مصنوع من الحجر ذاته الذي تصنع منه المرهاة، ويسمى «العالي»، وبعد الانتهاء من عملية الرهي يضاف الحويج إلى معجون الحبوب، وهو عبارة عن بصل وثوم وزموتة (نوع من النبات)، ويوضع في وعاء مصنوع من ثمرة القرع الجاف يسمى «الجحف»، ويترك ليتخمر حتى اليوم الثاني، حيث توقد النساء الميفى» (التنور) حتى يحمر، وتوضع الأقراص فيه، ويغلق جيداً حتى تنضج أقراص المخلم التي تقدم مع المرق واللحم للضيوف ويحفظ في «التورة» ليحتفظ بحرارته لساعات حتى يقدم إلى الضيوف وأصحاب المنزل، كذلك يحفظ في التورة اللحم بعد خروجه من الميفى ليحتفظ بحرارته. وأذكر أن الصديق هيثم محمد مشدق (أبو نبيل) رحمه الله نقل لي اللحم «الحنيث» و«الخبز المخلم» في تورتين من أبو ظبي إلى دمشق على

1- الدخيل: الضيف.
2- ولا قل: لا تبخل بإطعامه ولو بالقليل.
3- حرمه الويل: المرأة السيئة.

طيران الإمارات (نحو ست ساعات) من خروجه من منزله إلى دخوله إلى منزلي، وعندما فتحنا التورة وجدنا البخار يتصاعد من اللحم والخبز وكأنه خرج من التنور.

80–81 – خبز المخلم والتورة الوعاء المخصص لحفظه

أما في لحج، فاالمخلم يكون مكوَّن من حَبّ أحمر ودقيق وبصل وثوم وحبة البركة، ويخبز بالطريقة التقليدية المعتادة، ويتميز «المخلم» بخفة السمك وصغر الحجم نوعاً ما مقارنة بخبز «الطاوه» ويأكل منه الإنسان بمقدار قرص أو قرصين فقط.

يقدم «المخلم» في مائدة العشاء على الأغلب، وليس الإفطار، ويقدم بجانبه مكملاته، وعادة ما تكون الحلبة والسمك والصانونة.

82 – مخلم لحج

وتشتهر بعض مناطق دثينة، وأيضاً في عبدان وبيحان ويشبم والصعيد بوجبة «المَعْصَوْبَةْ» التي تصنع من دقيق «البر» (القمح) وتؤكل مع السمن البلدي والعسل وزيت السمسم، وأيضاً وجبة «الزاد»، وهو نوع من العصيدة

الحامضة المصنوعة من دقيق الذرة، وأيضاً «اللهوبة»، وهي نوع من العصيدة المصنوعة من الدُّخن وغيرها.

83 – المعصوبة

وحتى يعود رفاق الرحلة إلى الواقع بعد أن حلّقوا بخيالهم في عالم اللحم والمرق، سألت العمّ سليمان عن الأهازيج والأشعار التي يرددها الناس أثناء الزراعة والحصاد، فقال:

الناس عند نزول المطر يرددون:

«ألاّ وين المبشر يبشرني بسومش[1]

ألاّ يا جربة الخير هذا اليوم يومش[2]»

وأيضاً يقولون:

«ألا يا ليلة النور خيلنا مخيلة [3]

ألا يا لله على وجر[4] دي يعجل بسيله»

وينتظر الفلاحون المطر أحياناً لسنوات طويلة، وعندما يشاهدون السحب

1- بسومش: بسومك، والسوم حاجز من الطين.
2- يومش: يومك.
3- خيلنا مخيلة: تنتظر المطر.
4- وجر: اسم جبل.

تتجمع «يخيلون المطر» أي يتوقعون أن تمطر على جبل وجر أو «لبيس» أو الحمام و«رشنة» وبعض الجبال الأخرى، وكانوا إذا رأوا البرق في جهة المشرق يستبشرون خيراً ويقولون: **إذا برق من الملح اتشلشلين يا امجلح،** ومعنى ذلك إذا برق الرعد من منطقة المشرق حيث جبال الملح فعلى النساء ويسمونهن «امجلح» ومفردها «جلحاء» أن يُدخلن الحبوب والأعلاف والحطب وكل ما يمكن أن يتأثر بالمطر إلى البيوت حتى لا يبلله المطر. أما إذا رأوا البرق في جهة الغرب أو الجنوب، فلا يأملون أن يسقط المطر على أراضيهم، ويقولون: «**إذا برق من لخلاف شل ابنك على لكتاف**»، أي إذا رأيت البرق من جهة الجنوب أو الغرب، فخذ ابنك على كتفك واذهب أينما شئت ولا تخشَ المطر. وكانوا يتنبأون بنزول المطر بالنظر في «المقاحف»[1]، ويحدث في أحيان كثيرة بعد أكل اللحم أن يتبادل المقحفة العرافون والخبراء هذا العمل، الذين يقرأون الخطوط المرسومة على عظمة الكتف ويتنبأون من خلالها بالمطر والموت وغيرها من أمور الغيب والمستقبل، وأحياناً يقولون إن المطر سيهطل على وادي وجر أو لبيس أو رشنة أو الحمام. بل إن بعضهم – لشدة يقينه بصحة ذلك – يستعدّ لحراثة الأرض، أو لإعادة تسوية العبر[2] أو السوم المكسور أو المقطوع. وعند التنبؤ بالموت يقول «المقحِّف» إنه يشاهد تجمعاً من الناس في المقبرة، أو في قرية من القرى، فيبدأ الناس بالتشاؤم من هذا الخبر ويتوقعون حدوث موت أو قتل.

وفي بعض المناطق والقرى بلغت درجة إتقان البعض لهذا الإلهام الذي لا أحد يعرف مصدر معرفة البعض به، أن شاهد أحدهم، ويدعى منصور الوحيش، في «المقحفة» رجلاً نائماً في بيته، فإذا به يقطع رحلته حيث كان متجهاً إلى عدن سيراً على قدميه وتوجه إلى بيته فوراً وصدره يغلي بالغضب، ظناً منه أن زوجته تخونه مع رجل آخر، وما إن طرق الباب، حتى قالت له زوجته قبل أن تفتح الباب حتى لا يرتكب جريمة في حقها:

– هذا خوي عندي يا امقحف ابن امقحف!

وتقول رواية أخرى على لسان خالد حيدرة محمد منصور الوحيش ابن

1– عظمة كتف الغنم ومفردها (مقحفة).

2– السواقي.

حفيد منصور الوحيش إن الذي رأى في المقحفة هو محمد حيدرة فيما كان الذي عند المرأة أخاها.

وهذه الحكاية يتداولها الناس حتى اليوم. باعتبارها دليلاً على مقدرة هؤلاء البعض على رؤية بعض الأمور التي لا يستطيعها غيرهم من الناس، وهذا يذكّرنا بقراءة الخطوط في فنجان القهوة أو قراءة الكف.

وبعد ذلك الخروج المؤقت للعمّ سليمان عن حديثه حول مواسم الزراعة ودخوله في حديث التنجيم والمقاحف، أخذ برطم الحديث ليواصل ما بدأه العم سليمان عن الزراعة فقال:

– يبدأ الاستعداد لزراعة الدُّخن، ويسمونه في شبوة «أبو علي» بعد حصاد السمسم، وفي مناطق أخرى يبدأون بالاستعداد لزراعة الذرة بعد السمسم، فما يصلح من الأرض للذرة لا يصلح لزراعة بعض المحاصيل الأخرى كالدُّخن.

وأهم ما يميز الفلاحين في دثينة، كما قال لنا الحطاب، التعاون فيما بينهم عند الاستعداد للزراعة وعند الريّ والحرث. وبعد الريّ، وخاصة عندما ينكسر سوم أو عبر أحدهم، فهم يقدمون ثلاثة أو أربعة «ضميد»[1] دعماً له حتى يحين موسم السداد. كذلك فإن «الرفدة» أو «امسيف»، وهي من عادات الزواج التي تعرفنا إليها في السابق، هي من أوجه التعاون بين أهل دثينة. ويمتدّ التعاون والتآزر إلى حالات الموت أيضاً، كما يتعاون الفلاحون ويشتركون في الحصاد، بما في ذلك النساء اللائي يشتركن في الصراب وفي نقل المحاصيل على رؤوسهن إلى «الوصر». ويتحايل الفلاحون على المرابين بأن يسرقوا محاصيلهم ليلاً، خوفاً من دفع معظم المحصول للتجار المرابين والحكومة. أما «القصب» (أعواد الذرة)، فيقومون «بتشوينه» بعد جفافه في «شونة» (كومة كبيرة من أعواد الذرة) خارج الأراضي الزراعية أو يخزن في «الجلب»[2] أو فوق العلوب[3] لحفظ هذا القصب بعد أن يجف لاستخدامه علفاً للمواشي في موسم الجفاف.

ويردد المزارعون عند دوامة الحبّ (درسه):

1- ضميد: كل ضمد يتكون من ثورين.
2- مخزن لعلف المواشي في موسم الجفاف.
3- شجر السدر ومفرده (علب).

«واهيبوه.. واهيب هيب
واهيبوه.. يا ثور لَشْعب
واهيبوه.. لا تأكل الحب
واهيبوه.. دم الخضر دم
واهيبوه.. دم ابن عباس
واهيبوه.. لنا وللناس

وأيضاً:

اليوم يا الله.. واليوم دايم
وا شارح الخير بين الغنايم
أما في الصراب فيرددون:
ياالله اليوم يا مطلوب يا خير مطلوب
ياالله اليوم صبحنا عسل من جنى النوب
ألا يا هذا لا لبتال لا تنسون ذكر النبي
من طلعة الشمس لما يدني المغرب
ألا يا الشمس غيبي وباسي[1] لش عصيدة
ويرددون أثناء «جز» القصب (قطعه):
ألا يا أهل السبول أطلقونا «آبت» الشمس (غابت)
ألا من شان بكرة نجيكم طرحة الشمس

وفي الحصاد يقولون أيضاً:
سقاك اليوم يا ودن سموك[2] الدشيني[3]
وحبك للمزارع.. وقرصك للدخيلي»[4]
(القرص: الرغيف، والدخيل: الضيف)

1- أصنع لك عصيدة.
2- سموك: اسموك.
3- الدشيني: اسم.
4- الدخيلي: الضيف.

وأيضاً:

«يا مصلى على الشيبة الهادي
دي قرأ في دثينة وفي الوادي
يا مصلي على الشيبة الطاهر
دي قرأ في دثينة وفي الضاهر[1]

وأيضاً:

وراك[2] **اليوم يا عاقل الشبان تالي**
ولا نا تالي أول النمارة [3] **عيالي.**
ولا دناك[4] **الليل يا الظاهري حلة**[5]
ولا كسب[6] **قرشين ما عاد تبدل له**[7]

ويأتي سيل وجر بخيره وشره. إذ يأتي شديداً فيجرف الأرض والتربة ويكمن الشرّ أحياناً عندما يبدأ إطلاق الرصاص من أعلى الوادي إلى أسفله بين أهل منصور وأهل زامك وأهل باجعم وأهل حسين وأهل ناصر حسين وأهل محكل وبين أفراد القبيلة الواحدة نفسها. وبسبب الحروب القبلية وشدة تدفق السيول وعدم وجود سدود أو قنوات للري يذهب الماء إلى البحر بأحور على ساحل البحر العربي.

كانت هذه القبائل تعيش على ما تنتجه الأرض، وفاكهتهم الدوم والأرناق والمضار (قصب الذرة)، وخضارهم القرع والدجر والألفق والأوبار، ولبنهم «الحقين» (اللبن الرائب) أو القطيب كما يسمونه في عدن، ويصنعونه من

1- الضاهر: الكور، أعلى مرتفعات مكيراس.
2- وراك: ما بك.
3- النمارة: النمور.
4- ولا دناك الليل: اقترب الليل.
5- حلة: وقته أو أوانه.
6- ولا كسب: اذا ربح.
7- ما عاد تبدل له: لا يساوي جهده.

حليب الأبقار والأغنام. أما أخشابهم، فيؤمنونها من أشجار الصرح والعِلْب والمضاض والأثل والضبيان والسُّمر والصر.

وسكان دثينة كغيرهم من سكان الجنوب يعيشون على ما تنتجه الأرض وتجود به السماء، ولديهم اكتفاء ذاتي، إذ لا يستوردون إلا البُن والملابس القطنية البيضاء المسماة «الكار» وتُستخدم كفناً للموتى، ولكن الفرق بين ملابس الأحياء والأموات أن الأحياء يصبغون كارهم بالصباغ الأسود الذي يجري تلميعه ويستخدمونه إزاراً للجزء السفلي من جسد الرجل ووسطه ويوضع على الكتف أو يلفّ على الرأس كعمامة، وشعورهم طويلة كشعر «الهبيين» تتدلى على وجوههم وعلى أكتافهم أو يلفونها إلى أعلى برباط، أو يجدلونها في جدائل على طريقة شعور النساء المجدولة، وهم يتباهون بذلك ولا يخجلون. وأشهر الرجال الذين اشتهروا آنذاك بشعرهم الطويل (ويسمى القصلة) ناصر سليمان الثور ويسكن قرية المقاصر، وهو رجل طويل القامة ونحيف ومرح خفيف الظل.

84 – صورة قديمة لبعض المشايخ بالزي القديم

من بيحان إلى لبنان

وعلمت أن الشيخ ناصر كان في طريقه إلى بيحان لزيارة صديقه الشريف حسين الهبيلي أمير بيحان، وكان ذلك في عام 1960م، وكان يحمل معه بندقيته ومداعته (النرجيلة). وفي مطار عدن أُعلنَت الرحلة المتجهة إلى

بيحان، ولكنه بدلاً من ركوب طائرة Aden Air WAYS المتجهة إلى بيحان، استقلّ طائرة Middle East المتجهة إلى بيروت، وبعد إقلاع الطائرة اكتشف الطاقم أن هناك شخصاً مسلحاً يجلس في مؤخرة الطائرة، فأخبروا الكابتن الذي كان يتكلم العربية (وهو مصري الجنسية)، فاقترب من الشيخ واستفسر منه عن رحلته، فردّ عليه الشيخ ناصر أنه في طريقه إلى بيحان، وعندما أعلمه الكابتن أنهم سيصلون إلى بيروت بعد قليل طلب منهم إعادته إلى عدن، وأثناء ذلك قام طاقم الطائرة بإخبار إدارة مطار عدن بذلك، وأن هناك شخصاً مسلحاً صعد الطائرة من طريق الخطأ، فتواصلت السلطات البريطانية مع قنصلها في بيروت لمتابعة هذا الموضوع، فتوجه القنصل البريطاني إلى المطار واستقبل الشيخ ناصر ورحب به واستضافه ونظم له برنامجاً لزيارة بيروت وبعض المناطق في لبنان حتى يحين موعد أي رحلة متجهة إلى عدن.

85 – ناصر سليمان

شجرة العلب

غير أن أهم حديث سمعناه هذه الليلة كان عن شجرة العِلْب[1] أو كما قال لنا الحطاب، فإن هذه الشجرة من أهم الأشجار في حياة سكان المنطقة، وقد حباها الله بأن جاء ذكرها في القرآن الكريم {وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ: 16].

1- السدر.

86 – شجرة العلب

إنها شجرة تُعمَّر طويلاً وتعطي خيراً كثيراً، فشهدها ألذّ شهد في الدنيا. وعدد كبير من السكان يعيشون على العسل العالي الجودة الذي تنتجه هذه الأشجار، ويتخذ النحل غذاءه منها.

87 – شهد العسل

ومن هذه الشجرة يأتي الدوم الذي يؤكل في المواسم ويخزن بعد تجفيفه ليؤكل في مواسم القحط والجفاف. وبذرته عندما تكسر تستخرج منها النواة «الفرقوص» وتُحمَّص مع الدُّخن، وأحياناً مع السمسم ويسمى المغليّ الغلمة.

88 – ثمر شجرة العلب

وورق العلب وثمره المتساقط طعام للأغنام والأنعام التي تعطي لبناً جيداً ولحماً لذيذاً، وكذلك للنوق التي تدرّ حليباً شهياً وتتخذ منها العصافير والحمام مأوى وملاذاً لها من الصقور والطيور الجارحة كل مساء، فتغرد بأصواتها الجميلة، ويتراءى للسامع أن هذه الأصوات صادرة من قلب تلك الشجرة الحنون.

وتتحول هذه الشجرة المتعددة المنافع وجذوعها إلى مستودع لحفظ القصب من الأبقار والأغنام.

ولا تقطع هذه الأشجار أو جذوعها إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، كأن تصاب بالنخر أو لحاجة الفلاحين الماسّة إليها. ومن خشب العلب يصنعون المعصرة التي يعصرون فيها السمسم ويستخرجون منه السليط، يدور بها جمل المعصرة معصوب العينين. ويستخرج من بقايا السمسم «العصار» الذي يأكله البعض بعد إخراجه من المعصرة. ويقول المثل الشعبي: « جمل يعصر وغيره يأكل العُصار»، ويضرب به للرَّجل الذي لا يعمل ولكنه يأكل جهد غيره. كذلك يخزنون العُصار طعاماً لأيام المجاعة والأيام الصعبة ويؤكل بعد تسخينه. وأحياناً يكسرونه ويعجنونه مع بعض الذرة ويحولونه إلى عصيد يسبب الإسهال. وفي الأيام المريحة يُعطى العصار علفاً مغذياً للغنم والجمال.

89 – معصرة الصليط (زيت السمسم)

ومن جذع هذه الشجرة تصنع الأواني للقهوة (الأرفة) أو المطيبة والمخصرة للمرق، والصحفة للعصيد والقدح للمرق والمنحاز للبُن، وتُصنَع

من خشب العلب الملاعق والأمشاط. وتصنع منه أيضاً الأبواب الخشبية التي تعمَّر مئات السنين، كذلك تستخدم أخشاب العلب لأسقف المنازل وتعمَّر لسنوات طويلة[1]. كذلك كانت النوافذ الجميلة بنقوشها الرائعة كانت تصنع من خشب العلب، وتعمَّر ما عُمِّرت هذه المنازل في وجه عاتيات الزمان.

90–91 – الصحفة والكعدة (أوانٍ مصنوعة من العلب وتستخدم لوضع العصيد)

ومن السدر ومن أوراق العلب تصنع النساء «الشامبو« الذي يغسلن به شعورهن التي لا تعرف أي نوع من أنواع الكيماويات، وقشر هذه الشجرة ولحاها يوضع على شعر النساء وضفائرهن مخلوطاً بالطيب فيعطيها رائحة زكية ويمنح شعورهن القوة ويساعده على النمو.

ومن ورق شجرة السدر يصنع مسحوق يشبه في مفعوله الصابون المعروف لنظافة الجسم، إذ لم يكن أفضل منه، لعدم احتوائه على المواد الكيميائية الضارة. ومن خشب العلب كانت تصنع الأمشاط لتصفيف الشعر، وكانت تسمى «مخرش».

وقال العمّ سليمان إن المواطنين يستفيدون من شجرة العلب وغيرها من الأشجار في صنع أدوات الحراثة: الزهاب، الهيج، المذراة وغيرها. ولأن الحاجة أم الاختراع، فقد أدت الحاجة بالإنسان إلى أن يصنع من الشجر والصخر والأرض كل ما هو جميل. وكل ما هو في حاجة إليه لاستمرار حياته.

1– وقد شاهدت بعض أخشاب العلب فيما بعد في القصر القديم بمملكة شبوة، وكانت تبدو وكأنها صنعت اليوم، وعلى أطرافها آثار بعض الحريق الذي أتى على هذه المملكة التاريخية العظيمة.

أظن أن الحطاب اختصر لنا قصة الزراعة أو الفلاحة على هذه الأرض. ووجد من المدهش، ووجدنا نحن كذلك، أن يحدثنا عن شجرة العلب في صمودها التاريخي وتعدد أغراضها واستخداماتها للإنسان والحيوان كرمز للخصب، وللعلاقة الأزلية بين الأرض والإنسان. وبعد عشرين سنة من هذه الذكريات، وتحديداً في مدينة شبوة القديمة، شاهدت في قصرها الملكي الذي اكتشفته عالمة الآثار الفرنسية جاكلين بيرن خشباً من السدر تحت الأنقاض، وقد احترق جزء منه، وآثار الحريق في أطرافه، ولكن الباقي لا يزال صامداً منذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد وحتى اليوم.

استمتعنا بتلك القصة بكل ما حملته من دلالات، إذ كنا نجلس على قطعة من الأرض الصلدة فوق جبل عالٍ لا ينبت فيه شيء يذكر، وكانت أضواء السيارات تتراءى لنا وهي تبتعد وتمضي في غمار أضواء الليل والنجوم. بينما نحن نستعد للنوم، وللسفر مع أول خيوط فجر الغد.

ولا يفوتني وأنا أتحدث عن استفادة الناس من الأشجار والنباتات الموجودة في البيئة المحيطة بهم أن أذكر أن أهل دثينة كانوا يصنعون الحبال من شجر السنا، هو نوع من أشجار الصبار ذو رأس مدبب، وتسمى عملية صناعة الحبال سحاجة، والفعل سحج يسحج، ومن أشهر من عرف بسحج الحبال وصناعة الأوضاف في قريتنا الحاج ناصر حجيري وشقيقه سالم.

طريقة إعداد القهوة

قلت لأحمد مسعود برطم الحطاب: اشرب قهوة من شان تواصل لنا الليلة قبل النوم قصة إعداد القهوة.

قال: رعني تعبت وعيوني حمراء ويحرقيني، خليها لبكرة.

قلت له: ارويها لنا باختصار.

فاستجاب مشكوراً لرغبتي وبدأ يحكي:

«أول ما كان» (في البداية) تجيب «منسانة» (المرأة) امبن وتدقه في «امنحاز» (الهاون) قليل لما يتكسر وبعدين تخرج القشرة في المقلى وتحركها

بعود لما تحمر، وتجرّ المقلى من النار وتنسفه وتشب[1] عليه بفمها من أجل (أن) القشر يولّي[2] للمسرفة والحب الصافي يبقى في المقلى، وترد (تعيد) المقلى فوق «الصعد» (موقد النار) حتى ينجح الصافي أي حبات البُن.

92 – مقلى

واذا تناصف البن – لا هو محترق ولا هو ني – ربشته فوق القشر، وتدقه دفرة في المنحاز وهو من العود[3] والعالي[4] من حجر، وتورد الماء في الدلة وتنصبها على الصعد ولا قد فار بالماء نزلتها.

93 – 94 – ملكد أو منحاز خشبي وحديدي

95 – جبنة لتقديم القهوة وأحياناً تستخدم الدلة

1- تنفخ.
2- يذهب.
3- العود: من الخشب.
4- العالي: من الحجر.

وتدق الحويج حقه: الزنجبيل والقرفة والهيل. وبعدين بنّنتها وتردّ الدلة على النار وتسكب الحوايج في صيني وتسكب عليه قليل قهوة وحوجت به القهوة. وحركت الدلة وتخوض القهوة وما تعريها إلا إن كان قليل من أجل لا تفوش القهوة ولا فاشت خرجت القهوة.

ولا قد حصلت القهوة قربتها وصرفتها في الصياني للموجودين لا هم من أهلها وأن كانوا غرباء تنديها واحد من الذين هم جلوس من أهلها يصرف امقهوة.

وعندنا يسوون قهوة كثير في الدلة من أجل يشربون لما يروون، ونقيس الماء على قدر البن. وأدوات القهوة عندنا هي الدلة[1] والربعة والشط والصياني[2] والمنحاز[3] والعالي [4] والمقلى[5]. أما في الحبشة، فهم يضعون المقلى فوق النار ويحمصون البن لما تحترق القشرة ويطلع منها دخان ورائحة جميله ويبخرون بها الضيوف والحضور كمقدمة لشرب القهوة، وتقوم بذلك امرأة تلبس ثياباً بيضاء كجزء من الطقوس في هذا البلد الجميل.

وكانت الفاتحة تقرأ قبل تناول القهوة إلى روح الشاذلي والخاملي وكل صالح وليّ.

96 – صورة لفتاة إثيوبية وهي تحضر القهوة وتحمص البن ويصدر البن رائحة زكية وتقدم المقلى على الضيوف لشم رائحة قبل أن تحمصه وتحضر منه القهوة للضيوف

1- يطبخون فيها القهوة.
2- فناجين صنع الصين.
3- يطحنون فيها البن.
4- يدق فيها البن.
5- يحمص فيها البن.

الفصل السابع

مائدة من الجراد المشويّ

توقف برطم بعد الحديث عن الزراعة والعلوب والقهوة وتثاءب وتثاءبنا معه، وكأنه وجه إلينا رسالة بالنوم.

قال العمّ سليمان: **يا بوك تعبنا من هذه امهاري**.

كان يومنا طويلاً وغداً سيكون أطول وأصعب في سلسلة الجبال البركانية السوداء، وعبر الطرق الوعرة الملتوية، فكان علينا أن ننام. وعند الصباح استيقظنا على أصوات السيارات، فتيممنا لعدم وجود الماء وصلينا صلاة الفجر وغادرنا جربة الوبري.

الطريق ينحدر إلى الأسفل وكلما اتجه البصر إلى الأسفل ازداد الطريق انحداراً. طريق صعب متعرج، تتقاذفنا خلاله الصخور والحجارة السوداء، حتى إن حذائي تمزق على هذه الصخور الحادة. كنا نهبط وسط الصخور السوداء البركانية التي تحيط بنا من كل مكان، وكانت هي المشهد الوحيد الذي يحيط بنا من كل الاتجاهات، نتوتر ونحسّ بالتعب ونبحث عن مكان نرتاح فيه، فلا نجد مكاناً نستظل به من حرارة الشمس التي ترتفع فوقنا وتشوي أجسامنا. ولم يكن أمامنا وسط حرارة الشمس التي كانت تحرقنا بسخاء إلا أن نواصل السير، وأن نشرب بحرص كلما شعرنا بالظمأ ونركب الجمال هرباً من حرارة الأرض والشمس، واضعين على رؤوسنا عمائم تحمينا من حرارة الشمس وتستظلّ تحتها.

المحطة الرابعة

بعد جهد جهيد، ويوم قاسٍ طويل، وصلنا وقد بلغ بنا التعب أشده إلى

«السملول»، حيث قررنا أن نبيت ليلتنا في هذه المحطة الرابعة. قابلنا عند المغيب سيارات قادمة من دثينة في طريقها إلى شقرة وعدن. وقد دعاني البعض ممن عرفوني إلى أن أصعد معهم إلى السيارة، لكني رفضت هذا العرض المغري برغم كل ما أحسّ به من تعب، وفضلت أن أواصل رحلتي مع رفاق الرحلة مهما كان فيها من مشاقّ وتعب. كان من بين ركاب السيارة الذين عرفتهم الشيخ علي محمد بن علي شيخ الذي ينتمي إلى منطقتنا ذاتها وقريتنا امفرعة، وهو رجل قصير سمين يملك معصرة للزيت ودكاناً صغيراً للتجارة أسفل منزله. وأذكر أنه كان يجلس في محله على صندوق خشبي هو كرسيه وخزينته التي يضع فيها ريالات (ماريا تريزا).

كان الشيخ علي يقف خلف ميزان معلق إلى سقف الدكان وأمامه قطع من الحديد (الأوزان) المختلفة كالفراسلة والنصف والربع فراسلة والرطل، والأوزان الأقل حتى الأوقية ونصف الأوقية. وكان الدكان مستودعاً فيه كل شيء من الدقيق والسكر والشاي والبُن إلى البصل والثوم وعلب الطماطم (الصلصة) والسمن، وحتى الملابس، وما تتزين به المرأة من أقراط، وحتى الذخيرة والبنادق.

وكان الرجل ظريفاً ويحب المزاح ويعشق النكتة، ويعجبه سماع القصص، خاصة تلك التي تميل إلى الخرافة أو المغامرة. وكان مخزون دكانه من البضائع يكفي لشهر أو شهرين، يتوجه بعدها إلى عدن لشراء متطلبات القرية التي لا ينافسه فيها إلا دكان جديد لأهل فرحان. وكانت عبارته المشهورة التي دائماً ما كان يرددها عندما يسأله الزبائن السؤال التقليدي: ماذا لديك؟ هو القول: عندي كل شي، كل شي وتمر. كان التمر في تلك الأيام فاكهة الناس وحلواهم، وخاصة التمر «الحجري» (نسبة إلى وادي حجر بحضرموت) في رمضان.

وكما سبق أن أسلفت، فقد رفضت عرض ركاب تلك السيارة بالصعود معهم، ومواصلة ما بقي من الرحلة على ظهرها، وعوضاً عن ذلك طلبت منهم أن يعطونا بعض الماء وبعض الأكل. وكانت السيارة قد توقفت في ذلك المكان ليتسلّم سائقها الأجرة من المسافرين. والسائق يعرف أن الراكب سيدفع له أجرته رغم أنفه، كما يقال، وإلا تركه لمصيره في هذا المكان المقفر. ويجمع الأجرة من الركاب صبي صغير يسمونه «الجريش بوي» أو

معاون السائق. وعادة تجد هؤلاء الركاب محشورين على ظهر هذه السيارات العتيقة، وهم واقفون ومُمسكون بأيديهم بودي السيارة لأنه لا يوجد مكان للجلوس، والمكان الذي يوجد فيه كرسي للجلوس يقع إلى جانب السائق في مقدمة السيارة ويتسع فقط لاثنين أو ثلاثة، وكانت أبوابه الأمامية حينها مفتوحة. ومع ذلك تجدهم مفعمين بالمرح والفرح لأنهم سيذهبون إلى بندر عدن التي كان الشعراء يتغنون بها، ومنهم المواطنون من شمال اليمن:

«يا ليت عدن مسير يوم شا سير به ليلة ما شرقد النوم».

وكذلك قالوا:

عدن عدن لك بحر تغرقي به
يا من دخل لك نسي حبيبه

الجراد آفة الزراعة ... وآفة الجراد اليمنيون

مع حلول الظلام شاهدنا أسراب الجراد[1] تهبط من السماء لنلتقي معها على صخور هذه الجبال السوداء، وشاهدنا الجراد وهو يحطّ على بعض الأعشاب الصغيرة والصخور السوداء. ورأيت أسارير بعض رفاق الرحلة تنفرج، وهم يستعدون لاصطياد أسراب الجراد التي اضطرت إلى المبيت في هذه الجبال مثلما اضطررنا نحن، وبدأوا يجمعونه بكميات كبيرة، وكأنه هبة الله ساقها لهم في الوقت المناسب، كما قال البعض منهم. دبَّ في البقعة الهادئة نشاط عجيب. النار والمشاوي من الجراد، والشاي والقهوة والمداعة والقرم وغير ذلك من الأشياء التي تعودناها منذ بداية رحلتنا. لكن الجراد هو الوافد الجديد إلى مائدتنا وسهرتنا في هذه الليلة السعيدة، فكان لحمنا وشحمنا في هذه الأمسية التي طاب لنا فيها الأكل والسمر. ومن المعروف أن أسراب الجراد كانت تدمر المزروعات، ولم يكن لدى المزارعين من الوسائل لمكافحتها سوى الدخان المتصاعد من حرق الحطب والأشجار، وقرع الطبول حتى لا يستطيع الجراد الهبوط والتهام محاصيلهم.

1- آفة الزراعة الجراد وآفة الجراد اليمنيين الذين يأكلونه.

قصة اليمنيين مع الجراد

يقال إن الجراد آفة الزراعة في بعض البلدان، وآفة الجراد اليمنيون، حيث ينتظرون وصوله إلى أراضيهم بشغف ، ولا يدخرون جهداً من أجل الحصول على أكبر قدر منه، فهم يصطادونه ويشوونه وأحياناً يغلونه ليخزِّنوه ويأكلوه لفترات طويلة كالجمبري لدى سكان الساحل. وأحياناً يُعرَض الجراد المجفف في الأسواق لبيعه كأيّ سلعة، ولهم في ذلك عادات وتقاليد، وفنون طهي أيضاً وبسبب الجراد مات بعض الناس عند خروجهم ليلاً لصيده وجمعه بسبب لدغات الأفاعي السامة. فقد جرت العادة في الأرياف حين يعلم أحدهم بالمكان الذي توجهت إليه أسراب الجراد أن يخبر باقي عشيرته وأهله، فيجهز الأهالي الفوانيس والشوالات الفارغة، وتنطلق إلى مكان نزول الجراد، وتحرص أغلب الأسر على المشاركة بأكبر عدد ممكن من أفرادها – رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً – فيسيرون في موكب احتفالي حاملين الفوانيس معهم، حتى إذا بلغوا المكان فتحوا شوالاتهم، وباشروا بصيد الجراد بأكفهم ليعودوا بعد ساعات محمَّلين به، فتتولى النساء في اليوم التالي تجهيزه للأكل[1].

97 – دست الجراد

وبعد هذا الحديث عن الجراد أذكر أنني كنت في صنعاء برفقة الرئيس علي عبد الله صالح الذي كان يقود بنفسه وخلفه رتل من السيارات، وعندما

1– الجراد يرعب العالم. ويرعبه اليمنيون «**الأيام**» 1/ 9/ 2007 أمجد عبداللاه باحشوان.

شاهد مكاننا لبيع الجراد توقف وأمر بشراء شوالين من الجراد، وانتقلنا إلى دار الرئاسة وافترشنا الأرض، وأُفرِغ الشوالان من الجراد على بطانيات خاصة، وشكلنا حلقات حول الجراد لنأكله والناس يضحكون وعلي عبد الله صالح يردد: هذا هو الجمبري المشوي.

98–99 – الجراد وقد جُمع في الشوالات

الجراد يرعب العالم. ويرعبه اليمنيون حيث إن اليمنيين كانوا يعتقدون أن الجراد علاج لكل داء، للنظر والسكر ومرض القلب ولكل شيء. لذا، قرر اليمنيون أن الجراد جدير بالأكل وليس بالرعب والخوف، وأن الجراد يتغذى بأفضل أنواع النباتات، والتهامه يوفّر لآكله مادة البروتين.

بناء الحصون والقلاع في دثينة

هذه الليلة حدثنا أحمد مسعود برطم عن البناء في دثينة، وقد نقلنا من مشهد الزراعة إلى مشهد البناء، ولعل حجارة هذا الجبل السوداء هي التي أوحت إليه بحديث كهذا. قال أحمد مسعود:

المساكن في هذه المنطقة أقرب ما تكون إلى القلاع العسكرية التي لا مكان فيها للنوافذ، إلا فتحات صغيرة يمكن منها مشاهدة القادمين، سواء كانوا من الأعداء أو الأصدقاء. وهي فتحات صغيرة بالكاد تكفي لإدخال ماسورة البندقية وإطلاق النار على العدو منها. وعادة ما تكون البنادق بدائية لا تكفي لإرداء الخصم قتيلاً، ولا يصيبه رصاصها إلا في بعض الأحيان،

وخاصة بندق أبو فتيلة[1] وهو من الأسلحة التي صنعت في القرن التاسع عشر.

وكثيراً ما يلجأ المرء إلى استخدام السلاح الأبيض للإجهاز على عدوه خارج هذه المنازل – القلاع أو على أبوابها.

أما العدو، فمن الصعب عليه اصطياد خصمه عبر هذه النوافذ الصغيرة، ولهذا يلجأ الخصوم إلى وضع الكمائن في الطرقات بين القرى، أو في الطريق إلى المسجد، أثناء السير إلى عدن سيراً على الأقدام.

100 – بناء القصور في يافع ليس بالعمل السهل، فهو يحتاج أولاً إلى المال الوافر وإلى الجهد الشاق وقد تستمر عملية البناء وقتاً طويلاً حتى نشاهد هذا البنيان شامخاً في كبد السماء. وهذا البناء ليس له علاقة بآل ابن صلاح، بل هو امتداد للخبرات التي تكدست عبر السنين في فن البناء والعمارة اليافعية

وتُبنى هذه البيوت من الحجارة، يبنيها بنّاؤون معروفون في هذه المنطقة، كابن فرج وآل ابن صلاح، يأتون من يافع، وهم أكثر البنائين خبرة ومهارة في

1- بندق أبو فتيلة: يقول في هذا الشأن أحد حكماء اليمن، وأظنه الحميد بن منصور، عن هذا السلاح العتيق إنه كان أرحم بالناس من الأسلحة السريعة التي جاءت بعده. لأنه كان يتيح للإنسان قبل تصويبه وإشعال الفتيل وانتظار احتراق البارود وانطلاق الرصاصة فسحة للتفكير قبل ارتكاب القتل، وقد يعود إلى جادة الصواب ويقلع عن قرار القتل، وبالتالي فإنه أرحم بكثير من أسلحة القتل الحديثة التي تقتل في غمضة عين!

بناء مثل هذه الحصون والقلاع. وكذلك ابن مطعم، وابن القمع، وفي ذاكرتي بعض ملامح حياتي الأولى، فما زلت أذكر المنزل الذي كنا نعيش فيه.

101 – حصن الجد محمد سليمان

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل[1]

صورة العائلة الوالد وأخوتي

1– أبو تمام.

كان يسمى الحُصن، وهو مكون من أربعة أدوار. الدور الأرضي، ويحتوي على غرفة كبيرة واسعة تسمى «السوق» أو (مقدم) وسُميت «السوق» لأنها المكان الذي تدوسه أقدام الساكنين والـزوار خلال طلوعهم ونزولهم من الحصن وإليه، ما يجعله أشبه ما يكون بالسوق من كثر تزاحم الأقدام. وبجانب السوق هناك غرفة أخرى (ديمة)، وهي مستودع محكم البناء ليس فيه منافذ إلا عبر باب واحد يفضي إلى السوق وبجانبهما القطب المخصص لخزن الحبوب، ولا يفتح إلا عند الضرورة والحاجة، فبابه صغير جداً لا يتسع إلا لدخول الأطفال أو ذوي الأحجام الصغيرة. أما الدوران الأول والثاني، فقد كانا مخصصين للنوم. ويحتوي كل دور على غرفتين للمنامة، واحدة كبيرة وأخرى أصغر. وفي الدور الأول غرفتان، الأولى كبيرة تسمى المفرش الأسفل، وبجانبها غرفة تتبعها تسمى خلوة، وفي الدور الثاني المفرش الأعلى وبجانبه خلوة، وفي الدور الثالث غرفة خاصة بالوالد تسمى القفلة، وأمامها سطح كبير يسمى الجب، وهو الذي نجلس ونسهر فيه كل مساء على ضوء القمر أو على ضوء الفانوس فيما بعد، وذلك قبل وصول الكهرباء.

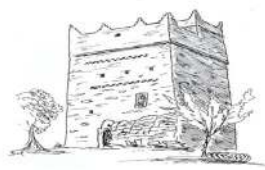

حصن الوالد ناصر محمد وملاحقه التي كانت تبنى لأولاده التسعة، وكلما كبر أحدهم أو تزوج تبنى له غرفة مجاورة للغرف الأخرى، ويخدم هذه الأسرة مطبخ واحد، وهم يجتمعون، كبارهم وصغارهم، رجالهم ونساؤهم، على مائدة واحدة إذا اتسعت لهم حينها، أما اليوم، فلكل زوج وزوجة مسكنهما الخاص.

كنا نتوزع في السكن بين هذه الأدوار. وكانت (الخلوة) مخصصة لوالدي، وكانت فيها نافذة واحدة صغيرة بحرية ينام تحتها. وكانت نوافذ بيتنا

– الحصن – صغيرة جداً لا تكاد تسمح بدخول الهواء بسبب حروبنا مع أهل ناصر حسين وأهل زامك وأهل طيحل وغيرهم.

105 – الفانوس

وكان حصننا كغيره من بيوت المنطقة مبنياً على الطراز ذاته (طراز الحصون أو القلاع) حتى يتناسب مع البيئة التي تكثر فيها الحروب القبلية، ويطلق على هذه المنازل «الحصون». ويبدو أن التسمية لها علاقة بتحصين السكان من الأعداء. وأحياناً تبنى قلاع على الجبال، وعلى سبيل المثال، قريتنا «امفرعة» تطلّ عليها قلعة تسمى «القاهرة» وهي بناء مدور ويطلق عليها الأهالي «خلوة القاهرة». كانت هذه «النوبة» (القلعة) أعجوبة في هندسة البناء، ولا يوجد مثيل لها في أسلوب البناء، فهي بطراز بنائها الدائري المحكم الاستدارة وسقفها المتكون من صخور مفلطحة طويلة استعيض بها عن الأخشاب، تدلّ على أي مدى من المهارة بلغها بناة القلعة، ويمتاز بناؤها بالقوة والصلابة، والحجارة المستخدمة في البناء مرصوفة بطريقة محكمة ومتداخلة تمنح جدرانها القوة التي تحميها من الرياح والأمطار وعاديات الزمن.

أما أهم شيء يميز هذه القلعة، فهو تاريخ بنائها، إذ لا يعرف أحدٌ متى بُنيت ومن بناها، ولكن الأرجح أن تكون قد بُنيت في عهد الدولة الأوسانية في الفترة نفسها التي حُفرت فيها بئر «عماصير» التي سبق ذكرها. وتقابل «خلوة» القاهرة خلوة أخرى اسمها «المنقاش» وتطل على قرية «امقوز» وتراقب الحركة من امقوز إلى جمعان – أهل زامك.

106 – قلعة القاهرة

107 – نوبة المنقاش

وفي مقابل هذه القلاع التابعة لأهل محكل، هناك قلعة لأهل ناصر حسين تُسمّى طير الهواء. ويبدو أن التسمية لها علاقة بارتفاعها وعلوها حيث يشبّهونها بطائر يحلّق في السماء. وهذه القلعة هي نقطة مراقبة لأهل ناصر حسين وأهل زامك المتحالفين معهم في معاركهم القبلية ضد أهل باجعم وأهل محكل.

ويوقظني من تلك الذكريات أحمد مسعود برطم، وهو يقول مواصلاً ما بدأه من حديث عن البناء في دثينة:

إن أروع ما في عملية البناء في دثينة روح التعاون التي تسود بين الأهالي في مثل هذه المناسبات، وذبح الذبائح في كل مرحلة من مراحل البناء. فعند بداية البناء الذي يرسمه البنّاء على الأرض (الخريطة) يبدأ تجميع الحجارة

من المنقاش، وعند وضع الحجر الأول تذبح الذبيحة الأولى، وعند وضع «المردم»، أي عتبة الباب تذبح ذبيحة أخرى يظل دمها لفترة طويلة على هذا الحجر الطويل، حتى يغسله المطر أو يمحوه الزمان.

وعندما يوضع السقف الذي يكون من خشب الصرح أو العلب الذي تُرصّ عليه في خطوط متلاصقة أعواد شجرة المضاض الصلبة، يوضع الطين المعجون بالماء على السقف، وتسمى هذه العملية «اللبان» حيث يبدأ الناس بالتجمع عقب صلاة الجمعة للاشتراك في هذه العملية التي يتداولون فيها كرات الطين المعجون بالماء (الخلب) من يد إلى يد، وهم ينشدون «**يا لبينوه**».. «**يا لبينوه**».. **ويردد الآخرون «يا لبينوه»**[1]. **ويقولون: «يا لبين البن منهو لبن؟ موسى وابنه هذف اماضور في خرق ابنه»**، وينقلون الخلب (الطين) حتى يصل إلى البنّاء الذي يقف على سطح المنزل ويرمي كرات الطين على سطح المنزل حتى يغطيه بشكل كامل. ويقوم الناس بهذا العمل وهم جميعاً في حالة من الفرح والنشوة بإنجاز البناء نهائياً.

108 – رجل يعجن الطين بالتبن ليصنع منه ما نسميه بالخلب للمنازل

وعندئذ تذبح الذبائح، ويحضر المشاركون إلى وليمة العشاء التي تقام بهذه المناسبة، ويتناول الجميع لحوم الأغنام المذبوحة ويتبادلون التهاني بإنجاز البناء.

1– ومن الكلمات التي يرددها البناؤون: أربعة «شلوا» (حملوا) جمل والجمل ما شلهم، وما عيش إلا تلحي والحطب والماء عليه.

وبعد أن يستكمل البناء يوضَع ما يسمونه الشرانيف في كل ركن من أركان البيت، وهو حجر طويل أبيض، وتوضع في أركان الحصن مسامير حديدية لمنع الصواعق.

ويطلي البعض الجدران الخارجية للحصون والبيوت بطبقة من الطين «المخلوط بالضفع»[1] لحمايتها من الأمطار، وتسمى هذه العملية «بالمحاضة». وهناك أناس متخصصون بهذا العمل يجري تعليقهم على الجدران الخارجية للحصون لمحضها (طلائها بالطين). ومن طريف ما رواه لنا أحمد مسعود عن هذا الموضوع، أن الناس يتندرون على أحد المواطنين في المنطقة، الذي اتفق مع أحد العمال المتخصصين على محض حصنه، وعندما بدأ العمل من أعلى الحصن طلب من صاحب الحصن أن يربط حبال السقالة التي يقف عليها أثناء العمل بأي شيء ثابت حتى لا يقع من أعلى الحصن، لكن صاحب الحصن طمأنه بأنه سيمسك الحبل بيديه، وأن عليه ألّا يقلق، ونزل العامل المسكين من أعلى الحصن متدلياً بالحبل الذي يمسكه صاحب الحصن وما إن بدأ العمل حتى تعبت يدا صاحب الحصن، فقال للعامل:

« شف يدي تعبت، وباطلق لك ألا انتبه على عمرك والله معك».

وأطلق الحبل من يده وسقط الظاهري على الأرض ومات. وأصبح الناس يتندرون على هذا الشخص وقبيلته ويقولون لمن يتخلون عنهم «**شوف يده عرقت**»، وهذا عيب في شرع القبائل.

وعادة يقوم بهذا العمل أناس يأتون من الظاهر، ويعرف واحدهم بالظاهري، وهم يأتون من البيضاء أو مرتفعات مكيراس.

قبل الطلقة الثالثة!

بعد أن سرد أحمد مسعود هذه الحادثة، واصل حديثه، لكن هذه المرة عن عادات الناس خلال الموت والوفاة، وقال: جرت العادة أنه عندما يموت شخص يُرسَل من يخبر أهله وأصحابه في المناطق المختلفة بموته، وإذا كانت الوفاة في قرية أو جبل أو منطقة منعزلة، فمن المتعارف عليه إطلاق

1- روث الأبقار.

طلقتي رصاص حتى يعرف الناس أن حدثاً ما وقع، وعندما يحاول شخص أن يصطاد حيواناً برياً أو يقنص وحشاً، أو أن يمارس هواية الرمي على «الأنصاع» (أهداف من الحجارة البيضاء)، فإنه إذا أطلق طلقتين لا بدّ أن يطلق الرصاصة الثالثة حتى لا يثير القلق لدى مَن حواليه من الناس.

وبالنسبة إلى المتوفي، فإنه يُغسَّل ويُكفَّن بالقماش الأبيض، ثم يؤخَذ إلى المسجد ليصلي عليه الناس صلاة الجنازة، ثم يُشيَّع إلى المقبرة بحضور عدد كبير من الناس، حسب مكانته.

وفي اليوم الأول: يُذبَح رأس أو أكثرمن الغنم، ويسمونه «النسمة». بعد ذلك يتوافد الناس بعد صلاة العشاء لمواساة أهل الميت ويقدمون التعازي.

اليوم الثاني: يذبح أهل الميت عدداً من الأغنام ويدعون الجيران إلى حضور العشاء.

اليوم الثالث: ويسمونه «الختم» حيث تكون الضيافة عامة لجميع الناس، ويخرج الناس من المسجد بعد صلاة العصر، بعد أن يكونوا قد قرأوا القرآن ورددوا الأذكار والأدعية الدينية، ودعوا للميت بالرحمة من الله، ويتناولون وجبة من اللحوم والخبز. و إذا مات المتزوج، فإن زوجته لا تترك بيت زوجها لحظة واحدة وتبقى فيه لمدة أربعين يوماً دون أن يسمح لها بمقابلة الرجال أو أداء أي خدمة حتى تنتهي عدتها.

وعندما يأتي عدد كبير من الناس لتقديم العزاء لآل المتوفي، يتوزع سكان القرية الضيوف في بيوتهم لتخفيف العبء على أهل المتوفى الذين ينشغلون باستقبال المعزين من نساء ورجال. وهناك عادات العويل عند النساء بعد الموت، فعندما تدخل امرأة لتقديم العزاء تصيح وتبكي وتشاركها باقي النساء في الندب والعويل.

وقبل عيد الأضحى تذبح الخرفان على روح الأموات حسب العادة المتبعة.

فدية البحر

مع نسمات الليل والهواء العليل، بدأ النوم يداعب أجفاننا المتعبة إثر يوم آخر شاق وطويل، وبعد سهرة ممتعة مع رفاق الرحلة وحكاياتهم،

ومع طنين الجراد وموجاته النائمة على صخور الجبل نمنا نوماً هادئاً حتى مطلع الفجر.

عند الفجر ومع مطلع الشمس، بدأ ما بقي من أسراب الجراد ينتفض، ويقلع مرة أخرى نحو السماء فيحجب عنا ضوء الشمس.

وفي الوقت الذي أقلع فيه الجراد بأجنحته إلى الفضاء الفسيح، أقلعنا بجمالنا براً، «وكل في فلك يسبحون». كان علينا أن نتحرك سريعاً ونواصل طريقنا المنحدر إلى أسفل جبل العرقوب، وما إن أخذنا بعبور سلسلة الجبال، حتى بدأنا نشاهد البحر لأول مرة منذ أن بدأنا رحلتنا الشاقة هذه. وأخذت أمواج البحر تظهر وتختفي وهي تتكسر على شواطئ «شقرة» التي كان يصعب مشاهدتها من ذلك المكان البعيد.

ومن الطقوس المعتادة أن يستعد الشخص الذي يشاهد البحر لأول مرة لتقديم فدية[1] يفتدي بها نفسه، وهي عبارة عن سمسم ودخن يوزَّعان على قوافل المسافرين. ويكون إعدادها قبل السفر للذين يسافرون لأول مرة. وما لم يقدم المسافر الجديد هذه الفدية عند رؤيته للبحر للمرة الأولى في حياته، فإن رفاقه في الرحلة يمثلون دور التيوس، فيصرخون ويزمجرون (يعبّون) كما (تعبّ) التيوس على الغنم في موسم الإخصاب، ويبدأون بالضحك والصراخ والمزاح على الشخص المعني حتى توزَّع الفدية على المسافرين. وبعد أن يقدم الفدية يطلبون إلى البحر ألا يهاجمه. ويصدق المسكين أن البحر الذي يراه لأول مرة في حياته بكل ما له من سحر عميق وجلال ومهابة سيهاجمه فعلاً، وهو على ذلك البعد. ولإلقاء المزيد من الروع في نفسه، يقولون له إن البحر كان سيهاجمه لولا أن الرسول (ص) يمسك بخطامه، ويصورون البحر وكأنه جمل هائج[2]. لكن الخوف من البحر يبدأ في التلاشي تدريجاً من قلب المسافر الجديد، خاصة بعد تقديمه الفدية، وجوّ الهرج والمرح

1- وتسمى القلمة، ويستخدمها أيضاً المسافرون غذاءً لا يفسد طول أسابيع وأشهر.

2- وفي لحج كان البعض يركبون السيارة المتجهة إلى بلاد السركال عدن، ويطلبون من الأطفال الراكبين الذين يزورون عدن لأول مرة على سبيل المزاح والنكتة أن ينهقوا كالحمير كي يسمح لهم العسكري الواقف في مدخل الشيخ عثمان (نمبر6) بالدخول إلى عدن.

الذي يصاحب هذه العملية. وأذكر أنني كنت أخاف الاقتراب من البحر لأمد طويل، وحدثني أحد الأصدقاء، وهو الأخ محمد علي أحمد، أنه عندما رأى البحر لأول مرة هرب إلى جبل العرقوب، ورغم كل المحاولات التي بذلها رفاقه للحاق به وإعادته إلى القافلة، إلا أنه تمكن من الهرب وعاد إلى منطقته في (امشعة) خوفاً من البحر. وكان يعتقد عن حق أن البحر سيلحق به إلى الجبل. وأذكر حديثاً للمرحوم القاضي الشماحي[1] فيما بعد إذ قال لي: «لقد انبهرت من شيئين في حياتي: من البحر، ومن أمواج الحجاج حول الكعبة باللباس الأبيض. وهذا ما لن أنساه ما حييت».

1- صاحب كتاب **اليمن الانسان والحضارة**.

الفصل الثامن

آل الظهر وبـيت البسم

بعد هذا الحديث عن الزراعة والجفاف والمجاعة في دثينة وغير ذلك من الموضوعات، انتقل بنا العمّ سليمان فجأة إلى الحديث عن الشيخ محمد سعيد الظهر الذي وصل إلى مودية من عدن بعد غيبة طالت مدة من الزمن، ربما أوحى له بذلك اقترابنا من عدن وسهولة المسير على شاطئ البحر. وفي ليلة سمرنا تلك جرت أحاديث طريفة وممتعة في الخلاء الرحب الملطف بنسيم البحر تحت النجوم وعلى ضوء القمر وصوت قرقرة الرشبة (الشيشة) التي كان ينفخ أنفاسها عمنا سليمان بمتعة ويحرك قصبتها بنعومة ويسوي الجمر بالملقاط فوق التمباك في البوري الصغير بدقة متناهية. كان يفعل ذلك وكأنه يلاعب محبوبته بوله ودلال.

هذا العم سليمان، أسطوري الملامح والطباع. كأنه خرج من وسط صفحات كتب التراث وحكايات الزمن الطيب القديم. كأنه ولد فجأة وخرج إلى الدنيا وكبر فجأة، وظهر على الناس للمرة الأولى وهو يمسك بالرشبة والبوري المليء بالتمباك المرصَّع بجمر النار. يعبّ أنفاسها ويسعل. هكذا هو العمّ سليمان. ولا يمكن إلا أن يكون هكذا. لذلك، فقد كان على الدوام عميقاً وطيباً وهادئاً ومحبوباً.

سأل العمّ سليمان مفتتحاً حديثه بسعلته المعهودة التي اكتسبها من التدخين:

- شي سمعتوا على ابن الظهر ذي جاء من عدن؟

أجبنا كلنا بإجماع من يستحثه على الحديث ورواية التفاصيل:

– لا والله ما سمعنا شي. خير؟

استحسن دهشتنا ونظر إلينا بفرح، فقلت له: ماذلحين خذ راحتك في الكلام يا عمّ سليمان بعدما وفيت في كلامك أنت وبرطم عن الزراعة وشؤونها وشجونها.

قال العمّ سليمان وهو «متسلطن» من مزاج رشبته وتبغها «الحممي» (أفضل أنواع التبغ المزروع في وادي غيل باوزير بحضرموت)، محاولاً أن يشدّنا أكثر إلى حديثه الذي حاول أن يبدأه من قبل عن الشيخ محمد سعيد الظهر وأمواله، ثم قاطعته لكي يستكمل الحديث عن الزراعة، وكأني به يحاول بدافع الانتقام المماطلة والتسويف واستكمال آخر ما عنده بشأن الزراعة والجفاف والمجاعة، فامتثلنا لرغبته. وعندئذ نفخ عمّي سليمان البوري مرة أخرى للتأكد من النار والتمباك وتطاير بعض الشرر والرماد وهو يسحب أنفاساً عميقة من دخان رشبته، وقال: يا بوك مرّ علينا زمان ما شي أعسر منه، الأرض جدّبت والحبوب اختفت من المدافن والناس بها جوع عسر. والله إن الناس كانت تفرح لما يموت أو يتزوج واحد من شأن تأكل لحم وخاصة امعواقب امصغار. وقد تشاعروا[1] عبد القادر بن شائع[2] ومدير المالية في مودية عبد الله سعيد عباد والناس مهذورين جياع وحالتهم حالة، وكان هذا في شهر رمضان الفضيل.

قال بن شايع:

باعباد فك المالية واندي الرعية
يصلحون الطين لما تمتلي الأخزان
حبوا وارحموا وألا رعوا الحالة خلية
لا تخلون الرعية والبلد تهتان
لا حنّ المطر با تمسي الحالة سلية
با نخلي حبكم والرطل والميزان

1- أتشاعروا: تباروا في الشعر.
2- عبد القادر بن شائع أصبح حاكماً لولاية دثينة.

وردّ عليه الشاعر عبد الله سعيد با عباد مدير المالية بجمهورية دثينة قائلاً:

سلَّفنا وديـنّـا ولا حـد رد الـديـن ليّـه
لا مـن التعلوق والحيمر ولـمـا الآن
عبد الله حسن طـرّب على طيبة ونية
يـرحـمـون الـنـاس هـذا شهرنا رمضان
بـا قـرضـة على التجار وأبـلاهـم بليـة
ما نقص وفـاه بيت المال على البدوان

أكمل العم سليمان حديثه بعدما شعر بأنه أشفى غليله واستراح، وعاد إلى سيرته الأولى ومرحه، فسحب المزيد من الأنفاس من الرشبة وهو يتساءل:

- أيوه. لا وين وصلنا؟؟

فأجبناه عن سؤاله.

وقال: إي والله. صحيح. وبعد صمت قصير تذكر أين انقطع الحديث، لكنه كرر سؤاله لمزيد من التشويق قائلاً: شي سمعتوا عن ابن الظهر الذي جاء من عدن[1]؟

قلنا مرة أخرى: لا والله ما سمعنا عنه شي؟

قال وهو ينفث أنفاس الرشبة: اسمه محمد سعيد الظهر، وهو من أهل فرج من الميامر، وهم من أول الناس دي سكنوا عدن، ولهم فيها بيوت وحوافي مسماة باسمهم، ويقولون إنهم كانوا شركاء مع الفرنجي دي يسموه البس «Abiss»، وإن بعضهم ركبوا البحور وسافروا للحبشة والصومال، ومعاهم جيريش (جاراج) فيه سيارات كبيرة وصغيرة في عدن معروف عند الناس وجابوا من عيال المنطقة وعلموهم الدرولة (السواقة) وصلّاح السيارات منشان ينفعوا أعمارهم. ويقال إن أول من ساق السيارات في عدن عام 1924م كان علي ناصر محمد الظهر وامهيثمي سالم وهو يملك رخصة قيادة صدرت بنفس التاريخ.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن أهل الظهر الأوائل قد اشتغلوا في نقل البضائع

1- المعروف بين الناس بمحمد سعيد الظهر.

من ميناء صيرة في كريتر- عدن إلى داخل المدينة وإلى المناطق المجاورة على ظهور الجمال و«جواري» (عربات) تجرها الثيران، وآخرهم كان الشيخ سعيد هيثم الظهر وأحمد ناصر الظهر اللذين ورثا الصنعة عن والديهما هيثم محمد الظهر وناصر محمد الظهر. وفي عهد سعيد هيثم وأحمد ناصر الظهر استوَردَ «الخواجة بس» «Abiss» سيارات تسير على جنازير شبيهة بالدبابات، لتزاحم أصحاب وسائل النقل القديمة من جمال وحمير وبغال، ولكن الناس، وخاصة تجار عدن الذين تعاملوا مع زبائنهم القدامى - سعيد هيثم الظهر وأحمد ناصر الظهر بعد آبائهم رفضوا التعامل مع وسائل البس الحديثة والمخيفة بالنسبة إليهم، حيث كانت الشوارع ضيقة ولا تتسع لتلك السيارات المتخلفة تقنياً. وعندما رأى البس أنه فشل في مشروعه للنقل الحديث، لجأ إلى حيلة تكوين شركة مع أهل الظهر[1]، بحيث يقدم هو السيارات ويقدم أهل الظهر قيمة البقر والجمال التي كانت تنقل البضائع، حيث تُباع لإدارة التموين في الجيش البريطاني لتذبح وتقدم وجبات للجنود.

109 – أنتوني البس وزوجته

وفعلاً كتبوا وثيقة عقد شراكة بين البس (A. BESSE) وأهل الظهر، واشترط البس أن يكون الوكيل الذي يمثلهم الحاج أحمد ناصر الظهر، واشترط ألّا يتدخل سعيد هيثم في عمل الشركة بحجة أنه رجل سريع الغضب ولا يحبذ التعامل معه.

1- ويقال إنهم مقادمة في شركة البس، وليس شركاء، ويقال إن أول دلال رسمي لبيت البس هو محمد عمر جرجرة الشيبة وعبد الله ناصر البيضاني وأحمد عبد الله ناصر الشيبة.

وبعد التخلص من الحيوانات العاملة كقوة نقل، وضمّ العاملين عليها إلى شركة النقل الجديدة بينه وبين أهل الظهر، ابتكر البس حيلة قانون الضرائب. وقال لهم إن قانون الضرائب الجديد في مستعمرة عدن يأخذ نسبة تصل إلى 90 % من أرباح الشركات العاملة في المستعمرة، ولذلك فإنه يقترح أن يخفي موضوع الشركة هذه، وأن يحتفظ بالعقد لديه حتى لا يضيع على الحاج أحمد ناصر، وحلف لهم على رأس أولاده أن يدفع لهم حقهم كل سنة من الأرباح إضافة إلى الأجور اليومية للعمال. الخلاصة أنه حَوَّلَ أهل الظهر إلى موظفين لديه بنسبة ضئيلة يدفعها لهم في العام، وضيَّع عقد الشركة الذي كان بينهم، مستغلاً جهلهم بالمعاملات التجارية. وبهذا تسلّم أهل ناصر محمد الظهر أسطول النقل بالسيارات كمقاولين بالعمولة، لأن سعيد الظهر اضطر إلى مغادرة عدن بعد قضية دُبِّرَت له. حيث وضع عنده أحد تجار الحُدَيدة، ويدعى علي عيد، مبلغ ألف جنيه ذهباً للحفظ. لكن سعيد هيثم أخبره بأنه لا يملك خزنة ولكنه اقترح عليه أن يضعها له عند صديقه محمد عبد الله الجبلي الذي كان يملك عدة جوارٍ (عربات) خيل، وهي وسيلة المواصلات في المدينة في ذلك الحين، وذلك في الثلاثينيات من القرن الماضي، وبعد أن غرقت مراكب علي عيد في البحر، وأعلن إفلاسه، طلب المبلغ الذي وضعه أمانة عند سعيد هيثم، فذهب سعيد هيثم إلى محمد عبد الله الجبلي يطلب منه المبلغ، فماطله ثم أنكره، والسبب أنه لم يأخذ منه استلام ولا هو أعطى استلام للتاجر علي عيد، فلما ذهب علي عيد إلى المحكمة وأخبره القاضي الإنكليزي آنذاك بأنه يصدق سعيد هيثم بأنه لم يخن الأمانة، لكنه مضطر إلى تنفيذ القانون، لأن سعيد هيثم لا يمتلك استلاماً كتابياً بالمبلغ من الجبلي. وبسبب هذه القضية، أمر القاضي بحبس سعيد هيثم لمدة أربعة أو خمسة أشهر في سجن الدَّين، مع إلزام صاحب الشأن بدفع مصاريف السجين وأسرته. وكان سجن الدَّين يقع في منطقة مستشفى كريتر القديم، موقع شرطة كريتر الحالي بالقرب من سوق بلدية كريتر–عدن.

واستمرّ سجن سعيد هيثم، وعندما توقف التاجر المفلس أصلاً عن دفع المصاريف، أطلقت المحكمة سراحه، وتمكن بعدها من مغادرة عدن ولم يعد إليها إلا للعلاج الطبي.

وقبل أن يموت الجبلي الذي أخذ فلوس الأمانة طلب من سعيد هيثم أن يسامحه، واعترف بأنه أخذ الفلوس وبنى بها حارة في الشيخ عثمان كانت تسمى «حافة القحاب»[1].

وقال العمّ سليمان: أصحابنا ما يصلحوا للتجارة مثل البس وامجبلي، وهم على نياتهم، وقد عاب فيهم البس وامجبلي عاب الله فيهم. وشاهدته وهو ينفخ البوري وهو زعلان على أهل الظهر.

وأضاف: يقولون إن محمد سعيد الظهر جاب معه فلوس كثير وإنه يوزع كل جمعة أكل للفقراء والمحتاجين، وإنه أتى بهذه الأموال من الحبشة وجيبوتي ومن بيت البسم[2] في عدن.

سأل برطم: ايش من بسم؟

قال العمّ سليمان: والله ما نا داري ليش سموه هكذا: البس. أنا أقول أنه من «آسام» (أسماء) النصارى!

قلنا له: أيش دخلنا فيه بس ولا بسم المهم أيش با يعمل بهذه «اللكوك»[3] والأموال دي معه.

قال: شي سمعتوا أيش قال بر رامي على سعيد هيثم الظهر.

قلنا: لا. أيش قال؟

قال: قال بر رامي علي:

يـا ابـن الـظـهـر لا حولك سـا يـومـك ثنعشر سنة

(أي جعل يومك 12 سنة)

1- المرجع: الدكتور سعيد محمد سعيد هيثم. والمقصود هن بائعات الهوى وهنّ يمارسن الدعارة بطريقة رسمية، وكل واحدة منهن تحمل بطاقة ترخيص وتخضع للفحوصات الطبية أسبوعياً، وأحياناً شهرياً وتوجد حارة أخرى بكريتر. ومثل هذه الحارات توجد في بلدان أخرى في العالم، ولكن الشعب في الخمسينيات ثار على ذلك وأغلقت هذه المحلات بسبب الغضب الشعبي على مثل هذه الأعمال الاستفزازية للشعب في مستعمرة عدن.

2- كلمة (البسم) في العامية معناها القط. أما بيت البس وشركات البس فهي أكبر الشركات في عدن وأهمها، صاحبها هو (توني بس)، وهو مولود في فرنسا، وهو قنصل فخري لفرنسا. وقد مُنِح وسام فارس الإمبراطورية البريطانية عام 1951 تقديراً لخدماته في عدن.

3- اللكوك: مفردها (لك) أصلها من اللغة الهندية، ومعناها مئة ألف روبية.

ألا لا قـد لقينا امعنب ريـت امـدوم يـضـرب ذنة

(ذنة: وادي في مأرب كثير السيول والكوارث)

ألا لاحـد يصنصن بشي عـاده فـرق فـي امصنصنة

(يقصد رنين المعدن الأصيل)

وقصة هذه القصيدة أن رامي في يوم من الأيام طلب من عاقل أهل صالح أن يعطيه شيئاً من الطعام (الحَبْ) لأسرته، فرفض العاقل طلبه بسبب شحّ الطعام لديه أيام المجاعة.

عندها ذهب إلى الشيخ سعيد هيثم بن الظهر، وشكا له حاله، فأكرمه وأعطاه ما طلب من الحبوب، فقال فيه القصيدة. حتى إن الحاج سعيد هيثم عندما طال به المرض وأقعده العجز قال: أخشى أن يكون الله قد استجاب لدعوة رامي، حيث أرهقته السنون وأقعده العجز خمس عشرة سنة على سريره.

وقال: سمعت أنه بدأ يبني بيتاً ماشي أكبر الله منه اسمه منظره، وناس يقولون إنه حصن، لكنه بلا مواشق ولهوج مثل بيوتنا، وهو مثل بيوت أهل عدن. إيه، إيه ولّى زمان القبيلة. ما عاد حد خايف على نفسه بعد ما دخل أحمد السركال والضابط البريطاني فيكس دي جاء مع عبد الله حسن جعفر العجمي، وأنا سمعت أن فيكس قال ممنوع بعد الآن الثأر والقتل بين القبائل.

سأل برطم: وكيف كانوا زمان يعطون القبائل رصاص وبنادق منشان يتقاتلون حتى دمروا الناس ودخلوا الأرض والناس مسلمين لهم مثل النسوان؟

فكر العمّ سليمان قليلاً قبل أن يسأل: أيش امكلمة دي سمعتها من عسكر شبر والليوي دي قالها هادي عوض بر امسعدي وصالح أحمد الدادوحة وعامر جحلان وصالح طليلة شي تذكرونها لأنهم من أهل السياسة وامدياسة؟

قال برطم: لا والله ما ذكرتها ذكرني بها، لكني أذكر امقصيدة دي جابها فيه امشاعر امعولقي.

قال عمي سليمان: ونعم هادي عوض أيش قال فيه امعولقي؟

قال برطم: امشاعر هو من أهل علي وكانوا قادمين من بندر عدن مشي على ارجيلهم لقضاء الإجازة في قراهم وحما استندوا على امقوز قال امشاعر:

يـا امـقـوز صبحنا بهادي حـاكـم على سبعة بلاطن

(جمع كلمة باتون الإنكليزية أي فصيلة)

دي لا نهم مـن بين خوته جـاب العرب قابل وباطن

وكان هادي عوض ضابطاً كبيراً في جيش الليوي، وعند وصولهم إلى منزله أكرمهم وذبح لهم أربعة كباش كانت موجودة في بيته وبيت إخوانه، وهذه الكباش أضحية العيد وتغدوا الجماعة وروحوا كور العوالق. وأضاف: ضحكوا عليه وأكلوا كباشه.

قال عمي سليمان: لا يا برطم هادي عوض شيخ وكريم وشجاع.

عاد عمي سليمان إلى حديثه السابق عن أهل السياسة والدياسة وتساؤله السابق، فقلت له: سمعت أن النصارى عملوا للمحميات سياسة يتقاتلوا وبعدين هم يدخلوا بدون تعب مثل سياسة فرق تسد وافتن واحكم، أو فرق بينهم تسود عليهم.

قال العمّ سليمان: لا فهمتها يا برطم أخشف أذني.

قال برطم: فرق تسد أنا سمعتها من قبل، لكن هذه امهاري ما شي لي فيها. دخلوا الإنكليز برجالهم وبالهنود والبينيان والسيخ المدقنين والمعممين. سمعتوا أيش قال بو حمحمة:

قال ناصر عبد ربه ياعلي بر قبنزة

جاء من امبحر هندي لمفرنجي وبزه

قال العمّ سليمان: أنا داري. والله إننا أشجع من الفرنج والسيخ ما هل احنا اختلف شورنا واتقاتلنا في حروب شمعة بين المياسر وأهل حسنة والحروب بين أهل امسعيدي مثلنا مثل غيرنا من القبايل في كل المحميات وجو الإنكليز وقد الناس تعبانة وخذوا الأرض.

قال برطم: لكن أنته قل لي يوم أنته فصيح هكذا. أيه معناة فرق تسد؟

أجابه العم سليمان: أسأل بر ناصر محمد ما هو شي هوه دي فصّح لنا امهرا؟

قلت: يا جماعة الكلام معناه فيه: فرّق تسد. يعني فرِّق وبا تحكم وبا تسود. يعني با تكون أنته السيد على الجميع لا فرقت بينهم.

تدخل أحمد مسعود فجأة، موجهاً كلامه إليّ، فقال: أكبر الليلة عليك يا بر ناصر وأفصح الله لسانك. والله ما اليوم رعك بيضت أوجاهنا.

شعرت بالفخر وبعض الاعتزاز مع قليل من زهو الشباب بنفسه. ثم عاود العمّ سليمان الدوران حول السؤال الأزلي على قرقرة الرشبة فقال:

– شي سمعتوا على بر الظهر ذي جاء من عدن؟

فقال برطم بضيق: لك امجذم يجرذمك يا سليمان يوم تلوك امهرا. قلنا لك أيوه سمعنا. رع ما أحنا شي صوران[1].

نكز العم سليمان برطم بعصا المداعة، ممازحاً ليخرسه، فتقبل برطم المزحة بود ومرح، وقال محذراً:

– لكن أوبه عاد تقول: «شيء سمعتوا وإلا شعه بايقع حنق».

هز العم سليمان رأسه موافقاً، وأخذ أنفاساً أخرى من رشبته ثم قال:

– طيب اسمحوا لي أن أسألكم. شيء سمعتوا عن ابن ظهر، وقبل أن يكمل جملته هبّ برطم واقفاً ومقاطعاً بقوله: أنا ذري العول لا هو صدق. على أيش اتفقنا؟

وغرقنا جميعاً في الضحك العالي الصادر من القلب.

هدأ العمّ سليمان وسكت قليلاً وقد ارتفعت روحه المعنوية للاهتمام والإصغاء الجيد الذي قوبل به كلامه، وعاد برطم من جديد للمشاكسة وقلة الخير، فقال إنه يشتي الآن، وإلا الآن يسمع قصة ابن الظهر وكيف سوا بفلوسه دي جابها هو وابن عمه من عدن وجيبوتي والحبشة.

استجاب العمّ سليمان هذه المرة للطلب بنفس طيبة وروح عالية وقال متحدثاً إلى برطم قاصداً أن يسمعه الجميع:

– يقولوا إن ابن الظهر يلبس كوفية وعقال وإن اسمه محمد سعيد الظهر وابن عمـــه اسمه ناصر علي الظهر.

1– مفردها (أصور) وهو الأصم.

قال برطم مقاطعاً بحدة:

– أيش علينا من كوفيته وعقاله وأبن عمه. قل لنا كم معه فلوس وايش سوا بها؟

قال العمّ سليمان: رع بسم الله يا برطم أيش حولك من فلوسهم تقول إنك با تقاسمهم فيها؟

قال برطم: طيب. قل لنا أيش سووا بها؟

قال العمّ سليمان: والله مثلما قلت لكم يقولوا أن ابن الظهر بنى «منظرة» (بناية) ما شي أكبر الله منها، واشترى أطيان كثيرة وحفر بير، وجاب مكينة تطلع اماء من امبير، ومكينة تحرث الأرض بدل امبقر، وقالوا إنه زرع ليم وخضرة وزميطا (طماطم).

110 – الرجل الإصلاحي الكبير الشيخ محمد سعيد الظهر الذي أدى دوراً مهماً في إدخال زراعة الخُضر والفواكه إلى دثينة، وشجّع على تعليم البنات فيها (من اليمين) وإلى جانبه محمد العامري

111 – الحصن بستان محمد سعيد الظهر محجن – مودية

112 – منزل محمد سعيد الظهر ويُسمى بنجلة وهي كلمة هندية

113 – منزل علي ناصر الظهر

سأل أحمد مسعود: وأيش با يسوي بها؟ با يأكلها هو وابن عمه وعيالهم أو أيش؟

قال العم سليمان: كم با يوكلوا. الأرض كبيرة، لكن سمعت أنه ينوي يدخلها إلى عدن ويبيعها للنصارى والهنود وأهل عدن.

قال برطم: وبا يظلي يبيع مع امهنود واميهود وامجبالية في امسوق. ايه با يقول في القبيلة.

قال له العمّ سليمان: اوهد يا برطم معد ولا قبيلة قد انكسر ناموسها يوم دخلوا السركال أرضنا ما ذلحين يبونا لزرع لهم «عطب» (قطن) وبا يعطونا قرضة.

سأل برطم: تقول با يعطونا قرضة لما يجي الموسم؟

أجاب العمّ سليمان: ما عليك إلا تمز جنبك.

وتنهّد العمّ سليمان بحسرة على أيام القبيلة وهو يقول: إيه، والله أُبيني أُبين على القبايل والقبيلة، وعلى أيامنا. دي راحت، وأنشد يقول:

أُبني عليكم يا علة كم من فراص

دي خلسوكم من شروع القبيلة خلاس[1]

كان معظم رفاق رحلتي قد شاهدوا البحر قبل ذلك، وقد شاهدته أنا أيضاً في رحلات سابقة، وكنا نتقدم نحو قرية شقرة، ونشاهد مبانيها بفرح لا يوصف. وبدا البحر على سعته مدىً أزرق لا حدود له ولا نهاية، ورأينا أمواجه تتكسر على الشاطئ، تظهر وتختفي، ورأينا أمواجاً أخرى تتكسر وسط البحر، ويبدو أن بعض الجزر أو الصخور، بالإضافة إلى حركة المدّ والجزر هي التي تخلق مثل هذه الأمواج التي تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن الشاطئ وتُسمى الشام[2].

1- ابني: غبني، فراص: عمود حديدي لقلع الحجارة وتكسير الأخشاب، خلسوكم: خلعوا عنكم ملابس القبيلة.

2- ربما لأنها تبدو مخالفة لحركة الموج المتسقة، فتبدو كالشامة على صفحته، والله أعلم.

الفصل التاسع

الوصول إلى شقرة

114 – يسمونها قبة بوي حسين بن أحمد أحد سلاطين آل الفضل،
وقد ضربت في مناورة شقرة عام 1977

في مناورة شقرة 1977

وصلنا إلى شقرة التي كانت من أهم مدن الساحل وقراه، إذ تتمتع بموقع استراتيجي مهم بالنسبة إلى طرق المواصلات البرية والبحرية، فمنها تنطلق السيارات إلى زنجبار[1]، وجعار وعدن، ومنها أيضاً تنطلق السيارات والقوافل إلى حضرموت والمهرة عبر أحور ورضوم وبئر علي على الطريق الساحلي. ومن شقرة أيضاً تنطلق آلاف الجمال، ومئات السيارات نحو ما يُسمى بلاد العواذل وجمهورية دثينة، والعوالق العليا والسفلى وبيحان وأرض الواحدي وحضرموت عبر الطريق البري، وإلى البيضاء، ومأرب في شمال اليمن. ومنها تنطلق السفن إلى عدن وساحل أبين وأحور ورضوم والمكلا والشحر بحضرموت.

تقع «شقرة» شرقي زنجبار، وتبعد عنها بنحو أربعين كيلومتراً. وتتوزع على عدة، حارات، هي: حافة السادة، وحافة كود عنبر، وحافة المحكمة، وحافة أهل أحور، وحافة البندر، وحافة الونس (بدو). وفيها سوق واحدة تحتوي على عدة مطاعم وعدد من المحالّ التجارية الصغيرة، وسوق آخر لبيع السمك. ومياه شقرة أميل إلى الملوحة بسبب قربها من البحر وقلة

1- «زنجبار» سُميت بهذا الاسم الذي أطلقه عليها السلطان حسين بن أحمد ألفضلي الذي نفاه الإنكليز إلى جزيرة «زنجبار»، وأولاده هم: عثمان وعبد الله وناصر بن حسين.

الأمطار، وكان يوجد فيها بئر مياه حلوة تسمى بير الدنيا. أما سكانها، فهم سمر بسبب البحر والشمس، ومعظمهم من البدو الحضارم وأهل أحور. كذلك يسكنها وافدون من الباكستان والصومال والزبود[1].

ويقال إن شقرة كانت مقرّ إقامة للصيادين، وكان أهلها يسكنون تحت الجبل في منطقة تدعى «مدّ النظر». ويقال إن شقرة استمدت اسمها الحالي لأن أشجار الشقر «الريحان» كانت تنبت بكثرة على أرضها. وبسبب بعد القرية القديمة «مدّ النظر» عن البحر، بدأ بعض الصيادين ينتقلون للسكن في شقرة الحالية، حيث بنوا مساكن لهم قرب البحر الذي يعتمدون عليه في معيشتهم.

115 – السلطان عبد الله عثمان/ سلطان شقرة

وكانت شقرة كانت ميناءً قديماً وعاصمة للسلطنة الفضلية، حيث فيها عدد من بيوت السلاطين. ويقال إن أحد سلاطينها، ويدعى السلطان عبد الله عثمان، كان رجلاً قصيراً حكيماً مضيافاً يمتاز بالتواضع إلى حدّ أنه كان يساعد الصيادين الذين كانوا أحد مصادر السلطنة الفقيرة في أعمالهم، وكان أيضاً يقرض الشعر. وتشتهر شقرة برقصة «الدحيف» الخاصة بالصيادين. وتبدأ هذه الرقصة بالمساجلات الشعرية أولاً بين عدد من الشعراء يراوح عددهم ما بين ثلاثة وخمسة شعراء. ومن ثم يختارون أجمل بيت شعر، فيقف الرجال في صف وتقف النساء في الصف المقابل له، ويبدأون الرقص والغناء مردّدين

1– نسبة إلى مدينة زبيد بتهامة.

البيت المختار، ومن أبرز شعراء الدحيف وراقصيها المرحوم قاسم عبادي، مغني الدحيف، والشاعر عوض باضاوي والأستاذ الشاعر محمد ناصر العولقي والشاعر المرحوم علي الخدش والشاعر أحمد عنوبه والشاعران أبو بكر باسحيم وإيهاب باظاوي وعيشة حسين عازفة الهاجر (الطبل) والأخوين قاسم وأحمد عبادي مرددي صوت الدحيف والشاعر أحمد معافى والشاعر الشاب منصور كندي والشاعر المرحوم عوض البوسطي ويُعَدّ الأستاذ سعيد مبروك من أفضل راقصي الدحيف.

وكان السلطان عبد الله عثمان - كما يقال - دائم الحضور لمثل هذه الرقصات. ومما يُحكى أن أحد الشعراء، ويُدعى (كرامة)، كان مسؤولاً عن الجمارك في شقرة، وفيما بعد في (العلم) بين مستعمرة عدن والسلطنة الفضلية، وكانت الضرائب تحت تصرفه. وفي ما يبدو أنه كان يرتشي من أصحاب السفن التي ترسو هناك. وقد جاءت فترة قلّ فيها الرزق الذي يجود به البحر بسبب الرياح الشديدة (النوه)، فلم تعد السفن العابرة تتوقف في شقرة، وتضرر هذا الشاعر الذي كان مولعاً بتدخين (المداعة)، فقال في إحدى هذه المساجلات شاكياً سوء حاله:

«لا قد الصيد حنجومل وحمقاء وليف[1]
ما الفايدة في طلوع البحر يا هل الهواري؟»

وعندما سمع السلطان هذا البيت ردّ عليه بالبيت الآتي:

«كـبّـرت رأســك الحمقاء تــروح نصيف
من معسم السوق تشتري به تتن للبواري»

في إشارة أخرى إلى أن (كرامة) كان مولعاً بشرب (المداعة)، قال كرامة في قافية أخرى:

«ورا الـبـحـر متفلس وجـــاه الفلس
من بعدما كـان يشبعنا وساعة يواسي»

1- الحنجومل والحمقاء والليف من أنواع السمك.

فردّ عليه السلطان قائلاً:

«كـــرامـــة دفـــس بـيـــده مـــع مـــن دفـس
وخـــاف ربـــي يـحـول لـــه بليلة الآســـي»

ويقال إنه بعد عدة سنوات وصلت شكاوى إلى السلطان تفيد بأن كرامة يرتشي وأنه يستلم الرشاوي في وقت معلوم حددوه للسلطان، فانتهز السلطان هذه الفرصة وفاجأه متلبساً بالجرم المشهود، فذكره بما سبق وقال له:

– ألا تذكر يا كرامة الليلة الآسي، هذه هي الليلة. ويقال إنّ السلطان لشدة حنقه ضرب كرامة، لكنه فيما بعد أمر بشراء ملابس جديدة له على سبيل الاعتذار.

وكان السلطان عبد القادر بن أحمد – رحمه الله – شاعراً فحلاً، وهو الذي قال:

سقى الـلـه زمـانـي يومني كنت شاب
والـيـوم قد العظم وانـي والمحبة قليلة

وعن سلاطين أهل فضل، يقال إن سفينة قدمت إلى الشاطئ تحمل رجلاً نزل ضيفاً على أهل «شجيرة» في حيّ «الصُّرِّية» (بضم الصاد وتشديد الراء مع كسرها)، ولما سألوه عن نسبه، قال إنه من آل عثمان، ففرحوا به وولَّوه عليهم سلطاناً. وتزوج منهم وجاءه ولد سماه الفضل، وكان هذا جد سلاطين أهل فضل، وقد أنجب أحمد، وأحمد أنجب عبد الله، وهذا خلف أحمد، وأحمد جاءه حسين بن أحمد، وهذا أنجب عبد الله وأحمد وعثمان وصالح وناصر وفضل. أما عبد الله بن حسين، فقد كان سلطان أهل فضل بعد السلطان عبد القادر بن أحمد بن حسين، وبعد وفاته تولى ولده صالح بن عبد الله، وبعد عزل هذا تولى السلطان عبد الله بن عثمان. ولعبد الله بن حسين أربعة أولاد هم: ناصر وصالح وحسين وأحمد، ولم يبقَ من أولاد عبد القادر أحد. إلا أن لفضل بن حسين ثلاثة أولاد، هم: حسين وعبد الله وأحمد. وللسلطان عبد الله بن عثمان ولدان بارك الله له بهما، فإنه أمير كريم ودود ورع لا يترفع على أحد من الناس، ينام على الرمل ويلتحف الزرقاء ويحسن إلى أتباعه،

تحبه قبائله، ويلتفّون حوله ويعجبون بفروسيته وإتقانه الرماية، ومغامراته في القنص وصيد السمك، وهو على الفطرة شهم نبيل يحسن القراءة والكتابة، ويحفظ أشعار البدو ويعرف شيئاً كثيراً من عاداتهم.

116–117 – الصُّرِّية اسم جبل بالقرب من ضريح «سعيدة بنت عمر» التي يقام لها مزار سنوي، ويقع على بعد 50 ميلاً شرقيّ مدينة شقرة، وكان يسكنه سلاطين الفضلي، وهو الآن أطلال.

ومن هذه العائلة فرعان: آل أبو حيدرة، وهم يسكنون الكود، وآل فضل بن عبد الله بن أحمد، وهم يسكنون المسيمير، وكلاهما في منطقة أبين، وهي أهم جزء فيها من حيث ثراء التربة وغزارة المياه، وهي غنية بنخلها ومحاصيلها من الذرة والسمسم والقطن. وفي الكود والمسيمير وزنجبار– حول وادي بنا ووادي حسان – عشرات الأميال المربعة من الأراضي الزراعية القابلة للزرع، متروكة إهمالاً وتكاسلاً، ولا يحتاج الأمر إلا إلى فتح القنوات (الأعبار) لريّ الأرض والانتفاع بمياه الوديان التي تذهب إلى البحر بلا جدوى.

أما قبائل بلاد الفضلي، فهي المراقشة وشيخ أهل الحيد، منهم علي محسن بن لحمان وشيخ أهل الساحل عبد الله بن أحمد جرادة، والقبيلة الثانية هي «آل بالليل»، وبطونها هي الجعدني والمسودي والحنشى والمحثوثي والمارمي، ثم قبائل الأشتر النخعي، وعاصمة أرضهم الصرة على طريق بلاد العوذلي، وقسم منهم في المسحال.

كان السلطان أحمد بن حسين الفضلي صاحب الفضل الأكبر على هذه البلاد، فقد كان مثالاً للصلاح والتقوى، وقد رويت عنه عدة حوادث تدلّ

على حزمه وبُعد نظره. مثال ذلك أن رجلاً وجد مقتولاً إلى جانب شجرة في بلاده ولم يعرف القاتل، فأمر السلطان بأن تقيد هذه الشجرة بقيد ثقيل ووكل عليها رقيباً ومرت الأيام حتى كان يوم مرّ بالشجرة مسافران، وفهم الرقيب من تحاورهما أن أحدهما كان القاتل، فرفع الخبر إلى السلطان أحمد بن حسين، فقبض على القاتل واقتصّ منه. ومثل هذه القصة شاعت عن الإمام أحمد أيضاً، ويقال إن أحداثها جرت في منطقة قاع جهران.

شاهدنا بعض القبائل الجبلية عند شاطئ «امساحلة»، ومعهم إبلهم وأغنامهم ترعى العشب الأخضر، فجاؤونا بالحليب الحلو وقعدوا يتحدثون إلينا مع عدد كبير من أطفالهم. وهم لا يحسنون صيد السمك، وإن كان لبعضهم شباك يصطادون بها «العيدة» و«الباغة» و«الجدب»، وهي أسماك صغيرة مثل الساردين يجففون كميات منها ويسمونها «الوزف» ويملحون بعضها ويقتاتون بها، وهم يقتربون من الساحل فيرفدهم بالسمك من يصيده من أرباب السفن القادمة من مناطق كالمهرة وقشن بالقرب من ظفار الذين يصلون إلى امساحلة والخربقة والكديمة لصيد اللخم (سمك القرش) والديرك والدرب والخلخل والزك والجحش، ثم يملحونه ويحملونه إلى بلادهم. ومن أشجار السمر يحرقون الفحم ويبيعونه في أسواق عدن، ولا يربحون منه شيئاً كثيراً.

انتقل أمراء أهل فضل من الصُّرِّية إلى ذوبة. وتقع هذه القرية في سفح جبل العرقوب على بعد ميلين من الشاطئ الذي تقع عليه قرية شقرة، العاصمة اليوم.

118 – مقر السلطان ناصر بن عبد الله الفضلي في منزله الجديد بذوبة

119 – شمال شقرة ويقع فوق منطقة الونس، وقد بنى فيها السلطان ناصر بن عبد الله منزلاً حديثاً من اللبن وعاش فيه حياة بدوية متقشفة لا يهتمّ إلا باستقبال الضيوف وذبح الذبائح إكراماً لهم. وفي الصورة علي عبد الله صالح مع السلطان ناصر

وبين ذوبة وشقرة أرض خصبة مهملة، إلا أن الماء إذا تدفق عليها من وادي حطيب فإن كثيراً منها يزرع ويثمر، وقد زرع السلطان عبد الله بن عثمان «سانية» تثمر الطماطم والفجل والبامية والباذنجان والبسباس الأخضر والكزبرة، وجاء بالنحل يربيها ويتعهدها بنفسه في أحد الحقول.

والسلطان عبد الله[1] حاضر البديهة، نشيط الحركة، حافظ لأشعار البدو وتاريخ أهل فضل، عارف بقبائل الأرض، ومداخل البلاد ومخارجها، وهو لطيف جداً، كثير الظرف، يحكم بين الناس ويفصل في قضاياهم، وقد أعتق هذا السلطان 18 عبداً من عبيده لوجه الله وتركهم أحراراً يفلحون الأرض ويزرعونها.

ويقال إن حكومة عدن أسست في شقرة أول مدرسة ابتدائية يديرها الأديب محمد سعيد حسين اليافعي، وهو شاب ذكي نابه. وفي المدرسة 60 تلميذاً يقرأون ويكتبون، وتدفع حكومة عدن 60 روبية راتباً للمعلم.

انتقل أهل فضل تدريجاً من «ذوبة» بقرب الجبال والمزارع إلى الساحل، فعمروا قرية شقرة، وأصبح أكثرهم يعيشون على صيد السمك بعد أن كانوا يعيشون على خيرات الأرض. والسمك في شقرة كثير، إذ البحر قريب الغور كثير الشعاب، والمصايد غنية في هذه البقعة.

1- راجع: **صفحات من الذكريات**: محمد مرشد ناجي.

وقد أدى الاستغناء عن زراعة الذرة بصيد الأسماك إلى استغناء أهل فضل عن قرية «العصلة» أيضاً التي لم يبق منها سوى بعض الخرائب. ويقال إن ماء هذه المنطقة يسبب إسهالاً قوياً. بيد أن السلطان أحمد بن حسين أسس قرية زنجبار في أبين على غرار الجزيرة الخضراء في المحيط الهندي بعد أن زارها، وبالقرب من زنجبار تقع المسيمير والكود، وكلها أراضٍ زراعية يكثر فيها النخل، غير أن الاهتمام بها قليل حتى لا تكاد ترى أثراً لها.

ومن أودية أبين المشهورة «حسان» و«بنا» و«خبان» حيث ترعى الأغنام بين الشجيرات الكثيفة. وكان عدد سكان بلاد الفضلى عام 1945م 7000 نسمة أو يزيدون، وهم أهل شجاعة وكرم، وأصولهم عربية نقية، أما اليوم عند طباعة هذا الكتاب فقد تجاوز عددهم 400 ألف نسمة.

من الجبل إلى الساحل ومن اللحم إلى السمك

شقرة التي وصلنا إليها تعجّ بعشرات السيارات ومئات المسافرين القادمين من عدن أو الذاهبين إليها. المطاعم مفتوحة ليل نهار، وكذلك المنازل والمحلات التجارية. روائح السمك تزكم الأنوف، وتنبعث من الطازج والمملح المعلَّق على واجهة المحلات. وهذا أمر غير مألوف للقادمين من الريف الذين لا يعرفون السمك ولا يطيقون رائحته ولا يعرفون إلا أكل اللحوم الطازجة من الغنم والماعز التي تتخذ مراعيها في أعالي الجبال.

الانتقال صعب أحياناً من الريف إلى المدينة، من الجبال إلى الحضارة. ولا شك في أن هذه القرى الساحلية قد اختلطت بحضارات شعوب أخرى، ولهذا فإن للحياة معنىً مختلفاً عن حياة ابن الريف الذي يمكن أن يموت بسبب الخلاف على كلمة أو شتيمة يراها عاراً في حقه لا يمحوه إلا الدم. على عكس أبناء الساحل الذين هذبتهم الحضارة والمدنية، فيكونون أكثر تسامحاً وأقلّ ميلاً إلى العنف، ونادراً ما تشاهدهم يتشاجرون.

وتؤثر طرق المواصلات (البرية والبحرية والجوية) تأثيراً سلبياً أو إيجابياً في ازدهار الحضارات أو انهيارها. ومعروف أن حركة التجارة عبر طرق الحرير والبخور قد ساهمت في خلق الحضارات وازدهارها في بلدان كثيرة. أما بالنسبة إلينا، فقد قامت حضارة حضرموت وأوسان وشبوة

ومأرب وقتبان وبراقش على أطراف الأودية وعلى طرق التجارة القديمة بين الشرق والغرب، وسرعان ما انهارت هذه الحضارات بسبب التحول في حركة المواصلات من البر إلى البحر، وبسبب الحروب بين هذه الممالك والدويلات التي قامت، لتزدهر الحضارات في المدن والقرى الساحلية. فقد ازدهرت موانئ قنا وعدن والشحر وسيحوت وسقطرة والمخا على حساب تحول طرق التجارة من البر إلى البحر. وحتى هذه الموانئ يزدهر أحدها على حساب الآخر. فقد ازدهر ميناء عدن على حساب ميناء المخا الذي اشتهر في زمن ما بسبب تجارة البُن اليمني الشهير الذي يعرف في أوروبا وفي العديد من بلدان العالم بـ(الموُكا) نسبة إلى ميناء تصديره. كذلك ازدهر ميناء بروم وميناء قنا على حساب بعض الموانئ الأخرى. المهم أن شقرة قد تطورت وازدهرت بسبب موقعها الاستراتيجي الفريد الذي يجمع ما بين ميزتين في وقت واحد، إذ تقع على طرق التجارة البرية والبحرية في آن واحد. وتأثرت فيما بعد بتطور حركة المواصلات البرية، خاصة بعد تعبيد الطريق الذي يربطها بالمناطق الشرقية حيث لا تتوقف السيارات كثيراً فيها.

شربنا من ماء شقرة وأكلنا من سمكها الطازج وخبزها اللذيذ (الملوّح)[1]، وأسقينا جمالنا وقدمنا لها العلف الطازج، واغتسلنا في بركة آسنة في أحد المساجد دلنا عليها أحد رفاق الرحلة، ثم أدينا الصلاة. ويبدو أننا لم نجرؤ على الاغتسال بماء البحر، لأن أكثرنا كان لا يزال يخافه، أو لأن الوقت كان متأخراً حتى نجازف بالنزول إليه.

120 – بئر شقرة

1- الملوح: خبز من الدقيق الأبيض يطبخ على الصاج ويرش عليه السمن.

بعد الصلاة كان علينا أن نطوف في أوساط القرية التي تعجّ بالسيارات والناس والغنم والخرفان والكلاب الضالة والقطط التي تتجمع بسرعة الريح عند وضع أول طبق أو صحن من الطعام، حيث تتلوى بنا وتحت أرجلنا تطلق مواءها الرقيق في إشارة منها إلى طلب الأكل بصوت يبدأ رقيقاً مؤدباً. لكن هذه القطط تستشرس عندما ترفس أحدها أو تعطي لبعضها فتنطلق في العراك على فضلات سمك الديرك (كينج فش) أو الفُتّات من الملوّح اللذيذ المطبوخ على الطاوة بالسمن الهولندي الذي يستورَد في صفائح معدنية.

رغم كل شيء، الحياة بسيطة وجميلة في هذه القرية وفي أوساط ناسها الطيبين الذين لا همّ لهم ولا حديث إلا عن الطريق والجبال والرمال، ومن غرق في البحر ومن سلم ومن تعطل ومن سافر، وعن السمك اللُّخم والحلوى «المضروب».

واللخم هو من أنواع سمك القرش التي تتوالد ولا تبيض ويجري اصطيادها وشقها من المنتصف وإخراج أولاد اللخم (دقوس) منها، الذي يستخدم في طبخ وجبة تدعى «الربيس»، واللخم يملح ويجفف في الشمس لمدة 40 يوماً حيث يبقى لفترات طويلة (سنوات)، كذلك يستفاد من زعانف سمك القرش لتصديره إلى الخارج، ويصنع منه الحساء، وهو من النوع الثمين والغالي، فهو مقوٍّ جنسي مرغوب بشدة في شرق آسيا. كذلك يطبخ اللخم مع الرز «ويسمى صيادية». ويستخرج من سمك القرش الكبد الذي يستخرج منه زيت يسمى «الصيفة» ويُستخدم لطلاء القوارب الخشبية حفاظاً عليها من التلف. وهناك نوع من سمك القرش يستفاد من كبده لعلاج بعض الأمراض كضعف النظر وغيره.

121 – لخم طازج بعد صيده قبل تقطيعه وتجفيفه

122 – لخم مجفَّف يُباع في السوق

123 – الكبسة «الصيادية» مع اللخم

كانت مئات الأكياس من الحلوى معلقة في زنابيل مصنوعة من الخوص أو سعف النخيل. وإلى جانب أكياس الحلوى المعلقة وغير بعيد منها عشرات الأسماك المجففة من اللخم معلقة على جنبات السيارات في طريقها إلى المحميات وإلى سكان الجبال الذين يطبخون هذه الأسماك المجففة ويطهون منها حساءً لذيذاً (مرق اللخم). وأحياناً يستخدم الناس خلاصة مرق اللخم للنساء اللائي تأخرن في الولادة اعتقاداً منهم بأن ذلك يعجل بولادتهن، لاحتوائه على حرارة تدفع بالطفل إلى الولادة[1].

1- ربما جاء هذا الاعتقاد لأن سمك اللخم (وهو من فصائل القرش) يلد ولا يبيض.

124 – المضروب (حلاوة لحجية)

كانت هذه الليلة الأولى التي أبيت فيها في منزل يعلوه سقف من سعف النخل منذ أن بدأنا رحلتنا هذه، وكنت قبل ذلك أفترش الأرض وألتحف السماء. بتنا ليلتنا تلك في منزل سيدة تدعى سعدية، وكانت تناديني بـ(أخو صلاح) طوال مكوثي عندها. وقد اشتهرت سعدية[1] هذه بتقديم أشهى المأكولات للمسافرين. ولذلك فإن منزلها مزدحم بالقادمين والخارجين منه. طلبت إلى السيدة سعدية أن تطهو لنا سمكاً طازجاً، وألّا تخبر أحد المرافقين لي من رفقاء الرحلة بذلك، لأنه لا يأكل السمك حيث إنه من أكلة اللحوم الطازجة فقط. وقد طهت المرأة السمك (الديرك – كينغ فيش) بالصلصة المعلبة والبصل، وأضافت إليه البهارات، وأعدّت الخبز الملوح من الدقيق الأبيض والأحمر (الطابونة والسوغي)، ما جعلنا نأكل أصابعنا وراءه، كما يقال. ويبدو أن الجوع والفقر وصحة الشباب التي كنا نتمتع بها هي التي أوجدت هذه اللذة والمتعة، ونحن نأكل بها تلك الوجبة من السمك الطازج اللذيذ ونشرب بعده ماء بئر شقرة بهذه العذوبة. ونشعر بهذا الطعم والحلاوة للحياة. إنها السعادة، بل هي أجمل من سعادة الأغنياء وحياة القصور التي كنا نسمع بها.

وكانت الوجبات التي تقدم، سواء في منزل سعدية أو في البيوت (الريف

1– للنساء في شقرة عادات منها إطالة ذيل الثوب، وهذا يذكرنا بقول امرئ القيس:

خرجت بها ليلاً تجرّ وراءنـا على أثرينا ذيـل مـرط مرحِّلِ

أو المدينة) تقتصر على وجبة واحدة ونوع واحد وصحن واحد يلتفون حوله ويأكلون باليد جميعاً ولا يستخدمون السكاكين والشوك والملاعق التي دخلت أخيراً، ولا توجد مقبلات قبل الوجبة ولا حلويات بعدها، ويتناولون الشاي أو القهوة بعد الأكل، ونادراً ما يأكلون الحلويات إلا في المناسبات، ومنها العطرية المصنوعة من الشعرية، ويضاف إليها السكر والهيل. وفي الزواج والمناسبات الأخرى يقدمون ما يسمى الذربيان، وهو مكون من الرز واللحم في طبق واحد. ونشاهد مثل هذه العادات في الخليج والأردن حيث يضغطون على اللقمة لتتحول إلى لقمة مدورة ويرمونها إلى الفم دون استخدام الأصابع.

في منزل سعدية قابلت صديقاً لأخي صلاح، وكان هو الآخر ينادينى بأخو صلاح. كان أخي صلاح سائقاً مع الحرس الاتحادي (شبر) نسبة إلى أحد الضباط البريطانيين[1] الذي أنشأ هذا الحرس في عدن وسُمِّي المعسكر باسمه، وكذلك الوحدة العسكرية التي أنشأها حيث كان يقال (جيش شبر). كان السائق أو (الدريول) في تلك الأيام بأهمية الوزير، فهو الذي يتولى نقل الركاب والمسافرين والهدايا والبريد والأخبار الطيبة. وكانت أعداد السيارات في تلك الأيام قليلة جداً، والكل يعرفها، ويعرف أنواعها، وماركاتها، ويعرفون سائقيها ومساعديهم «الجريش بوي» من عدن مروراً بأبين وشقرة ولودر ومودية والمحفد ويشبم والصعيد وعتق، وحتى حضرموت، وقد تغنى أحد الشعراء الشعبيين بالسائق بوصفه من أشهر شخصيات تلك الأيام بعد أن غزت السيارات حياة الناس، حيث قال في (علي الفانوس) الذي كان من السواقين المشهورين:

«علي الفانوس ذي لصى سراجه
يبا امعرقوب[2] ذي عالي دراجة»

وكان «الفانوس» من أوائل السائقين الذين اقتحموا جبل العرقوب الصعب وجبال الكور العالية.

1- تداول الناس اسمه على أنه «شبر» واسمه الحقيقي «شبرد» sheperd .

2- وفي منطقتنا توجد تسميات للطرقات والمناطق والقرى والجبال بأسماء أعضاء الإنسان. العرقوب، الركبة، الصرة، العين، الظهر، الكور.

ومع دخول السيارات وانتشارها في تلك الأيام تحضرني أغنية مشهورة للفنان المعروف عمر غابة يقول مطلعها:

«تعبتوا أعماركم يا أهـل أم معاصر[1]
وشـلّـو الـفـائـدة أهـل أم مـواتـر[2]

ومن شعر (السيد سالم عمر الجفري) قصيدة يقول مطلعها:

سرينا وكسرنا بوابيرنا.. والعشق ما هو لنا، لأهل القلوب السليّة

ويقول امبجيري في شعره:

قـال امبجيري حسين ماشـي معذرة
أن يمشـي امـبـابـور وإلا كسـره

(أيدش: يدك، جلالش: جلالك واحترامك، أي أنه يغادر المنطقة إلى مقر عمله ويتركها وحيدة).

125 – امصرة

وقال سالم صالح الفطحاني:

قال سالم مسيرة من عدن تبصر الكور من جحينها[3]
قرّبينا سـريعات العجـل والدريوال[4] سـد مكينها

1- امعاصر: جمع معصرة.
2- المقصود السيارات، وهي لفظة عن الإنكليزية مفردها «موتور».
3- هي منطقة تقع بين امصرة والعرقوب، وهي شديدة البرودة، ويقال برد جحين.
4- الدريوال: السائق، وهي تحريف للفظ درايفر بالإنكليزية.

وقال وهو في السيارة:

مـــن رصـــــدة الـــعـــرقـــوب لا الـظـاهـر
تـــمـــســـي بـــهـــا رمـــيـــــان مـــلـــزومـــة
عـادهـا بـا تجي روسـيـة والـمـصـري[1]
وبـــا يـقـع دومـــــة الـحـشـر يـــا دومـــة

وأثناء كتابة هذه الذكريات تذكرت الأغنية الشهيرة «حطني في عدن» التي تقول في مطلعها:

شلني يا دريـول لاجل معي جود وإحسان
حطني فـي عـدن ولا فـي الشيخ عثمان

كان أخي صلاح ناصر وصالح بنجيل وعبد ربه علي بيرة وشليل وعبد الله البطاني وعمر البطاني ومقرع وهادي بن عامر وصالح المخزوم من أشهر السائقين في تلك الأيام. وفوق ذلك، كان صلاح مشهوراً بوصفه رياضياً ماهراً ولاعباً في فريق الهلال بـ«الشيخ عثمان»[2]، وكانت له صلات وعلاقات واسعة كلاعب كرة قدم وكسائق، وله جمهوره في الوسط الرياضي والمشجعين، كذلك له جمهوره بين أوساط المسافرين والساكنين في عدن. فهو دائم التحرك والسفر بين عدن والمحميات.

وقد طلب إليّ هذا الصديق الذي التقيته في منزل سعدية أن أسافر معه بالسيارة إلى عدن عبر الطريق الرملية إلى زنجبار، ومن ثم إلى عدن عبر ساحل أبين الذي تغزل فيه الشاعر الكبير لطفي جعفر أمان في شعر يُعَدّ من أرقّ ما قاله شاعر وأجمله في هذا المضمار، حيث يقول:

«صدفة التقينا على الساحل ولا في حد
صدفة بلا ميعاد
لما حواك الفؤاد والعين تناجي العين

1- وكان هذا الكلام قبل سنوات من مجيء المصريين إلى صنعاء والروس إلى عدن.
2- تأسس عام 1951م، ومن مؤسسيه عمر فرتوت وناصر امريدي وصالح عبد الرحمن.

يا ساحل أبين بنى العشاق فيك معبد
اللي يصيبه الهوى ليش با يخاف المد
كم من فتى يعشق ويحن للرملة
للهوى والوداد ما بيننا لثنين (الاثنين)»

وقد غناها الفنان الكبير أحمد قاسم، ووضع لها واحداً من أجمل الألحان الخالدة.

الفصل العاشر

السفر ليلاً وحكايات عن السيارات

اعتذرت لذلك الصديق وشكرته على عرضه المغري لأنني كنت مشدوداً إلى رحلتي البرية بالجمال وأجد فيها متعة لا تعادلها متعة ولا يمكن السيارة أن توفرها لي. وهكذا ودعته وودعت أمنا الطيبة سعدية ورائحة السمك وشقرة والتحقت برفاق الرحلة. وبعد أن أصبحت رئيساً اعتمدت لها مرتباً حتى وفاتها.

كان الجو في منتهى الروعة. وراقنا أن نستفيد من هذا الطقس المواتي لنسافر في الليل، فبعد أن هبطنا سلسلة جبال العرقوب ووصلنا إلى ساحل شقرة، كانت أمامنا الرمال والصحارى، وليس ثمة مشكلة ما دمنا نملك سفن الصحراء، فهذه الرمال هي الأرض المفضلة لهذه الجمال، والصعوبة الوحيدة التي كنا نخشاها كانت أجنحة الظلام وصعوبة العثور على الطريق في العتمة وفي هذا الظلام الدامس الذي قال عنه امرؤ القيس:

«وليلٍ كموجِ البحر أرخى سدوله»

لهذا فقد جنبنا العم سليمان الحديث عن العادات والتقاليد في دثينة تلك الليلة.

بعد الخروج من شقرة، صادفنا وادي عذيبة، وقيل في الأمثال: من يكذب يوصله كذبه إلى وادي عذيبة، بمعنى أن حبل الكذب قصير.

بعد وادي عذيبة مررنا بجانب مزار الولي المهدلي الذي يحتفلون في مولده برقصة الرزحة بالطبل والمزمار ويرددون:

يا المهدلي زوّج العذارى ثاني سنة بايجولك حبالى

كانت المرة الأولى التي نرتحل فيها ليلاً على أرض منبسطة، ولهذا كنا فرحين، فلأول مرة لن نضطر إلى الصعود إلى قمم الجبال وهبوط المنحدرات الوعرة من شقرة إلى عدن. كان البحر يقترب منا حيناً، ويبتعد عنا حيناً آخر. وكانت أضواء السيارات من الشرق والغرب تخترق بدورها الظلام في هذا الليل الحالك، فينير لنا ضوؤها الطريق لبعض الوقت، حيث لا أثر نستدل به غير الاعتماد على بركة الله وعلى حركة النجوم وأضواء العربات.

أما القائد الحقيقي لرحلتنا، فقد كان ذلك الجمل العجوز الذي كان على ما يبدو يعتمد على رائحة الرمل والطريق التي يعرفها جيداً، ما يعني أننا نسير في الاتجاه الصحيح. وهذا لا يعني أن رحلتنا كانت دون متاعب، فقد كنا نسير ونسقط ونقوم في طريقنا إلى محطتنا القادمة التي لم يتحدد مكانها بعد.

في هذا الطريق الرملي الصحراوي لا أثر للحركة أو الحياة غير حركة العربات التي لا تتوقف إلا في بعض الأحيان للراحة أو عندما تغوص عجلاتها في الرمال المتحركة، فيضطر ركابها إلى النزول ودفع تلك العربات العتيقة حتى تجتاز تلك الرمال الصفراء الناعمة. وكان مساعدو السائقين يضعون «بترات» (صفائح حديد عريضة مخرمة) تحت عجلات السيارة لكي تساعدها على الانطلاق. وأحياناً كانوا يضعون أكثر من قطعة وهم يلهثون وراء السيارات حتى لا تغرق مرة أخرى في الكثبان. وما إن تخرج العربة أو تسحب حتى ترى الركاب الذين اضطروا إلى الترجل منها يجرون ويتعلقون بجوانبها حتى تصل إلى مكان آمن لا تغوص فيه عجلاتها. وأحياناً نرى أكثر من سيارة متوقفة بعد أن تكون قد غاصت في الرمال أو في الوحل. وفي هذه الحالات تتجلى أروع صور التعاون بين الركاب وسائقي هذه السيارات ومساعديهم[1]، حيث يمدّ بعضهم يد العون لبعض لسحب عرباتهم الغارقة في الرمال.

وأحياناً كانت محركات هذه السيارات تسخن بصورة مفاجئة أو ينفجر أحد إطاراتها لصعوبة هذه الطرق ووعورتها. وتسمع أزيز هذه السيارات وكأنه أنين مستغيث يعلو ويهدر تارة، ويخفت تارة أخرى. وكنا نستطيع

1- كان يطلق على مساعد السائق «جريش بوي» المأخوذة من الإنكليزية garage boy، أي صبي الجاراج (الورشة).

سماع هديرها الذي يمزق صمت الليل وهدوءه من مسافات بعيدة، وكانت الحيوانات البرية كالأرانب تركض مذعورة من هذا الكائن الجديد الذي يغزو حياتها وينغّص عليها عيشها.

المحطة الخامسة

في محطتنا الخامسة خطر لنا أن نتوقف وننام، وحمدنا الله أن هذه السفن الصحراوية التي نمتطيها لا تغرق في الرمال كما تغرق هذه السيارات، وإلا كنا في حال أسوأ. كان الإرهاق والسير الطويل ليلاً والطقس الجميل ورحابة المكان واتساعه وسط هذا المكان الساحر حيث الجو الجميل والرمل أجمل، والفراش بالتأكيد سيكون هذه المرة أفضل وأنعم، فقد اعتدنا في ما سبق من الليالي أن نفترش الأرض الصلبة والصخور الصلدة، ووسادتنا في أفضل الأحوال قطعة حجر. كان الرمل الذي افترشناه هذه الليلة أنعم من الحرير، ونمنا لأول مرة دون أن توخز جنوبنا الحجارة والصخور.

مع البدايات الأولى للفجر، تحركت قافلتنا في طريقها إلى زنجبار والمسيمير، حيث مررنا بوادي عذيبة، ذباب، قرن أمكلاسي، وادي ثعلان، مريب، وادي تمحن، وادي سلا، وعلى اليسار الشيخ سالم، والعصلة، وحسان. وينتشر عدد من قرى الصيادين بين شقرة وزنجبار الذين يعيشون على الصيد والعنبر، وبعضهم على الرعي والزراعة.

127 – صورة حديثة لقرن امكلاسي – شقرة بعد شق الطريق

كان لا يزال أمامنا طريق طويل. ومع كل تقدم كانت أقدامنا تغوص في الرمال. ورأيت لأول مرة غزلان الصحراء رشيقة جميلة بين شقرة وزنجبار أو العصلة، ولكننا لم نحاول إيذاءها، وتركناها ترعى وتمرح وتتواثب بحرية. لكنها بسبب طبيعتها الحذرة هربت منا حتى دون أن نقترب منها أو نفكر في اصطيادها. ومع تطور الحياة وانتشار السلاح بيد الناس والصيد الجائر، تعرضت هذه الغزلان الجميلة للإبادة بكل أسف وانقرضت من هذه المنطقة وغيرها من المناطق، كالواحدي وجزيرة كمران وهضبة وادي حضرموت وغيرها، واختفت إلى جانبها حيوانات برية أخرى.

128 – غزال

ما إن توغلنا في الصحراء، حتى عانينا الحرارة التي ارتفعت فجأة والرياح المحملة بذرات الرمال. ومع ارتفاع حرارة الشمس منتصف النهار، علت حرارة أجسامنا واستبدّ بنا الظمأ والجوع. وفي هذه الحالة كان علينا أن نمتطي ظهور الجمال وأن نشرب الماء ونواصل السير من غير توقف، لكننا لم نتحمل الهجير، فكان علينا أن نبحث عن مكان نستظل به. لكن هيهات أن نجد مكاناً أو شجرة في هذه الصحراء الجرداء سوى بعض الأشجار الصغيرة في أحد الأودية التي اضطررنا إلى التوقف عندها حتى تنكسر حدة الشمس وتخفّ حرارة الجوّ لنواصل سيرنا بعدها.

نعمة وعافية

لم نتوقف إلا بعد أن دهمنا الليل، حيث شربنا بعض الماء وأدينا الصلاة

في العصلة، وقبل الوصول إلى العصلة، التي تقع شرقيّ زنجبار، كانت الشمس في طريقها إلى الغروب.

قال برطم: هل تعبت يا سليمان عوض؟ وكيف حالك؟

أجاب: بنعمة وعافية، أنا «سليم» (تحبيب لاسم سليمان)، وضحك.

قلت: ما لك تضحك؟

قال: تذكرت يا بوك قصة واحد اسمه عميران كان يسكن في العصلة[1].

كانوا عندما يسألونه: كيف حالك يا عميران؟ يقول: بنعمة وعافية. وهذا ردّه على أيّ واحد يسأله. وكان الناس يعتقدون أنه مرتاح مالياً ونفسياً وصحياً.

وبعد ذلك شافه واحد من أصحابه تعبان (وزعلان)، وسأله نفس السؤال، فلم يردّ عليه.

قال له: ما هي شي عوايدك تسكت ولا تردّ بنعمة وعافية، قل لنا ما لك با نساعدك إذا تعبان أو محتاج.

سكت وقال: لا عاد في خير، ولا عاد في نعمة ولا في عافية!

قال: كيف؟

قال له: أنا متزوج ثنتين، واحدة اسمها نعمة، وواحدة اسمها عافية، وتعبت من طلباتهن وطلبات عيالهن، لما دوخت من المشاكل، واليوم لا نعمة ولا عافية فيهن خير، ولذا ما عُدت أقول للناس هذا الكلام عندما يسألون عن حالي.

قال برطم: الله أكبر عليهن، إن كيدهن عظيم، وشفهن خرجين من ضلع أعوج.

قال العمّ سليمان: المهم إن حريمنا معنا على الخير والشر.

ولكن يا جماعة يقول المثل عندنا لا مزوج سلي ولا عزب مستريح.

قال برطم: شفك صبت أمنصع (أي الهدف) يا سليمان.

سكتوا جميعاً، ولم أعلق على كلامهم، لأن خبرتي كانت محدودة عن هذا الكلام آنذاك.

1- «العصلة» كانت إلى عام 1839م عاصمة للسلطنة الفضلية.

بقرب النار جلسنا على الكثبان الرملية لنبدأ سهرتنا الليلية المعتادة. إن ميزة هذه الصحراء أن طقسها يتحول في الليل إلى الاعتدال والبرودة بعكس النهار، حيث تتحول فيه رمالها إلى قطعة لا تطاق من جهنم. وكالعادة كان علينا أن نحضر الطعام والشاي والمداعة.

أما حديث السهرة الذي كان في انتظارنا هذه الليلة، فقد كان عن السيارات ودخولها إلى دثينة.

المحطة السادسة

كان مشهد دخول السيارة إلى واحدة من هذه القرى من المشاهد الاحتفائية، حيث يتجمع السكان لرؤية السيارة القادمة من عدن. وكان مجيء هذه السيارات مرتبطاً في أذهان الناس بقدوم الخير، إذ تكون محملة بالسكر والدقيق والبصل والسمن والتمر والملابس والسمك المملح والمجفف اللُّخم)، والمسافرين، وهدايا الأبناء إلى الآباء والأهل، ومن الآباء إلى الأبناء من الجنود والضباط الذين التحقوا بالخدمة العسكرية في جيش محمية عدن «ليك لين»، و«سيداسير لين» أو «جيش شبر» في معسكر «ريجينالد شامبيون لين»، أو من العمال في ملّاحات الملح ومعاملّه وأحواضه في خورمكسر الذي كان يسمى المجراد أو ما يسمى اليوم الصولبان[1]. أو تلك الأخرى التي في الحسوة والبريقة التي افترست أطرافهم والتهمت أبصارهم لسوء أحوال العمال في هذه المعامل. كانت الخدمة في مثل هذه الأماكن نعمة لسكان أنهكتهم الحروب والصراعات والثأر القبلي، وأنهكهم الفقر والجدب.

وهكذا فما إن تُقْبَل واحدة من هذه السيارات إلى القرية حتى ترتفع زغاريد النساء وتختلط بتهليل الأهالي صغاراً وكباراً ويبدؤون بالتجمع حول السيارة، ويدورون حولها لمشاهدة مقدمتها ومؤخرتها. ويبدأ الأولاد في تسلق السيارة الواقفة وينزلون منها وهم في غاية السعادة والفرح وكأنهم يشاهدون أعجوبة من عجائب الدنيا، ويتشممون رائحة البنزين والديزل والبضائع التي تحملها. ويستعرض سائق السيارة صالح بنجيل مواهبه أمام النسوة والأطفال المتجمعين حوله في فرح وذهول فيفتح مقدمة السيارة

1- صولبان: أصلها انكليزي وهي Salt Pan سولت بان يعني أحواض الملح.

ويطلب من النساء ماءً للسيارة، فيغسل مقدمتها من الغبار والتراب ويعبئ خزانها. ويستغرب الجميع ذلك اعتقاداً منهم بأن السيارة تشرب الماء مثلها مثل الإنسان والحيوان.

كان صالح بنجيل، سائق السيارة، صاحب هذا المهرجان، ومحاطاً بكوكبة من النساء والأولاد وبعض الفتيان، ويسألونه في براءة واندهاش:

– هل السيارة تشرب ماءً مثلنا؟

ويجيب بنجيل الذي انتابته حالة نشوة خفية على سذاجة هؤلاء الريفيين:

– نعم، وهي تأكل أيضاً!

ويسألونه مندهشين ومصدقين في الوقت ذاته:

– تأكل أيش؟

فيجيب بخبث مقصود!

– تأكل قصب وعلف.

ويضحك.

فتبادر إحدى النساء إلى سؤاله:

– وهل اتعشت أو عادها؟

فيردّ بنجيل:

– لا، عادها ما اتعشت.

– فتصيح النسوة:

– لازم تتعشى عندنا الليلة أنته والسيارة.

وخطر لبنجيل أن يواصل مزاحه من دون أن يشعر أحد بأنه يمزح فقال:

– عشوا السيارة أولاً.

– فجاؤوا لها بالعلف والقصب حتى امتلأ سطحها.

واندفع بنجيل إلى كابينة عربته وأدار محركها فصدر منها صوت فرقعة، وتفرق من حولها الجميع، وأخذوا يتفرجون عليها وهو ينطلق بها، وهي تطلق الدخان من مؤخرتها وصوت محركها يملأ السماء ضجيجاً، بعد أن أخذت كفايتها من الطعام والشراب في نظر القرويين البسطاء حيث كان عليها

الإخلاد إلى الراحة والنوم بجانب منزل صاحبها بنجيل على الضفة الأخرى من وادي وجر التي تفصل بين امقوز وامفرعة.

129 – شاحنة فورد قديمة في الخمسينات والستينات

لكن السيارة ما إن غادرت بمسافة قصيرة حتى غرقت عجلاتها في «نيس» (رمل) وادي وجر وهرع إليها الناس الطيبون من القريتين وتجمعوا حولها لمدّ العون لسحب العربة خارج رمال الوادي. وإذا بالسائق ومعه مساعده يترجلان منها ليشاهدا الوضع على الطبيعة. وأخرج المساعد صفيحة من الحديد المخروم «بترة» وأخذ يحفر تحت عجلة السيارة حتى أزاح كمية من الرمال ووضع تلك القطعة تحت العجلة بينما صعد بنجيل إلى الكبينة وأخذ يدير محرك السيارة لتنطلق لمسافة قصيرة وتتوقف مرة أخرى بينما عجلاتها تدور في المكان ذاته، والرمال تتطاير من حولها. وفي هذه اللحظة طلب بنجيل المساعدة من الأهالي المتجمعين، فأخذوا يدفعون العربة من مؤخرتها حتى اجتازوا بها المنطقة الرملية، ومساعده ينقل البترات ويضعها على السيارة ثم يقفز بجانب السائق في حركة بهلوانية تدلّ على المهارة المدروسة. والناس يصفقون له فرحين بهذا المشهد الذي يرونه ويشاركون فيه لأول مرة. أما الآخرون من القريتين، فكانوا يشاهدون ما يحدث من فوق أسطح منازلهم أو على الأبواب وهم يدعون الله في ذهول أن ينقذ سيارة بن نجيل من الغرق ويخرجها سالمة من الرمل حتى لا يأتي سيل وجر من أعالي جبال الفراعين ليجرفها في طريقه.

130 – صالح بن نجيل

131 – حسن بن نجيل

أما عندما تسلك هذه العربات الطريق من دثينة إلى العوالق وحضرموت، فإنها تسلك طرقاً محفوفة بالمخاطر الجسيمة. إذ عليها أن تمرّ بقبائل باكازم في (وادي المعجلة)، وهي قبائل متمردة على السلطة في أحور وتعيش حالة حروب دائمة ضد السلطات، ما أوجد حالة من الفقر والمجاعة دفعتهم إلى قطع الطرق في ردّ فعل على السلطات ووسيلة لسد احتياجاتهم بعد أن عجزوا عن الزراعة وممارسة حياتهم في استقرار، فيعترضون طريق السيارات وطريق ركابها وينهبون كل ما بحوزة أصحابها وركابها من أموال، ومن طريف ما يُحكى عنهم أنهم عندما لا يجدون مالاً مع أحد السواقين يزجرونه قائلين: وين شقاك يا الخام[1]؟!!

مقالب طيحل

في بداية الخمسينيات من القرن الماضي تجمعت أعداد من أفراد هذه القبائل الشرسة وتقدمت إلى مركز (لحمر) القريب منهم الذي يقع بين دثينة والمحفد، يتقدمهم الشيخ أحمد بوه وبعض المشايخ والقبائل من آل باكازم، ودخلوا على المسؤول في الموقع الذي لم يكن فيه إلا ثلاثة جنود، وعلى رأسهم مسؤولهم عبد الله سالم طيحل، وطلبوا باسم القبائل الدعم من حكومة «أحمد السركال» كما كانوا يسمون الإنكليز وإلا فإنهم سينهبون المركز.

1- أي أين أموالك من العمل والشغل؟

كان مسؤول المركز رجلاً ذكياً وخبيثاً، كما يقال، وفوق ذلك كان يعرف مدى تخلف هذه القبائل وعدم اتصالها بالحضارة والمدنية ووسائلها الحديثة. فبعد أن طيّب خاطرهم وقدم إليهم الشاي، خطرت له فكرة ذكية للتخلص من الموقف الحرج الذي وجد نفسه فيه.

كان عنده ساعة منبه، فأدار مؤشر التنبيه بحيث يرنّ الجرس بعد وقت معلوم.

132 – منبه

وبعد عشر دقائق تقريباً دقّ جرس الساعة، فطلب منهم مسؤول المركز السكوت، فسكتوا جميعاً، وبعد أن صمت الجرس رفع الساعة إلى فمه وادعى أنه يتحدث إلى شخص في الطرف الآخر، وأخذ يصيح بصوت عالٍ حتى يسمعه الكل:

– آلو. آلو المعتمد البريطاني، المندوب السامي البريطاني، عندي قبائل باكازم، وعلى رأسهم أحمد بوه، يطلبون المساعدة، أرسل لنا بنادق وسلاحاً وذخيرة.

وما إن سمعوا ذلك حتى قالوا:

– قل له أن يرسل لنا سكراً وشاياً ودقيقاً وتتن (تبغ).

وصاح فيهم:

– اسكتوا. خلوني أعرف أتكلم مع المندوب السامي البريطاني والمعتمد البريطاني.

قال الشيخ أحمد:

- وكلم الملكة إليزبيه أننا «لبا» (نريد) «سبار» (مؤن غذائية).

فضغط مسؤول المركز على مفتاح الساعة، وقال: انتظروا.

ورنّ جرس الساعة من جديد.

وقال مسؤول المركز:

- جاءكم الفرج. الملكة بنت جورج والمندوب السامي والمعتمد با يرسلوا لكم بعد بكرة ألف بندق وألف كيس سكر وألف كيس دقيق وشاي.

وصاح واحد من الحاضرين:

- ورصاص.

قال المسؤول:

- بريطانيا وافقت لكم على كل شيء، المهم روحوا وبلغوا أصحابكم، وإن شاء الله الرد بالموافقة.

عادوا إلى قبائلهم ليبلغوا البشرى، وغادر عبد الله سالم طيحل إلى عدن هارباً. وكان هذا الرجل معروفاً بمقالبه العديدة.

أما قبائل باكازم، فقد عادوا إلى المركز حسب الموعد لتسلم البنادق والرصاص وبقية المؤن، لكنهم بدلاً من وجود طيحل، وجدوا مسؤولاً آخر في المركز، وقال لهم المسؤول الجديد إن الرد تأخر وإن طيحل سافر إلى عدن لمقابلة الملكة والمعتمد البريطاني والمندوب السامي، وما عليكم إلا الصبر حتى يرجع من عدن.

عبد الله سالم طيحل

وبعد هذا المقلب طلب طيحل الانتقال إلى مكان آخر، فنقل إلى مركز الجوف بالقرب من لودر التي يسكنها الشيخ عبد الله الحامد الذي أصبح فيما بعد وزيراً العدل في حكومة الاتحاد. وصادف أن الحامد كان يستعد لاستضافة المعتمد البريطاني والسلطان صالح بن حسين العوذلي وزير الأمن الداخلي في حكومة الاتحاد، وطلب من طيحل أن يعلمه أفضل كلمة إنكليزية ليرحّب بها بالمعتمد البريطاني عندما يستضيفه في بيته فقال له: أحسن كلمة عند النصارى (دونكي)[1]، قل له أهلًا يا دونكي. ولما كان الحامد رجلًا لا يقرأ ولا يكتب، وبالطبع لا يعرف الإنكليزية، فقد حفّظ الكلمة لأولاده. وعندما جاء المعتمد رحبوا به كما علمهم طيحل.

133 – الشيخ عبد الله الحامد وزير العدل في حكومة الاتحاد عن ولاية دثينة

أهلاً وسهلاً يا دونكي تفضل، الأكل يا دونكي، على رأسي يا دونكي، اشرب يا دونكي، كيف حالك يا دونكي؟ والمعتمد البريطاني صامت بامتعاض حتى نهاية الزيارة، وطلب منه أن يرافقه إلى داره التي كانت مقراً للسلطان العوذلي، «في زارة» عاصمة السلطنة العوذلية. وهناك قال له: «والله يا شيخ عبد الله أنك تعرف إنكليزي»، هل تعرف ماذا كنت تقول لي؟ قال له: لا، فقال له المعتمد: طوال الوقت وأنت تقول لي يا حمار. أهلاً يا حمار. كل يا حمار. إشرب يا حمار. مع السلامة يا حمار. فقفز الحامد وهبّ واقفاً

1- الكلمة طبعاً معروفةdonkey ومعناها حمار.

وقال: أنا عبد الله عملها بي بن طيحل! وقال إنه لم يكن يعلم بأن كلمة دونكي معناها حمار. وقال إنه طلب من بن طيحل أن يعلمه أحسن كلمة ترحيب عند النصارى فعلّمه هذه الكلمة. وعندما استدعى ابن طيحل قال: أنا لا أعرف الإنكليزية، ولكني سمعت أن كلمة دونكي كلمة طيبة.

زارة – عاصمة السلطنة العوذلية

وعلى إثرها طرد ابن طيحل من الحرس الاتحادي وانتقل للعمل في مصفاة عدن مع بداية الخمسينيات.

وعلى ذكر الملكة إليزابيث، فعند زيارتها لعدن ولتجنب إشكالية رفض مشايخ القبائل الانحناء لها عند مقابلتها، فقد فكر الإنكليز بوضع حبل عند دخول المشايخ لمصافحة الملكة، والحبل يرتفع عن الأرض مسافة نحو متر ونصف متر، لكي يحني كل واحد منهم رأسه، ولكن تلك الحيلة لم تنطلِ على أحدهم، فلما رأى الحبل مانعاً بينه وبين الملكة امتشق جنبيته وقطعه وسلّم على الملكة.

بعد هذه الذكريات عن السيارات وباكازم وطيحل، قال العم سليمان وهو يضحك: بر طيحل شيطان، الله أكبر عليه!

وهذه إشادة وليست شتيمة، ونمنا بعد ذلك حتى الصباح، وانطلقنا في رحلتنا نبتعد تدريجاً عن الساحل باتجاه وادي حسان. ظهرت على يسارنا مدينة «زنجبار» التي بدأت تنهض مع بدايات ازدهار دلتا أبين، وكان هذا مع بداية زراعة القطن وبعض المحاصيل الأخرى، وكان على يميننا قرية آل شداد والمخزن والشيخ سالم والشيخ عبد الله، لكن لم يسعفنا الحظ

للتوقف في زنجبار، إذ واصلنا طريقنا إلى قرية «المسيمير» التي يحكمها أحد أمراء السلطنة الفضلية ويدعى فضل محسن. ولا أدري لماذا وقع الاختيار على هذه القرية كمحطة نتوقف عندها ونبيت ليلتنا فيها، ولكن يبدو أن رفاق الرحلة قد تعودوا المرور بهذه المدينة التي بدأت تنهض وتتطور بفضل زراعة القطن ونشاط محلج القطن وحركة المواصلات.

134 – مدينة زنجبار الجديدة (عاصمة محافظة أبين)

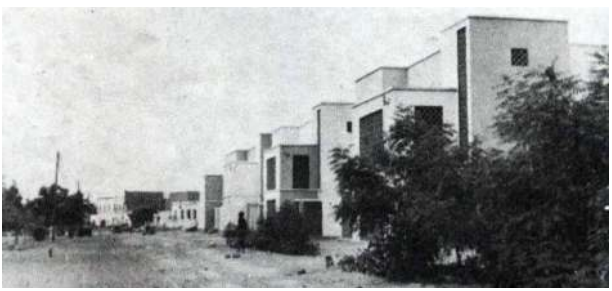

135 – منظر قديم لمدينة زنجبار

فهي قرية قال فيها أحد الساخرين الخبثاء (مع احترامي لها ولأهلها) هي قرية تستكثر الطيور أن تمرّ عليها!!

جبل خنفر

وفي الطريق إلى المسيمير اعترضنا طريق سيارات ترابي يربط بين زنجبار وجعار وجبل خنفر، وشاهدنا سيارات اللاندروفر وسيارات أخرى.

136 – منظر من أعلى جبل خنفر وتظهر فيه مدينة جعار

قال العم سليمان: على ذكر خنفر، تعرف يا بوك أن واحداً اسمه محمد ناصر امجعري من أهل جعرة «شوعي» هرب إلى البيضاء عام 1953م من سوء معاملة سلاطين العواذل والحكام الآخرين.

وقالوا إن أهل جعبل أرسلوا إلى حاكم البيضاء، واسمه صالح بن ناجي الرويشان، أن الجعري مكلف من قبل السلاطين للتجسس على اليمن، وبعدها شكّوا فيه وقالوا إذا أنته صادق معنا وأنته ضد الإنكليز أقتل واحد بريطاني في جبل خنفر، وتعال من شان نتأكد من صدقك أو كذبك.

137 – التقطت هذه الصورة من أعلى جبل خنفر وإلى جانبي محمد حسين عشال وسليمان ناصر عام 1996، وقد تذكرت مقتل الضابط البريطاني في هذا المكان كما أشرت إلى ذلك

قال برطم: وبعدين؟

قال العمّ سليمان: امجعري حلف ما رجع من هذا امشرط وتوكل على الله والنبي ومشى إلى جعار لقتل امنصراني، منها أجر ومنها شرط.

138 – حاكم البيضاء صالح بن ناجي الرويشان

قال: وبعدين دخل إلى جعار وطلع جبل خنفر المطل على جعار، وكان الضابط البريطاني يسمر هو وجماعته قدّام أمبيت يسكروا، وقفز بر امجعري مثل امنمر وعشر عليه ببندق جرمل «طالب شر وقتله»[1].

سأل أحدهم: أين قوات الحكومة؟

قال: ما قدروا عليه ولا مسكوا له طريقاً أو طرفاً لما وصل البيضاء.

قال برطم: والله إن أبوه نمر، رحمة الله عليه وعلى أمه التي ولدته.

قال عمي سليمان: وبعد ذلك أصبح مع الشوعية في البيضاء مثل علي معور الربيزي وناصر السقاف وفضل قنان وحسين عبد الله امجعلي ومحمد علي امصالحي.

قال: ولماذا سموهم شوعية [2]؟

قال: الذي سماهم شوعية الشيخ علي هادي، وهو رجل داهية وضد أهل

1- بندقية ألمانية، شارك في العملية عوض صالح الربيزي.

2- عمدت السلطات في الريف إلى إطلاق كلمة (شيوعي) وينطقونها (شوعي) على المتمرد وأشاعوا أن الشوعي والبلشفي لا يعرف قيوداً ولا يحترم حدوداً، فقد يصل به الأمر إلى أن يتزوج أخته.

امجعلي وعاقلهم حسين امجعلي الذي رفض علي هادي يعترف به عاقلاً على أهل منصور وأهل باجعم وأهل وليد وأهل شعيث وأهل حسنة كلهم.

وقال الشاعر محمد عوض المشطر:

ألا يا لومتك باللوم يا دي ابنك رشاد
رضيت في شامخ لبيس الحيد لما نـاد[1]

وقال شاعر آخر:

يـا شـوعـيـة شـوعـي فـي الـدنـيـا
لـمـا يـبـان الـحـق والـبـاطـل
لا سـار عـاقـلـكـم مـن الـدنـيـا
لـي مـنـعـكـم كـل يـقـع عـاطـل[2]

قال: والله ما فهمت ماذا معنى شيوعية.

قال عمّي سليمان: ولا أنا.

قلت لهم: إن الإنكليز يحاولوا تشويه سمعة أي ثائر ضدهم وضد الحكام في المحميات ويطلقون عليه اسم شيوعي أو متمرد أو مرتزق ويشبهون الشيوعية عندنا مثل الشيوعية في روسيا بلاد خرتشوف كما نسمع من الإذاعات. حتى صار مجموع القبائل الخارجين على طاعتهم يسمون بالشيوعية، وجرى الأمر بين الناس مجرى العادة دون معرفة المضمون الحقيقي لكلمة (شيوعي – شيوعية) ويتفاخر شعراء القبائل بانتمائهم إلى الشيوعية، فيقول شاعرهم:

والـشـيـوعـيـة مـا بـا تـهـونـشـي
لـمـا يـقـع مـقـدي مـن الـدولـة

1- ناد: وتعني اهتز في بعض المناطق في الشمال يسمي بعض الناس أن يسموا أبناءهم (شوعي) وذلك كتعويذة يطلق الرجل هذا الاسم على ابنه عندما يرزقه الله صبياناً ثم يتوفون، فينصح بتسميته اسماً يعتقدون أنه سيّئ، ومنه اسم شوعي لكي يعيش، وهي من المعتقدات الشعبية البالية.

2- أي التمرد على الإنكليز.

خـلـو الـوصـي يـنـزل مـن الـكـرسـي
لا بـــه وجـــع لازم يـــداوونـــه

وشاعر آخر يقول:

يـا ريـتـنـي شـوعـي مـع المتشوعين
بتشوع مـع الأحـمـر وعـوض الـزيـن[1]

قال برطم: لا، أنا سمعت أنهم ملحدون كفرة لا يؤمنون بالله، ايش يا سليمان؟

قال العمّ سليمان: أيش دخلنا فيهم، وهذا الكلام ما لنا فيه صالح.

ويبدو أنه تعب من السفر والكلام طول الطريق عن نعمة وعافية وغير ذلك من القصص. ولكنه قال: عندي لكم آخر كلام عن محمد ناصر الجعري.

وقال شاعر من آل فضل عند إطلاق مجموعة من الشيوعيين النار على بيت أحمد العنبري في جيزة آل قنان التي تقع بالقرب من مودية وسقطت عمامته فقال:

بن حيدرة ويـن جت رجـال الشيوعيات
ما معوزي عاره على الله يا تريب الجات[2]

قال العمّ سليمان: إن الإنكليز والإمام أحمد اتفقوا على الثوار ومنعوهم من القيام بأية عمليات ضد الإنكليز، ولكن الثوار رفضوا وقاموا بعمليات في لودر، وعندما عادوا إلى البيضاء أمر نائب الإمام محمد عبد الله الشامي بسجن محمد ناصر الجعري وعلي عبد الله الشعوي وآخرين وكبلوهم بالقيود وسلّموهم للضابط السياسي البريطاني في مكيراس.

وقد قال الشعوي بيتين من الشعر بهذه المناسبة ضد النظام الإمامي في شمال اليمن:

1- الأحمر وعوض الزين، إشارة هنا إلى شيخين من زعماء قبيلة العميسي تمردا على السلطات الاستعمارية والمحلية.

2- تريب الجات: الحرس القبلي.

يـا أمـــراء الـلـــواء كـيـف سـويتوا
يـــوم سـلّـمـتـوا الـمـسـلـم لـكـــافـر
لا قـــده شـــرعـكـم يـصـبـح عـلـى ذا
قـــل لـــمـــن كـــان لاجـــئ يـسـافـر

قال برطم: عابوا أهل اليمن في أصحابنا عاب الله فيهم.

قال العمّ سليمان: نعم عاب الله فيهم ولكن الله مع المظلومين.

وقلت لهم: هذا عيب صحيح، وهذه هي السياسة، وكل مسؤول يعمل لمصلحته ولمصلحة بلده.

وقال العمّ سليمان: نحن ما لنا دخل فيهم وفي سياستهم، وشرع القبيلة لا يسمح بهذا العمل.

وقال العمّ سليمان إن سالم صالح عندما ذهب إلى اليمن للحصول على دعم «الشامي» حاكم لواء البيضاء لمقاومة الاحتلال البريطاني قال أمام حاكم البيضاء الشامي:

بـر صـالـح أحـمـد جـاك يـا الـشـامـي
قـالـوا يـبـونـي اكـفـر ونـا إسـلامـي
عـشـريـن طـيـارة تـقـنـبـلـنـا
واسـقـت بـلـدنـا مـن «قـلـم» حـامـي
(يسمى الحديد بالقلم في لغة أهل دثينة)

قال العمّ سليمان: وانته يا برطم أيش با تسمعنا؟

قال برطم: با سمعكم من شعر أبو نبشة:

قـال أبـو نبشة أبـدع هـات يـا هاجسي
ساعة وهي تجدب الدنيا وساعة خضيرة
يـا علي هـادي أتعبتك وأنـا بـي تعب
من شاغل الحرب هـذا لك وهـاذاك ليّه
سـاعـه الـظـهـر ياتينا وسـاعـه غبش
وسـاعـه العصر كـلٌّ ضربنا قـد وحيّه

ضربنا حَــنّ وانــتــو ضربكم نسـمعه
مـن تحت مــرّان ذي حلت بـه الكافريّة

قال برطم: يا سليمان، هل معك من شعر الربيز؟

قال العمّ سليمان: قال حيمد الربيزي بعدما ما مات علي معور عاقل الربيز:

يــا فـضـل عـبـدا لـلـه أمـيـر امحكمة
بـا حــذرك مــن أرضــنــا شعني حذير
لا حـد يـقـول إن شـي نقص فـي سومنا
شــع عــاد مـعـنـا دي يــوفــون الشبير

وقال أحد شعراء الربيز أيام انتفاضة الربيز محذراً الطائرات البريطانية التي استخدمت لقمع انتفاضة الربيز:

يابو جناحين أرفعي عمرش من ضوع معور لا يوطونش
با يكرفونش في لجى مرنة ما شي تخاتر با يداوونش

ويقال إنَ الشيخ علي معور شيخ آل ربيز ذهب إلى الإمام أحمد، وذلك لإحضار المساعدة من أسلحة وذخائر وأموال لمواجهة الإنكليز حيث كان الإمام أحمد يدعم القبائل في الجنوب للتمرّد على الإنكليز رغبة منه في السيطرة على تلك المناطق وضمها إليه، كذلك كان الإمام أحمد يقدم رواتب شهرية لشيوخ تلك القبائل التي تعلن تمردها على الإنكليز ودخولها في طاعة الإمام أحمد[1].

توجه الشيخ علي معور إلى الإمام أحمد وفي طريقه مر بدثينة «مودية» ونزل بها ودارت مساجلات شعرية بين شعراء الربيز وأهل فطحان وشعراء دثينة حيث بدأ الشاعر علي رامي، وهو شاعر قبيلة آل صالح الميسرية بقوله:

1- محمد ناصر الجعري: ذكر سابقاً.

حيا بمولى شي[1] يا درب الوشي
يا سدة المشرق ومفتاح الخدار
يا ذي قليت الحب لم اتكر بشي
لما قبلت امعوبلي يرجي جدار

الشاعر رامي هنا يمدح الشيخ علي معور وقبيلته واستبسالهم في قتالهم القديم مع العواذل حيث حققوا الكثير من الانتصارات وتمكنوا من تكبيد العواذل العديد من الخسائر.

وردّ الشاعر جازع مسعود الفطحاني قائلاً:

يا لعبد لسود دي كلامك ترجمي
كيلك تناشدنا على دي جاء وسار
شعنا[2] مع من حيث ما الداعي دعا
الباعلي مقدا الشوامخ والشرار

يطلب الشاعر جازع مسعود الفطحاني هنا من الشاعر علي رامي ألّا يذكره بماضي الاقتتال القبلي ويبلغه بضرورة الاتحاد لمواجهة العدو المشترك، وهو بريطانيا.

ويقول علي رامي مرة ثانية:

حيا بكم يا دي ولبتوا[3] عندنا
يا أهل الجبارة دي ترد الزامها
قد شفتنا بصرى وعينك دي ترى
ولا المغيب في الطرف لوامها

1- كلمة شي هو اسم منطقة الشيخ علي بن لعور شيخ قبائل آل ربيز.
جازع مسعود: شاعر متمكن ينتمي إلى قبيلة آل فطحان.
كيلك: وتعني لماذا.
2- شعنا: تعني نحن.
3- ولبتوا: صرتوا.

ويرد جازع مسعود ثانية:

حياك يا دي قلت حيا بالدخل
بأهل المراتب دي يبيتوا زامها
البنت جبتوها ورحبتوا بها
وتزوجت بأخوالها وأعمامها

ثم يقول علي رامي:

هذه حكومتنا ونحن منها
ذي كان مسماري قده مسمارها
ما حنا رعه[1] طيار يهوى بالسماء
يرمي قنابل من سليط النارها

قال برطم: ونعم رجال الربيز والله أن بوهم تيوس دوخوا بريطانيا وأتعبوها تعب.

وعند وصول آل أبو بكر فريد هاربين من البريطانيين إلى البيضاء، كان على رأس من استقبلهم النقيب صالح بن ناجي الرويشان نائب القاضي الشامي وحاكم البيضاء، وقد رحب بآل فريد، وقد قيلت العديد من الأشعار والزوامل في موكب الاستقبال على مشارف مدينة البيضاء، وكان من أبرز الشعراء المناضل الشاعر محمد فضل الصالحي الذي قال:

حي الله الليلة بلمتكم
يا ذي ربشتوا الكور واصبارة
رحب بكم بن ناصر الجعري
والحصن ذي حليت في ظبارة
قالوا لنا الطيار والعسكر
تصيح بكم غارة وراء غارة
ياريت والله من حضر معكم
باخد من النامـوس مقدارة

1- رعه: انظر.

وبعد هذا الحديث عن الجعري والربيزي وآل فطحان وآل الربيز والإمام والشامي، توقف الحديث بعد أن أنهكنا السفر والسهر ورأيت عمّي سليمان يمسك الخطام بيده ويصوت للجمل لكي يبرك بالقرب من بئر المسيمير، وكذلك عمل برطم، وإذا بالجمال تبرك والزبد يتطاير من فمها بسبب التعب والجوع والعطش، وهي تنظر نحو البئر والماء، لأنها لم تشرب منذ مدة طويلة.

139 – قربة ماء

قال العمّ سليمان وهو يمسح على رقبة الجمل العجوز: سبحان الله! عند الجمال الصبر لتحمل العطش أسبوع وأكثر، وخاصة في الصحراء.

وبدأت الاستعدادات للصلاة بعد سقي الجمال، وكان العشاء والمداعة والسهرة التي سـنتحدث عنها كما هو الحال في كل ليلة.

الفصل الحادي عشر

المسيمير القطن والغجريات

المحطة السابعة

حططنا رحالنا عند إحدى الآبار، كانت هناك بعض النسوة يستخرجن الماء ويسقين الأغنام والأبقار والماشية، وكان بعضهن يحمل الماء على رؤوسهن والماء يسيل على لباسهن وتظهر مفاتنهن قبل أن تستخدم وتظهر الملابس الداخلية التي تلبس تحت الملابس. وذهب أحد رفاق رحلتنا إلى البئر ليسقي الجمال ويجلب الماء للرجال، وأخذ يتحدث إلى واحدة من تلك النسوة، مدعياً أنه على معرفة مسبقة بها منذ وقت طويل، وأنه يرتبط بأسرتها بعلاقة قديمة، وأن أحد أفراد أسرته سمي باسم أحد أقارب تلك المرأة، إلا أن تلك التبريرات لم تهمنا كثيراً، ولم تعن الكثير لنا، فالذي كان يهمنا وجود الماء والطعام في ذلك المنزل الذي تدخَل وتخرج منه تلك المرأة، وكان يعني تغييراً مهماً في نظام رحلتنا الجاف.

وتذكرت قول الشاعر ماني الموسوس:

يا حـادِيَ العيسِ عَـرِّج كَـي أُوَدِّعَهـا
يا حـادِيَ العيسِ في تَرحالِكَ الأَجَـلُ
إِنّـي عَلى العَهدِ لَم أَنقُض مَوَدَّتَهُـم
يا لَيتَ شِعري بِـطـولِ العَهدِ ما فَعَلوا

140 – المسيمير – بعد شق الطرقات ودخول الكهرباء إليها

فجأة تغير كل شيء بالنسبة إلينا وإلى صاحبنا، وكانت هذه المرة الثانية التي لا نطبخ فيها طعامنا، وكانت المرة الأولى في شقرة في منزل السيدة سعدية، لكن كان علينا أن نعمّر المداعة التي هي أساس سهرتنا، ولا طعم للسمر إلا إذا كانت هذه العروس حاضرة بيننا.

وكان لرائحة تبغها الذي يحترق عبق خاص في سهراتنا وجلساتنا تلك، إن لهذه المداعة أو الرشبة مكانة خاصة، إذ إنها تُحفَظ في مكان خاص، ويُعتنى بها أكثر من الاهتمام ببقية زادنا من الطعام والسكر والشاي والماء في هذه الرحلة الطويلة المتعبة والجميلة في آن واحد.

وقد عشقت رائحة التمباك وتعودته، فأصبح جزءاً من طعامنا وشرابنا وسهراتنا، وكانت تلك المرأة تدخل وتخرج، تظهر وتختفي بين البيت والبئر والقافلة. المهم أن حياتنا تحسنت بفضل رفيق رحلتنا هذا، وقد طاب لنا المقام في هذه القرية عشرين ساعة كاملة، وهي أطول فترة قضيناها في أية محطة منذ بداية رحلتنا.

ولاحظت ونحن في هذه القرية مدى التطور الذي أخذ يدبّ فيها، حركة السيارات والحراثات والمضخات دخلت إلى القرية بشكل واسع مع بدايات النهضة الزراعية التي شهدتها دلتا أبين، وذلك باستصلاح الأراضي الجديدة وزراعة القطن لأول مرة، والذي يطلق عليه عادة الذهب الأبيض، كذلك شهدت زراعة الموز والخضار والفواكه وبعض المحاصيل الأخرى ازدهاراً.

141 – زراعة القطن في المنطقة

وهذا الازدهار الذي أصاب قرى الدلتا له علاقة بالقرار الذي اتخذته السلطات البريطانية بتطوير دلتا أبين وتبن بعد أكثر من مئة سنة من احتلالها عدن وبقية محميات الجنوب، وقد صاحب عملية زراعة القطن إنشاء المحالج في الكود وبئر ناصر. وقد ازدهرت زراعة القطن في أبين واستفاد منها كبار الملاك والسلاطين والأمراء وأصبحوا يشترون أفضل الملابس والعطورات والذهب لنسائهم في موسم الحصاد، ويصرفون ما في الجيب حتى يأتي ما في الغيب. وجرت العادة أن تصرف جمعيات زراعة القطن مبالغ للفلاحين كقدمة بعد زراعة القطن لتشجيع الفلاحين من أجل الاهتمام بزراعة القطن وجنيه وجمعه في أكياس توزعها للفلاحين مجاناً، ومن ثم تُقتَطَع المبالغ من قيمة القطن، وتسمى قرضة.

وقال الشاعر ناصر عبد ربه مكرش عن القطن وأسعاره:

ونحن في الخمسين نمشي بعطبنا
إلى ساحة الميدان من كل جانب
وركبنا الميزان أشول وبريه
وهذا يغالطنا وهذاك يكتب
ووا لنا الميعاد من شهر إلى سنة
ونحن ضباحه في التعب والتعذب
لا حول ولا قوة من الظلم والظلم
في نفس هذا اليوم من فين صلب

وبـعـد قطعنا الـعـطـب لا عـاد نـزرعـه
وصـبـح علينا الجيش بـأربـع كتائب
ونـحـن زرعـنـا الـقـطـن لا عـاد نـزرعـه
وزجـوا بنا فـي السجن جاهل وشائب

142 – زراعة القطن وجنيه في سلطنة الفضلي

143 – الأمير حسين بن عبد الله الفضلي ومدير محلج القطن الصاعدي

وقد نشر السيد محمد ناصر العولقي وثيقة من البرلمان البريطاني عن القطن وزراعته ولجنة أبين عام 1953م حيث تحدث وزير الدولة للمستعمرات البريطانية السيد أوليفر ليتيلون في جلسة البرلمان يوم 25 فبراير 1953م مجيباً عن سؤال أحد النواب بشأن وضعية لجنة أبين الزراعية وإنتاج القطن فيها خلال السنوات 1949م – 1952م فقال :

Mr. Lyttelon :

Production during the last four years totaled 17،877 bales of 400 lb. each and all have been sold، the total proceeds being £ 1،719،618. In addition، seed was sold to the value of £ 86،500 in 1951 and £ 54،870 in 1952. The Board has sufficient capital to meet its present requirements.

ترجمة ما قاله السيد ليتيلون:

«الإنتاج خلال السنوات الأربع الماضية بلغ 17, 877 بالة عبوة 400 رطل لكل منها (نحو سبعة ملايين ومئة وخمسين ألف رطل)، وقد بيعَت، وبلغ مجموع العائدات 1،719،618 جنيه إسترليني، وبالإضافة إلى ذلك، بيعَت البذور بقيمة 86،500 جنيه إسترليني في عام 1951م و54،870 جنيه إسترليني في عام 1952م. ولدى لجنة أبين رأس مال كافٍ لتلبية متطلباتها الحالية».

وكانت هذه الإحصائية في السنوات الأولى لبدء زراعة القطن في دلتا أبين وقبل أن تتوسع عملية استصلاح الأراضي فيها حيث أصبحت مساحة الأراضي الزراعية في الدلتا بعد انتهاء عملية الاستصلاح نحو خمسين ألف فدان، ووصل إنتاج القطن في أبين أواخر الستينيات إلى 30 مليون رطل في موسم واحد.

لقد كانت دلتا أبين قبل الاستقلال توصف بأنها أغنى مناطق الجنوب العربي بفضل إنتاجها الزراعي بدرجة رئيسية، وثروتها الحيوانية والسمكية ونظام الري الصارم والفريد، ثم صار ما صار في جعار وزنجبار.

144 – جني القطن

145 – الجمال تنقل القطن إلى المحلج

146 – محلج القطن أبين

147 – محلج الكود أبين

148 – جمرك وزن القطن اللحجي الطويل التيلة في الخمسينيات

القطن بانجناه

ولا شك أن ذلك كانت تمليه حاجة مصانع الاستعمار في إنكلترا إلى القطن الطويل التيلة، وقد غنّى الفنان فضل محمد اللحجي[1] أغنيته المشهورة من كلمات الشاعر عبد الله هادي سبيت:

149 – الفنان فضل محمد اللحجي

1– فضل محمد اللحجي: اكتشفه القمندان وهو في سن العاشرة تقريباً، وكان من أسرة فقيرة، واعتنى به عناية فائقة حتى أتقن مهنته، وكان من أبرز عازفي العود، وتروى عنه حكاية قيل إنه كان في إحدى المرات التي كان الأمير أحمد فيها يتأهب للخروج إلى بستان الحسيني مع مجموعة من الأصدقاء وفنانين وشعراء قاموا من مجلسهم ليذهبوا إلى الحسيني، وقام فضل معهم وقال الأمير أحمد لفضل: لا اجلس، أنت مريض والرياح ستؤثر على عيونك. عندها قال فضل: منع شلوني معاكم وبحس الأديب والفنان المرهف التقط الأمير كلمة «منع شلوني معاكم» فولدت أغنية:

ألا يا أهل الحسيني منع شلوني معاكم والنبي ما بفرق الزين
ألا يا أهل الحسيني منع شلوني معاكم ألا قلبي يباكم

بانجناه بانجناه بانجناه بانجناه
بانجناه من غصنه واهابوي من حسنه
يشفي القلب من حزنه
بانجنى الذهب الأبيض لا يَدْوَل ولا يأرض
عاده لا دَوَل بيّض
ذا صافي من البرعم لا يدحش ولايدرم
فوق الجرح ما يؤلم
وسط البودرة تلقاه والخدين تتلقاه
محلاهم ويا محلاه
محلاه في الخدود البيض بس القلب ما بيريض
يشتي دايماً تمريض
يا محلاه في المحلج كم له من مليح ابلَج
يرمي به ويدرج
والخدين تتضرج والنهدين تترجرج
والملهوف يتحرجج
لا با المطرز بتلّه لا ولا المخمل باثوب من ذي الوصل
جاهز متلّل مكمّل
بفعل لذا البدر منّه مقرمه ململ ذي داخل القلب حلّ
باجدد العهد الأول
عهد الصفا والوفا هيهات يتبدل نقضي السمر في القبل
لما يجي الفجر الأول
بانجناه
يا محلاه في المكبس يترصرص ويتجلس
يسلم لي الذي أسّس
منه ليتنا نلبس أبيض ناعم الملمس
يسلم لي الذي غرّس

ورغم أن كلمات قصيدة المبدع عبد الله هادي سبيت هذه كتبت بالعامية إلا أنها يمكن أن تكون تاج الشعر العربي في موضوع القطن، فهي على عاميتها لا تدانيها قوة تعبير وتصوير إلا قصيدة خليل مطران «هدايا العروس» التي قالها في القطن وجانياته، وقد غناها أيضاً: عبد الرحمن باجنيد وفيصل علوي ومحمد مرشد ناجي.

وكان المرشدي قد عمل في بداية شبابه في لجنة أبين للقطن.

أعادت المسيمير إلى ذاكرتي، وأنا فيها، أن أحد أبنائها تزوج امرأة من أقربائنا من بيت «خيران امعسل» وانتقلت للعيش مع زوجها (سالم بن صالح) وهو من أمراء هذه القرية، وكان من الصعب أن أسأل عنه أو عن قريبتي، فأنا لا أعرفها ولا أعرف زوجها، ولهذا فضلت عدم البحث والسؤال عنها، مفضلاً أن أبقى مع رفاق رحلتي على الحلوة والمرة كما يقولون، وكنت أجد كل العناية والرعاية والاهتمام من هؤلاء الرفاق، وقد نصحني بعضهم أن أسأل عن زوج قريبتي، فالقرية صغيرة ويمكن الاستدلال على بيته بسهولة، خاصة أنه رجل معروف، بل هو أحد أمراء القرية، ولا شك أن الكل يعرفه. وكنت أعلم أن الرجل شهم وكريم وسيرحب بي وبمن معي، غير أنني فضلت محطة البئر على منزل صهرنا الأمير.

الحياة هنا بسيطة وجميلة وبلا تعقيد، الكل يفكر في رحلة الأمس وسفر الغد والاستعداد للرحلة إلى عدن التي باتت تقترب. أخذ البعض يتحدث عن عدن، عن «الشيخ عثمان»، عن بائعات الخمير وعن الشيخ الدويل والسيسبان وحافة القاضي ودار سعد والهاشمي. ويبدو أن الشعور بأننا بتنا قريبين من عدن قد أثار هواجس البعض منا وذكرياته. ولا شك في أنها ذكريات بريئة لا تتجاوز الكلام والسلام.

لم يكن حديثهم يهمني كثيراً، فأنا أفكر في الطريق إلى عدن، بينما كانوا مشغولين بأشياء أخرى. وكالعادة راقنا السهر هذه الليلة أيضاً فجولتنا في الأفكار وفي الأماكن وفي معرفة الجديد لا نهاية لها.

إن الإنسان ميّال بطبعه إلى المعرفة، وكلما عرف شيئاً، أدرك أن هناك أشياء كثيرة عليه أن يعرفها، حيث تختبئ كنوز المعرفة، وبعد ذلك يكتشف أنه لم يعلم إلا القليل مما ينبغي له معرفته، ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ صدق الله العظيم.

أرض الحاس والحسحاس

لكن الذي عكّر مزاجنا، انتشار البعوض بأعداد كبيرة حول النار وحولنا، ويسمونه في أبين «الحاس» (البعوض)، ويكثر في هذه المنطقة بسبب كثرة المياه والمستنقعات واستصلاح الأراضي الجديدة في أبين. وعندما اشتكيت من لدغ البعوض، قال العمّ سليمان: ما سمعت بقصة التاجر الذي سافر إلى عدن وكوّن ثروة فيها، وعندما أراد العودة إلى بلاده وضع كل ثروته على الجمال وحط الرحال بوادي أبين (وادي بنا) القريب من زنجبار، وجاءته السيول القادمة من شمال اليمن، وفقد بضاعته وماله وجماله ورجاله، وقال هذا التاجر الغني الفقير: (أبين أبين، أرطب وألين، أرض الحاس والحسحاس والكيد والنكد، والظلم الشديد، لا حيها سالي ولا ميتها شهيد، خيرها إلى الحجلين، وشرها إلى الأذنين، شابها معلول، وشاجعها مقتول).

150 – مع السلطان أحمد عبد الله الفضلي

حضرة الأخ علي ناصر
حياك

كنت اليوم في السفارة اليمنية و سمعنا أنك في القاهرة وصلت إلى مكتبكم و لم نجدكم أنا احتمال بكره لسافر إلى بلد الحاس والحسحاس والظلم الشديد لاحيها سالي و لا ميتها شهيد شاجعها مقتول و شابها معلول المهم أتمنا لك اقامة طيبة و بأحاول اتصل بيك من ثاني بالتلفون أخيك أحمد الفضلي

2000 /9 /28

طُبعَت هذه الرسالة كما كتبت بخط يده وصفاء سريرته.

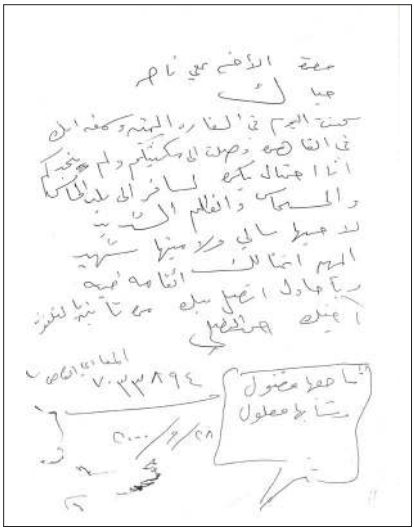

151

إننا والحمد لله لم نحطّ رحالنا بوادي أبين حتى لا يصيبنا ما أصاب التاجر، والحاس في المسيمير أهون من مصيبة التاجر، فنحن مرتاحون وأنا أسمع الآن أصوات مزامير الغجر وطبولهم. وأفضل السهرات هي التي يحييها الغجر أو (المعن) كما يطلقون عليهم في دثينة. إن هؤلاء الغجر لا يقيمون في مكان واحد أكثر من شهر أو شهرين بعد كل موسم زراعي، وقد سمعنا تلك الليلة أن مخيماً للغجر قد حل في المسيميرّ بعد أن انتقلوا من بيحان ودثينة والعواذل وزنجبار في طريقهم إلى دار سعد.

152 – جسر أبين (وادي بنا) بني في سبعينيات القرن العشرين من قبل جمهورية الصين

نصحنا أحد سكان المسيمير بالذهاب إلى الغجر «المعن» لقضاء ليلة جميلة في مخيمهم المتحرك وسط أنغام الشبابة والمزمار وصوت الطبل والمرفع، لكن العمّ سليمان قال أن لا مكان لنا في هذه السهرات التي تتطلب الذبح والقدح والمال والروح والمغامرة والسهر حتى شروق الشمس وسط منافسة بين العشاق. قال العمّ سليمان: بطلوا هذا الكلام وامسهر مع امشحذ، وخلونا نتكلم ونسمر وحدنا أفضل من السهر مع الغجريات الساحرات.

مضينا في غمار سهرتنا يلاحقنا عبق التمباك الحممي[1]، وفي السماء البعيدة تلوح النجوم المشرقة والفرح يكتسي اللون الوردي وعطر النساء الممزوج بشذا الفل والكاذي والياسمين يملأ المكان.

أي رائحة للمرأة في هذا المكان الشاسع ذي السقف البعيد الشديد الارتفاع؟ أي رائحة يمكن أن يطلقها الخيال على عري هذه الأرض، كأنها السيل يجري في وديان صحراوية عطشى فيحييها بالخضرة؟

معـــــن

وينادونهم بالشحذ وكلمة «معن» تستخدم في دثينة وفي العواذل لوصف الشحذ بمعناها المذكر والمؤنث. وللإناث يقال معنيات والشحذ في دثينة هم شحذ القبائل الذين يخدمون في الأفراح والأحزان ويقومون بإشعار سكان القرى من طريق قرع الطبول والمناداة، ويسمى «مطرّب» (بضم الميم وفتح وفتح الطاء وتشديد الراء وكسرها، ومعناها منادٍ) ويقرعون الطبول في الشرح والبرع، ويذبحون الأغنام ويُعدّون الموائد لضيوف القبائل، وهم مستقرون في دثينة، وليس لهم صلة بـ«المعن» (الشحذ المتنقلين). وفي أرض العوالق تسمية معن تطلق على بعض القبائل النازحة أصولها من شمال الجزيرة، وتعني أيضاً العوالق.

1- [290] كان معروفاً عند السكان بـ «الرقم واحد»، وكان يأتي من غيل باوزير بحضر موت.

153 – رقصة البرع في شمال اليمن

ويدعى الغجري شاحذ أي (دوشان) وهم يتنقلون بين دثينة والعواذل ومأرب وبلاد الرصاص بالبيضاء، وهم ينحدرون من مناطق خولان ومن مناطق أخرى في اليمن، فقد كان هؤلاء عبر التاريخ هدفاً للملوك اليمنيين القدامى، وكان مصدر رزقهم مدح الملوك والحكام والرقص للترفيه عنهم، وبمرور الزمن احترفوها كمهنة وشغل لهم.

154 – الدوشان[1]

1- للدوشان وظيفة أخرى، فهو يقوم بدور شاعر القبيلة المتخصص في نشر أمجادها ومآثرها من طريق التغني بها في المناسبات المتعددة والمتنوعة «زواج، ختان، أعياد... إلخ»، وفي مثل هذه الحالة يرفع صوته عالياً بادئاً كلامه بكلمات معهودة هي: «حيك، وحيا أبوك وجدك يا مكرم الضيفان. ويا...، ويا...»، ويسترسل في ذكر محامد الشخص الممدوح ومكارمه ومكارم والده وجده وقبيلته. ثم ينتقل إلى مدح شخص آخر، وهكذا حتى يكمل مديحه لكل من حضر تلك المناسبة.

حيثما تجتمع القبائل يبرز الدوشان أو الشاحذ، وفي يده رمح يلوّح به في يده اليمنى أمام الشخص المهم حتى يمنحه بعض النقود أو الملابس. وأصبح هؤلاء الشحذ يتجولون بين القرى والمدن حيث ينصبون خيامهم السوداء، وهي من شعر الماعز، ويعزفون ويرقصون. وعند سماع صوت الطبل والمزمار يتجمع الشبان والعشاق وهواة السمر حول هذه الخيام، يشاهدون الرقص والغجريات الفاتنات المبخرات المعطرات وهنّ ينضحن بالمسك، فيتنسم الهواء عبقاً مصحوباً بإثارة ذلك المساء مع سحب الغبار المخيمة على الساحة التي تتحول إلى دوائر أو دائرة تصول وتجول فيها أجمل الفاتنات اللاتي يلبسن الأحزمة والخواتم والحلي الفضية حول معاصمهن وسيقانهن «الحجول»، وهن يقرعن الأرض دقاً ويقفزن على دائرة الزحام، تمسك إحداهن بيد الأخرى وتشكلان عقداً في الهواء، وقد تمسك الفتاة بقرط أذنها ويدها الأخرى ممسكة بطرف ثوبها. وفي المقابل يمدّ الرجل يديه أمامه وكأنه يهتف لحب الفتاة، وهو جزء من الطقوس. وأحياناً يمسك بمقبض جنبيتة (خنجره) وهو يرقص في تحدّ للفتاة حيث يقفز أمامها وهو يحاول تقبيلها بصورة خاطفة وسريعة، ولكنه لا يتمكن من ذلك، فالفتاة منتبهة وحذرة. وفي بعض المناطق لا يقبّل الرجل حتى زوجته.

ويكون الرقص مفعماً بالركض والمطاردة واللمسات المتكررة بالغزل والعاطفة، وتلجأ الفتاة إلى إدارة مرفقها حولها لتحاشي القبلة، إلا أن الرجل يعمد إلى مباغتتها وخطف قبلة منها، ولكنها تبتعد عنه، وأحياناً تصده بمرفقها، وعندما يرقصون تهتف الفتيات الغجريات سرى.. سرى.. سرى.. أي أننا نسري ونقضي وقتاً ممتعاً الليلة نبا (نريد) سمرة ويحضر السمير أو السمّار مع كل ما يملكون.

155 – الرقص في بيحان

ويستمرّ الرقص ويسحب الرجل من جيبه أو كمره خمسة شلنات أوعشرة شلنات، بل أحياناً أكثر ويرميها في سلة الطبالين. وهكذا يبدأ التنافس بالرقص وبالمال وتعود الفتيات إلى حلبة الرقص أكثر من مرة ثم يتراجعن إلى أماكنهن فيرتحن قليلاً ويعدن إلى الرقص من جديد، ويستمررن حتى يشيخ الليل، ويجلس الرجال في الخيام وحولها، ويقومون بتوزيع بعض النقود للزوج والأم والأخت الصغيرة ويعطى المبلغ الكبير للفتاة للحصول على اهتمامها حيث يدفع لها ما لا يقل عن خمسين شلناً، وعندما يأتي رجل آخر إلى الخيمة يقول له الأخير: البيت لك والخلاء لي دار.

وإذا رغب شخص في امتلاك فتاة معينة لليلة واحدة يحضر خروفاً إلى الخيمة، فتقوم بعضهن بطبخ الخروف، ولا يحصل الضيف إلا على قطعة صغيرة، ويقضي الليل في الفناء داخل الخيمة، وإذا كانت الفتاة جميلة يعطى لها خمسة أو عشرة قروش ماريا تريزا، وقد يحظى أو لا يحظى بما يريد، وقد يخسر الإنسان ماله وغنمه وأرضه في سبيل الوصول إلى قلب وحب عشيقته[1]. وكان الشباب يتغزلون في الفتيات اللاتي أسماؤهن: بساط الريح و«أبو صليب» (اسم ساعة سويسرية) ولبنان ومرخة وخزنة، وكانوا يطلقون على أجمل فتاة «أوبل»[2]، وهي ماركة سيارات ألمانية مشهورة. ولعلها عادة يمنية عبرت عن نفسها في فترات لاحقة من خلال تسمية سيارات بأسماء فنانات مثل (ليلى علوي) و(مونيكا) و(مجري ماكينة وراء) وهو عبارة عن باص مجري ومحركه من الخلف، فهم يتغزلون بأرداف البنات ومؤخراتهنّ، وهو أمر لا يحصل في بلدان أخرى.

قال برطم: سمعنا عن بساط الريح وأوبل وأبو ساعة ولبنان، لكن ليش الشحذ يسمون بناتهم بهذه الأسماء؟

قلت لهم: بساط الريح أغنية لفريد الأطرش تتحدث عن رحلة على بساط الريح إلى البلدان العربية، يقول فيها: «بساط الريح يا بو الجناحين مراكش فين وتونس فين» وإلخ.

1- وهذا حال الغجريات في كل مكان من العالم، فهنّ لا يعشن لأحد.

2- كان وكيلها في عدن بول رايس الفرنسي.

قال العمّ سليمان: والله ما فهمت شي من هذه امهاري، بس قل لنا أيش معنى أبو ساعة؟

قلت: هذه ساعة جميلة اسمها أبو صليب[1] أتوا بها من سويسرا.

156 – ساعة أبو صليب

قال: وهذه ما فهمتها أيش دخل امساعة في امشاحذة؟ ولم أعلِّق عليه.

وأتذكر في إحدى زياراتي لاحقاً للشحر في «الاحتفال السنوي للشهداء السبعة الذين استشهدوا في مواجهة البرتغاليين» أن إحدى الراقصات بالزي الشعبي كانوا يطلقون عليها «أم صليب»، وكانت من أشهر راقصات الفن الشعبي تلك الفترة.

ثم قال: ما معنى أوبل؟

قلت: هذه سيارة ألمانية جميلة وصلت إلى بندر عدن وجعلت الناس فيها يتمنون امتلاكها، قائلين: **با يفتح الله وبا نشتري أوبل!**

157 – سيارة أوبل 1957

1- اسمها الحقيقي (ويست إند) West End.

قال: **وأيش دخل امشاحذة في امسيارة؟**

قلت: إنهم يشبهونها بها لأنها جميلة.

قال: السيارة حديد والحرمة لحم ودم وأنا ما فهمت كلامك.

قلت: عندنا يقولون فلان أسد ونمر وذئب وكلب...إلخ.

قفز برطم وقال: وأيش معنى لبنان؟

قلت: إنها جميلة مثل لبنان في بلاد الشام، وأعتقد أنهم سموها بأغنية لبنان عروس الكون، أي إنها جميلة وعروسة مثل لبنان.

قال: هذا كلام الشبان الطايشين الذين يسهرون مع الغجريات الشاحذات كل ليلة، وهذا حرام عليهم وعلى أهلهم الذين يسمحون لهم.

ونتيجة هذه العلاقات بين الشبان والغجريات تنجب بعضهن فينسب الابن إلى أمه ويصبح ملكاً لها، وأحياناً يجري التخلص من الحمل بعلاج الكافور أو بتناول العسل والتمر ومرق لحم سمك القرش، ويؤدي ذلك إلى الإجهاض أو التعجيل بالولادة الشرعية أو غير الشرعية، وأحياناً بالتدليك أو بالضغط على البطن والجسم، وهذه المعلومات استناداً إلى مذكرات الضابط السياسي سرجنت الذي عاش في مودية قبل الضابط السياسي المقيم السيد عبد الله حسن جعفر الذي وضع أول لبنة للإدارة في مودية. المهم أن الشحذ يستمرون أحياناً لأكثر من شهر يعيش فيه السكان ليالي السمر والرقص والغناء والتسلية مساء كل يوم، فهذه متعتهم السنوية، وعند مغادرتهم يخيّم الحزن على قلوب العشاق، وبعض العشاق يرحلون مع المعن لمواصلة سهراتهم ومغامراتهم مع عشيقاتهم ويعودون إلى قراهم وأهلهم بعد أن يخسروا كل ما يملكونه، ولكن هؤلاء الغجر لا يسمح لهم بالرقص في شهر رمضان الكريم.

ومن القصص المشهورة عن هؤلاء الغجر التي رويت الليلة، رغم أنني كنت أعرفها من قبل، أن أحد الضباط أو المستشارين التابعين للمعتمد البريطاني حاول مع إحدى الغجريات أكثر من مرة، مستخدماً سلطته وماله وسيارته اللاندروفر الوحيدة التي تظل واقفة عند خيمتها، وأيضاً شبابه ووسامته وسمعة أسرته، ووضع كل هذا في الميزان في سبيل أن يستأثر بأجمل فتاة في مخيم الغجر مخيم العشق، وزاد من اهتمامه بها أن البعض

كان يتحدث عن جمالها الفائق وعن نسبها إلى أحد سلاطين العواذل، والبعض يقول إن أباها من أشراف بيحان.

وبعض الشحذ يقيمون عادة بين بلاد العواذل وبيحان تحت زعامة امرأة يقال لها (مرخة). المهم أن الضابط العاشق خاب أمله في الفوز بقلب الغجرية الجميلة وانهزم وغادر مخيم العشق ليبحث عن فتاة أخرى، وهذه المرة في مودية حيث يقيم، إذ استخدم الوسائل والنفوذ الذي بيده، السلطة والمال والجمال، وقد عمد بعضهم إلى ترتيب حفلة خاصة له في أحد المنازل التي تسلل إليها خوفاً من أن يراه أحد من السكان المعروفين بأنهم محافظون بطبعهم، لكن لسوء حظه، لمحه أحد المواطنين عند الساعة السابعة مساءً وهو يتسلل إلى منزل إحدى النساء، فذهب الرجل لإخبار الجميع، فإذا بسكان القرية كلها يتجمعون حول ذلك المنزل، وفي مقدمتهم الشيخ المصلح محمد سعيد هيثم والرائد حسين عثمان عشَال، وبعد مفاوضات طويلة أمكن فك الحصار عن العاشق السيئ الحظ، الذي خسر في المرة الأولى ماله في مخيم الغجر، وفي الثانية خسر كل شيء، سمعته وسلطته ومنصبه، ووصلت قضيته إلى المعتمد البريطاني وإلى الحاكم البريطاني في عدن، وأُفرج عنه مقابل إخراجه من مودية إلى الأبد. وكانت فضيحة وأصبح الناس يقولون: «كفضيحة الضابط السياسي حسن فضل».

158 – راقصات غجريات

قضينا وقتاً ممتعاً في المسيمير، وكان علينا أن نشدّ الرحال مرة أخرى قبل الغروب، مخلِّفين وراءنا ذكريات جميلة.

كنا فرحين بعد أن صارت خطواتنا تقترب من عدن وتخيلت أنوارها ومبانيها وأهلها الطيبين. كنا نحلم بالوصول إليها بأسرع ما يمكننا ذلك، وأخذت تشغل تفكيرنا أكثر مما كانت تفعل ذلك منذ بداية هذه الرحلة.

الفصل الثاني عشر

كائن أسطوري له رغوة وزبد

في الجانب الآخر كانت ذكرياتنا عن الوقت الجميل الذي قضيناه في تلك القرية التي تركناها للتو، البئر والمرأة والناس والوقت المريح. وكان صاحبنا يلتفت إلى الخلف خلفه كأنه ترك قلبه أو شيئاً عزيزاً عليه. بينما القافلة تبتعد بنا، وفي قلب كل منا ذكرى جميلة وأسرار لا يعرفها الآخرون من رفاق الرحلة.

انطلقنا من جديد نقترب حيناً ونبتعد حيناً آخر من ساحل أبين الذي تغنى به الشعراء والمغنين لروعة جماله وسحره وبهائه، والذي يمتد من صيرة بعدن حتى أبين. البحر أمامنا أشبه ما يكون بكائن أسطوري يمتد دون نهاية: كائن أزرق جميل له رغوة وزبد أبيض يطوح به ثم يستعيده في حركة مستمرة وهو يرعد ويعلو هديره. وما لبثنا أن سلكنا طريقاً آخر بعيداً عن البحر.

من «المسيمير» كان انطلاقنا في المساء، وكانت وجهتنا النهائية بندر عدن مروراً بالخاملة والمحنابة والعماد فـ«الشيخ عثمان».

هذه المرة خلفنا وراءنا الجبال الجرداء والصحراء الصفراء، وكانت المساحة بين المسيمير والخاملة تكتسي بعض الخضرة، وهناك بعض المزارع والأشجار وأعشاب «الصداع» التي تنبت في السواقي والأودية والأطيان، ويصعب اقتلاعها، تماماً كحشائش «الخولة» المعروفة لدينا في دثينة.

كنا نسير خلف الجمال، وأحياناً على ظهورها، وبالأحرى كنا نسير وراء ذلك الجمل الأسطوري، وقد أصبح قائدنا بلا منافس منذ بداية الرحلة. علينا أن نقطع المسافة في ظلام الليل، وكان هذا الجمل العجيب يسير باطمئنان في طريقه الصحيح كأنه يهتدي ببوصلة أو بنجم في السماء، ولولا ذلك الجمل

لتهنا في الصحراء، أو ربما طالت طريقنا في تلك الدروب الوعرة بين الجبال أو تعثرنا في صخور جبال العرقوب.

الألعاب الشعبية

تحدث العمّ سليمان ونحن نسير في الطريق بين المسيمير وعدن عن الألعاب المسلية في منطقتنا، التي لا تقتصر على منطقة دثينة فقط، بل في معظم مناطق الجنوب، والتي تمارس عادة في الليالي المقمرة أو بعد صلاة العصر، وفي المناسبات السعيدة كالأعياد والزواج ومواسم الحصاد، وقبل كل شيء أيام السلم والصلح بين القبائل. ففي أيام الحرب لا مكان للهو واللعب.

وفي بلادنا الكثير من الألعاب المسلية التي توارثها الأبناء عن الأجداد، ومعظمها تركز على تنمية المهارات الجسدية والعقلية للصبيان والشباب وتمنح أجسامهم القوة والمرونة والقدرة على التحمل.

لعبة الهجة[1]

وهي من أهم الألعاب التي يمارسها الأولاد والشبان في منطقتنا، وهي لعبة تتطلب القوة والسرعة والمهارة واللياقة البدنية العالية، حيث تستمر اللعبة لفترة قد تصل إلى خمس ساعات أو أكثر أحياناً، وتمارس على رمال الوادي الناعمة والرخوة التي تتطلب مجهوداً كبيراً من اللاعب للانطلاق بسرعة على هذه الرمال الناعمة. ويلعب الهجة مجموعة من الشبان والرجال ينقسمون إلى فريقين متساويين، كل فريق يتكون من عشرة لاعبين تقريباً قد يزيدون أو ينقصون أحياناً، حسب العدد المتوافر من الراغبين في اللعب. فريق يسمى (الرتّابة) أي الماكثين أو المدافعين الذين يشكلون ما يشبه الدائرة، ووجوههم إلى خارج الدائرة ومتجهة نحو الخصوم الذين يقوم أفراده بالدوران حولهم، بينما ظهور بعضهم مُدارة إلى بعضهم الآخر يحمي بعضهم ظهر بعض من هجمات الخصم. أما الفريق الثاني فيسمى «الشّواعة» وهم المهاجمون الذين يدورون حول الخصم وهم يرددون: هجو هجة.. هجو هجة.. يا هجو يا هجة.. يا هجو يا هجة، وبعدها يقولون: ألا رعه موت لا خذتني خذتني ألا رعه موت

1- يقابلها في عدن (يابين.. يابين.. يا مرحبا بالشُّبِّين).

يأخذ بني آدم، وغيرها من العبارات التي يتفننون في إبداعها حسب ظروف اللعبة وأشخاصها، ويستمر الدوران، وفجأة ينقضّ أحد المهاجمين بسرعة البرق على أحد المدافعين بعد الاقتراب من دائرة المدافعين (الرتابة) ويلمس جسم أحد المدافعين في كتفه أو رأسه أو أي مكان من جسمه مع تجنب لطم الوجه ويهرب بسرعة البرق بعد أن يصيح بأعلى صوته: (سرى) ليسمعه بقية أفراد فريقه ليتمكنوا من الهرب إلى «العير» (الملاذ) أو الهدف الذي يوجد عادة في طرفي الملعب وبمسافة تبتعد عن مركز الملعب تراوح بين مئتين وثلاثمئة متر. وعادة ما يحدد «العير» (الهدف) بعلامات واضحة تنتهي عندها مطاردة المدافعين للمهاجمين في الوادي، وإذا هرب كل أفراد الفريق المهاجم (الشواعة) ووصلوا جميعاً إلى «العير» (منطقة الأمان) دون أن يتمكن الفريق المدافع من الإمساك بأي لاعب من الشواعة يخرج من اللعب اللاعب الذي لمسه المهاجم، ويُعَدّ ميتاً. أما إذا تمكن المدافعون (الرتّابة) من الإمساك بأحد المهاجمين أو أكثر، فإن من يُمسك به يُعَدّ ميتاً إلا إذا تخلص من أيدي المدافعين التي أطبقت عليه وهرب إلى الملاذ. ولا بد أن يعترف المهاجم بالهزيمة ويقول (موت)، ويكررها مراراً حتى يتخلص من أذرع المدافع التي تكلبشه وتقيده، وعندها يخرج من اللعب، ويُعَدّ ميتاً وتستمر اللعبة حتى موت وخروج كل اللاعبين من أي من الفريقين لتبدأ اللعبة من جديد. ومن الأمور الطريفة في هذه اللعبة أن يدهن أحد اللاعبين جسمه بالزيت حتى يصبح جسمه لزجاً دبغاً، ويصعب على أفراد الفريق المدافع الإمساك به، ومنهم من يستخدم هذا الأسلوب أيضاً في لعبة المراجة (المصارعة الحرة). ومن أشهر من كان يقوم بذلك محمد علي شيخ.

لعبة الأدواس[1]

ومن الألعاب المهمة التي كان يمارسها الناس لعبة الأدواس، وهي لعبة تعتمد على القدرة على إصابة الأهداف بالحجارة. والأهداف في هذه اللعبة عبارة عن ثلاثة أحجار متطاولة الشكل، طول الواحد منها نحو شبر ونصف شبر وعرضها نحو أربعة بنان. يتناوب أفراد الفريقين على رمي أدواس الفريق الآخر بثلاث رميات لكل لاعب حتى ينتهي كل فريق من الرميات الخاصة به

1- تشبه إلى حد ما لعبة السبعة صاد في عدن.

لينتقل الدور في اللعب إلى الفريق الآخر، وعندما يصيب أحد أفراد الفريقين أحد الأهداف يمنح رمية إضافية، وعندما يكمل أحد الفريقين تدمير أهداف الفريق الخصم يكون فائزاً ويكسب الجولة، وتبدأ مباراة جديدة تُنصَب فيها الأدواس من جديد، ويبدأ الرمي الفريق المنتصر. لكن قبل ذلك يجري تبادل المواقع حتى يكون هناك عدل في ظروف اللعب. وفي هذه اللعبة تكون المسافة بين الأدواس نحو مئة متر قد تنقص أو تزيد بحسب مهارة اللاعبين وظروف التحدي بين اللاعبين. وهذه اللعبة مهمة لأبناء الأرياف، وتمنحهم القوة والمهارة في قذف الأحجار التي تُعَدّ من المهارات الأساسية للصبيان والشباب والرجال، بل وحتى النساء، ما يساعدهم في الرعي وحماية النفس من الحيوانات المفترسة وفي صيد الطيور والأرانب.

ويُقسَّم اللاعبون في الألعاب التي يتوزع فيها اللاعبون على فريقين متنافسين بطريقة عادلة تعتمد القرعة وتبدأ بالاتفاق على رئيسي الفريقين أولاً ثم يختار كل لاعب اللاعب الذي يساويه في القوة والمهارة ليكون خصمه في الفريق المنافس، ويبتعدان عن رئيسي الفريقين مسافة لا تسمح لهما بسماع ما يتحدثان به عند اتفاقهما على الأسماء الرمزية التي في ضوئها سيختار رئيسا الفريقين اللاعبين. وبعد الاتفاق على الأسماء الرمزية يتجهان إلى رئيسي الفريقين ويدا كل منهما على كتفي الآخر ويقولان بصوت عالٍ لرئيسي الفريقين: ماذا تختاران؟ مثلاً: السيف البتار أو البرق الصاعق؟ فيقول رئيس الفريق الأول: أنا أختار كذا. ويقول رئيس الفريق الثاني: وأنا أختار كذا، وهكذا يوزع اللاعبون بطريقة عادلة على الفريقين ما يجعل التباري بينهما قوياً ومتكافئاً وحماسياً.

لعبة المراجة[1]

ومن الألعاب التي يمارسها أبناء دثينة لعبة المراجة (المصارعة الحرة) وهي رياضة شعبية قديمة يتوارثها الناس أباً عن جد، وهي مهمة لتنمية القوة لدى الشباب ما يمكنهم من مصارعة الخصوم والتغلب عليهم. وكان من المعتاد كلما تجمّع الشباب والصبية أن يطلب منهم أحد الكبار»التراج» (التصارع) لتحديد الأقوى منهم.

1- وتسمى في عدن لعبة المدارجة.

لعبة «باهلوي» (باهضوي)

ومن الألعاب المسلية التي يمارسها الأطفال لعبة «باهلوي» بتضخيم اللام (باهضوي) وهي لعبة يمارسها الأطفال جماعياً دون الحاجة إلى الاقتسام إلى فريقين. وتمارس هذه اللعبة في الليالي المقمرة، فيجلس أحد الكبار على حجر في طرف الملعب ويقوم وفي يده عظمة قديمة بترديد كلمة باهلوي فيردّ عليه الصغار وامشهر يلوي (يضيء) ويكررها عدة مرات وهم يرددون الكلمات نفسها وعيونهم على يده لمعرفة أين سيرمي العظمة ثم يرمي العظمة بأقصى قوته باتجاه القمر والأطفال يتتبعون مسار العظمة ومنطقة سقوطها ثم يتنافسون على الاستحواذ عليها وتسليمها للرجل الذي يشرف على اللعبة، وتنتقل العظمة من يد إلى أخرى وأكثر الأطفال مهارة وخفة وقوة هو وحده القادر على إيصال العظمة إلى الرجل المشرف على اللعبة ويعتبر المنتصر. وهذه اللعبة أشبه ما تكون بلعبة كرة القدم الأميركية التي يتصارع فيها اللاعبون على الكرة لإيصالها إلى الهدف.

لعبة الوروار:[1]

لكل فريق في لعبة الوروار منطقة خاصة به يرسم فيها الخطوط والدوائر الصغيرة التي يحرص على أن تكون مُخفاة وغير مرئية حتى لا يكتشفها الفريق الخصم، وكذلك يفعل الفريق المنافس. وبعد الانتهاء من عمل الخطوط والنقاط والسلاسل والدوائر والأكوام الصغيرة من الرمال التي ترسم بالأصابع على التراب أو ترسم بأعواد الفحم على الجدران والأشجار وأي شيء يمكن الكتابة عليه في الوقت المحدد لإنجاز هذه المهمة يبدأ الفريقان بالبحث عن الخطوط المُخفاة للفريق الآخر ومسح هذه الخطوط وتدميرها. وبعد أن يعتقد كل فريق أنه اكتشف وأتلف كل الخطوط التي رسمها الفريق المنافس يكشف كل فريق عن الخطوط التي أخفاها والتي قد تكون في أماكن لا يتوقعها الفريق الخصم، وهنا تبدأ عملية حصر الخطوط والنقاط التي لم تدمر، ومن لديه عدد أكبر من النقاط يكون هو الفريق المنتصر، وهنا يرددون «من معه شي معه»، وأعتقد أن هذا ينطبق على السياسة والسياسيين في موسم الحصاد السياسي.

1- توجد هذه اللعبة في عدن، وتسمى كبن كبن.

لعبة الكرت

ومن الألعاب المهمة التي يمارسها الأولاد لعبة «الكرت»، وهي لعبة يُتقاذَف فيها كرة صغيرة من الجلد بأعواد ذات رؤوس غليظة تسهل قذف الكرة إلى أبعد مسافة ممكنة، ومن يُلمَس بعصا الشخص الذي قذف الكرة أثناء تدحرجها تصبح الكرة أمه، وعليه تخليصها من العصي التي تتقاذفها وإيصالها إلى نقطة البداية، أو إلصاقها بشخص آخر إذا تمكن من مسّه بعصاه أثناء تدحرج الكرة. ويردد الأولاد كلمات جارحة أثناء تقاذف الكرة أو أم اللاعب، فيزداد اللعب حرارة وحماسةً يصل إلى الاشتباك بالأيدي. وتشبه عملية تقاذف الكرة بالعصي لعبة الهوكي الحديثة في بعض الجوانب، ومنها اشتباك اللاعبين الممارسين لهذه الرياضة.

عويد أعمى وعواده

ومن ألعاب الصغار «عويد أعمى وعواده» وهي لعبة تُعصَب فيها عينا أحد اللاعبين بقطعة من القماش السميك الذي لا يسمح له بالرؤية ويقوم الصغار بالدوران حوله ومشاكسته، وحتى ضربه، ولكنه بالمقابل يضرب بعصاه من يصادفه في طريقه، وإذا أمسك أحد الفتيان أوسعه (ضرباً) بالعصا حتى يفلت منه. ومن الألعاب أيضاً لعبة «بيع التيس»[1]، وفيها يتحلق الفتيان في دائرة، ويدور أحدهم حول الدائرة وهو يردد ومعه بقية اللاعبين: «بيع التيس والله ما بيعه»، محاولاً لمس أحدهم والفرار إلى معلم محدد، فإذا لحقه الفتيان نال الضرب، وإذا لم يلحقوه أخرج من لمسه المهاجم من اللعب.

وهناك لعبة يلعبها الأطفال تسمى «سدة» عدن تمثل عملية دخول القوافل إلى عدن حيث يمكن السماح لبعض اللاعبين بالمرور وحرمان البعض الآخر.

هكذا شرح لي العمّ سليمان تفاصيل بعض الألعاب التي يمارسها الناس في دثينة باللهجة الدارجة، وقد أعدت صياغتها بهذا الأسلوب المبسط الأقرب إلى الفصحى.

التفت نحوي العمّ سليمان وقال وهو يتنهد: إيه... إيه يا بوك ما أكثر ما مرّ

1- وتوجد هذه اللعبة في عدن، واسمها «بيع التيس».

علينا من خير وشرّ والإنسان يصبر على الخير والشرّ. وأحسن أيامنا هي أيام المطر والرعي والزراعة والحصاد وأيام الأعياد والزواج. كنا نرقص ونشترح في الليل صف بصف، صف رجال وصف نسوان، وأحياناً الرجال وحدهم والنسوان وحدهن، وكنا نسمر على أسطح المنازل على ضوء القمر، حيث تتبادل الأسر الزيارات، وتحمل كل أسرة عندما تقوم بزيارة الأسرة الأخرى «كتلي» (إبريق) شاهي، أو قهوة، ويجري احتساء أكواب القهوة والشاي بينما تُتداوَل القصص والأحاديث الممتعة. وفي مناسبات الزواج يستمر «الشرح» (الرقص والغناء) إلى منتصف الليل، حيث يشكل الرجال والنساء حلقات للرقص على إيقاع الطبول، منفردين أو مختلطين، ويقوم اثنان بالرقص داخل الحلقة، بينما يردد الآخرون الأغاني والقصائد، ويحضر الشرح أناس مولعون به من كل مكان، كالشعراء والهواة والطبالون وعازفو «المدراهة» (الشبابة) ومن الأشعار التي تردد في مثل هذه المناسبات:

يـــا بـــابـــور جـــبـــانـــي لـــنـــتـــه تـــبـــانـــي
وديـــنـــي عـــدن ســـانـــي قـــطـــفـــت وردة

أو:

قـــــال امـــنـــاصـــري دي حـــبـــه
والـــلـــه مـــا رجـــع مـــن دونـــه
كـــــود امـــحـــكـــمـــة تـــحـــبـــســـنـــي
والـــقـــاضـــي بـــيـــس يـــنـــدونـــه

164 – الشرح

وأضاف العمّ سليمان: وكنا نلعب هجة ومراجة و«باهلوي» (باهضوي) و«كرت» والصغار يلعبون «لباح» (ضباح) بتشديد الباء حيث يأخذون بعر «امبل» (الإبل) ويحطوه في امنار لما يحمر وبعدين يخرجوه ويحطوه على حجر ويدقوه بحجر مصرفقة (مفلطحة) ويقرح تقول بندق.

قلت للعمّ سليمان: كيف تقضون وقتكم في شهر رمضان؟

رمضان وليلة «امؤرة»

قال العم سليمان: في شهر رمضان الكريم، وهو شهر الخير والبركة، يتجمع الناس في كل قرية ليشاهدوا الشهر (هلال رمضان)، ولكن الذين يستطيعون أن يروا الهلال هم الشباب الذين يشربون سمن وعسل، وبعض الناس يضعون على عيونهم قماش أبيض رقيق يشاهدون به الهلال ويظهر لهم مثل الخيط الأبيض، وعندما يشاهدونه يقفزون من الفرح ويصيحون رمضان رمضان، ويتجمع الناس في المساجد والبيوت ويستعدون ويحضرون دقيق البر الذي يأتي من «الظاهر» بمرتفعات مكيراس وأرض العوالق وبيحان، لأن بلادنا لا تزرع القمح، وعند السحور تبدأ النساء في إعداد الدقيق البر على الطاوة والسليط يتطاير من تحته ورائحة الدخان تملأ البيت والأولاد الصغار منتظرون في «امخدم» (المطبخ)، وبعض النساء يسكَتون الأطفال بأول قرص، والباقي يتجمع حتى يفتوه ويتحول إلى الكعدة أو الصحفة ويرشون عليه سمناً وعسلاً وبعضهم زيت السمسم «سليط»، وتسمى هذه الوجبة «الأرة»، وتطبخ لمرة واحدة في بداية شهر رمضان فقط. وأعتقد أن كلمة (الأرة) تعني غرة رمضان، وعندنا ينطقون الغين ألفاً والقاف غيناً والضاد لاماً مثلاً عوض «عول» و«ابت» امشمس يعني غابت الشمس و«حامل» بتشديد اللام يعني حامض، وغير ذلك. والمهم أني لم أتحدث مع العم سليمان عن هذه التفاصيل عن الغين والضاد والقاف، لأنه لن يستوعب مثل هذه الأمور.

165 – مسجد ناصر محمد

قلت للعمّ سليمان: وبعدين أيش تسووا؟

قال: نأكل أمؤرة وننوي الصيام وننام قليلاً وبعدها نقوم نصلي الصبح، وبعضهم يذهبون إلى المسجد حتى أذان وصلاة الفجر وأول يوم يكون صعباً علينا، خاصة نحن الذين لجر (ندخن) وابتلانا ربك بهذه امداعة.

وقال: نذبح ونحضر التمر الذي يأتينا من وادي حجر (بحضرموت) والماء والقهوة ونتجمع في المسجد وننتظر الأذان، وأحسن فرحة بعد صيام أول يوم، الأذان عندما ينطلق الله أكبـر من «ثُم» (فم) أبوك صالح بنيص إمام المسجد. وبعد الإفطار نصلي ونتوجه إلى البيوت ونشرب قهوة وكسرة مخلم ومرقة. أما العشاء فيكون بعد صلاة التراويح، حتى لا نثقل على بطوننا أثناء الصلاة.

وطـوال شهر رمضان نقضيه بالصيام والصلاة والدعاء والأناشيد والقرآن، ونسهر معظم الليالي في مسجد بعد صلاة التراويح بقراءة الأناشيد والأحاديث من قبل العلماء والزوار حتى ينتهي رمضان.

وفي يوم امعيد بعد الصلاة نخرج امقبرة ونلتقي نحن وأهل امقوز عند قبر الشيخ علي صالح با مرحول ونحن نردد «امشل»[1] حق امعيد، وكان صوت ناصر الشيبة وابنه حسين من أجمل الأصوات التي تردد امشل وكنا نردد بعد بوك صالح:

1– أناشيد دينية.

يا الله بعودة وعوّدنا من السالمين
باسم الإله استعن بالله في كل حين
يا مالك الملك يا من هو من القاصدين
على الجبل يا الله اكتبنا مع الواقفين
توبوا إلى الله قولوا كلكم أجمعين
تبنا إلى الله قولوا كلكم أجمعين
إنا وقفنا ببابك للدعاء طالبين
والجود جودك وخلقك يا قوي يا متين
توسلوا كلكم في الله يا حاضرين
قولوا بهمة قوية ربنا با يعين
إلى متى لا متى وأنتوا كذا غافلين
مجالس الخير دائم منها شاردين
كأنكم من عذاب الله مستأمنين
ما يأمن المنكر إلا الفرقة الكافرين
توبوا إلى الله قولوا كلكم أجمعين
تبنا إلى الله قولوا كلكم أجمعين
يا الله بعودة وعودنا من السالمين

صلاة الكسوف والخسوف

وسألت العم سليمان عن صلاة الخسوف والكسوف وعادات الناس فقال:

كان الناس زمان إذا احترق امشهر (خسف القمر) خرجوا بطبولهم وطويسهم كل واحد من فوق بيته يدق طبله وماعونه وكانوا يخافون ويدعون ربنا أنه يرحم امشهر ولا يعذبه ويفرج عليه، ولا يحرقه بذنوبهم، لأنهم كانوا يقولون إن الله يحرق امشهر ويعذبه بسبب ذنوب الناس. وإن القمر قال لله عذبني يا رب ولا تعذب أمتي وإنه تشفع للناس عند ربي، وكانوا يقولون إن ذنوب الناس كلما زادت زاد عذاب امشهر، وكلما حرقه ربي وزادت فترة احتراقه.

وكان الناس يستغفرون الله بأعلى أصواتهم داعين الرحمة للقمر مستغفرين الله عن الذنوب التي ارتكبوها وهم يكبّرون بأعلى أصواتهم: الله أكبر الله أكبر، يا رب ارحمنا برحمتك، يا رب اغفر لنا ذنوبنا، يا رب نجنا من النار، وكانوا يقولون: اصحوا يا غافلين استغفروا الله يا غافلين. وكان البعض يبكي من الخوف ويصلون ويدعون الله، والكثير منهم يذبحون الذبائح لوجه الله ويوزعون لحمها على الفقراء والمحتاجين، ويقوم الشباب والصبيان بإشعال النار على رؤوس الجبال وفي بطون الأودية وحول القرى لتنبيه القرى الأخرى بحدوث الخسوف، وكان الناس يمنعون المرأة الحامل من الخروج من منزلها ومشاهدة خسوف القمر حتى لا يصاب الجنين بأي مكروه، أو حتى لا تنطبع علامة الخسوف على جسمه بما يشبه العلامة الحمراء.

166 – خسوف القمر الدموي: ويرجع سببه إلى أن نور الشمس يخترق الغلاف الجويّ للأرض في طريقه إلى القمر، والغلاف الجويّ للأرض يحوّله إلى اللون الأحمر بالشكل ذاته الذي يصطبغ فيه قرص الشمس باللون الأحمر عند الغروب، وقد حصل أطول خسوف للقمر في القرن الواحد والعشرين في ليلة 27 سبتمبر 2018

وأضاف العمّ سليمان: وبعد ما تفهمت الناس وجاء الشيخ صالح بوك بنيص والشاخ (الشيخ) العلامة حسين درامة ونوروا الناس وعلموهم أمور دينهم، ومنها صلاة الكسوف والخسوف، وحما (عندما) يقع خسوف يصلي بنا الشيخ صالح ركعتين ويقرأ سورة طويلة في كل ركعة مثل سورة البقرة أو آل عمران ويستغفر ونستغفر معه إلى أن يفرج الله على امشهر وينتهي الخسوف.

كنت أعلم أن عمي سليمان لن يقتنع بكلامي إذا قلت له إن الخسوف ظاهرة فلكية تحدث عندما يقع القمر تحت ظل الشمس وإن إحراق الله للقمر لا أساس له في الدين، وإن صلاة الخسوف هدفها أن يمعن الناس الفكر في هذه الظاهرة العظيمة التي تدلّ على قدرة الخالق العظيم، ولكني لم أشأ أن أدخل في سجال معه في هذا الموضوع، وذلك لصعوبة إقناعه بذلك، وكان ما يهمني أن أتعرف إلى عادات الناس خلال فترة الخسوف والكسوف. والشمس والقمر لا يخسفان ولا يكسفان لموت لشخص أو لذنوب أحد.

167 – كسوف الشمس، وهي ظاهرة فلكية تنتج من تموضع القمر بين الشمس والأرض

ســـــرى الليـــل

أما وقد حبانا الله بمثل هذا القائد المجرب، فقد كنا نسير وراءه براحة بال. نتحدث ونضحك ونصمت، ويقع بعضنا على الأرض بسبب الحفر وحجارة الأودية المنتشرة في هذه الطرق. وكان الحطاب أحمد مسعود برطم يلفت أنظاري دائماً ويطلب مني أن أمسك بذيل الجمل وأسير خلفه حتى لا أضل الطريق في ذلك الظلام الدامس فلا يعثروا لي على أثر، أو لا يكتشفوا غيابي إلا بعد فوات الأوان.

كان علينا أن نحثّ الخطى ونقطع الطريق أو معظمه قبل طلوع الشمس، وأن نبلغ المحنابة، ومن ثم العماد.

وقد سألتهم لماذا لا نسير بمحاذاة البحر، أي ساحل أبين، فالطريق هناك

حتماً ستكون أريح من طريقنا هذه، لكنهم قالوا لي إن هذه الطريق أقرب وأسرع لأنها طريق مختصرة.

وأعاد إليّ ذكر ساحل أبين ذكرى الأغنية الشعبية التي سمعتها مراراً قبل هذه الرحلة والتي تقول:

«سرى الليل وا نائم على البحر ماشي فائدة
في منام الليل حل السرية
أنا بو محمد ما أنطرفشي لحد ملّا المقادير
جابتني لبوكم هدية»

وكان علينا أن نسري ليلاً كما تقول الأغنية.

جال في خاطري كيف كانت السيارات تتوقف أحياناً عند الساحل وكذلك قوافل الجمال عندما يكون البحر هائجاً والمد عالياً فينام الركاب والسائقون والقوافل حتى يبدأ الجزر فيستيقظون جميعاً ويبدؤون الرحيل على العربات أو الجمال، فطريق الساحل هو الطريق الوحيد بين عدن والعلم ومطلع الكود، وكنت أتمنى أن نمرّ في هذه الطريق، ولو طال السفر، بدلاً من السير في الظلام بلا توقف في رحلة طويلة ومضنية، فوق هذه الجمال أو خلفها.

العماد التي لم يُخلَق مثلُها في البلاد

لقد أمضينا الليل بأكمله ونحن سائرون، وعندما بدأت أشعة الشمس الأولى في الظهور رأى بعضنا بعضاً، وكان الطريق لا يزال أمامنا طويلاً حتى نصل إلى محطتنا قبل الأخيرة «العماد» التي تسكنها قبائل المصعبين، وهي قرية تقع على امتداد أطراف دلتا تبن أو في نهايته وبالقرب من دار سعد و«الشيخ عثمان». وسألت رفاق الرحلة عندما وصلنا إليها: ألهذه القرية علاقة بإرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم؟!

ولكن الوصف الذي جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) صدق الله العظيم، لا ينطبق على هذه القرية اليوم. فهي تقع على أرض صحراوية رملية فوق أكمة صغيرة يسكنها مواطنون فقراء بائسون يعتمدون على الحطب وعلى تربية الابل وحليبها الذي يسوقونه

في عدن. ولكن الكاتب المؤرخ حمزة علي لقمان يتحدث عن العماد في كتابه «أساطير يمنية» وأنها كانت مدينة مزدهرة وجميلة، وأن بيوتها من الرخام وأن الأنهار والمياه كانت تجري من تحت قصورها، وأنها جنات عدن التي ورد ذكرها في كتاب الله، وأنه يجب ألا نحكم على العماد اليوم، لأنه لم يجرِ تنقيب عن آثار تلك الحضارة التي سادت ثم بادت كغيرها من حضارات الأمم القديمة.

الابل في مصعبين

وقد قامت هذه الحضارة على أطراف دلتا تبن، والمنطقة وما حولها كانت غنية بالزراعة والمياه والغابات. وترتع في ربوعها الغزلان والأرانب والحيوانات البرية. وقد قضى التصحر على ما بقي من هذه الحضارة التي اندثرت عبر التاريخ. أما سكان القرى الذين نزلنا عندهم وحولهم، فإنهم يفتخرون بأنهم من العماد التي ذكرت في القرآن. وكنت وأنا أتأمل هذه القرية الصغيرة وسكانها الحفاة شبه العراة لا أكاد أصدق بأنهم أحفاد أولئك الذين شيدوا تلك الحضارة العظيمة التي أشار إليها حمزة لقمان. ولكن عندما أنعمت النظر جيداً إلى ملامحهم ورأيت كرمهم وسمو أخلاقهم بدأت أميل إلى التصديق أنهم فعلاً يرتبطون بذلك التاريخ، فعدن وأبين وحضرموت وشبوة ومأرب وبعض المناطق اليمنية الأخرى شهدت ميلاد ممالك وحضارات عظيمة ومجتمعات زراعية مستقرة لم تصل إليها بلاد اليمن في تاريخها الحديث. وكنت أقول لنفسي إنه لو جرى تنقيب عن الآثار في منطقة العماد وغيرها، لاكتشفنا أننا ننتمي إلى حضارات عريقة ضاربة جذورها في أعماق التاريخ، فأين نحن من ذلك التاريخ؟

كما تحدث المؤرخ حمزة لقمان عن عدن بين البحار والجزر وعن ساحل صيرة وسواحل الشيخ أحمد، وعن المكانة التي تحتلها عدن عبر التاريخ في التجارة وعلاقتها مع الموانئ الأخرى في العالم وعن ميناء عدن في صيرة والمعلا والتواهي.

ومن كتب الحكايات، يشير المؤلف إلى أولى الأساطير، وهي أن (قابيل) بعد أن قتل أخاه (هابيل) هرب إلى عدن مع أخته (أقليمة) خوفاً من غضب أبيهما (آدم)، وبعد دفن جثة هابيل فوق جبل في عدن كان يعرف باسم جبل التعكر، يعرف الآن باسم جبل حديد، ظهر لهما إبليس وأغراهما على النار وبنى لهما معبداً فوق جبل صيرة.

168 – الكاتب حمزة لقمان

قضينا بعض الوقت في العماد بما يكفي للراحة ولتناول الطعام وشرب الماء، فقد تضاعفت حماستنا ونحن نقترب من عدن لكي نشدّ الرحال وننطلق قبل المغيب لنصل السيلة في «الشيخ عثمان» محطتنا الأخيرة في هذه الرحلة الجميلة والمضنية في آن واحد.

وحيّ الشيخ عثمان كان في بداية القرن السابع عشر عبارة عن مزار ديني للولي الشيخ عثمان (عثمان بن محمد التركي) المدفون فيها، وسميت المدينة باسمه.

ويؤكد الرحالة الإنكليزي هنري سلت، الذي زار المدينة في عام 1809م، وهو في طريقة إلى لحج أن كانت لا تزال هناك غابة كثيرة الأشجار بجانب القرية وقبة الولي، وتمتد المساحات الخضراء إلى عشرات الكيلومترات تشكل مرعى رئيسياً للأغنام والجمال التي كانت تشاهد في كل أنحاء الغابة.

169 – الشيخ عثمان

كانت أشجار «السيسبان» (الماسكيت) تنتشر في الطريق، وهي أشجار لها قدرة عجيبة على تحمّل الجفاف والحرّ والشمس والملوحة. وبين الأشجار وحولها بُنيت بعض المنازل من الطين والقش بطريقة عشوائية، ويسكنها سكان الجبال القادمون من أبناء المملكة المتوكلية اليمنية وأبناء المحميات. وعندما سألت عن هذه البيوت المتداخلة قيل لي إنها «الشيخ الدويل».

أشعار وأهازيج

ونحن في الطريق خطر لي أن هذه الرحلة لن تكتمل روعتها من غير أن يتخللها الحديث عن الشعر والشعراء في دثينة وبلاد الفضلي، فصورة هذه الأرض لا تكتمل ولا يمكن أن تعرفها وتعرف أسرارها الخفية ومعاناتها الحقيقية من غير أن تطّلع على شعرها.

قلت لهم:

– أسمعوني بعض ما تحفظونه من الشعر.

ردّ أحدهم:

– يا إبني أيش تشتي من هذا الكلام؟

لكن العمّ سليمان قال:

– شوف يا بني، كان أبرز شعراء المنطقة في بداية هذا القرن علي رامي وناصر عبدربه مكرش المشهور بـ»أبو حمحمة»، وسالم صالح الفطحاني وعلي هادي ومحمد عوض «المشطر» ومنصور عشال وامسعيدي وجازع امفرحان وجازع مسعود وكعدان والدماني والجرو والخدش وغيرهم كثيرون.

وأضاف: التقى بن رامي مع (أبو حمحمة) وجرت بينهما هذه المبارزة الشعرية الطريفة:

بو حمحمة:

بـــارك وثـــانـــي يـــا الـــثـــلاث أتـــوكـــلـــي
والرابعة والخامسة والسادسة مسدوس

علي رامي:

الـــــواحـــــدة والـــثـــانـــيـــة تتقلقلي
والثالثة والرابعة والخامسة مخموس

بو حمحمة:

عـشـريـن فـي عـشـريـن يـا رامـــي علي
خمسين في ستين لا قد نسنس النسنوس
سـبـعـيـن فـــي ثـمـانـيـن بـــا تتهلهلي
تسعين توفي المية با تكبس على المكبوس

علي رامي:

كـم لـي ونـا داعـــي فـي الخبت الخلي
الي(غلي) متى بقبض على العلواني الدهبوس
أنـــا مـحـتـبـي بـــرع ونـــاصـــر داخـلـي
الله يصيبك يا علي في لونك المكسوس

قال برطم: الله أكبر على بوهم، والله إن كل واحد منهم أحسن من الثاني.
لكن أيش رأيكم لا سمعتكم من شعر يحيى عمر؟
قال العمّ سليمان: ونعم يحيى عمر هات يا برطم.

قال: يقول يحيى عمر:

بومعجم يقول العشق حالي
لكن عاد له نزلة وطلعة
وله أيضاً سهر طول الليالي
ودمع العين دمعة فوق دمعة
ومن حب الصبايا لا يبالي
ويخضع للهوى ألفين خضعة
ولا يخاف من طعن النصالِ
ولا تدخل معه في القلب فزعة
أنا يا أهل الهوى قل احتيالي
حبيبي ما أعترف لي كيف طبعه
ملكني هاشني زين المشالي
وقطّع مهجتي سبعين قطعة
وأنا المملوك له حالي ومالي
وكلي سرت في طاعه وسمعه
قوامه مثل لغصان الطوالِ
سقى الله طينها من كل فرعة
وله عينين صنعة ذا الجلالِ
تماوج دمعها كرمة بكرمة
جبينه مثلما ضوء الهلالِ
يعاند بالمسامر كل شمعة
وريقه طب لكباد العلال
عسل جردان صافي وسط شمعة
وعنقه مثلما عنق الغزالِ
نكع من قانصه عشرين نكعة

وقال يحيى عمر:

يحيى عمر قال للعشقة فنون
ما هي بمن قد تعطر وانتقش

والعشق ما هو بدحراج العيون
و الا لمن قد كثر فيه البَلَش
بحر الهوى راح به كم من زبون
ذي بات يدحق على رأس الحنش
وبات يقطف من أخبار الغصون
زهر البساتين ذي يطلع غبش

وقال يحيى عمر:

يامن جدعك له أربعة ينسعون
وأربع يلفون جعدك لا أنتفش
وأربع يصفون وأربع يرصفون
وأربع يرشون لك بالعطر رش
وأربع يحنون وأربع يحجرون
وأربع يقولون قم سيدي تمش
وأربع يجيبون لك مبخر دخون
وأربع ينادون لك مثل الشوش
وألفين وأربعمئة دي يخدمون
سندي وهندي وجملتهم حبش
خضعوا لك الناس ذي ما يخضعون
شجعان وأهل البنادق والنمش

ويبدو أن الكلمات الرقيقة في الحب حركت أشجان العم سليمان الذي تذكر هذه القصيدة الجميلة لبن رامي:

بن رامي علي بالله توكل
بربّ العرش حكّام الدعية
وبن رامي يقول لي قلب يشعل
وباب العشق من فكّه بليّه
نظرني صاحب الطرف المكحّل
من الروشان يتفرّج عليه

وساعدني على مطلع ومنزل
على صوت الطرب والأرمنيّة
وقطّعني قطع من كل مفصل
وقلقلني فيَ المقلاء قليّة
ويا طارح على لكعاب ململ
وفوق الخدّ نقشة سمبليّة
ورمّانة معه في الجنب لشمل
وليمن فيه تفاحة طرية
ومدّ اليد والرجل المحجّل
وكلّمته ولا جوّب عليّه
وقلت الفت علي بالله تجمّل
ونا باموت وين القبر ليّه
وقال القبر لك بين السفرجل
ومن تحت الزرار أسكن شويّة
ونار العشق في قلبي تكلكل
ولا هي من فؤادي منطفيّة
مع غُمري فيَ الروشان بُلبُل
وسوّى بي على لضلاع كيّة
كلامه مثلما قهوة معسّل
عليها من عسل صافي بقيّة
فلنطة[1] بو خشب ميزر مسيّل
جناح العصر بن رامي لقيّه
وشلّ العقل من راسي وبدّل
وضيعت الجماعة والفقيّة
أنا شيبة ومن راسي تقوّل
على أذوال الغصون الرازقيّة

1- فلنطة تعني بندقية.

ومـــن هـــو زيـــن لـــه زامـــل ومـهـجـل
ومـــن هـــو خـــام مـــا يـــسـوى وقـيّـة
وصـــلّـــوا عـالـنـبـي فـي كـــل محمل
لانّـــه كـســـــّـر الـكـفـر الـقـويّـة
عـــدد مـــا يـنـزل الـمـاطـر وهـطّـل
وتـصـبـح كـــل مـجـــدوبـة رويّـــة

وقال الشاعر بن رامي علي:

يـا الـلـه يـا سـامـع[1] تـغـاريـد كـل ديك
لا صـــاح نـص الـلـيـل تـغـريـد تفطنه
يـا موثق الطير على أريـاشـه الحريك
بـأريـاش ينفضها وبـأرجـيـل طنطنة
يـسـرح بعز الـخـالـق الـمـالـك المليك
والـنـوب مـسـراحـه ومـــاواه موطنه
يـقـول بـر رامـــي عـلـي وقـتـنـا عبيك
عـبـيـك مـعـبـوكـات عـبـكـة معبكنة
لا تـأمـن امصاحب ولا ترتكي بخيك
ولا كـــلام امـصـدق تـلـقـاه مسكنه
ومـن حلف لـك عهد لازم يعيب فيك
لا شـــاف عـــدات امـــدراهـــم معكنة
إن كـــان لا نـتـه لا لفيته ولا لفيك
يضحك ويلعب لـك وهطفاه مشحنة
يـا وقتنا الـعـيـاب خـانـك وعـاب فيك
يـا دي عـدم فيك الـرضـى والمراكنة
ولا قـدك مـبـرور مـن ذنـب والـديـك
اسـجـد وسـبـح لا ثـيـابـك مصبنة

1- تكملة القصيدة موجودة في الملحق.

حتى ولا حجيت لا مكة المكيك
ذنبك على جنبك ذنوب المخاينة

ولا يمكن أن تكتمل صورة الشعر الغنائي دون أن يعرج الحديث إلى فن الغناء في لحج، وهو يومئذ ولا يزال حتى اليوم الأكثر عذوبة وجمالاً وشجناً ودقة في الوصف في الجنوب واليمن كُله. وكان «القمندان» يقف على رأس هذه المدرسة الغنائية الرائعة، ولا يزال.

170 – منظر من الحوطة

وأثناء الحديث عن لحج والحوطة ونحن نقترب من حدود السلطنة العبدلية في الطريق إلى عدن، قال أحمد مسعود برطم إن العوالق كانوا يعشرون الحوطة وأبين وبيحان ومروحة، مستشهداً بقول الشيخ رويس بن فريد اليسلمي العولقي عندما ذهب العوالق ليعشرون[1] السلطان العبدلي:

قال الصليب[2] ابن الصليب العولقي
ما أحد في الدنيا صليب إلا أنا
بيحان نعشرها ونعشر مروحة
والحوطة العليا[3] وذي حلّوا بنا

1- ليعشرون: يأخذون الضريبة.
2- الصليب: تعني الشجاع.
3- الحوطة العليا: ويقال الحوطة الرعنة، ويقال إن نفوذ العوالق وصل إلى الحوطة عاصمة الدولة العبدلية، وكانوا يأخذون عشوراً (ضريبة) سنوياً منهم، وأنهم رفضوا ذلك بعد مقتل

فردّ عليه احد شعراء العبادل وقال:

حيا بكم يا ذي ولبتو عندنا
في حصن مبني من السمنت والنورة
شف عادني با قول هكة في هكة
لا تحسبني سمن في قارورة

فضحك العوالق على هذا الرد.

وقال السلطان العبدلي: من أين جاء هذا الأهبل ليرد على العوالق؟

من سيردّ عليهم كما يجب سأعطيه بندق ورصاص وفلوس. فخرج شاعر من آل باكازم كان موجوداً في بلاد العبادل، وردّ على الشيخ رويس اليسلمي بالقول:

قل للصليب ابن الصليب العولقي
ذي مركزه واني وعظمه قد ونى
من باع خوته بالقروش الفلية
لا يعشر الحوطة ولا يعشر[1] بنا

وأخذ البندق والرصاص والفلوس، لكن العوالق قتلوه في العرقوب على هذا الشعر.

ويبدو أن حديث الشعر والشعراء استغرقنا، حتى إنني شاهدت من بعيد بيوت دار سعد التابعة للسلطنة العبدلية وعاصمتها الحوطة، ودار سعد نقطة جمركية تجبى فيها الضرائب لسلطان لحج. وقال أحمد مسعود إن دار سعد تابعة «لابوي» عبد الكريم فضل.

ولم أسأله لماذا قال (أبوي عبد الكريم) لكن يبدو أن تلك كانت من

الشيخ أبو بكر بن ناصر بن فريد، وهجمت قبائل العوالق على لحج، وقال الشاعر:

يا معن والدولة وجيش المحجري **هدو بنا والزج من فوق القدم**
انتم لكم نوبة حمادي وأهلها **واحنا لنا دار عبد الله وثم**

1- ضريبة.

الأمور الشائعة، حيث إن الرعية تعظّم الحاكم. المهم أن دار سعد أو (دار الأمير) كما يسمونها تابعة لسلطان لحج العبدلي، وهي على حدود مستعمرة عدن، واستحدثت فيها فيما بعد نقطة عسكرية تسمى «نمبر 6»

أخذت السعادة تدبّ في قلوبنا ونحن نقترب من (السيلة) حيث سنحط رحالنا في محطتنا الأخيرة في مدينة «الشيخ عثمان» بعد رحلة عناء طويلة، ولكن جميلة.

ها هي عدن أخيراً! أو كما كان يسميها الأجداد «بندر عدن» أو «بلاد أحمد السركال»، المدينة التي تجعلني مبهوراً ومعجباً بكافة جوانب الحياة فيها المليئة بالحركة والنشاط، الزاخرة بما يبهر العين ويسر النظر.

وهنا تذكرت طرفة حين كان الأطفال القادمون من «نمبر 6» من لحج ينهقون كالحمير كي يسمح لهم العسكري الواقف في مدخل الشيخ عثمان (نمبر ستة) بالدخول إلى بلاد السركال، وكما هو الحال عند مشاهدة أبناء المحميات البحر لأول مرة من العرقوب ينهقون كالحمير. كما ورد آنفاً.

وهي مطلع أغنية جميلة غناها الفنان أحمد قاسم، وكانت تذاع من إذاعة عدن باستمرار.

الفصل الثالث عشر

الوصـــول إلى عـــــدن

ها هي عدن التي تجشّمنا الصعاب في طريقنا إليها لأيام ولياٍل وعبرنا من أجل الوصول إليها سلسلة من الجبال والصحارى، تحملنا تلك الجمال لتحطّ بنا في الأرض التي نتحرق شوقاً إليها.

نشاهد أضواء كهرباء حجيف التي أبهرتنا بنورها لأول مرة منذ خروجنا من دثينة، وأمواج البشر والسيارات وعربات النقل التي تجرها الجمال والحمير والخيول لا تكفّ عن الحركة، ومن حولنا كتل بشرية تتدفق صاعدة هابطة تبتلعها الأسواق والدكاكين والعربات في غمار أضواء الليل، فنحن لم نشاهد أو نتعود مثل هذه الحركة منذ مغادرتنا وحتى وصولنا إلى «الشيخ عثمان».

هبطنا في السيلة محطة هبوط قوافل الجمال. وعلى مدّ البصر شاهدناها تعجّ بالأعلاف الخضراء والأغنام والأبقار وقوافل الجمال التي جاءت قبلنا من مختلف المناطق، وكان بعض هذه المواشي يرعى سائباً، والبعض في حراسة ملاكها ورعاتها.

فرحنا حقاً بسلامة الوصول وتنفسنا الصعداء أخيراً وتأكدنا أننا في عدن، أكثر المدن ازدحاماً وازدهاراً. تفتح أبوابها فتخرج إلينا أصوات السيارات وأصوات الباعة مختلطة بثغاء الأغنام وهدير الجمال ونهيق الحمير وأصوات بائعات الخمير. أول ما فعلناه أننا سقينا جمالنا واشترينا لها علفاً طازجاً، فقد كانت تستحق منا هذه المعاملة المتميزة بعد رحلة طويلة استغرقت ساعات طويلة. ويبدو أن جملنا الهائج أحسّ هو الآخر بالمشهد الذي يحيط به ومن حوله. وقد

شمّ رائحة أكثر من أنثى من بني جنسه، فتحركت غرائزه الحيوانية وهاجت وبدأ يطلق الزبد من فمه. ويبدو أن هذا كان حال كل أفراد رحلتنا من الرجال، فقد أخذت رائحة الفل والكاذي والبخور والنساء اللائي يعبرن ويخلفن وراءهن هذه الروائح الزكية، الطيبة (روائح الفل والكاذي والبخور[1] والعطور الفرنسية واللحجية) تلعب برؤوسهم فتدور مع أجسام النساء الممشوقة التي تبعث على الإثارة. إنها الجنة والسحر المثير، العود والبخور العدني نوع من السحر.. كما يقول شاعر عدن العظيم الخالد، ابن حافة القاضي، لطفي جعفر أمان:

جنة بالأنوار والأزهار والسحر المثير

وأيضاً هذا هو العود الذي ذكره الشاعر الرقيق القمندان حين قال:

نسنس نسيم الصباح بالعود والند
وريحة المسك ذكرني شذا وردة الخد

ويبدو أن الروائح العطرة ومراهقة الشباب والحرمان قد فعل فعله في أوساط القادمين إلى هذه المحطة. فماذا نفعل جميعاً وإلى أين نذهب؟!

ثمة مخاوف ونصائح كثيرة حملناها معنا. فالآباء والأمهات في القرى يحذرون في العادة أبناءهم الذاهبين إلى عدن من عدة أمور، وكلها تلقي الروع والرعب في القلوب. يحذرونهم من (الجبرت) الذين يقال إنهم يخطفون

1- البخور العدني كان مشهوراً منذ القدم، وقد عرفت عدن بأنها مصنع البخور للجزيرة العربية، وكانت مصادر كثيرة قد تحدثت عن البخور العدني. صناعة البخور العدني الفاخر تتكون من قسمين: فاخر وعادي. العادي يكون في تركيبته الكثير من السكر والقليل من العود الرخيص. ولا يوجد فيه عنبر. أما البخور العدني الفاخر فيكون من العود والعنبر والمسك والزعفران والظفر والعفص وخلطة خاصة من العطور الغالية المركزة من الفل، الكادي، العنبر، المشموم، الحنون والقليل من السكر ليضمن تماسكه، ويطبخ على نار هادئة. وعظمة هذه الطبخة الثمينة النادرة تعتمد على خبرة طويلة، وهو بقاء هذا الخليط على نار هادئة مدة محددة تكتسب بالتجارب الطويلة في هذه الصناعة المميزة التاريخية الغالية، وقيمة الطبخة تكلف آلاف الشلنات في يومنا هذا. والعنبر مادة يخرجها حوت العنبر كفضلات، وهو عنبر أسود، ويعتبر أرخص أنواع العنبر. والنوع الثاني وهو العنبر ذو اللون الأشهب، ويعتبر أجود العنبر في العالم – وكانت عدن تصدره إلى أوروبا من طريق شركة البس.. والعود ليس خشباً على الإطلاق عكس ما يعتبره عامة الناس، بل هو منتج مستخلص من شجرة نادرة تسمى «أقوالوريا» أو «جرنيوبس» وتكثر حالياً في غابات فيتنام ولاوس كبوديا وإندونيسيا (محمد أحمد البيضاني).

الأطفال ويعصرون أجسامهم ويستخرجون من دمائهم وعظامهم نقوداً حمراء اللون! ولا أحد يعرف من أين وقع الأهل على هذه الأسطورة المرعبة.

171 – 172 – كهوف عدن البوميس وهي تعود إلى عصور ما قبل الميلاد

لكن ألسنة الآباء كانت تجري على هذه الرواية فتثير الرعب في قلوب الأولاد قبل أن يذهبوا إلى عدن، وتتحول إلى عقدة عند البعض ويخاف البعض الذهاب إلى عدن خشية (الجبرت) و(المزفرين). ويتداولون أيضاً حكايات أخرى عن البحر والأمواج التي تتلاطم لولا الرسول الماسك بخطامه، فيذهب الأولاد إلى عدن وهم يخشون البحر والمدينة.

ويقول الرحالة الفرنسي هنري منفرد: إن الجبرت قبيلة تعيش في عدن، ويعود أصلهما إلى منطقة ما في شرق أفريقيا، جنوب خط الاستواء. إنهم صنف من السواحليين المنبوذين. توظفهم بلدية عدن جميعاً للقيام بالأعمال التي يرفض المسلمون والصوماليون ممارستها، ومن هذه الأعمال: خدمات تفريغ المراحيض[1] التي تجري في هذه المدينة بطريقة فريدة. فبسبب شحّ المياه في هذا البركان البازلتي المنتصب بين البحر والصحراء وعدم وجود

1– 306 كان الأطفال في عدن يرددون عند مشاهدتهم الجبرتي: جبرتي جبرتي مانجلو يشل الخرى (البراز) وياكلو.

* قال عنها الرحالة الفرنسي هينري مونفرد (1974–1879 م) في كتابه **مغامرات في البحر الأحمر** إن هذه الكهوف استخدمت كمنازل لبعض القبائل القادمة من إفريقيا المسماة قبائل الجبرت والمعروفة بأكلها للحوم البشر حتى أضحت مكاناً مخيفاً لبقية سكان المدينة حيث يمارسون فيها طقوسهم الدموية. وقال بعض الباحثين إنها استخدمت للتعدين واستخراج مادة تسمى شعبياً البوميس، وعمر المناجم يتزامن مع عمر صهاريج عدن، وهذه المادة استخدمت لصيانة الصهاريج الطويلة.

شبكة لمياه الصرف الصحي، لا تلحق بالمراحيض بلاليع أو أحواض ترشيح، ويستعاض عنها بوضع براميل صغيرة أسطوانية الشكل أسفل كل منزل. ويقوم الجبرتيون بتفريغ هذه البراميل من محتواها كل مساء.

في أثناء أحد شهور السنة، لا يجرؤ أحد من بحارة السفن والقوارب الكثيرة الراسية في المرفأ على النزول إلى اليابسة بعد حلول المساء، عدا الأطفال تحت سن الثالثة عشرة والشيوخ الذين يمكنهم فعل ذلك. وإذا سألت شخصاً ما عن سبب هذا الخوف سيردّ عليك قائلاً: إنه موسم المميس، أي إن الجبرتيين يبحثون عن ضحية! (شاب خالٍ من الجروح أو الندوب أو أي أثر للمرض).

في أثناء النهار يترصد الجبرتيون الأشخاص الذين تتوافر فيهم كافة الشروط الجمالية المطلوبة ويراقبون تحركاتهم بعناية من غير أن يشعروا. وحين يعثرون على أحدهم خلال الليل في مكان منعزل يقبضون عليه ويأخذونه إلى جبل النار الذي يطل على كريتر. وهناك يُرفع إلى قمة لا يمكن الوصول إليها، ويودع في أحد الأقبية ويُغَذى بالتمر الأحمر ليسمن، إلى أن يحين يوم التضحية. وفي هذا اليوم يُدلّ الشاب من رجليه بحيث يكون رأسه إلى الأسفل، ثم تقطع رقبته، ويوضع وعاء من النحاس لتجميع الدم. أما الجثة فتقسم إلى قطع صغيرة يأخذ كل واحد من الجبرتيين قطعة منها ويأكلها.

لكن ماذا يقول الإنكليز إذا ما اشتكى أحد أو أبلغ عن اختفاء قريب أو صديق له؟ يجب ألّا يفعل ذلك، وإلا عُوقب بقسوةٍ شديدة بحجة إزعاج السلطات بخرافات لا أساس لها من الصحة. مع ذلك، فالإنكليز يعلمون حقيقة هذه العادة الوثنية، لكنهم يضطرون إلى غضّ النظر عنها. فالجبرتيون لن يقبلوا البقاء في عدن لو حُرموا من ممارسةَ هذه العادة، والإنكليز لن يستطيعوا الاستغناء عنهم.

ويمكن أن تلاحظ أن صعود جبل النار محرم تماماً، ولا يمكن الوصول إليه. كذلك إن الحراسة هناك مشددة! إنه لأمر يثير الحيرة! ويقال كذلك إن الجبرتيين لا يتعرضون لرجل يقود حماراً أو حصاناً أو جملاً، لأن الحيوان لو قُبض على صاحبه سيجعل الناس يخمنون بسرعة مصير صاحبه. لهذا، فهم يحبّذون بحارة السفن المارة بالميناء، ففي مثل هذه الحالة لا توجد عائلة تبحث عن الشاب المفقود ولا تثار أية ضجة حول مصيره.

هذا ما يردده السكان المحليون عندما تسألهم عن الاختطافات التي

يتعرض لها البحارة في عدن والتي لا يوجد أدنى شك في حقيقتها. وقد أكد لي أحد الصوماليين في بندر قاسم أن أخاه الأكبر قد اختفى في إحدى الليالي، ولم يره أحد منذ ذلك الحين. ويقال كذلك إن بعض الرجال المخطوفين قد استطاعوا الهرب وسردوا تفاصيل هذه العادة وطقوسها.

أما أخطر المخاوف التي يزرعها الآباء في صدور أولادهم، فهي تلك المتعلقة بالأخلاق. فهم يحذرونهم من الخمارات ومن السكارى ومن النساء الساقطات ومن كل ما تحمله المدينة من مغريات للشباب.

هذه المحاذير لم نهتّم بها، لأن زيارتنا لعدن لم تكن الأولى. ونحن نعرف مثل هذه الأمور التي تستهدف تضليل القادمين إلى عدن وتخويفهم بدلاً من الحديث عن الاحتلال البريطاني.

وأذكر أن أحد زملاء دراستي – في عدن فيما بعد – وهو من أبناء الريف، حكى لي حكاية ظريفة. فقد كان من عادة أبناء بعض المناطق الريفية أن يحلقوا شعور رؤوسهم من الجانبين محتفظين بشعر وسط الرأس طويلاً (قنزعة) وجمعها قنازع، وكان المشاكسون (الزناقل) من أبناء عدن يتبعونه وهم يقولون:

«يا بدوي يا بو القنازع يا بدوي أمك تنازع!».

أخذ يسأل بعضنا البعض أين سنبيت هذه الليلة؟ مع الجمال في السيلة؟ أم نتركها وحدها، أم نتناوب على حراستها؟ بالنسبة إليّ طلبت منهم إعفائي من أي دور، وكان في نيتي الذهاب إلى سكن أحد أخوتي في الجيش أو منزل الحاج (جعبل المخزوم)، وهو والد الكابتن الرياضي المعروف محمد جعبل. وكان الأب قد استوطن عدن وسكن «الشيخ الدويل».

وقد استقرّ بنا المقام في منزل العم جعبل. المهم أننا وجدنا مكاناً نأوي إليه، وقد حاولنا أن نقدم له مبلغاً رمزياً مقابل استضافتنا عنده، لكن الرجل رفض ذلك بإباء، وعدّ ذلك إهانة له وللعلاقات الأخوية والقربى والقبلية وللكرم العربي. كان الرجل قصير القامة ممتلئ الجسم قليل الكلام كثير الابتسام، وأذكر أن وجهه قد افترسه الجدري الذي لم يسلم منه الكثير من الناس عندما ضرب العديد من المناطق.

وهناك يقولون: «سنة امسالط» ويعنون سنة الجدري أو سنة الجراد أو سنة

الطاعون أو سنة الحرب. هذا هو الوصف الذي يؤرخون به للأيام والسنين بالنسبة إلى تلك القبائل في الريف. أو يقولون سنة سعيد باشا الذي ارتبط اسمه بالمعارك التي خاضها وقادها في الحرب العالمية الأولى على أبواب مستعمرة عدن... إلخ.

فيما بعد انتقلت من «الشيخ عثمان» إلى خور مكسر، وأقمت في معسكر (سيداسير لين) الذي يسكنه شقيقاي أحمد وعوض ناصر، وعشت معهما في نادي الجيش، ولأول مرة أنام على سرير وأتناول طعامي في (التوكة)، وهي إناء من المعدن يوضع فيه الرز واللحم و«الصانونة» (حساء الخضار).

كل شيء جميل وبسيط في هذا المعسكر. الكل يتنافس على إكرام الضيف ويقدمون له الحلوى والشاي والماء. وبعضهم يأتي بعلب فيها مسحوق الليمون الحامض، وهو شراب سريع الإعداد ما إن يوضع في الماء حتى يتحول إلى شراب منعش لذيذ يسمونه (لانجوس) يناسب الطقس الحار. ومنه عدة ألوان ونكهات، والأصفر هو الأفضل من بينها وهو بنكهة البرتقال.

بعدها عدت إلى معسكر (شامبيون لين) في ضيافة أخي صلاح ناصر، وكنت أتنقل بين «الشيخ عثمان» وخور مكسر وكريتر عدن كما يسمونها. وكنا نمشي هذه المسافة من خور مكسر إلى كريتر عبر الطريق البحري. وكنا نشتري الحلوى (المضروب) من شارع الزعفران وكذلك «الزعقا» (اللب)، ثم نعود إلى معسكرنا سيراً على الأقدام أيضاً ونحن نلتهم الحلوى ونتسلى على أنغام طقطقات الزعقا، وأحياناً كنا نختصر الطريق بالمرور عبر (البغدة)، وهي ممر محفور في الجبل تمرّ عبره من كريتر إلى جبل حديد لتجد نفسك في خور مكسر.

174 – 173

وكان من الصعب اجتياز ذلك النفق المظلم الذي يبلغ طوله (300 متر) بمفردك، ولا بد أن تعبره مع مجموعة لا تقلّ عن خمسة أفراد خوفاً من قطاع الطريق أو الجبرت. وكان هذا النفق قد شُقّ منذ قرون طويلة ويدور حول قصة حفره الكثير من الأساطير، ومنها أن الإسكندر ذا القرنين هو الذي شقه، وأن أعمال الحفر فيه استمرت سبعين عاماً، وتمرّ بالنفق القوافل والعربات، ويقال إنه كان يمرّ به أكثر من ألفي جمل يومياً متجهة إلى عدن أو عائدة منها لتجنب الصعود إلى عقبة عدن، واستُخدم ملجأً لسكان عدن أثناء الحرب العالمية الثانية، وتحول فيما بعد إلى مخزن للسلاح ومستودع للقوات المسلحة بعد قيام الدولة في الجنوب، وأغلق الطريق بين كريتر وجبل حديد.

معالم ومطاعم

بعد أسبوع من وصولنا إلى عدن، دخلتُ أنا وأخوتي أحمد وصلاح وعوض وعمي سليمان وبرطم، مع علي محمد الحسني مخبازة[1]، وأثناء الغداء سألت العمّ سليمان الذي كان يأكل فتّة عن رأيه في أكل المطعم، ولكنه لم يسمع سؤالي بسبب الأصوات العالية «للمباشرين» (الجرسونات) الذين يقدمون الأكل إلى الزبائن والضجيج الذي تحدثه الأيدي وهي تدقّ الخبز وتفتّ الموز والتمر وسط الذباب الذي يكثر في بعض المواسم، وكررت سؤالي:

– ما رأيك في هذا الأكل؟

قال العمّ سليمان: ربشونا يابوك في هذه المخبازة، فتي رشي وأربعين رطب وهم يعرقون ويتصايحون الله أكبر عليهم وعلى بوهم وأكلهم، شوفو كيف يصيحوا ويعوجوا ألسنتهم ويمطوا امكلام ولا نفهم شي منهم.

والتفت نحوي وقال: شيء فهمت منه شيء شوف كيف يعوي.

قلت: يقول هل تريدوا كوز ماء بانهيس؟

قال: أيش البانهيس؟

1– المخبازة: مطعم شعبي، وهناك مطاعم أُخرى في أحياء عدن تقدم الكراعين وتسمى في مصر بالكوارع، وهي معروفة في السعودية ودول الخليج بالمقادم، وكان أشهرها مطعم الكراعين بالشيخ عثمان، ونسب إلى صاحبه علي كراعين.

قلت: كوز ماء بارد من البمبة (باني: كلمه هندية تعني ماء، وكلمة آيس بالإنكليزية تعني ثلج، والكلمة كلها تعني ماء بارد).

قال: ليش ما يقول ماء له العمى؟

قلت: ماء حالي يخرجونه من البحر من مكينة تحلية وطعمه حالي كما الكرع[1].

قال: يا بوك لا تلعب علينا، حدّ يشرب من البحر؟

قلت له: يحلوه بمكائن لما يخرجون الحلو من الملح أي من البحر.

سكت وكأنه اقتنع بالرد، وكان الغرسون قد وضع الخبز والفتة والحلبة.

وبعد ما شرب من الكوز قال: والله حالي صحيح مثل كرع أمطر، ونظر نحو الحلبة وسأل: أيش هذا الأبيض ذي يزبّد (الرغوة)؟

قلت له: حلبة وفيها فائدة للجسم وللبطن والظهر.

هذا أحسن من صيد (السمك) الذي أكلته يوم أمس مع الصانونة.

وقال: ما لهم يلحسوه هكذا، لبوهم الوجع.

قلت: هذه طريقتهم، مثل ما نحن في البلاد ندخل الخبز في المرق والكل يأكل من إناء واحد مثل امصعة في أمزاد.

وأضفت: الحس مع من لحس من هذه الحلبة.

والتفت نحوي وقال: لعد تذكرني شفني با أقذف[2].

وكان يُشير بيده قائلاً: أبعدوه مني. ويتحدث وفي فمه قطعة خبز.

وبعدها قال: يا بوك ماشي أحسن من أكل نسواننا وما شي أحسن من أكلنا، هذا آخر الزمان الرجال يطبخون والحريم يأكلين. وكان هذا تعليقه على شخص أخذ الأكل في (كاتورة)، وهي إناء من معدن وخرج من (المقهاية)، فسأل: وين رايح بهذا الأكل؟

قلت: له رايح بيته من شان يتغذى هو وعائلته.

1- ماء المطر بعد نزوله مباشرةً.

2- با أقذف: ساتقيأ.

قال: والله إنه ما يستحي على نفسه لو كان خلّى حد من العواقب (الأولاد الصغار) يجيب له الأكل بدل ما يجيبه هو بطوله وعرضه ولا عد أستحي من هذه القوم.

وأضاف: والله يا بوك إن الموز مع الخبز طيب.

قلت له: أحسن هوه ولا العسل مع البر؟

قال: إيه يا بوك ما العسل والبر ما شي كماه لكنا ما نطعمه إلا في السنة مرة في أول يوم من رمضان (يوم امؤره) يا بوك ماشي أحسن من المعصوبة بالسمن والعسل دي يجيبه أحمد صالح القيناشي.

قال برطم: لا يا سليمان خوي أحسن عسل يبيعه الخضر سالم برسالم برهادي في امقليتة، من عسل وادي وجر وعسل العلب أحسن من عسل السمر.

اغتنمت فرصة حديث برطم عن العسل والنوب لأساله وهو الخبير في تربية النحل عن أنواع العسل والنحل، فقال:

العسل يا بر ناصر أنواع، أفضله عسل العلب (البقية) وموسمه في الشتاء، ويقولوا إن البقية نجم في السماء يظهر في موسم الثبة حق العلب (موسم أزهار شجرة السدر)، وهذا العسل دواء للضعيف والمريض، وفيه فائدة لكبار السن ويعطوه للحريو (العريس) منشان يزجا عظمه ويخلطوه مع الجلجل (السمسم) وسووا منه «الشليل» يأكله أيام الحراوة. وبعده يجي عسل السمر، وله رائحة مميزة وطعمه حلو ولونه أحمر، ولهذا العسل فوائد كثيرة لأمراض البطن، وعسل أرضنا ما له «جده» (مثيل) سوى عسل جردان[1] بالواحدي (الذي تغزل

1- من أكثر أنواع العسل اليمني شهرة، ويلي موقعه الدوعني، وسمي بالجرداني نسبة إلى منطقة جردان بمحافظة شبوة جنوب اليمن، والذي يقول فيه الشاعر محمد الزعلان :»يا عسل جردان من نوب المجاني، يا بغية –اسم آخر للعسل– تروي القلب الظمآن»، أو كما يتغنى فيه الفنان الراحل أبوبكر سالم:»واللقاء قد حان.. مد لي يمناك واطعمني عسل جردان». يشتهر وادي جردان بالعسل عالي الجودة والذي يطلق عليه أيضاً (البغية)، ذلك لأن النحل يتغذى على أشجار العلب (السدر)». يتميز بنكهته المميزة والطعم اللذيذ للغاية، مشيراً إلى أن من فوائد عسل السدر أنه: «يُوصف لعلاج مشكلات الكبد من خلال أخذ ملعقة على الريق يوميّاً، كما يُعوّض الجسم عن السكريات التي يستهلكها الجسم بسبب الجهد الذهنيّ والجسمانيّ ويقوّي القلب وعضلاته».

فيه القمندان)، وعسل حضرموت (بدوعن)، وعسلهم أثقل من عسلنا، لأن أرضهم جافة، لكن عسل سمر أرضنا أحسن من عسل سمر حضرموت.

175 – شجرة السمر

وبعد السمر يجي «المروة»، وهو عسل من زهور كثيرة، وفي بعض المناطق حيث تكثر أشجار القصاص يكون العسل حاراً. أما النوب فهو نوعان: نوب أرضنا، ولونه أحمر، وهو قوي ويتحمل الجدب و«لقعته» (قرصته) حارة تقول اذبر (دبابير)، ونوع ثاني جابوه من البحر من الحبشة ولونه أصفر، لكنه ضعيف مش كما نوبنا. و«المير»[1] يا علي هو أبو النوب لا مات ولا فر «ينبر النوب» (يموت أو يهرب).

والشاعر يقول: لولا أبو النوب ما ذقنا رحيق العسل.

ووجه برطم كلامه إلى العمّ سليمان مداعباً: العسل يا سليمان رع فيه قوة، لو داومت عليه. كل يوم با تتزوج إنسانة. ونا يا سليمان خوي رع كني با تزوج.

قال له العمّ سليمان: أوه بعر (وهي كلمة فيها نوع من الاستخفاف بالكلام والبعر هي مخلفات الجمال) يا برطم. وسكتنا على صوت صاحب المقهاية وهو يقول: حساب.

كان عمال المخبازة يتهيأون لإغلاقها استعداداً لمضغ القات بعد الفته والسلتة والمرق الذبحاني والدبعي، فتحت كمري[2] (أشتي) أدفع

1- أمير: المقصود بها ملكة النحل.

2- كمر: كلمة تركية، وهو الحزام المصنوع من القماش، ويوجد فيه مكان لحفظ الأموال ويلبس فوق الفوطة.

الحسـاب، وإذا بصـديقي علي محمد الحسني الذي درس في جبل حديد يعتزي[1] وكأنه لم يدخل عدن ويتعلم في مدرسة جبل حديد ويعمل في معسكر (شبرت) بخورمكسر، ويقول: يا جماعة عيب عليكم والله ما دفعتوا شلن، أنتو ضيوفنا وعلى العين والرأس، ودفع الحساب.

وحاول أن يدفع «رضيخ» (بخشيش)، وقال: الباقي لك، ولكن الرجل رفض وأرجع الباقي، وكان مشغولاً بربطته الخضراء الملفوفة بعناية بقماشة بيضاء مبلولة.

176

وصاح: أيش يا بدو شتخزنوا؟ ووضع القات تحت إبطه وهو يستعد للخروج من المخبازة التي لا تزال بعض بقايا الدخان يتصاعد من تنورها.

ردّ العمّ سليمان: المداكي لكم يا الجبالية ما هي شي لنا حمران العيون.

وأضاف يخاطبنا: أيش يشتوا من هذا القات لبوهم الموت!

نعلبوها (يلعن أبوها) مرجلة والله إننا خايفين على عيالنا لا يعطلوا مثل ما عطلوا الجبالية والعدانية.

قال علي محمد الحسني:

يا عمّ سليمان القات يطلع الكيف أيش رأيك تأخذ لك ذولي مع المداعة وعاد الضرس حامي.

1- يعتزي: يستنكر ويرفض.

قال العمّ سليمان: حمّى لبوهم!

قال الحسني: ما لك تزفها فوق كتفك حيث ما رحت في بلاد الله. وكانت المداعة لا تفارقه منذ مغادرتنا قرية الفرعة بدثينة قبل عشرة أيام.

قال: حرام عليّ ما دخل ثمي (فمي) رعوني لا كلته با دوخ، روحوا بنا.

177 – الشوكي البالي (الشرطة) بالشيخ عثمان خلال منتصف القرن العشرين

بعد خروجنا من المخبازة، وعندما كنا واقفين أمام «الشوكي» (مركز البوليس) في «الشيخ عثمان»، قال العمّ سليمان: شوفوا هذا المبنى، فنظرنا إليه.

وقال: كان في رأسه مكرفون يذيعون منه أخبار الحرب بين الطليان وهترل (هتلر) والإنكليز.

قال برطم: ونعم هترل رجّال أحمر عين!

قال علي محمد: هذا فاشي ونازي، وقد دمر العالم واسمه هتلر وليس هترل.

قال برطم: أيش تقول؟ أيش الفرق بينهم؟

قال: قد سمعتني.

قال: سمعتك لكني والله ما فهمت كلمة من امكلام دي قلته، وعيب تسبّ هتلر.

قال العمّ سليمان: ما حد كان يمدحه إلا بحري.

قال برطم: نعم كان يونس بحري[1] يقول: «هنا برلين، حيّ العرب».
وكان يقول: إذا زلزلت الأرض زلزالها وقال هتلر ما لها!
قال علي محمد: حرام عليك تقول هذا الكلام، لا تحرفوا كلام الله.
قال برطم: هذا كلام يونس بحري وربنا دي با يحاسبه.

178 – يونس بحري من إذاعة برلين العربية (هنا برلين)

تحضرني هنا قصة عن موضوع الحرب العالمية الثانية وهتلر وأهل مدينة صغيرة في حضرموت تسمى الشحر والراديو القديم: خلال الحرب العالمية الثانية كان الجنوب محتلاً من قبل القوات البريطانية، وكانت الغواصات الألمانية تصول وتجول في بحر العرب محاولة قطع خطوط الإمدادات عن القوات البريطانية، وأغلب السكان في هذه المناطق يتابعون أخبار الحرب من خلال إذاعة لندن، إلا أهل (الشحر) حيث كان أهلها يستمعون إلى إذاعة برلين، وكانوا يسمون هتلر (أبو الهتور)، وكان ذلك يحصل في قهوة المدينة، عبر راديو

1- أول مذيع في إذاعة بغداد 1936م، اسمه الحقيقي يونس الجبوري، وقد سمي يونس بحري لأنه قطع مضيق جبل طارق سباحةً، وهو رجل أسطوري وله مغامرات في الشرق والغرب، فقد زار اليمن وحاول عبور الربع الخالي في الثلاثينيات، ولكنه تراجع عن هذه الفكرة، وزار الملايو وإيران وأفغانستان وتونس وليبيا والهند وإندونيسيا، وأقام علاقات مع الحضارم، وأصبح مفتي الديار الإندونيسية. وفي الحرب العالمية الثانية انتقل إلى برلين، وكان يخاطب العرب: «هنا برلين، حيّ العرب». ويقال إنه تزوج خلال جولاته بين الشرق والغرب أكثر من خمس وعشرين امرأة.

قديم يعمل على بطارية كبيرة الحجم توضع على جانبه. وفي تلك الأيام كان المذيع يونس بحري، مذيع راديو برلين، يبدأ أرسال المحطة ببيت شعر لصفي الدين الحلي رداً على افتتاحية إذاعة لندن المشهورة (هنا لندن) قائلاً:

سلوا الرماح العوالي عن معالينا
واستشهدوا البيض هل خاب الرجا فينا
لقد سعينا فلم تضعف عزائمنا
عما نروم ولا خابت مساعينا

فكان يردّ أهل الشحر بصوت واحد وهم في القهوة:
حاشا الله يا بو الهتور ما خاب الريا (الرجاء) فيك.

وفي يوم من الأيام تعطل جهاز الراديو في الشحر، ولم يجدوا أحداً يصلحه لهم، وكان الوحيد الذي يقدر على إصلاحه هو السلطان القعيطي الذي درس الهندسة في الهند، فذهبت مجموعة كبيرة من أهل المدينة على متن سيارتين، ومعهم الراديو إلى قصر السلطان في مدينة المكلا، وهم يهتفون ويدقون على طبولهم وينفخون في مزاميرهم، ودخلوا القصر وسببوا إزعاجاً كبيراً، وطلبوا مقابلة السلطان لأمر مهمّ، فأرسل من يستطلع الأمر، فأخبروه بأنهم أهل الشحر ويودون مقابلته، فقابلهم السلطان، وطلبوا منه إصلاح الراديو لكي يتمكنوا من سماع أخبار (أبو الهتور)، فرفض السلطان رفضاً قاطعاً وقال لهم: «روحوا يا نازيين إلى قريتكم (الشحر) لن أصلح لكم الراديو»، فأزداد غضبهم وعمّت الفوضى باحة القصر حتى وصلت أصواتهم إلى مكتب المستشار السياسي البريطاني الذي كان بالمناسبة يقع مقابل القصر، فأرسل المستشار أحد الضباط ليستفسر عن سبب هذا الإزعاج والفوضى، وعندما عاد وأخبر المستشار عن السبب ضحك المستشار وأمره بالعودة إلى السلطان وطلب من السلطان إصلاح الراديو من أجل أن يتمكن من النوم، قائلاً له:

«إذا سمع أهل الشحر الراديو على إذاعة برلين أو إذاعة لندن فهذا لن يغير من مجرى الحرب العالمية الثانية». وقرأت ما نشر في مذكرات القاضي عبد الرحمن الأرياني بشأن الراديو أن الإمام يحيى كان يمنع الاستماع إلى الراديو

بحجة أنه يذيع أغاني يحرم استماعها، وكان همّ الأرياني أن يتابع ما يجري من تطورات في العالم من الحروب وغيرها، فاستأذن الإمام في شراء راديو، فردّ عليه الإمام بالقول: (ومثلكم ممن لا يلهو بسماع الملاهي).

بعد الكلام عن هتلر وبحري، قال علي محمد: ما رأيكم نزور الصهاريج في عدن؟

ولم ينتظر الرد، وقال: يا الله على الصهاريج.

ولكن العمّ سليمان قال: أيش من صهاريج يا بوك، خلنا نرجع نتفقد جمالنا في السيلة بـالشيخ عثمان.

قال علي محمد: با تشوفوا أيش عملوا أجدادنا الذين بنوا الصهاريج وسور عدن وعقبة عدن وبنوا سد مأرب.

قال: ماشي، معنا وقت لهذا «امحواس» (التنزه)، وهذه «امهاري امخلية»، شوفوني بي خرمة للمداعة بعد الأكل.

قال علي محمد: هل ضروري البوري بعد الأكل يا عمّ سليمان؟

قال: والله يا بوك في رمضان ما لي نفس لشي بعد أذان المغرب وشرب الماء والتمرة والصلاة إلا للبوري حتى قبل العشاء، عادك ما جربت يا ابن امهجة، والله لا ولّعك فيها قطبت صدري.

وكررعلي محمد: أيش قلتوا... نروح الصهاريج؟

قلنا: توكلنا على الله والنبي. بس كيف با نروح؟ باص أو تاكسي؟

قال: زي ما تشتوا.

قلنا: أفضل بالباص.

قال صلاح ناصر: اعذروني، أنا مشغول اليوم، معي مباراة مع فريق الهلال ضد فريق الحسيني الرياضي[1] في كريتر عدن، وبا نلتقي بعد مباراة كرة القدم.

1- في مستعمرة عدن أندية رياضية في كل حيّ. في كريتر: نادي الشباب الرياضي، نادي الشباب القطيعي في حارة القطيع كريتر عدن، وهو أقدم نادي كرة قدم في عدن، نادي الحسيني الرياضي، نادي الأحرار. وفي حيّ «الشيخ عثمان»: نادي الشباب المحمدي، نادي الهلال الرياضي، نادي الشبيبة المتحدة(الواي) (MCC). وفي حيّ المعلا: نادي الجزيرة الرياضي، نادي شباب الروضة (القلوعة). حيّ التواهي: نادي شباب التواهي، نادي الشعب الرياضي. مدينة عدن الصغرى: نادي شباب البريقة. ويذكر أن مادة الرياضة

فريق الهلال

صلاح ناصر

وأضاف صلاح: ما رأيكم لو تروحوا معنا ميدان «الكبة» (كرة القدم)؟

قال العمّ سليمان: والله معد دريت أيش تقولوا. الصهاريج أو الكبة. كبة تكب بوها هذه البلاد هي وأهلها!

قال عوض ناصر: أما أنا باروح مع صلاح الملعب وباشجعه أنا وأحمد علي امعلواني.

سأل برطم: أنته تعرف تلعب مكبة يا «عول» (عوض)؟

قال عوض: لا.

البدنية أدخلت كحصة أساسية في الجدول المدرسي لمدارس عدن بعدما أدخلها الأستاذ يوسف حسن السعدي (24/ 8/ 1917–23/ 8/ 2009).

وبعد قيام الدولة في الجنوب عام 1967م جرى توحيد الأندية في الأحياء. كريتر: نادي التلال الرياضي، «الشيخ عثمان»: نادي الوحدة الرياضي، المعلا: نادي شمسان الرياضي، التواهي: نادي الميناء الرياضي، عدن الصغرى: نادي الشعلة الرياضي.

فقال له: ما دام إنك ما تعرف، ليش باتروح؟

قال عوض: صلاح أول لاعب في عدن من عيال دثينة وباروح شجعه.

وبقي معنا الأخ أحمد ناصر الذي ذهب معنا إلى محطة الباصات بـ«الشيخ عثمان» وطلعنا الباص وانتظرنا إلى أن حان الوقت للحركة من «الشيخ عثمان» عبر طريق المملاح ثم الطريق الذي يمر وسط مطار خور مكسر حتى سينما ريجال.

وعندما وصلنا المملاح قال عمي سليمان: أيش هذه المراوح وهذا «امطين لمن» (يقصد المراوح الخاصة بالطواحين الهوائية التي تدفع مياه البحر إلى أحواض التجفيف).

قال علي محمد حسني: هذه ملاحات[1] تطلع ماء البحر إلى هذه الأراضي ويبقى ماء البحر فيها لمدة 10 أو 15 يوماً يتحول بعدها إلى ملح أبيض يجرفونه ويخرجونه من الأرض ويحملونه على ظهور العمال ويجمعونه استعداداً للشحن إلى الهند وإنغلاند والبحور الأخرى.

قال العمّ سليمان: رحمة الله عليهم وعلى بصرهم، لكن إحنا ملحنا جبناه معنا من بلادنا وما شي أحسن من ملح جبال الملح، الذي يجينا من أرض العوالق وبيحان «نقوص» (كتل) بيضاء من جبال الله.

قال برطم: هذا الملح قد أعمى أهل واقس وقطّع أرجيلهم.

قال العمّ سليمان: والله قد سمعت، ولكن هذا أمر الله وهم فقراء.

أمسك العمّ سليمان عن الكلام عندما توقف الباص بالقرب من مطار المجراد[2] (مطار خور مكسر) في انتظار هبوط طائرة عسكرية، وكان

1- هناك ملاحتان أشار إليهما ابن المجاور هما:
1. الأولى شمال المكسر، وتعرف باسم (حسوة السيد).
2. الثانية توسعت إلى جنوب المكسر حتى نهاية القرن العشرين.
واستغلتهما شركات هندية وإيطالية وبنت عليهما طواحين الهواء لضخ الماء والتي أصبحت من معالم عدن المشهورة.

2- أُنشئ مبنى المطار في بداية الأربعينيات وأُسِّسَت أول شركة خطوط للطيران في عدن عام 1949م، وكانت تسمى خطوط عدن الجوية، وكان مديرها بريطانياً، ثم تأسست شركة أخرى باسم شركة إخوان باهارون التجارية (شركة باسكو للطيران) واستمرت حتى بعد الاستقلال، وهي الشركة الناقلة لوفد التفاوض للاستقلال في جنيف.

الطريق يمّر وسط المطار (قبل الطريق البحري الذي يربط بين شيخ عثمان والمنصورة وخور مكسر).

وبعد أن تجاوزنا المطار، قال علي محمد: شوفوا هذا ميدان سباق الخيول بالمجراد.

قال برطم: إيش يعملوا فيه؟

قال علي محمد: يتسابقوا، والذي يفوز حصانه يعطوه جائزة والناس يتراهنوا على الحصان الفائز، وأفضل حصان هذه الأيام هو حصان أحمد بن عبد الله الفضلي.

قال العمّ سليمان: قدها لبوه، الشجاعة والكرم ولكن خيول العوالق ما شي أحسن منها قد قالها الشاعر: شدت خيول العوالق ليتني عولقي.

قال علي محمد: هذا سباق خيول[1] لا يحتاج شجاعة ولا قتال، ومن سبق فاز.

قال برطم: إيش دخلنا فيهم يفوزوا أو لعد فازوا.

وسكت الجميع.

قال علي محمد الحسني: شوفوا الطائرة نزلت، وفي طائرة با تطلع وبعدها با نمر إلى جولة ريجل[2].

قال برطم: شوفوا الطائرات مثل الجراد واحدة تطلع وواحدة تنزل،

1- كان للخيل رواج في الهند، ومعظم الخيول التي كانت تصدر إلى الهند كانت تأتي من عدن، ويؤتى بها من منطقة تهامة من زبيد المعروفة عند اليمنيين ببلاد الشام. قال الخزرجي في **العقود اللؤلؤية**: «وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمئة وصل التجار من الجهات الشامية بعدة خيول يريدون بها موسم عدن كما جرت عاداتهم فلما أدخلوها (فشال) رأتها الأشاعر وأخذوا الخيل الواصلة إليهم بأسرها» ص (34).
وللخيل في عدن مكان تربط به قبل تصديرها إلى الهند يعرف بمرابط الخيل، لم يحدد المجاور موقعه، وكانت الضرائب التي تؤخذ على الخيل عند خروجها من عدن إلى الهند تبلغ حوالي مئة وخمسين ألف دينار كل عام ص (35).
كتاب: **عدن فرضة اليمن** - حسن صالح شهاب - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، ط: 1410هـ - 1990م، ص123

2- ريجل (أو ريجال) اسم دار سينما في منطقة خور مكسر وجولة أو (دوار) ريجل يحمل اسم دار السينما.

وسأل: هل سموا المنطقة بالمجراد لأن فيه الطائرات التي تطير منه وهي كالجراد أو أن هذه الأرض كان اسمها المجراد قبل بناء المطار.

مطار (المجراد) خورمكسر

قال علي محمد: أنا ما أدريش ليش سموها بهذا الاسم. وفتح الطريق وتوجه الباص نحو سينما ريجل. فباب السلب الذي كان يقع تحت مدرسة جبل حديد التي تطل على المعلا دكة والبعض يسميها دكة أبكاري.

وقال علي محمد: شوفوا هذه المدرسة التي تعلمنا فيها، وسكنها قبلنا الزعيم المصري سعد زغلول عام 1921م.

سأل العمّ سليمان: من سعد زغلول؟

أجاب: هذا زعيم مصري قاد ثورة مصر عام 1919م ونفاه الإنكليز إلى عدن وجزر سيشل وجبل طارق.

قال: يابوك والله ما فهمت كلمة من هذه امهاري دي قلتها، إلا أننا كنا نسمع عن مصر لما يقولوا خير في مصر يا الله أعطنا منه وشر في مصر يا الله اكفنا شره. بس قل لنا أيش علموكم النصارى في هذه امدرسة وانتبهوا على أنفسكم من عيال امسوق.

قال علي: يا عمّ سليمان العلم، نور تعلمنا إنكليزي وحساب وعربي ودين، وعندنا مسجد نصلي فيه كل يوم.

سأل العمّ سليمان: صحيح أن النصارى يعلمونكم الدين؟

أجاب: لا عندنا مدرس سوداني اسمه حسن فريجون.

سأل: من أين أتوا به؟

أجاب: من السودان.

سكت العمّ سليمان، ولم يعلِّق ولم يسأل، لأنه لأول مرة يسمع عن السودان، لأن آخر حدوده باب السلب في عدن التي قال عنها إن القبائل لا يسمح لها بدخول عدن إلا إذا سلمت سلاحها من بنادق وخناجر وسكاكين في هذه النقطة العسكرية التي سماها العرب باب السلب، أي الباب الذي يحطّون فيه سلاحهم وديعة حتى يخرجوا من عدن التي كانت تتشكل منها كريتر والمعلا والتواهي مقرّ المندوب السامي البريطاني.

قال برطم: يا سليمان، اسكت قدنا دارين بباب السلب الذي يقع تحت مدرسة جبل حديد، ويؤخذوا منكم السلاح فيه وتدخلوا عدن مثل امنسوان، بس خلّي ابن أمهجة يقصّ لنا من كان معهم في هذه امدرسة من عيال المحميات.

قال علي محمد الحسني الذي كان يحفظ عن ظهر قلب كل مكان وركن في جبل حديد ومدرسة جبل حديد، وشرح لنا عن هذه المدرسة وتاريخها وطلابها وهم:

1. قحطان الشعبي، أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية.
2. أحمد علي مسعد، أصبح فيما بعد مديراً لشركة النفط ونائب وزير الإدارة المحلية وتقلد مناصب كثيرة.
3. علي محمد حسني، أصبح فيما بعد مديراً إدارياً في شركة النفط.
4. محمد فريد العولقي، أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية.
5. حسين عثمان عشال، أصبح فيما بعد قائداً للجيش.
6. سعيد عثمان عشال، أصبح فيما بعد مشرفاً على التعليم في ولاية دثينة.
7. مسعد عبد الله الشعيبي، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً في المحميات.
8. أحمد سيف مفلحي، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً في المحميات ووكيل وزارة الأشغال.
9. فيصل الشعبي، أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء.
10. حميد الشعبي، أصبح فيما بعد مديراً إدارياً.
11. صالح عمر يافعي، أصبح فيما بعد مشرفاً للتعليم في دثينة.

12. فضل علي منصر.
13. يحيى عبد القوي مفلحي، أصبح محافظاً بعد الاستقلال.
14. فضل حسن صلفوح، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً في المحميات.
15. عيدروس أحمد النقيب.
16. قائد حسين الهبيلي، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً في المحميات.
17. الشريف صالح بن عوض.
18. الشريف أحمد بن عوض.
19. الشريف ناصر بن علي.
20. الشريف حيدر بن صالح، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً ثم مستشاراً للرئيس.
21. سالم قاسم أحمد، أصبح فيما بعد موظفاً في وزارة الخارجية.
22. سليمان ناصر الحسني، أصبح فيما بعد موظفاً.
23. ناصر صالح عبد الله الفضلي، أصبح فيما بعد ضابطاً في الحرس الاتحادي.
24. السلطان حسين بن عبد الله، أصبح فيما بعد حاكماً للسلطنة الفضلية.
25. أحمد حسين الفضلي، أصبح فيما بعد مسؤولاً في السلطنة.
26. أحمد عبد الله الفضلي، أصبح فيما بعد سلطاناً في أبين.
27. أحمد فضل محسن، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً في المحميات.
28. محمد عبد الله الشعيبي، أصبح فيما بعد ضابطاً سياسياً ومأموراً في مودية.
29. غالب علي العفيفي، أصبح فيما بعد سلطاناً في يافع السفلى.
30. مهدي عثمان المصفري، أصبح فيما بعد عضواً قيادياً في حزب الرابطة.
31. عبد الملك عبد الله الشاعري.
32. سيف عبد القوي مفلحي.

هذه المعلومات عن مدرسة جبل حديد وطلابها حدثني بها صديقي علي محمد الحسني، أحد الطلبة وصديق العمر الذي كان معي في زيارتي لعدن ونحن في الطريق إلى المعلا دكة.

وقال علي محمد: إن الإنكليز يولون اهتماماً بالإدارة في عدن والمحميات ويختارون لها بعض أبناء المشايخ والسلاطين بعد إعدادهم في مدرسة خاصة (مدرسة جبل حديد) بعدن، أو يرسلون بعد ذلك إلى السودان ولندن لإعدادهم إعداداً جيداً للمساعدة والمساهمة في إدارة الشؤون المحلية، وبعضهم مارس التدريس في مدرسة جبل حديد مثل علي محمد سالم، حسين هادي، وأحمد علي مسعد، وبهذا المعنى يمكن إطلاق مدرسة إعداد القادة على مدرسة جبل حديد.

وبعد حديث علي محمد توقف الباص في معلا دكة الإبكاري[1]. نزل ركاب وصعد ركاب آخرون، وقد شاهدت المفتش يمرّ على الركاب للتأكد من التذاكر، وقد أظهرنا تذاكرنا وقطع منها قطعاً صغيرة.

وقال عمي سليمان: أيش يشتي منّا؟

قلت له: يتأكد إذا أحد طلع بدون تذكرة.

وأعطى السائق إشارة بيده، وأحياناً كان يؤشر بقطعة خشب تشبه اليد، وزمر وانطلق صوت الباص الذي كان في طريقه إلى عقبة عدن يتردد صداه في الجبال.

وقال علي محمد: الآن سندخل العقبة، عقبة بوابة عدن وهي ضيقة تتسع لسيارة واحدة، ولا تخافوا.

قال العمّ سليمان: أنا سليمان!! نخاف من أيه قدنا متعودين على الخير والشر؟

قال برطم: نخاف أنهم يدقون بنا هذا امحيد (أي الجبل) ونموت، وكان برطم بجانب النافذة وهو يشاهد الدخول وعلى يساره العمّ سليمان

1- المعلا: تمتد منطقة المعلا من حجيف على امتداد الساحل إلى باب عدن، وكان يطلق عليها أحياناً باب المعلا، وتحتل أكبر شريط ساحلي، وتشير خريطة هنس إلى وجود محاريق (النورة) الحجر الجيري في الدكة، وكانت عبارة عن محطة نقل بين باب عدن والعالم الخارجي، وبسبب استيطان عدد كبير من الصيادين ذوي الأصول الصومالية فيها سميت نهاية القرن التاسع عشر بصومالي بورا.

وبعد أن اتسعت أحياؤها السكنية سمي حيّها الغربي بـ(حافون) نسبة إلى أحد الموانئ الصومالية، والحيّ الجنوبي بـ(القلوعة)، وتعني الشارع الملتوي، وقد اعتاد الناس تقسيمها إلى قسمين: معلا دكة، وتعني الفرضة، ومعلا صومال لأن غالبية سكانه من الصومال.

وهو يقول له: لزّ لي (افسح لي)، وهو يرجع برأسه إلى الداخل وكأن الجبل سيدخل عليه، وضحكنا، وما هي إلا لحظات إلا ونحن خارج البوابة التي هدمت فيما بعد في أبريل عام 1963م لتوسعة الطريق الجديد.

قال علي محمد: انظر عدن من زمان محصنة بالسور الذي فوق الجبال من كل مكان وبالبحر من الشرق، ولا يوجد مخرج أو مدخل إلا عبر بوابة عدن في العقبة.

قال العمّ سليمان: محصنة بالله وبالعيدروس[1].

قلت لـعلي محمد: من تعتقد الذي بنى هذا السور وهذه البوابة؟

أجاب علي محمد: سمي باب عدن بعد أن أهمل باب عدن القديم (البغدة الكبيرة)، وهو أحد الأبواب التاريخية التي تربط مدينة عدن التاريخية ببحر المعلا قديماً ومدينة المعلا حالياً من ناحية الغرب، وقد وصفه المؤرخ الهمداني بأنه شطر مقطوع في الجبل، واعتبره كثير من العلماء أعجوبة معمارية أكثر منه ممراً للناس والدواب، ولا يزال جزء منه باقياً إلى الآن بعد أن تهدم القوس الوسطي له، والباب مبني كلياً من الحجر ويقال له أيضاً باب الزيادة (العقبة) ويقع حالياً على رأس الطريق الفاصلة بين مدينتي المعلا وكريتر.

وتقول إحدى الأساطير إن هذا الممر شقه الخليفة علي بن أبي طالب زوج ابنة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بضربة واحدة من سيفه.

وقد قام حكام بني رسول بتوسيعه، ثم العثمانيون إبان احتلالهم الأول لليمن، وبعدها قامت السلطة العسكرية البريطانية بزيادة توسعته (أثناء الاحتلال البريطاني لعدن) حيث صار يتسع لعربتين، ورصفوه بالأسفلت وأحدثوا فيه تحسينات أخرى وقد هدموا الجسر الذي كان فوق الباب بين الجبلين المتقابلين اللذين يقع الباب تحتهما، وكان يمكنهم بالآليات الحديثة توسيع الطريق دون اللجوء إلى هدم هذا الأثر التاريخي.

1- مسجد العيدروس: أسسه السيد عبد الله أبو بكر العيدروس عام 890هـ، وفيه مقامه حيث دفن فيه، وكان مؤسسه قد وصل إلى عدن في 13ربيع الثاني عام 890هـ، قادماً من حضرموت وخُلِّد ذكرى دخوله إلى عدن بزيارة سنوية له كل عام، وكان أيضاً موقوفاً لدراسة الحلقات الفقهية وحلّ قضايا المواطنين، وقد جَدّد المسجد أحد أثرياء الهند من حيدر أباد عام 1270هـ، ووُسِّع في العصر الحديث.

وقد كان باب العقبة من أشهر معالمها وبابها الوحيد لقرون عدة إلى البر، وهمزة وصلها بالجزيرة العربية.

وقد اتخذ مسميات كثيرة له منها: باب عدن، وباب العقبة، وباب البر والباب البري وباب اليمن وباب السقائين وباب المعلا.

وأضاف علي محمد: صدقوا أو لا تصدقوا أن شداد بن عاد هو الذي أمر الجن والعفاريت أن يفتحوا له الجبل من أجل يدخل عدن، ويقال إن الحفر استمر سبعين عاماً، ما حوَّل عدن إلى سجن يصعب الخروج منها، لأنها محاطة بالجبال والبحر، ولا يوجد فيها إلا طريق واحد.

أما الهمداني، فقد ذكر أن عدن هي أقدم أسواق العرب، وذلك بعد أن قطعوا الصخر بالمطارق الحديدية وفتحوا الباب وهم يتزملون (أي يغنون)، وأطلق عليه في عهود مختلفة عدة أسماء، مثل باب البر وباب اليمن وباب عدن، ويقال إن الأتراك وسعوا الثقب وأقاموا فيه ثلاثة أبواب ضخمة متتالية، أولها مصنوع من الحديد وينزلق من أعلى إلى أسفل، وكان الحراس يحرسونها ليلاً ونهاراً من الهجوم المفاجئ من البر، وبعدها وسعه الإنكليز لدخول الجمال والحمير والخيل والجواري، أي العربات التي تحمل الماء والحطب والأكل. وأكمل علي محمد القصة لنا ونحن في الحافلة، والتفت إليه برطم وقال: أفصح الله لسانك.

فقال العمّ سليمان: ما شاء الله عليه رعوه يحفظ هذه القصص وامهاري، الله يحفظك يابوك ويفصح لسانك.

شكرناه جميعاً، ولكنني لم أقتنع بالقصص عن العفاريت والجن وشداد بن عاد وغيرها من الأساطير التي ذكرها، ولكن هذا هو ما قرأه وسمعه الصديق علي محمد، ولكل شعب من الشعوب أساطيره التي تصبح جزءاً من تراثه الثقافي.

وقال: وعادك با تشوف صهاريج الطويلة[1] التي كانوا يخزنوا فيها

1- حافة حيّ الطويلة تبدأ غرباً من سفح جبل شمسان حيث تحتضن جنباتها تلك الصهاريج الطويلة الأثرية الشهيرة بحديقة غناء وتمتد من موقع الصهاريج لتشكل شارعين في اتجاهين تتوسطهما (السيلة) ممرّ المياه التي تفيض خزانات (صهاريج الطويلة) بحيث يمتد الشارع الأول حتى منطقة سوق الخضار والأسماك من جانب ليلتقي من الجانب الآخر بحافة حسين.

الماء في وقت الجفاف والحرب. كانت عدن محصنة من الغزاة وفيها ما يكفيها من الماء والغذاء لفترة طويلة، وكانت مزدهرة قبل دخول الإنكليز، وهي أحسن بلد في العالم. ولم أعلّق على حديثه، فهذه آخر حدودنا اليوم، فنحن لم نزر أي بلد آخر خارج الجنوب أو خارج ميناء عدن الذي كان يزخر بالبواخر من كل بلدان العالم. توقف الشرح مع توقف الباص، ونزلنا من الباب الخلفي بالقرب من السجن المركزي في عدن وسينما مستر حمود.

قال علي محمد: ما رأيكم نشرب شاهي أو عصير ليمون أو نروح الصهاريج وبعدين نشرب شاهي؟

قال العمّ سليمان: «لا يا بوك با نروح نصلي في مسجد أبان القديم المشهور وبعدها حيث ما تشتينا[1]. رحنا وكان له ما يريد، وبعد الصلاة توجهنا إلى الصهاريج وكان دليلنا علي محمد الذي شرح لنا عن الصهاريج وكيف بنيت وأهميتها في خزن المياه لسكان عدن وأنها تتسع لملايين الغالونات وقال: يقول البعض إن الأوسانيين هم الذين بنوها، وآخرون يقولون بنو زريع، والعلم عند الله. قلت له: «هذه الصهاريج ما تبنيها إلا دول كبرى وقوية وليست قبيلة العبادل بلحج الذين يدَّعون حكمها وملكيتها قبل دخول الإنكليز والقبطان هنس». وقد أخذ المرشد السياحي يحدثنا عن تاريخ هذه الصهاريج.

وتعد الصهاريج من أهم المعالم القديمة في عدن ، وتتكون من حفر كبيرة تقع في مصبّ مياه السيول المتدفقة من الجبال البركانية المحيطة بالمدينة، وبفضل السدود التي تفصل بينها أصبحت هذه الحفر خزانات يعلو كل واحد منها الآخر، ما يجعل مياه السيول تملأها بالترتيب وتتدفق المياه الفائضة في مجرى الوادي الجاف «السيلة» الذي كان يستخدم عادة سوقاً للجمال.

وتلقَّف المياه المنحدرة من قممه من خلال شبكة دقيقة من القنوات والمصارف شُيِّدت هي الأخرى منذ زمن تشييد الصهاريج، بيد أنها تعرضت لمتغيرات مختلفة. ويقدَّر عدد الصهاريج في مدينة عدن بخمسين صهريجاً ويقال ثلاثون.

1- تشتينا: تريدنا، ترغب أن.

كانت أفواج من السياح القادمين إلى الصهاريج من مختلف أنحاء العالم يصورون ويتصورون في الصهاريج ونحن نشاهدهم.

وقال العمّ سليمان: شوف النصارى[1] الله أكبر عليهم كيف هم حمر! وكأن جلودهم نبتت بأرض جهنم .

قال برطم: لعنة الله عليهم قليلي الإيمان، كأنهم خرجوا من جهنم.

قلت لهم: النصارى متعلمون ومحتلون لأرضنا.

قال العمّ سليمان: أيش تشتي من هذه المهاري الخلية، أيش حولنا منهم، متعلمين لأعمارهم، ولكن قل لي أيش تقصد أنهم محتلين؟

قلت: إنهم احتلوا أرضنا من مئة سنة وأكثر.

قال العمّ سليمان: لكنهم دخَلوا عيالنا جيش شبر والليوي وجابوا السيارات والطائرات الله أكبر عليهم!

قلت له: مالك تُكبر عليهم كلما ذكرناهم؟

قال: لأنهم لا يخافون الله.

قال علي محمد: لكنهم مؤمنون بالله وديانتهم المسيحية ونبيهم سيدنا عيسى عليه السلام.

قال العم سليمان: أيش استفدتوا من زيارة هذه الحجار والجبال؟

لو كان خليتونا نزور قبور الأولياء مثل العيدروس كان أحسن.

قال علي محمد: يا عمّ سليمان لازم كل واحد يعرف تاريخ بلده وشعبه، فنحن شعب عظيم نشرنا الإسلام والحضارة في كل مكان في العالم من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً.

قال العمّ سليمان: أنا مالي دخل في هذه المهاري[2]، عرونا (دعونا) نصلي المغرب في مسجد العيدروس دي خلا السماء تمطر لبن. كانوا الناس يقولوا زمان: «عيدروس دخل عدن يا سماء صبي لبن».

هذه كرامة الأولياء وخلونا نبوس قبره وناخذ البركة منه ونصلي في مسجده ويتقبل الله دعانا.

1- المقصود بهم الأجانب من الغربيين.

2- الأحاديث.

قال علي محمد: يا عمّ سليمان شوف كيف تتفلسف عندما ذكرنا العيدروس وتقول إنك ما تعرف عن الصهاريج.

في الطريق قابلنا رجلاً معمَّماً بعمامة بيضاء، وفي طياتها الخلفية مسواك[1] وشقر أخضر وذقنه أبيض ووجهه يسطع نوراً، وبيده عصا محنّى ولابس «شميز» أبيض وفوطة بيضاء مخططة من هونغ كونغ وماركة الشركة لا تزال عليها، كجزء من التباهي بأنها جديدة واشتراها بمناسبة يوم الجمعة حيث يلتقي الأصدقاء ويتبادلون الحديث والمودة في مثل هذا اليوم الفضيل.

180 – شجرة الأراك وهي الشجرة التي يأتي منها المسواك، وهي تكثر في منطقة دثينة وتأكل منها الجمال

181 – يُستخدم السواك لتنظيف الفم والأسنان بعد الأكل وفي كلّ وقت، وهو عبارة عن عود خشبيّ يستخرج من جذور شجرة الأراك يُستاك به، وجمعه أسوكة وسوك، ويتميز بطعمه اللّاسع ورائحته الجميلة، وأوصى النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) باستخدامه، وورد في فضله الكثير من الأحاديث، ومن هذه الأحاديث قوله عليه الصّلاة والسّلام : (لولا أن أشقَّ على أمَّتي لأمرتُهُم بالسِّواكِ معَ كلِّ صلاةٍ) صحيح.

1-

قال العمّ سليمان: مالكم تبرققوا (تمعنون النظر) في وجه الرجَال رعوه وجه خير اسألوه عن مسجد الحبيب العيدروس.

تقدم علي محمد بأدب نحوه وسلَّم عليه وسأله عن مسجد العيدروس، فأشار بيده نحو حارة ومسجد العيدروس.

قال العمّ سليمان: توكلنا على الله، دلونا على الطريق.

توجهنا إلى مسجد العيدروس، وإذا بالإمام ينير الضوء في المسجد وظهرت الثريات جميلة ومضيئة وعمي سليمان يلتفت نحونا مبهوراً وهو يقول: «الله أكبر»، وسمعنا أذان المغرب وهو يردّد عبر الميكرفون: «الله أكبر الله أكبر» وصلينا خلف العيدروس[1]. وفي مسجد العيدروس بالقرب من قبر العيدروس، شاهدت عمّي سليمان يتوجه لإمام المسجد وهو يسأله: أنت من بيت الحبيب النسيب العيدروس؟

فقال: نعم.

قال العمّ سليمان: بارك الله فيك وجزاك الله خيراً يا ابني.

قال برطم بصوت منخفض: كيف ابنك وهو أكبر منك أو مثلك يا حبيب؟

ولم يسمع العمّ سليمان كلام برطم، ونظر نحو الإمام.

وقال: ونعم الحبيب فقبّل يده زيادة في البركة.

قال برطم: ليش تبوس يده يا سليمان كأنه بوك أو أنه ولي؟

قال: هذا الحبيب، عندما شميت يده شعرت بالبركة ورائحة العطر والعود ينفح من كفه، وهذا من الله والرسول وليس صنع بني آدم.

قال برطم: هذه رائحة عطر وعود اشتراه من «الزعفران».

قال: لا، أمانة رائحة من الله، وإذا كان جدّه جعل السماء تمطر لبن، هل هذا كثير على ربنا؟

1- السيد أبو بكر بن عبد الله العيدروس، وليّ الله الصالح يحمل لقب شمس العلماء. ينتمي نسبه العيدروس إلى بنت الرسول (ص). والعيدروس لقب معناه إمام الأولياء. وجده ولد في تريم بحضرموت عام 851هـ ومات في عدن عام 914هـ وموضع قبره عليه المهابة والجلال. ومنصب عدن الحالي هو السيد مصطفى زين العيدروس، شقيق كل من حسين وشيخ وعيدروس.

وسكت برطم ولم يعلِّق.

وخرجنا من مسجد العيدروس إلى قلب كريتر وتجولنا في السوق بالقرب من فندق قصر الجزيرة، وكانت الحياة تدبّ فيه ولا تتوقف حتى أثناء الصلاة، ورواده من مختلف جنسيات العالم... وكانت عدن في ذروة عزها ومجدها جوهرة الجزيرة العربية وثغرها الباسم.

فقال العمّ سليمان: من الذي يبني هذه الدكاكين والبيوت والعمارات؟

أجابه علي محمد: مقاولون من الحجرية شوف أسماءهم فوق اللوحات مثل الحاج شمسان عون ومحمد عثمان ثابت وعبد العزيز علوان.

فقال: والبنوك.

أجابه: للهنود والنصارى والبس.

قال علي محمد: عندي فكرة بعد هذا التعب الذي تعبناه اليوم أن نتعشى ونتمشى ونعود إلى «الشيخ عثمان».

قال العمّ سليمان: عاد بطوننا مليانة وأحسن نعود إلى «الشيخ عثمان» يابوك شوفك[1] ما قصرت.

قال علي محمد: والله كان لا عشيتكم فول مدمس وقوارمة (لحم جمال) باتؤكلوا معها «صباعكم» (أصابعكم).

كانت خيام من القماش الأحمر والأبيض قد نُصبت كالعادة، مساء كل يوم يقدم فيها الأكل حتى بعد منتصف الليل، وترفع هذه المطاعم المتحركة إلى مساء اليوم الثاني، وكانت هذه العادة منتشرة في كل مكان في كريتر والمعلا والتواهي و«الشيخ عثمان».

توقفنا بالقرب من أحد هذه المطاعم ورائحة الأكل والدخان تتصاعد في كل مكان من هذه المنطقة. كان علينا أن نختار الجلوس على قطع من الخشب المتحركة، وعندما جلسنا طلب علي محمد ناصر لنا عشاءً، فولاً مدمساً وسمناً بلدياً وخبزاً ولحماً قوارمة[2].

1- أراكَ.

2- القاورمة: لحم جمل مجفف، يُقلى بدهنه، ويحفظ مؤونة، أو يصدّر، وله سمنه الخاص، وهي مهارة توارثها الصوماليون ولا تزال نساء الصومال يبعن القوارمة في أحد أزقة ممر العطارين المتفرع من السوق الطويل بكريتر.

قال برطم: ما هي القوارمة؟

قال علي محمد: لحم جمال من الصومال يجيبوها مقطعة ويحموها ويطبخوها ويأكلوها.

سأل العمّ سليمان: وين ذبحت؟

قال: في الصومال.

قال: قل أعوذ بالله من الشيطان با تأكلوا لحم مروح (رائحته سيئة) جابوه من البحور من بر الصومال قبل شهور، ما أنا حرام علي ما دخل لي «ثم»[1] وأحرم، وبكلامه أحرم برطم من الأكل مثله.

والذي أضاف: كيف نأكل لحم الصومال؟ إحنا ما نأكل إلا لحم بلدي من بوشنا (أغنامنا) دي يوكلين من غصون الأشجار.

قال علي محمد: يا جماعة أطعموا واحكموا عليه إذا أعجبكم كلوه وإن ما أعجبكم أتركوه لي وللأخ علي ناصر وأحمد ناصر.

قال برطم: ما لنا دخل فيكم روّحوا بنا من حيث جبتونا وأكرمكم الله وكثّر خيركم، لا تضحكوا علينا آخر زماننا، وقال محذراً: أنا رباع بوكم لا تأكلوا من هذا اللحم رعوه با يسمنكم مثل الكباش البربرية الصومالية.

وكان يجلس إلى جانبنا واحد صومالي وآخر واقف.

قال العمّ سليمان: شوفوا هذا اللحم يكبر القحر[2] با تقع قحركم مثل قحر الصوملي هذا.

سمع الصومالي الكلام، فالتفت نحونا وقال: لماذا تقولون صومالي؟ وكان يمسك عصا مكورة الرأس تسمى الباكورة وتستخدم في الدفاع عن النفس، ولم نردّ عليه تجنباً للشر والفتنة.

قال العمّ سليمان: لا سمنتوا وكبرت قحركم مثل الصومالي هذا ما عد با تطلعوا جبل ولا با تمشوا في وادي وبا تجلسوا كما النسوان في البيوت، يا عويلة خرجونا من هذا المطعم.

قال أحمد ناصر: شوفوا هذا الصومالي فهمكم وسمعكم وبدأ يحرك الباكورة حقه اتجنبوا شره لا يدقنا بهذه الباكورة.

1- ثم: فم.

2- جمع قحرة ومعناها العجيزة.

وأضاف: الصومال متعاونين وكلهم يشتركوا في الخير والشر وبا يتجمعوا علينا بهذه البواكير.

وكان علينا أن نخرج، تحركنا وقد أصبحت الباكورة بدعة وسلاحاً يفتخر الناس بها[1]. وأكثر الذين يستخدمونها الصومال، فهي سلاحهم في أي معركة في عدن. وقد تطور استخدامها بعد ذلك، وخاصة في الحارات مثل حارة حسين والقاضي، ولكل حارة قائد مشهور بضرب الباكورة على الرأس. ومن أبطال حمل البواكير في عدن: صالح فضل القعر، إبراهيم حداد، الحاج مرشد الرديني، عبد الله خدشي، سالم علي زيد – الزيدان، محمد جعفر الشاذلي، على محمد عمر جرجرة الشيبة البيضاني، علي حيروه الصومالي، سعيد مسكينه، عبده سلامي، محمد عباس – عباسو، عبد الله أحمد صالح البيضاني، عبد القادر حميدان، أحمد علي باشراحيل، جواد أغبري، علي الصيني، محفوظ جبل، حميدو الدب – مكاوي، محمد الطيطي، أنور مهتدي، عبد الحميد عري، عبد الله صالح المحضار، أبو بكر شفيق، عبد الله علي موشجي، عباد عراقي، الحاج عبد الرحمن نورجي، عبده حزام، والكثير منهم.

علي حيرو

1- كان حمل البواكير (عصا عدنية) تقليداً شعبياً مهماً في عدن. كانت البواكير تحمل للدفاع عن النفس وللزينة أيضاً، وكان استعمال البواكير في المعارك له فن عريق وموهبة نادرة، إنها كالأسلحة في الهجوم والدفاع، ويوجد أيضاً بجانب الباكوره نوع من العصي ويقال له «الوجر»: وهي كلمة صوماليه وتعني اسم الشجرة التي اقتطعت منها تلك العصا الغليظة أو الصميل، واستعمال الوجر لا يحتاج إلى فن وتعتبر عصا بدائية ونادراً ما تستعمل يحملها بعض الروفلات، أما استعمال الباكورة فهو فن من الفنون.

قلت: يا الله روحنا، ولكن ما رأيكم بشرب شاهي قبل الرجوع إلى «الشيخ عثمان»؟

وافق الجميع، وعندما دخلنا المقهاية كان عدد كبير ممن فيها يلعبون «بطه»[1] ويدخنون وأحياناً يتكلمون ويتصايحون في «مقهاية» الأغبري التي تقع بالقرب من مقهاية زكو بكريتر.

وفي عدن هناك العديد من المقاهي مثل: مقهى سيلان المشهور في كريتر أو مقهى كشر الذي يملكه السيد هاشم عبد الله السقاف، وكان الناس يرتادونها بعد صلاة الفجر لسماع صوت العرب وإذاعة آل بي بي سي من راديو القاهرة ذي الحجر الكبير، وكان الكل منتشياً بهذه اللحظات ومنصتاً باهتمام إلى المذياع وإلى صوت أحمد سعيد، وكانت بعض المقاهي تبيع اللبن البقري الطازج ودهن اللبن والخمير الحلو الذي يسمى المقصقص.

وكانت مقاهي عدن ملتقى الوطنيين الأحرار، وكان بعض أصحاب المقاهي منخرطين في صفوف العمل النضالي ضد الإمامة والاستعمار ودعم المقاومة الشعبية. أما أعرق مقاهي الشاي في الشيخ عثمان، فقد كانت مقهاية الشجرة لصاحبها عبده مكرد عزعزي إلى جانب مقهاية القميري المشهورة، فمقهاية الشجرة إلى جانب شهرتها في بيع الشاي وخبز الطاوه، كانت ملتقى الأدباء والفنانين والشعراء والرياضيين والتربويين أمثال: الشاعر محمد سعيد جرادة وإدريس حنبلة، وقيراط وغيرهم.

واشتهرت مقاهي الشيخ عثمان بوجود كتاب «عرض الحالات» (الشكاوي) الذين كانوا يكتبون شكاوي المواطنيين باليد، وأيضاً كانت المقاهي عنواناً دائماً لسائقي الأجرة «التاكسيات». أما أنواع الشاي الذي تقدمه هذه المقاهي، فهي: المحوج الزائد الجوز، العصملي الثقيل، الجرو الخفيف اللبن، الشاي النص، نص كاس، والشاي الدبل الكاس الممتلئ، وهذه طريقة تقليدية لصناعة الشاي العدني لا تزال مستمرة إلى الآن لم تدخلها التحديثات والإيتكيت.

1- بطة: كوتشينة.

ومرتادو هذه المقاهي يمضون أوقات تسلية في لعب الورق والدومينو وأتذكر أن الرئيس سالم ربيع علي كان مولعاً بشرب الشاي في مقهى القميــري بالشيخ عثمان، وخاصة في المساء والفجر، وفي التواهي مقهاية الجراك ومقهاية حجازي ومقهاية محمد ومقهاية الدبعي ومقهاية عبد الجبار.

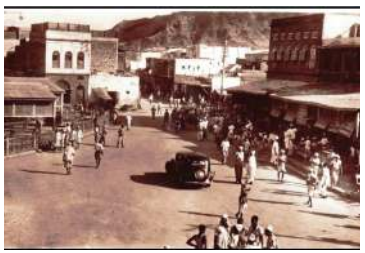

182 – 183 – صورة قديمة مقهى زكو[1] – كريتر، وصورة حديثة للمقهى

وخلال احتسائنا للشاي في المقهى سمعنا أغنية: شمسان تاج على عدن من كلمات القمندان وغناء وألحان فضل محمد اللحجي مسجلة على أسطوانة حجرية[2].

إذا رأيــت عــلــى شــمســان فــي عــدن
تــاجــاً مــن الــمــزن يــروي الــمــحــل فــي تــبــنِ
قـــل لــلــشــبــيــبــة نــبــغــي هــكــذا لــكــم

1- يعود تاريخ مقهاية زكو إلى أربعينيات القرن الماضي، وهي من أقدم المقاهي التاريخية، وأول من أسسها هو التاجر الهندي زكريا محمد الذي كان يسكن في مدينة الشيخ عثمان بجانب جامع زكو، ثم انتقلت بعد ذلك إلى مقرها المشهور في قلب مدينة كريتر وتحديداً منطقة الميدان، وكانت مقهاية زكو منبراً ذائع الصيت آنذاك وواحداً من أهم وأبرز المنتديات والمقرات التي كان يلتقي فيها رجال الأدب والفن والفكر والرياضة وحتى الساسة حيث ارتادها أيضاً رؤساء سابقون لليمن.

2- الأسطوانة الحجرية: بعد ذلك تطورت الأسطوانات إلى بلاستيكية سرعة 45 التي لا تنكسر ويقوم بصناعتها شركات طه فون، وعزعزي فون، وجعفر فون، وتوضع هذه الأسطوانات على آلات الطرب التي تسمى «الطرب» باللهجة العدنية او بالغرامفون كما هو معروف، وهي كلمة إنكليزية، وهو الحاكي باللغة العربية، واستمرت إلى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي وحلّت محلها المسجلات أبو عجلة أو البكرة، وفي الستينيات صنعت مسجلات الكاسيت الصغيرة ليحل محلها آل cd في تسعينيات القرن العشرين.

تاجاً من العلم يمحو الجهل في اليمنِ
فأنتم خلف القوم الأولى رفعوا
راياتِ مجدهم في سالفِ الزمنِ
سارت جنودهم في البر فاتحة
حتى ملوا البحر ذا الأمواجِ بالسفنِ
ما زال منهم فيكم كامنا قبس
يجري مع الدمِ لم يوه ولم يهنِ
سيروا إلى المجد صفا وأسلكوا سبلا
وضاء وحيدوا عن الأضغانِ والفتنِ
أنتم بنو السادة الأمجاد من مضر
ومن سلالةِ قحطانٍ وذي يزنِ
حياك يا عدن من منهل عذب
لقاصدين حماك الله من وطنِ
يا دار أهلة فيك الكرام لقد
طبت وغنت لك الورقاء من فننِ
إذا سرى من هوى حقات في عدن
أحيا عليل الهوى شجوي وذكرنيِ
أهل القطيع وأهل الزعفران؟
حافة حسين من أهل الفضل والفطن
أحبتي وأصيحابي افتكرتهم
في يقظتي لا يفارقني ولا وسني
أبعث مزاحم حيّ العيدروس وصافح
في الخساف وعانق ثم واحتضن

قال العمّ سليمان: دخلتونا عند أصحاب القمار قد سمعنا عنهم في البلاد أنهم يأخذوا فلوس حرام، حرام عليكم خرجونا من هذه المقهاية.

قال علي محمد: يا عمّ سليمان هم يلعبوا بطة، هم في حالهم ونحن في حالنا، با نشرب الشاهي ونسمع هذه الأغنية الجميلة للأمير أحمد فضل القمندان وغناء فضل محمد اللحجي وسنخرج. بعد ذلك طلبنا شاهي بالحليب المعلب اللذيذ بالهيل.

وقُدِّم إلينا الشاي، وكان إلى جانبنا بعض الأشخاص الذين سكبوا الشاي الذي قدم لهم في الصحن «السيسر» وفي لحظات شربوه من الصحن بدلاً من الفنجان أبو شهر (ماركه الهلال) وكأنهم متعجلون وعلى موعد، وبعدما شربوا جلسوا وطلبوا «بطة» يلعبون بها.

قال العمّ سليمان: ما لهم سووا هكذا ذي يشوفهم با يقول عندهم عمل، وطعفروا الشاهي وشربوه مثل السرق والله إنهم روفلات[1] وجلسوا يدقوها لحي على البطة، الله أكبر عليهم شوفوا عيونهم حمر.

قال برطم: والله أنا شفت مثلهم في مقهاية الجريك بـ«الشيخ عثمان».

قال علي محمد: البطة والشاهي موجودة أيضاً في مقهاية مديرة بالقرب من تماثيل الأسود، ومقهاية القميري بـ«الشيخ عثمان» بجانب بيت ابن طالب الذي نزل فيه سيف الإسلام أحمد حميد الدين ضيفاً في أبريل 1944م ودارت مساجلة شعرية بينه وبين الأستاذ عبد المجيد الأصنج استهلها الإمام بقوله: (ويوماً قضيناه في بيت ابن طالب)، وردّ عليها الأصنج (ودارت بنا الأفراح من كل جانب).

حاسبنا وخرجنا، وانضم إلينا في الطريق الأخ صلاح بعد انتهاء المباراة.

عنتر وعبلة!

وفي أثناء الطريق قال الأخ صلاح: ما رأيكم لو ندخل الليلة السينما؟

قال العمّ سليمان: أيش من سينما؟ وكنا نمرّ بالقرب من سينما مستر حمود بكريتر عند الساعة التاسعة مساءً.

1- امروفلات: مفردها روفل محرفة عن الكلمة الإنكليزية لوفر loafer ومعناها «صائع».

184 – سينما هريكن – سينما مستر حمود[1]

قال صلاح: شوفوا الإعلانات أيش عليها من فلم؟

اقتربنا من الصور وشاهدنا صوراً لفلم عربي ترقص فيه سامية جمال وفخذاها عاريتان.

قال العمّ سليمان: ما أنا حرام ما دخلت عند بوهم، عيب عليكم روحوا بنا عادنا خرجنا من مسجد الحبيب العيدروس وتباركنا من قبره، والآن با تعطلوا علينا صلاتنا وعيب عليكم تتفرجوا على هذه الصور وهذه الولدة ما شي لها أهل يربوها فاتحة فخوذها يا عيباه.

قال صلاح: يا عمّ سليمان أدخل شوف فلم عبلة وعنتر.

قال: لا يا صلاح ما عنتر بن شداد ونعم لكن هذه الصور العريانة مالباها أيش تبونا نقول إذا حد شافنا مع الروفلات؟

قال صلاح: كل واحد في حاله، يا الله أيش تقولوا؟

1- وترتبط قصّة سينما هريكن، التي أسّسها محمّد حمود الهاشمي في عدن، وكان العامّة يطلقون عليها «سينما مستر حمود»، بتاريخ أسرة محلّية ثرية. فالوالد الذي يُعرف باسم «مستر حمود»، كان مديراً لدائرة التربية في عدن، إبّان حكم البريطانيّين، أمّا ابنه طاهر، فقد بدأ اعتباراً من منتصف القرن العشرين، بفتح صالات السينما، ومن بينها هريكن.
وكانت العروض الأولى للأفلام المصرية تجري بنحو متزامن في القاهرة وعدن. والصالة تحظى بجدران، إلّا أنّها من دون سقف، وتضمّ صفوفاً من المقاعد الخشبية أمام الشاشة البيضاء. وهناك كشك لبيع البطاقات، ويقع في ممرّ تحيط به ملصقات أفلام الأسبوع، ويصل المشاهدون تباعاً، وفي تمام الساعة السادسة والنصف مساءً، يُطلَق جرس صغير معلناً بدء العرض.

قال العمّ سليمان: قلنا لا إله إلا الله، روحوا بنا.

قال علي محمد: يا جماعة خلوا عمي سليمان يروح «الشيخ عثمان» بالباص، ونحن با ندخل السينماء ونلحق به بعدين.

قال: موافق باروح أنا وبرطم.

قال أحمد مسعود برطم: والله ما أنا ما ساعفتك روح وحدك والعقبة و«الشيخ عثمان» قدامك.

قال: والله يابوكم ما روح وحدي وقدر الله علي أجلس معكم.

قطع صلاح التذاكر من شباك السينما، وهذه كانت المرة الأولى التي أدخل فيها السينما وأسمع فريد الأطرش يغني قبل عرض السينما حتى يتجمع الناس فيها. وما زلت أتذكر أغنية:

بساط الريح يا بو الجناحين — مراكش فين وتونس فين
بساط الريح قوام يا جميل — أنا مشتاق لوادي النيل
أنا لفيت وشفت كثير — ولقيت البعد يا مصر طويل
واللي يفوت أرضنا — يروح ويرجع لنا

وبعد الانتهاء من الأغنية أطفأوا الأنوار و«بندوا» (أغلقوا) الأبواب[1] ولم يبق إلا ضوء أحمر فوق الباب، والناس مشدودون صامتون لا نسمع إلا صوت الزعقاء والساكت[2]. وبدأت أصوات وموسيقا وصور متحركة فوق رؤوسنا وعيوننا مصوبة نحو الشاشة وأعصابنا مشدودة ونحن في انتظار عنتر بن شداد. قام العمّ سليمان من الكرسي عندما ظهر أول ممثل وهو يحمل سيفاً وقال: الله أكبر على بوه، وصلكم يا جماعة جروا أعماركم!!.

قال برطم: وأنا معك يا سليمان.

قال صلاح: يا عمّ سليمان اجلس واسكت الناس با يسمعوك لا تفضحونا.

قال: أنا سليمان. الجماعة، وصلوا، والله ما أجلس لهم على كرسي.

1- بندوا الأبواب: وهي كلمة هندية (بندكرو) ولا تزال تستخدم حتى ألآن وتعني أغلق.

2- الزعقاء الصوت الصادر عن أكل البزر الأبيض والساكت دلالة على أكل البوشار.

قال أحمد مسعود: وين الطريق؟

قال عمّي سليمان: لا قل لي وين الباب هم با يفكوا لنا؟

قام علي محمد وجرى بعدهم وسط هرج ومرج وشوشرة وإزعاج والناس مشدودون إلى الشاشة منتظرون بطلي الفيلم عنتر وعبلة.

سمعت أحدهم يقول: اسكتوا يا بدو خلونا نشوف الفيلم، وآخر يقول: شوفوا «أنتر» (عنتر) ظهر، ويبدو أنه من زبيد من شمال اليمن، فهم ينطقون عنتر «أنتر» وينطقون العين همزة. وبالقرب من الباب أمسك علي محمد الحسني بالعمّ سليمان وبرطم وقال لهما: عيب عليكم فضحتونا يالله خلونا نجلس بعيد من الشاشة وشوفوا هذا تمثيل وهذه صور في جدار وما حد با يخرج علينا ورأس الشيخ عمر بن سعيد.

قال العمّ سليمان: شوف هذا مسود ما أكبره با يقفز علينا.

قال علي محمد: هذا عنتر بن شداد.

قال العم سليمان: لا تكذب علينا، عنتر مات من زمان الزامنين قبل أيام الرسول محمد r ومن مات ما عاد با يحيا، إلا يوم القيامة يوم الحشر والنشور.

قال: هذا يمثل دور عنتر مع عبلة.

قالوا: أحسن يفتحوا لنا السينما وبا نخرج أو نجلس طارفين قريب الباب.

بعد أن خرجنا من السينما قال صلاح: والله إنني سمعت مثل هذا الموقف الذي حدث لكم في دثينة في قرية الخديرة عندما جاءت سيارة تحمل معدات وآلة عرض وفيلم عن الزراعة وتربية الأبقار في إحدى المزارع البريطانية. وما شي لوم عليكم لأنكم لأول مرة تدخلوا السينما.

قال العم سليمان: أيش وقع في امخديرة؟ رعهم يسمونهم دثينة أمبقر.

أجابه: جمعوا سكان القرية والقرى المجاورة لمشاهدة فيلم لأول مرة في تاريخ المنطقة، وقد تجمع المواطنون رجالاً ونساءً وأطفالاً وجلسوا على الأرض أمام شاشة العرض، وعندما بدأ عرض الفيلم وبدأت الموسيقى وبعض الأصوات تنطلق من الشاشة، كان الناس مبهورين، ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما ظهرت بعض الأبقار على الشاشة وهم جلوس تحتها وكانوا يتوقعون أنها واصلة إليهم وستدوسهم بأرجلها وتنطحهم بقرونها،

وصاح واحد من الجلوس: ألا وصلتكم امبقر جروا أعماركم! وقام الجميع هاربين من بقر أحمد السركال والمرشد الزراعي يصيح: يا جماعة يا جماعة أرجعوا البقر ما باتخرج عليكم أرجعوا محلكم، وأوقف العرض وشرح لهم فكرة الفيلم.

قالوا بعدها: بانتفرج عليها من بعيد وأحنا واقفين والله ما جلسنا تحت امبقر تدحقنا[1].

وبعد ذلك استؤنف العرض، وخلال العرض، وحتى انتهاء الفيلم كانوا يكبّرون على الإنكليز وعلى أحمد السركال دي جاب لهم بقر في سيارة لاند روفر.

كنا نستعد للرحيل والعودة إلى دثينة، وقلت لعلي محمد: شكراً لك على هذه الزيارة لعدن وأسواقها ومعالمها.

قال العمّ سليمان: ونعم بن المهجة.

وقال برطم: العفو منك رعنا تعبناك، وإن شاء الله نشوفك في البلاد، شي معك رسالة لبوك أو هدية لأمك؟

قال علي محمد: شكراً.

قال العمّ سليمان: شي معكم هدايا أو رسائل للبلاد؟

قال أحمد: يا عمّ سليمان أنتوا با تصلوا بعد أسبوع وبن علي شيخ مسافر الى قرية امفرعة بسيارة صالح بنجيل، وبا يصل قبلكم، لا شيء رسائل با نرسلها معه.

1- تدهسنا.

الخاتمة

العودة إلى جمهورية دثينة

قضينا أياماً جميلة وممتعة في أحياء مستعمرة عدن، وشاهدنا كثيراً من المعالم التاريخية والمواقع الأثرية ودور العلم والعبادة والثقافة.

وبعد زيارتنا عدن وضواحيها التي استمرت أكثر من أسبوعين، كان علينا أن نعود إلى دثينة، وعبر «العلم» هذه المرة، لأن جمالنا محملة بالبضائع وعلينا أن ندفع لموظفي جمرك «العلم» الرسوم الرمزية على البضاعة التي تحملها جمالنا.

عشرات السيارات تقف داخل السور الذي أكلته الرمال الملحية محملة بالبضائع، والأسماك المجففة المعلقة، وبعض زنابيل (أكياس) الحلوى اللحجية والمسمّاة «المضروب»، كانت الرياح والرمال الحارة تلفح الوجوه والعيون، وكان البعض يغطي أنفه وفمه من هذه الأتربة وينتظر دوره للمرور من نقطة الجمرك، وكان «علّاو» مدير جمارك العلم، وهو رجل قصير وسمين يجلس وبطنه بارز ومتكور أمامه، وكان نصفه الأعلى عارياً ولا يغطي إلا الجزء الأسفل من جسمه بفوطة بالية. كان بعضهم يحاول إزعاجه، وآخرون يقدمون إليه الرشوة والهدايا، وشاهدت عبد الله البطاني يقوم بحركات سحرية كما هي عادته وحوله عدد كبير من السواقين والركاب يضحكون من حركاته، وبعضهم يرتعب من هذه الحركات، وكان في مقدمة الجميع «علّاو» الذي كان يضحك ويمزح مع الساحر الساخر عبد الله البطاني الذي أصبح صديقاً له، فهو يسليه عند ذهابه وإيابه، وسمعته علّاو يقول: البطاني شيطان ضيَّع علينا الوقت وصلاة العصر، وتذكرت حديثنا معه ونحن في الطريق إلى البريقة.

عبد الله البطاني

كانت الشمس تقترب من المغيب والكل يستعد للرحيل إلى زنجبار وجعار وشقره وأحور وبلاد العواذل ودثينة والعوالق، وحتى حضرموت بعد انحسار المدّ، وها هو ذا ساحل أبين وساحر العشاق يرحب بالمسافرين الذين انطلقوا مستفيدين من الجزر وهم يغنون:

«سرا الليل وا نايم على البحر ماشي فايدة في منام الليل حل السرية»

كانت جمالنا قد حطّت رحالها في انتظار دورها في الجمرك، والرحيل إلى أبين فدثينة، ولكن سفرنا تعرقل بسبب خلاف بين العمّ سليمان وموظف في الجمرك أصرّ على تفتيش البضائع وفتح إحدى العلب، وشاهدت العمّ سليمان يعتزي[1] ويطعن الغالون المغلق باللحام بخنجره وإذا بالزيت يتطاير في وجه العمّ سليمان وعلى ملابس الموظف الذي اعتبر ذلك إهانة له. توجه الموظف نحو مدير الجمارك يشكو ما جرى، أما العمّ سليمان فكان يصيح بأعلى صوته وهو يرمي بالغالون على الأرض، وها هو برطم يقفز ويأخذ الغالون ويضع يده على الفتحة التي كان يتدفق منها السليط، ويقول: «الله أكبر عليكم وعلى جمرككم»، وكان الهدف من وجود هذا السليط (زيت السمسم) استخدامه أثناء الرحلة من عدن إلى دثينة.

تأخر خروجنا من جمرك «العلم» واختفت الشمس خلف رمال «العلم»،

1- يستشيط غضباً.

وبدأ ضوء الفانوس يشعّ بلونه الأصفر وحوله عدد من الموظفين ينجزون بعض أعمالهم.

أما أنا، فقد كنت أفكر في عدن، وفي الأيام الجميلة التي قضيتها فيها، فقد عشقت عدن وجبالها ورمالها وشواطئها وحاراتها وأهلها الطيبين وتاريخها، وعمقت هذه الزيارة في قلبي حبي الكبير لها. ولحضارتها، ولم أدرك أنني سأقع في حبها لاحقاً كغيري من الناس الذين أحبوها وأخلصوا لها. وبينما كنت أستعرض شريط الذكريات في هذه الزيارة إذا بالعمّ سليمان يصيح وهو يربِّت بيده كتفي: سرينا وتوكلنا على الله. وردّ برطم: ونعم الوكيل.

نهضنا جميعاً رجالاً وجمالاً استعداداً للمسير الطويل الذي سيمتدّ لأسبوع كامل، سنقطع خلاله أكثر من 209 كيلومترات، وسمعت أصواتاً تقول: في وداعة الله (أي في حفظ الله) وانطلقنا نحو الشرق إلى جمهورية دثينة.

ملاحـــق الكتـــــاب

الملحق رقم 1

قبائل دثينة في عصر الدولة الرسولية (626 – 858 هـ)

ملخص:

يعود تاريخ بلاد دثينة إلى ماقبل القرن السابع ق.م ، حيث كانت ضمن أراضي مملكة أوسان، ثم صارت لاحقاً تحت نفوذ مملكة قتبان، وفي العصر الإسلامي نالت قبائلها شهرة ومنها قبيلة النخع التي كان لأبنائها سابقة محمودة في الفتوحات لإعلاء راية الإسلام؛ أما في اليمن فالحق إن نشاط قبائل دثينة لم يذكر في المصادر إلا في القرن السابع الهجري وتحديداً إبان قيام الدولة الرسولية سنة 626هـ، حيث ظهر اسم قبائل الجحافل الدثنية يتصدر المشهد السياسي والاجتماعي ذلك أنها تمتعت بنفوذ واسع في جنوب اليمن، وبسطت سيطرتها المطلقة على معظم أراضي المنطقة الوسطى فيما بين عدن وأبين ولحج وتخوم شبوة، بيد أن هذه المكانة التي بلغتها قبائل الجحافل عبر تاريخها الطويل قدر لها أن تواجه تطلعات الرسوليين الذين دأبوا منذ وصولهم للسلطة على فرض هيمنتهم على كل أراضي اليمن، فنشبت بين الطرفين معارك ضارية سفكت فيها الدماء وأزهقت الأنفس وأهلكت الزرع والضرع، وامتدت آثارها السلبية إلى المناطق القريبة من دثينة كعدن وأبين ولحج، والأخيرة كانت أكثرهن عرضة للخراب والسلب والنهب؛ لأنها كانت قبلة غزوات قبائل الجحافل الدثنية، فضلاً عن اضطراب الحياة التجارية بين الحين والآخر جراء قطع القبائل للطرق المؤدية إلى مدينة عدن التجارية والخارجة منها، وعلى الرغم من حجم الخسائر التي تكبدها الطرفان خلال الحرب إلا أن نتائج جل المواجهات الحربية كانت تصب

في الغالب لمصلحة القوات الرسولية الأفضل تنظيماً والأكثر عدداً وعدة، ناهيك عن استغلالهم الأمثل لمكامن الضعف والخلل الذي اعترى علاقات قبائل دثينة بعضها ببعض والتي كانت أقرب إلى الخصومة والتمزق منها إلى التسامح والاتحاد.

مقـــدمـــــة:

تعد القبيلة المكون الأصلي للمجتمع اليمني، وقد تركز توطنها في المناطق الساحلية والتهامية، والمناطق الجبلية، وانخفض في المناطق الصحراوية، وساعدت طبيعة اليمن الجغرافية ومواردها في نمو الحياة القبلية وتطورها، وغلب على بعضها حياة التحضر والاستقرار، وأخرى طابع البداوة، وقد اعتمدت القبيلة على الزراعة والرعي كمورداً اقتصادياً رئيساً، وعمل فيها السواد الأعظم من أفرادها، فيما اشتغل قليلاً منهم في التجارة، وأدت القبيلة دوراً مهماً في تماسك المجتمع وتشكيل هويته، وأصبحت وحدة اجتماعية سياسية لايخضع إفرادها إلا لسلطة القبيلة وأعرافها وتقاليدها، واعتمدت القبيلة في بناء علاقاتها مع جيرانها على المصالح المشتركة وتبادل المنفعة، فما قطعته علاقات القربى والنسب وصلته التحالفات القبلية القائمة على مبدأ التكافل والمؤازرة عند النوازل والنوائب؛ هذه القوة البشرية المتماسكة كانت محط أنظار ساسة اليمن، وتم لهم استغلالها بالترغيب لخدمة تطلعاتهم لحكم اليمن، فكانت عاملاً رئيساً في وصول عدد من القوى إلى عرش السلطة في اليمن خلال العصر الإسلامي على وجه التحديد، بيد أن هذا التحالف المشترك بين القبيلة والسلطة ظل رهين المتغيرات السياسية من جهة، ومصالح القبيلة الاقتصادية من جهة أخرى، فقد يتغير موقف القبيلة من السلطة في حال تم المساس بمصالحها وتتحول إلى معول لدك أركان الدولة بعد أن كانت عاملاً مساعداً في قيامها، وهذا الاضطراب السياسي كثيراً ما كانت تستغله بعض القبائل للارتزاق وتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية لتأمين حياة أفرادها المعيشية، ولعل قبائل دثينة موضوع بحثنا كانت إحدى تلك النماذج القبلية التي برعت في هذا المجال وذاع صيتها حتى بلغ الآفاق إبان حكم الرسوليين( ) لليمن (626 – 858هـ)، حيث شكلت غاراتها

وغزواتها للمدن والقرى والطرقات تهديداً بالغ الخطورة للسلطة والمجتمع والاقتصاد، وساعدها في ذلك موطنها الذي يتوسط جنوب اليمن البعيد عن تعز عاصمة الدولة الرسولية، ناهيك عن مقوماتها القتالية الفائقة في العدة والعتاد، مما جعلها أقوى القبائل الجنوبية وأشدها مراساً وشكيمة حتى صارت أشبه بالصخرة الكئود أمام حكام بني رسول، بل حجزت لنفساها مكانة مميزة على خارطة اليمن السياسية آنذاك.

وقد تم تقسيم دراسة « قبائل دثينة في عصر الدولة الرسولية (626-858هـ) إلى ثلاثة مباحث تضمن الأول صفة بلاد دثينة وقبائلها، وكرسناه لدراسة الموقع الجغرافي لبلاد دثينة، وعددنا فيه قبائلها وبطونها، وخصصنا المبحث الثاني لغزوات قبائل دثينة في عصر الدولة الرسولية والوقعات التي دارت بينها وبين القوات الرسولية، فيما أفردنا المبحث الثالث لعرض الأسباب التي دفعت قبائل دثينة للخروج والغزو، وتضمنت خاتمة الدراسة بالنتائج التي توصل إليها الباحث؛ وتم إتباع المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بعرض الأحداث التاريخية وتحليلها بموضوعية لاستخلاص النتائج التي تخدم البحث العلمي.

المبحث الأول:

صفة بلاد دثينة وقبائلها

التسمية:

دثينة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء مثناه من تحت، ونون، ناحية بين عدن والجند( ). وقد اختلفت الروايات حول نسبة دثينة ومعناها، حيث يذهب الحموي( ) بأنها جاءت من كلمة (دثين) وتعني أنه إذا طار الطائر وأسرع في السقوط في أماكن متقاربة فيقال له دثين الطيور، وقد كانت هذه المنطقة مأهولة بالسكان ولكنهم تطايروا منها أي رحلوا عنها، كما يشير نفس المصدر( ) إلى رأي آخر ويذكر بأنها نسبت إلى هضبة دثين، وقد جاء ذكر هذه الهضبة على لسان الشاعر الكلابي :

وبئر در يرات وهضبة دثين
سقى الله مابين الشطون وغمرة

ويذهب بعض سكان هذه المنطقة إلى أن أصل كلمة دثينة هو (دفينة) نسبة إلى مدافن الحبوب التي يدخرها أهل هذه المنطقة لمواسم الجدب والقحط التي كثيراً مالازمت هذه المنطقة منذ عهود بعيدة، وبناءً على ذلك فقد قُلبت الثاء فاءً اقتداءً بقوله جل وعلى في محكم كتابه:

« وإذا قلتم لن نصبر على طعامٍ واحد فادعُ لنا ربك يخرجُ لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ... «( )، وكلمة (فومها) في هذه الآية تعني (ثومها) والله أعلم.

وأقدم ذكر لدثينة يعود إلى القرن السابع ق. م (دثنت)، وكانت ضمن أراضي مملكة أوسان وإحدى مراكزها الهامة لتصدير المرَ، حيث ورد ذكرها في نقش النصر( ) الذي خلد فيه الملك السبئي كرب آل وتر أحداث هجومه التاريخي على مملكة أوسان والسيطرة على أراضيها بمساندة مملكتي حضرموت وقتبان، ففقدت أوسان كيانها السياسي بعد أن تم حرق مدنها وقتل وأسر الآلاف من أبناء قبائلها، وآلت أراضي أوسان إلى قتبان ومنها بلاد دثينة( )؛ وعلى الرغم من المبالغة الشديدة في حجم الخسائر التي ألحقت بأوسان المدونة في النقش إذا ماتم مقارنتها بنوعية الأسلحة المستخدمة في تلك المعركة، إلا أن هذا النقش يضل مصدراً تاريخياً مهماً في تاريخ اليمن القديم، وتكمن أهميته في هذا البحث بأنه يقدم لنا معطيات نستدل من خلالها بأن تاريخ دثينة يعود إلى ماقبل زمن تدوين هذا النقش بكثير.

صفة بلاد دثينة:

وصف الهمداني( ) معظم أراضي دثينة وحدد معالمها بدقة، فذكر أسماء جبالها ووديانها وقراها وسكانها، ومن المهم الإشارة إلى أن بعض هذه المعالم والصفات التي ذكرها المؤرخ طواها الزمن ولم تعد تحتفظ باسمها ورسمها حتى العصر الراهن، وعلى أية حال فقد بدأها الهمداني من الشمال قائلاً: « أولها عران( ) واسمه الرقب( ) لبني كتيف « وهم سكان الموشح( )، ثم واديا الحار وتاران( ) لبني قيس من بني أود ولهم قرية الظاهر( )، فأودية يرى( )، وثرة( )، وعرفان( )، والمقيق( )، والغمر( )، ثم نزل شرقاً وذكر جبل رائش( )، وأودية المعوران( )، والحميرا( )، والشرفة( )، ثم وادي حبل( )

وفيه قرية السوداء( ) للأصبحيين من حمير، والذبية( )، ومران( )، وكبران( )، ونزعة( )، وحجومة( )، وملاحة( )، والتيب( ) وهذه الأودية جميعها للنخع، ثم وادي وحر( ) لكندة، وذروعان( ) الجزع، وروضة( )، وطب، وتعمق الهمداني في الوصف فذكر وادي القرن( ) وهو لبني كليب، والعارضة( ) لسبأ ومهار( )، ومدينة الخنينة( )، ثم عرج غرباً منوهاً بأن السهل من دثينة ممايلي يرامس( ) دار الحفينات الحصن، وآخر معالمها هو الجبل الأسود( ) الذي يعد منقطع دثينة وهو للعدوبين والخمسيين من حمير.

هذا هو في تقديري وصف دثينة الكبرى في زمن المؤرخ الهمداني (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)؛ وتبدو فيه سلسلة معالمها أشبه بقوس نصف الدائرة الشمالي. أما حدودها الجنوبية فهي دون شك سواحل بحر العرب، وهذا ما أكدته المصادر التي بين أيدينا، حيث ذكرت أن آل عزب وهم من بطون الجحافل يسكنون في جبل دار زينة المنيع( )، وهذه المنطقة تطل على بحر العرب بحسب الدراسات التاريخية الحديثة( ). وعلى أية حال فإنه تبين من وصف بلاد دثينة بأن غالب بطون مذحج قد توطنت في المناطق الجبلية، فيما حلت بطون حمير في سهلها الواسع، وهذا السهل هو الذي بات يعرف اليوم بمنطقة دثينة وهو لايشكل سوى الثلث من مساحتها القديمة، وعلى الرغم من وفرة أودية بلاد دثينة إلا أنها أرضاً جرز تسقى من جبال السرو والكور( ).

قبائل دثينة:

دثينة غائط واسع سكنته عدد من القبائل المذحجية( ) والحميرية( )، ولكل عصب منهم قرية حولها مزارعهم ومصالحهم( )، ويمكن إيجاز بطون هذه القبائل بمايأتي:

أولاً- قبائل مذحج:

1) بنو أود : بفتح أوله، وسكون ثانيه، وينتسبون إلى الصعب بن سعد العشيرة( )، وقيل أنهم أول من سكن دثينة ( )، ومن بطونها: بنو حي بن أود ومن فخائذها: زائد، وبنو شكل، وبنوسويق، وبنو شهاب بن الأرقم( )، وعمرو بن الأرقم، ثم بنو ربيعة بن أود: ولها فخذان هما: بنو أفعى، والدهابل

ومنهم بني مزاحم أشراف بني أود وسادتهم( ).

2) بنو عجيب بن أزد شنوءة( ).

3) النخعيون( ).

ثانياً- قبائل حمير:

1) الأصبحيون( ).

2) العدويون( ).

3) الخمسيون( ).

ثم صارت دثينة منذ القرن الرابع الهجري تقريباً/ العاشر الميلادي تحت سيطرة الجحافل من مذحج وهي أقوى القبائل آنذاك( ) ومن بطونها:

1) آل علي : ومنهم : بنو رويس، وبنو شباحي( ).

2) آل يحيى بن علي : ومنهم : آل عزب ولهم فخائذ كثيرة هي: بنو مدقة، الأصابع، المحافزة، الشرمان، بنو مدافع، آل سالم، آل يحيى بن عمر، آل شقير، الفيزران، آل بني غانم، آل بني منصور، الأعتوق، آل وازي، آل قحيطان( ).

3) العجمان: وينتسبون للعجم، ويقال أن جدهم جاء من خراسان وحل في دثينة وولد له خمسة من الأبناء هم: قراد، وأبوالفم، وظفر، وعياش، وفياض، وشكلوا خمس قبائل( ).

4) الهياثم: نزح جدهم من المشرق، وهم من حمير، إذ يقال أنهم ليسو من الجحافل، بل سكنوا معهم ونسبوا إليهم، ومن زعمائهم: أبوبكر بن حترش صاحب حصن الفرط( )، ومنصور بن فضل صاحب الحافة( )، وقيس بن محمد( ).

وفي دثينة قبائل أخرى ينتسبون إلى الجحافل اسماً بينما أصل أجدادهم من المشرق، وهم بدو من حمير منهم من يسكن دثينة ومنهم من يسكن أبين ومنهم من يسكن فيمابين دثينة وأبين( ) وهم: بنو علي، وآل أبا الروث، وبنو أيوب، وآل جعيملان، وآل أبا الليل، والغدريون، والعلهيون، والنخعيون، ثم العجالم( ) وهو كما يبدو لقباً أشتهروا به، فهم في الأصل يرجعون إلى بني أيوب في دثينة ومنهم: بنو سالم، وآل عبدالله، والركابة، والعمريون( ).

المبحث الثاني:

خروج قبائل دثينة على السلطة الرسولية:

تعد قبائل دثينة من أكثر قبائل اليمن التي شكلت قلقاً وصداعاً مزمناً للسلاطين الرسوليين إبان حكمهم لليمن، وكان أول خروج لقبائل دثينة عليهم قد حدث في عهد السلطان المظفر يوسف بن عمر (-647 694هـ) وتحديداً في سنة 660هـ ، حيث تقدم إليهم بنفسه على رأس الحملة، وعلى غير العادة لم يوكل هذه المهمة لأحد الأمراء، مما يوحي أنه كان على علم بمكانة هذه القبائل وقوة شكيمتها وبأسها، لذا بادر بالتقدم إليها ليكسر شوكتها بنفسه، وهذا ما حدث بالفعل، حيث دخل بلاد دثينة وتمكن من قتل جماعة منهم، فيما استسلم بقيتهم ونزلوا عن خيلهم مظهرين الطاعة( )، وعلى إثر هذا الانتصار الذي حققه المظفر قام الشعراء بتهنئته بعدد من القصائد منها ما جاءت عن لسان الشاعر القاسم هتميل:

يهنى دثينة أن الله عوضها
من الدأدي بيض البيض والغرر
غر الجحافل حصنها وما علموا
أن الزجاجة لاتقوى على الحجر
أرسلت صاعقة في غيم بارقة
تردي وتبرق في رعداً بلامطر
فسلموا الخيل واعتاضوا بها حمرا
فأعجب على حمر منهم على حمر
أعميتم فتمنوا أنهم خلصوا
عور العيون من للعمي باعور
جاؤك يا شمس إرسالا وقد بذلوا
لك الحكومة في الأنثى وفي الذكر

لكن هذه الهزيمة التي حلت بدثينة لم تثنهم عن الغزو، حيث خرج العجالم إلى غزو لحج وهاجموا قراها نهباً وقتلاً، وتمادوا في إلحاق الضرر بأضرحة

الفقهاء والصالحين( )، وخلال الأزمة التي حدث في البيت الرسولي عقب وفاة المظفر يوسف مباشرة بين ابنيه الأشرف عمر (694 – 696هـ) وأخيه المؤيد داود (696 – 721هـ)على السلطة انضمت الجحافل إلى صفوف الأخير، وشكلت غالبية جيشه يتقدمهم عمر بن سهيل( )، وتقدم بهم المؤيد نحو عدن ثم لحج وأبين واستولى عليهما، وهذه الانتصارات المتلاحقة كانت قد أزعجت الأشرف وأقلقت مضجعه، فنهض ليحشد الحشود ويعزز قواته لمواجهة المؤيد، فحدثت بينهما وقعة في منطقة الدعيس( )، وأسفرت عن هزيمة المؤيد والقبض عليه بعد أن تم نهب معسكره وخزائنه( )، ولعل السبب الرئيس الذي أدى إلى هذه الهزيمة يكمن في خذلان الجحافل وانسحابهم من المعركة وربما بعد أن تبين لهم كثرة خصومهم عدداً وعدة .

وبعد أن تولى المؤيد السلطة خلفاً لأخيه الأشرف سنة 696هـ انقلب على الجحافل وجرد حملة بقيادة أحد أمرائه ويدعى طغرل بن عبدالله المؤيد، وكان حينها أميراً لمنطقة لحج فهجم على الجحافل والعجالم وقتل منهم ما يقارب من أربعين رجلاً سنة 701هـ ( )، وعاود الأمير سيف الدين الكرة وغار عليهم وقتل منهم سبعين رجلاً وقطع عنهم الجامكية( )( ).

وفي سنة 702هـ حل الشريف عماد الدين إدريس مقطعاً لمنطقة لحج خلفاً للأمير سيف الدين فباشر هو الآخر بضرب الجحافل في منطقه الصعيد( )، ثم انسحب الجحافل إلى منطقة صهيب( ) بعد أن قتل منهم جماعة، وتحولوا بعدها للإغارة على السواحل (سواحل عدن أبين) وأثاروا الرعب بين الناس، فقصدهم الأمير عماد الدين بعد أن تحالف مع مقطع أبين الأمير بدر الدين محمد بن الحسن، وتمكنا من ردع الجحافل والتوغل إلى عمق دثينة، ثم عادا إلى تامين السواحل بعد أن قتلت قواتهم فارس الجحافل ويدعى إبراهيم بن سعد بن عبد العزيز وجماعة من العجالم( )، وقد يعود سبب الهزائم التي تكبدتها قبائل دثينة إلى تفكك قبائلها، وغياب التحالف المشترك فيما بينها، ذلك أن بعض القبائل آثرت التزام الحياد تجاه الحرب الدائرة حماية لمصالحها الذاتية على الرغم من روابط النسب وعلاقات القربى، كما أن المصالح عينها كانت دافعاً لإقامة أحلاف منفصلة ومتواضعة تضم قبيلتين أو ثلاث، فضلاً عن حالة اللااستقرار التي تعانيها القبائل بسبب

ظاهرة الثار والاقتتال الداخلي مما زاد الوضع تعقيداً، وهذا الأمر تطرق إليه السلطان الرسولي في طرفته( )، حيث ذكر عن تحالف آل عزب وآل علي من جهة، وآل يحيى بن علي والعجمان من جهة أخرى، وأن الطرفين في حالة حرب دائمة والتفوق فيها عادة حليف الطرف الأول، ذلك أن قوة آل عزب تكافئ الطرف الثاني بالإضافة للهياثم، وفي حال واجه آل عزب السلطة الرسولية ألتزم آل علي الحياد لأنهم على حلف مع الدولة، كما امتدت علاقات آل عزب وآل علي إلى المناطق الجبلية وتحالفا مع أهل حصي أصحاب الظاهر، وكذلك العجمان وبني مدقة حالفا أصحاب السرو( )، هكذا إذن كانت تسير الأوضاع القبلية في دثينة بين التمزق والعداء وهو الأمر الذي استغله الرسوليون أيما استغلال.

وعلى الرغم من هذه الحالة التي كانت تعانيها دثينة إلا أنها لم ترفع الراية البيضاء حتى وضعت الحرب أوزارها، ففي سنة 703هـ اجتمع أربعين فارس وألف ومائتين رجل من الجحافل لمهاجمة الأمير عماد الدين إدريس الذي كانت قواته أقل منهم عدد وعدة إلا أن الأمير عماد الدين إدريس تمكن من قلب موازين المعركة لصالحه وتغلب على الجحافل( ) .

وبعد هذه الهزيمة التي تجرعتها الجحافل عاد الأمن والاستقرار إلى المنطقة لمدة سنتين، وعززها السلطان المؤيد عندما أجرى تعديلات إدارية جديدة في أبين، حيث ولى عليها الأمير سيف الدين طغرل، وعزل عنها ابن بهرام، وبعدها ببضعة أشهر أقطعها عماد الدين إدريس بدلاً عن سيف الدين طغرل، ثم قام السلطان بتعديل سياسته تجاه الجحافل وأمر بإعادة الجوامك إليهم بعد انقطاع دام سنوات( )، ولعل السلطان أراد بذلك استمالة الجحافل إليه وكسب ودهم أملاً في توقف غاراتهم المتواصلة على المدن والقرى والطرقات.

وعلى غير المتوقع نقض الجحافل بنود الصلح الذي لم يدم غير سنة واحدة (شوال 705ـ شوال 706هـ) وغاروا على لحج واشتبكوا مع القوات الرسولية في لخبة( ) والرعارع( )، وسقط منهم أربعين قتيل( ) . ووضعت هذه المعركة حد لغارات قبائل دثينة لبضع سنوات حتى تلقى الأمير عماد الدين إدريس الأوامر بإخماد الفتن في بعض المناطق ومنها بلاد الجحافل

سنة 713هـ فتم تدمير بعض القرى القريبة من صهيب ومن ضمنها مساكن الجحافل( ).

وفي مرحلة صراع المجاهد علي بن داود (721 – 764هـ) مع ابن عمه الظاهر عبدالله بن أيوب على السلطة ساندت قبائل دثينة الأول منذ بداية حكمه حتى سنة 723هـ( )، ثم ظهر خلافاً حاداً بين السلطان المجاهد وأحد أمرائه ويدعى شجاع الدين عمر بالبال الدويدار أمير لحج الذي كان يميل إلى الظاهر، ووقفت الجحافل إلى جانبه ضد السلطان الذي أساء استقبالهم في قصره بما لايليق ومعهم آنذاك ابن الدويدار، فكان الجحافل ضمن قوات ابن الدويدار التي اتجهت للسيطرة على عدن، وهنا طالت أيديهم بيوت ألعامة والخاصة نهباً وسلباً وتخريباً( ) لكن ابن الدويدار قتل في عدن بعد أن احتال عليه أمير المدينة نجم الدين يوسف الصليحي وسرعان ماتفرقت عنه الجحافل( )، بيد أن الأمر لم ينتهي بمصرع ابن الدويدار، حيث وصل خبر مقتله إلى أخيه الذي كان في لحج، فنهض للانتقام من ابن الصليحي واشتبك الطرفان في الرعارع، والغريب في الأمر أن الجحافل كانوا ضمن قوات ابن الصليحي، ولعل مشاركتهم في هذه الحملة كانت على مضض، وقد تداركوا هذا الأمر بالانسحاب التدريجي من ميدان المعركة، وتركوا ابن الصليحي وحيداً ليتجرع مرارة الهزيمة( ).

وعقب هذه المعركة نزل السلطان المجاهد إلى لحج، واجتمع بالجحافل ودعاهم للهدنة، فاستجابوا له، ونالهم مانالهم من كرم السلطان وجوده( )، وتحت سقف هذه الهدنة أغلق الرسوليون ملف قبائل دثينة لمدة سبعين عاماً تقريباً ومن ضمنها فترة حكم الأفضل العباس بن علي (764 – 778هـ) حتى أواخر عهد الأشرف الثاني إسماعيل بن العباس (778 – 803هـ)، ثم عاد الجحافل إلى مسرح الأحداث مجدداً سنة794هـ وغزو لحج ونهبوها، ثم هاجموها كرة أخرى سنة 796هـ بقيادة شيخهم جعفر الجحفلي، وكانت اشد وطأة من سابقتها، فاضطر أميرها آنذاك القاضي شجاع الدين العلوي الخروج لمقاتلتهم، وكان القاضي على صلة وثيقة بالشيخ جعفر، فتقابلا في ميدان المعركة وجهاً لوجه، غير أن الجحفلي تحاشى قتاله وانسحب بمن معه من الجحافل ( ).

وبعد انقضاء سنة واحدة استأنف الجحافل الغزو وهاجموا قافلة كانت

متجهة إلى عدن ونهبوها( )، وفي السنة ذاتها خرج إلى الجحافل الأمير بدر الدين محمد بن زياد ومعه العسكر السلطاني فقتل منهم جماعة وجز رؤوسهم عدا الأسرى( ).

ولم يكن عهد السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل (803 - 827هـ) أفضل من سابقيه مع الجحافل حيث شهدت سنة 808هـ عدد من الأحداث، منها تلك الغزوة التي قام بها الجحافل على لحج، فألحقوا بها الخراب بل وامتدت أيديهم على وقف الزوايا( ) ونهبوها ناهيك عن قطع طرق المؤدية إلى عدن والخارجة منها مما أحدث شللاً كاملاً للحركة التجارية الداخلية وانتشر الخوف والهلع وضاقت أحوال الناس، فكان لزاماً على السلطان التدخل واتخاذ الحلول العاجلة إزاء هذه الأزمة، وبالفعل أمر بتكليف القاضي عفيف الدين بن العلوي وأخوه القاضي شجاع الدين للخروج للجحافل وانضمت إليهما جموع من يافع( )، وفي المقابل كانت الجحافل قد أعدت العدة استعداداً لهذه المواجهة بنصب الكمائن، وتمكنوا من قتل القاضي عفيف الدين وأخيه وعدد من العسكر، ومن يافع قتل عدد غير قليل( )، وكان وقع هذه الهزيمة على السلطان الناصر كالصاعقة، وحينها لم يكن أمامه من خيار غير الخروج إليهم بنفسه، فزحف إليهم حتى وصل عقر دارهم دثينة، وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها القبائل لصد السلطان إلا أنه تمكن من دخول بلادهم بحد السيف وأمر بنهب أموالهم( ).

لم تنم دثينة على ضيم كعادتها فسعت للبحث عن حليف قوي ضد السلطان الناصر، فكانت وجهتهم الإمام الزيدي المنصور بن صلاح بن المهدي( ) فهو الآخر كان يقاوم الرسوليين ويضمر لهم البغض والكراهية، لذا لم يتردد أمام هذا العرض، وأرسل معهم أحد قادته على رأس حملة عسكرية إلى دثينة في سنة 808هـ، ونشبت بين الطرفين معركة أسفرت عن هزيمة الجحافل ومن كان معهم من القوات الزيدية، وعندها لم يكن أمام الجحافل إلا الجنوح للسلم؛ لأنهم دون شك كانوا يدركون أن مهمة الوقوف في وجه القوات الرسولية أشبه بالانتحار إلا أن الأنفة وكبرياء القبيلة كان دائماً ما يتملكهم، فطلبوا من الأمير بهاء الدين الشمسي مقطع أبين مرافقتهم لمصالحة السلطان الناصر، فكان لهم ما أرادوا( ).

وحملت سنة 810هـ بشارات الانتصار لقبائل دثينة على بني رسول حين تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالقوات الرسولية التي كان يقودها آنذاك الأمير بدر الدين محمد بن زياد الكاملي( )، وظلت دثينة تتغنى بهذا الانتصار لمدة أربع سنوات، في حين كان السلطان يترقب الفرصة للانقضاض عليهم وتعويض دين الهزيمة التي منيت بها قواته حتى جاءت على أيدي الطواشي جمال الدين مفتاح الذي تمكن من تشتيت الجحافل في البلاد، وعندها طاب خاطر السلطان، وأمر بضرب الطبلخانة( ) لمدة سبعة أيام تعبيراً عن سعادته بهذا الانتصار( ).

وبعد هذه الهزيمة التي منيت بها الجحافل آثرت الركون إلى السكينة، فوضعوا سيوفهم في أغمادها لمدة أربع سنوات، ثم اصطلح الطرفان خلال زيارة السلطان الناصر لعدن سنة 818هـ( )، وكان من ثمار تحسن هذه العلاقة أن قام السلطان بزيارة بلاد العجالم ومعظم مناطق دثينة وتفقد أحوالها سنة 820هـ ، وفي السنة التالية قام الشيخ جعفر الجحفلي بزيارة السلطان وانعم عليه بالهدايا( ).

وفي عهد السلطان الظاهر يحيى بن إسماعيل (831 – 842هـ)عادت الجحافل لممارسة نشاطها بقيادة الشيخ جعفر وغارت على لحج ونهبتها بحجة أن لهم ثمن خيل لم تسلم لهم، فأرادوا تسلمها بالقوة، وآثر السلطان غض الطرف عنهم( )، ثم اتسمت العلاقات بينهما بالسلم والمهادنة نسبياً، ففي سنة 836هـ وفد العجالم على السلطان وشاركوه الحملة التي أعدها لقمع مشايخ الحديدة، كما أبرموا صلحاً سنة 837هـ مع الأمير اختيارالدين محسن الخازندار مقطع أبين( ).

وتعززت العلاقات بين الرسوليين ودثينة من خلال الزيارات المستمرة التي قام بها مشايخ دثينة للسلطان الظاهر وكان أولها في رمضان سنة 837هـ، وأخرى بعدها بشهر واستقبلهم السلطان بمايليق بمكانتهم بل وكساهم وأنعم عليهم( )، وفي زيارة هي الثالثة ضمت مائة وستين فارساً من الجحافل ومعهم الأمير اختيارالدين الخازندار وقدموا له خزانة من من النقد والحرير والتحف وعشرين رأساً من الخيول الدثنية، وآخر زياراتهم للسلطان رأسها الشيخ هجام الجحفلي وأهداه أربعة رؤوس من الخيل الجيدة( ).

المبحث الثالث:

أسباب خروج قبائل دثينة على السلطة الرسولية:

قبل الدخول في تفاصيل الأسباب والدوافع التي وقفت خلف خروج قبائل دثينة على السلطة الرسولية والمواجهات الحربية التي جرت بين الطرفين يعترضنا استفسار جدير بالإجابة وهو: هل نطلق على خروج قبائل دثينة على السلطان الرسولي كلمة تمرد أم غزو ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن الفعل هنا يعتمد على النية، ومن وجهة نظري إن غريزة وطبيعة هذه القبائل كانت غالباً ماتميل إلى الغزو لتحقيق المكاسب المادية فقط، ولم تكن تعني في خروجها تمرداً على السلطة الرسولية، فهم قبائل تميل للبداوة أكثر منها للحضر، وقد اعتاد أبنائها الطاعة للشيخ وفق الأعراف والتقاليد القبلية( )، وتأبى أنفة وكبرياء القبيلي الخضوع لسلطة غيرها، وحسبي أنهم لايفقهون شيئاً عن السياسة، أوماذا تعني السلطة المركزية وماهي واجبات الرعية نحوها، فمن خلال استقراء أحداث الموجهات الحربية بين الطرفين نجد أن هذه القبائل لم تقم بمهاجمة ثكنات الرسوليين العسكرية أو التعدي على مقرات المقطعين الولاة، وإن حدثت بينهما معركة فهي من وجهة نظرهم لاتبتعد عن كونها من معارك الثار لقتلاها أو لاستعادة كبريائها ومكانتها، وكان يتم التعامل مع القوات الرسولية وكأنها إحدى القبائل التقليدية في المنطقة، لذا فإن كانت قبائل دثينة تحمل صفة المعارضة بمفهومها السياسي المعروف لما تعرضت لمصالح الناس بالسلب والنهب في عدن ولحج وأبين، وتمادت في تخريب الزوايا وأضرحة الصالحين، وبناءً على ذلك يمكن القول مرة أخرى: إن خروجها لم يكن يحمل الطابع السياسي المناهض للسلطة، أو يعبر عن رفض سياسة معينة، أو رد فعل تجاه مراسم مجحفة فرضتها السلطة بالقوة كالزيادة في الضرائب والمكوس، ثم انعكست سلباً على أوضاع القبائل وأضرت بمصالحها كحال أهل تهامة، بل أن قبائل دثينة لم تكن تدفع هذه الواجبات للمقطعين على الإطلاق، والحال ذاته كان متبعاً مع من سبقهم من الحكام الأيوبيين، إذاً ليس هناك ثمة تفسير منطقي لخروج هذه القبائل غير أنه كان سلوكاً لاإنساني نابع من ثقافة الغزو التي تأصلت في أذهان القبيلة منذ زمن بعيد.

ومهما يكن من أمر، فإن واقع خروج هذه القبائل للغزو يعد من وجهة نظر السلطة الرسولية عصياناً وتمرداً عليها مهما اختلفت النيات وتعددت المبررات، ذلك أن نتائج خروجها كانت وخيمة وكارثية على المجتمع والاقتصاد، وفي ضوء هذا التفسير يمكن عرض أسباب خروج قبائل دثينة على السلطة الرسولية بمايأتي:

الأسباب السياسية:

1) سوء سياسة غالبية السلاطين الرسوليين تجاه قبائل دثينة( )، ولجوءهم إلى استخدام العنف المفرط كوسيلة مثلى لحسم أي خلاف أو أي تمرد، وهذا ليس عيباً من وجهة نظر الحكام فقد صار وضع السيف على رقاب الرعية المخالفين نهجاً لدى حكام الدول اليمنية في ذلك العصر، مع أنه في الواقع لايعبر إلا عن قلة كفاءة هذا السلطان أو ذاك وعجزه عن معالجة مشاكل وقضايا الرعية بالطرق الودية والسلمية.
2) قلة خبرة الولاة أو المقطعين الذين تولوا منطقتي أبين ولحج في التعاطي والتعامل المرن مع قبائل دثينة خلال عهد بني رسول عدا أواخره لاسيما عندما تولاهما الأمير اختيارالدين محسن الخازندار الذي عمل على تهدئة واستقرار المنطقة، ونجح إلى حد كبير في ترغيب القبائل بالسلطان الرسولي متبعاً سياسة اللين والمهادنة، واستخدام ورقتي الأموال والهدايا لإصلاح ماأفسده الولاة السابقين( )، وتمكن خلال فترة ولايته من إيقاف سلسلة المواجهات الحربية الدامية التي أرهقت الطرفين معاً.
3) استغلال قبائل دثينة للأزمات السياسية التي تنشى في البيت الرسولي بين الحين والآخر لاسيما خلال فترات صراعهم على السلطة، ولعل الخلاف الذي نشب بين الأشرف وبين المؤيد على السلطة أبرز مثال على ذلك، حيث انحازت الجحافل إلى صف المؤيد ضد الأشرف بغية تحقيق المكاسب المادية، كما استغلت قبائل دثينة أيضاً خلافات الأمراء والمقطعين ابتغاء تحقيق المكاسب عينها، وتجلى ذلك خلال أزمة الأمير ابن الدويدر.

الأسباب الاقتصادية:

1) لعل القحط والمجاعة كانتا عاملاً مهماً في دفع القبائل للخروج والتقطع على طريق القوافل التجارية، ونهب القرى والمدن، وعلى الرغم من أن المصادر التي بين أيدينا لم تذكر ذلك صراحة إلا أنه من المؤكد أن بلاد دثينة كان يصيبها ما يصيب مناطق اليمن من الجدب والقحط بين الحين والآخر، بل أن المناطق القريبة من حواضر الرسوليين كانت تنال حضاً طيباً من مكارم السلطان خلال مواسم الجفاف والمجاعات، في حين لايتلقى من كان بعيداً عنهم شيئا يذكر، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عدم اهتمام السلطة الرسولية بأوضاع القبائل النائية ومنها قبائل دثينة.

2) قطع العطايا والجوامك عن زعماء ومشايخ قبائل دثينة كان عاملاً رئيساً في شق عصا الطاعة والخروج على السلطان الرسولي، وبرز هذا الأمر بوضوح خلال سلسلة غزوات الجحافل والتي لم تكن تتوقف إلا في حال إعادتها إليهم، فالجوامك من وجهة نظرهم إلى جانب قيمتها المادية فلها أيضاً دلالاتها المعنوية، وتعبر عن وجاهتهم في المنطقة ومكانتهم الخاصة عند السلطان.

الأسباب الاجتماعية:

1) إن الدافع الرئيس الذي وقف خلف غارات قبائل دثينة يكمن في نزعة القبيلة وغريزتها الفطرية في حماية كيانها ونفوذها خصوصاً عندما تستبدل السلطة ثوبها بثوب آخر جديد، (انتقال الحكم من الأيوبيين إلى الرسوليين) فتقوم القبيلة بالمقابل باستبدال سياستها إزاء هذا الوضع الجديد وتسلك طريق التحدي الهجومي المحفوف بالمخاطر بهدف التعبير عن مكانتها الاجتماعية التي طالما دأبت على بنائها خلال تاريخها العريق، وبمعنى آخر فإن خروجها على السلطة أشبه بالرسائل لشد انتباه الحاكم إليها.

2) لايمكن الجزم بالقول بان قبائل دثينة كانت عبثاً تغزو وتقاتل مالم يكن لديها هدفاً تغامر لتحقيقه، فبالنظر إلى حجم الدماء التي سفكت وعدد الأنفس التي أزهقت في ميادين القتال ندرك تماماً أن هناك ثمة

هدفاً إنسانياً يرقى إلى مستوى تلك التضحيات ألا وهو نزعة البقاء وإثبات الوجود في ظل سلطة لاتعترف إلا بالكيانات القوية، ولاتقيم لمن دونها وزناً ولاأهمية.

3) التخلف والجهل ونزعة العصبية، فضلاً عن غياب الوازع الديني، من العوامل المهمة التي ساهمت في إذكاء روح الغزو وإمعان القبيلة في السلب والنهب والتخريب.

نتائج البحث:

سياسياً:

1) كانت قبائل دثينة أشبه بالشوكة في جنب الحكام الرسوليين، ولطالما أقلقتهم خلال عهود حكمهم لليمن التي تمتد لقرنين وثلث القرن من الزمن، حيث أعلنت خروجها عن طاعة السلطان الرسولي عشرين مرة تقريباً، واستعصى عليهم إخمادها بقوة السلاح واستخدام مختلف أساليب القهر والإذلال، وكلفت خزينة الدولة مبالغ طائلة فضلاً عن سقوط الضحايا من الطرفين.

2) عدم تكافئ الطرفين في العدة والعتاد، وتفكك القبائل وعدم توحدها من أبرز العوامل التي وقفت خلف هزائم دثينة من قبل القوات الرسولية.

3) انهارت الدولة الرسولية سنة 858هـ، فيما تابعت قبائل دثينة مسيرتها التاريخية مع حكام الدولة الطاهرية (858-945هـ)

اقتصادياً:

1) أثرت التقطعات التي قامت بها قبائل دثينة على طرق القوافل من وإلى عدن في اضطراب الحياة التجارية وشكلت لها تهديداً حقيقياً لاسيما القوافل المحملة بخزائن خراج ميناء عدن.

2) تعد منطقتي لحج وأبين أكثر المناطق تضرراً من غزوات قبائل دثينة، وفي المقابل لحق ببعض مناطق دثينة الكثير من الضرر من قبل القوات الرسولية طالت زراعاتهم وطعامهم في غالب الأحيان .

3) لم تشكل غنائم السلب والنهب مورداً رئيساً لاقتصاد دثينة، بل

اعتمدت على مداخيل الزراعة والرعي، فضلاً عن اشتغال بعضهم بالتجارة كآل علي من الجحافل الذين كانوا أحلاف السلطان المظفر يوسف بن عمر، بالإضافة إلى شهرة دثينة بتجارة الخيل والهجن العشارية التي كان يعول عليها في الغزو.

اجتماعياً:

1. لم تشارك كل قبائل دثينة في الخروج على السلطة الرسولية بل بعضها لاسيما قبائل الجحافل المذحجية من آل علي بن يحيى كبني مدقة، وآل سالم، وقبيلة العجمان، وقبيلة الهياثم الحميرية، وقبيلة العجالم، ونالت الجحافل نصيب الأسد في تبني معظم المواجهات الحربية.
2. إذا كانت المفاهيم القبلية في ذلك العصر ترى في هذه الحروب الدموية إنجازاً حقيقياً يرضي غرورها وكبريائها، إلا أنها في حقيقة الأمر لم تجلب لأهلها غير الويلات والمآسي.
3. لم تدل الهزائم المتعاقبة التي تلقتها قبائل دثينة على أيدي القوات الرسولية على ضعف القبيلة فحسب، بل أظهرت هشاشة العلاقات القبلية، ونمو نزعة المصالح الذاتية فوق الأعراف والتقاليد القبلية، وتجلى ذلك بوضوح في التزام بعض قبائل دثينة بموقفها الحيادي تجاه المواجهات الحربية التي يخوضها بني عمومتهم ضد الرسوليين، وذلك بسبب غياب التحالف المشترك بين جميع قبائل دثينة الغير مبرر، فإذا حال النسب دون قيامه فإن وحدة الأرض والجغرافيا كانت كافية لإقامة هذا الحلف.
4. أن مظاهر النعرات العصبية والحمية القبلية، وغياب الوازع الديني لم تكن سمة ذلك العصر فحسب، بل هي لعمري داء توارثته قبائل اليمن كلها جنوباً وشمالاً حتى العصر الراهن، وهي السبب الرئيس الذي أعاقنا عن التقدم واللحاق بركاب الحضارة.

ملحق (2)

التركيبة السكانية لمدينة عدن عند احتلالها:

1. المواطنون	8341 نسمة.
2. أفريقيون وأجناس مختلفة	5346 نسمة.
3. يهود	1435 نسمة.
4. هندوس	854 نسمة.
5. آسيويون من الهند وبورما	193 نسمة.
6. آسيويون	144 نسمة.
7. أتراك	47 نسمة.
8. فرس	40 نسمة.
9. مصريون	28 نسمة.
10. الحامية العسكرية البريطانية	3433 نسمة.

البريطانيون الذين حكموا دثينة:

1. سيجر
2. فكس
3. ولسن
4. هندرسن
5. بدول
6. كيلر

7. ميلان
8. أستيفن داي

أبرز الشخصيات الإدارية في مودية:

1. عبد الله سعيد با عباد
2. أحمد سعيد با عباد
3. هادي محمد حميضة
4. محمد ناصر
5. سعيد محمد امفقيرية
6. أحمد علي مسعد
7. صالح عمر يافعي
8. محمد باب الله
9. صلاح بشير

ضباط سياسيون حكموا دثينة:

1. عبد الله حسن جعفر	ضابط سياسي
2. فضل حسن عباس	مساعد
3. أحمد محمد زوقري	مساعد
4. أحمد حسن مظفر	ضابط
5. ثابت نعمان	ضابط
6. أحمد محمد با شراحيل	مساعد
7. فضل أحمد ناصر السلامي	مساعد
8. حسين ناصر البعسي	مساعد
9. عيدروس علي السليماني	مساعد
10. عبد الله الشقاع	مساعد ولاية دثينة
11. حسين منصور با جابر	نائب
12. عبد القادر شائع	نائب ولاية دثينة

ملحق (3)

أصل قبائل محافظة أبين

قبائل أبين يغلب عليها انتمائها إلى مدحج وتشكل الأغلبية بالإضافة إلى حِمْيَر ونوح، وهي قبائل قحطانية.

قبائل تنتمي إلى علة بن مدحج بن كهلان بن سبأ:

قبائل علة المدحجية، ويتركز وجودهم في مناطق جيشان ودثينة والوضيع والسواد وامصرة وبعض المناطق المجاورة.

وهم ذرية الجحفل بن عوف بن النخع بن علة بن مذحج، ومن قبائل علة:

قبيلة النخعين

وتسكن مديريات لودر وجيشان وموديه، وأشهر قراها امسحال. ولهم شخصيات تاريخية مثل الأشتر النخعي.

ومن بطونها:

أهل مذيب – أهل مقفع – أهل باصم – أهل مقشم – أهل مزحيقي – أهل تقد – أهل عنان – أهل محروق – أهل كامل – أهل يحيى – أهل أحمد صالح – أهل مريم وغيرهم.

قبائل آل باللیل العلهية المدحجية وتنقسم الى:

أهل حنش وهم مشائخ آل باللیل – الجعادنة – أهل مارم – أهل باقيناش – المحاثيث – أهل محوري – أهل فشاش – أهل مقور – أهل هقيس. ومنهم الرئيس عبد ربه هادي.

قبيلة المياسر

ومركزها مودية، تسمية الميسري أتى من اسم بئر قديمة اسمها بئر ميسر، وتقع في وادي ميسر في منطقة برذعة قرب حيد سمر، وهي أرض تتبع فخيذة أهل سمر وهم الهياثم.

والمياسر من قبائل دثينة (مودية)، وهي من قبائل مذحج، وأعيان قومهم يسكنون وادي مران (الصالحي)، وكبيرهم يدعى محمد ابن قباث واسمه (مطعم الذئب) ابن النخع، واسمه جسر ابن عمرو ابن خالد ابن علة ابن جلد.

وتنقسم قبيلة المياسر إلى عدة فخائذ رئيسية هي:

أهل صالح (وهم عقال وشيوخ المياسر).

أهل فرج – أهل الشيبة – أهل ممرط – أهل قنان – أهل محرز – أهل رباش.

ومن شخصياتها حسين عثمان عشال ومحمد علي هيثم.

قبيلة أهل حسنة

ومركزها امقليتة، وهم ينتمون إلى الرابطة العلهية المدحجية، وقيل إن سبب التسمية يعود إلى وقوفهم مع الحسن بن علي ابن أبي طالب. ويقال إنهم يعودون إلى اسمي فتاتين هما حسنة وميسرة. ولا يوجد ما يؤكد ذلك. إلا أن من الأسماء القديمة مثلاً هناك اسم شرحبيل بن حسنة، وهو اسم للعلم المذكر مثله مثل اسم عنترة.

ومن بطونها:

أهل منصور، وهم مشائخ آل الحسنة

آل امجعلي – آل علي هادي – أهل امعلواني – أهل سالم بن هادي

أهل زامك: آل مسعود بن هادي – آل حسين

أهل شعيث: أهل عامر– أهل معرج – أهل عياش – أهل عمير – أهل كندح – أهل عرب.

أهل باجعم: أهل طيوز– أهل مكحل – أهل امكعبي

أهل وليد: أهل مجرب – أهل عمر بن أحمد – أهل بشير

العلهين: أهل عبيد – آل مذهبه – آل عبد الولي
أهل البطان: آل مضوج – وآل بادح – أهل باعش – أهل صابر – أهل إسرائيل – آل شوعان – وأهل آل صوبي – وأهل غمي.
ومن شخصيات قبيلة أهل حسنة الرئيس السابق علي ناصر محمد.

قبيلة السعيدي:
وعاصمتهم الخديرة، وهي علهية مدحجية.
وينقسمون إلى القبائل الآتية:
عيال امسعيدي في السويدة.
أهل هيثم في مكرارة.
أهل امسعدية في امخديرة.
أهل امحصنية في امحبيل.
أهل محمد بن علي في ثويرين.
أهل معور في المستقرة.
ومن شخصياتها علي شيخ عمر

منطقة جيشان:
وتسمى عله الكور، ومن بطونها:
آل علي أبو بكر وهم : آل حسين وآل علي: ومنهم: الشيخ عوض بن علي بن محمد الحسيني العلهي.
وآل فطحان – آل مردع – آل عرول – آل مقيد – آل منصور – آل امصقرية – العواسج – آل أحمد.

قبيلة العوذلي:
وتنسب إلى بنو عائذ الله بن سعد العشيرة بن مدحج بن كهلان.
ويقال إنه قد قدم قديماً من لواء ذمار. وتوجد في مكيراس ولودر والكور.
والقبائل العوذلية كثيرة منها على سبيل المثال في مكيراس (الضاهر):

آل وحيش – آل منصور – آل محمدي – آل بركان – آل بجير.

أما في لودر (الكور):

آل شعوي – آل دمان – آل الأقفاع – آل الضمج.

بالإضافة إلى أهل قاسم علي – والذيبي – والمخاير– والدهبلي – والفقدا – والشهري – والجعيملان – والمرزوقي والعسيلي.

وسلاطين السلطنة العوذلية هم من أهل قاسم بن علي وكانت زارة عاصمة السلطنة.

قبيلة آل حيدرة منصور:

وتسكن في الدرجاج ومناطق جعار، وترجع أصولهم إلى آل عوذلي.

قبائل من أصل نوح بن حضرموت بن سبأ.

وهم بيت السلطنة في آل فضل لمناطق زنجبار وشقرة والوضيع. والمتعارف عليه أنهم قدموا من ساحل حضرموت قديماً وتعود أصولهم إلى قبيلة نوح الحضرمية القحطانية، وأهم فروعها:

أهل أحمد بن عبد الله – اهل فضل بن عبد الله – آل المعر – آل ناصر بن عبد الله – آل صالح بن عبد الله – آل يحيى – آل يرامس – آل امهيثمي – آل عوض محضار.

قبائل من أصل حمير بن سبأ:

قبيلة يافع بني قاصد:

وأصل سلاطين يافع القارة يعود إلى معوضة بن محمد بن عفيف، ويُعَدّ المؤسس الحقيقي لهذه السلطنة التي توارثها أبناؤه من بعده (يقال إن بداية التأسيس سنة 942هـ)، وهي أسرة قدمت من الحجاز، وكانت تؤدي الشعائر الدينية. وتسكن مديريات رصد وسباح وسرار، وتنقسم إلى خمسة مكاتب رئيسية:

1 – يزيدي:

وينقسم إلى خمسة فروع، وعلى رأسه البطاطي.

كبابي، حمأي، تلبي، نفاجي، جزء من السلفي.

2 – كلدي:

وينقسم إلى عشرة أقسام، على رأسها بن عطية عاقل مكتب كلد، وهناك تقسيمات داخلية كثيرة، وخاصة فرعي المناصرة والجلادي:

جلادي، منصري، سنيدي، باقري، يوسفي، رهوي، جردمي، سعيدي، حنشي، قمبري، سالمي، علوي، مخيري.

3 – السعدي:

وينقسم إلى تسعة فروع على رأسها العمودي.

ذوادي، عمري، تأمي، قبيلة، أحمري، عامري، بارعي، مُحمدي، وعلاني.

4 – اليهري:

ينقسم إلى ثلاثة عشر فرعاً على رأسها بن سبعة:

العلوي الجعشاني، الربيعي، شعب الحميري، حميرالجبل والوسط والواد، الشبحي، المسلمي، العاطفي العبدلي، المحرمي، العمري، خموس الظبهي.

5 – الناخبي:

في منطقة سباح، وينقسم إلى الفروع الآتية:

شقي، نسري، قحيمي، منصوري، عصري وعماري.

قبيلة المراقشة:

وينتسبون إلى رقوش بن أحمد من بني الكلاع بن شراحيل بن حمير. ويتمركزون في مناطق خنفر وزنجبار وخاصة في جبالهم التي تُسمّى جبال المراقشة.

ومن بطون المراقشة:

أهل عمر بن علي – آل سالم – آل عبد الله – آل مجلد – آل صالح مفتاح – آل علي سند – آل مفتاح بن صالح – آل حميد بن علي – آل صالح بن سند – آل مشبع – آل عباد – آل محمر – آل شداد – آل بلعيد – آل حوثر.

قبيلة آل باكازم العولقية الحميرية:

قبيلة باكازم أحد أجنحة قبائل العوالق، حيث تتكون العوالق من جناحين، وهما العوالق العليا، وتسكن شبوة. والعوالق السفلى، وتسكن المحفد وأحور. ويجتمع الجناحان عند الجد المسمى عولق الحميري، وهو أول من سُمِّي عولق ويطلق عليهم حمير الصغرى.

وقد انفصلت عن سلطنة العوالق العليا في القرن الثامن عشر، وأسست سلطنة مستقلة عاصمتها أحور. وقبائل العوالق عامةً هي خليط ما بين قبائل من أصول حميرية ومذحجية.

وأهم بطونها:

آل باعويدين – آل عيسى – آل بافلاحه من آل شمعي– آل النوبه – آل احتله – آل جارضه من آل سعد – آل جحزر من آل منصور بن حيدرة – آل باجراد من آل جحزر – آل خليلي من آل منصور – آل ذيبب – آل سعد – آل شمعي من آل سعد – آل شيخة – آل باعتينة – آل العفوي – آل علي بن ناصر.

وسلاطين آل باكازم من أصل آل علي من آل الحثلة، وعاصمة السلطنة أحور.

ملحق (4)

الأمثال الشعبية في دثينة

– أ –

1. أبعد من أهلك يحبوك.
2. ابن بطنه هذا.
3. أبو زيد معروف بشملته.
4. إذا تضاربوا الربحان أوبه على جربتك.
5. إذا سقط الثور كثرت سكاكينه.
6. إذا صاحبك عسل خلي لك منه وسل.
7. إذا كبر ابنك خاويه.
8. إذا كثر الطباخون عطل المرق.
9. إذا همينا العصافير ما ذرينا دُخن.
10. إذا يدك تحت الحجر جرها ببصر.
11. اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.
12. الاسم كبير والعشاء قلية.
13. أشتى لحم من كبشي وأشتى كبشي يمشي.
14. اضرب فرج يفطن سالمين (يفطن: يفهم).
15. أعور ومناقر (مناقر: طويل اللسان).
16. اقرأ ياسين وبيدك سحبول (سحبول: حجر).
17. آل مكة أدرى بشعابها.
18. أطلقيني يا عنبة ولش عنبش.

- ب -

1. بول في نيسة.
2. بيت الأسد ما يخلى من العظام.

- ت -

1. ترعى مع الراعي وتأكل مع الذئب.
2. تنسب الخال يأتيك الولد والبنت ترجع إلى عماتها.

- ث -

1. ثور قال أحلبوه.

- ج -

1. الجدار له آذان.
2. جرادة على مشفري خير من بربري للصراب.
3. جمل يعصر وجمل يأكل العصار.

- ح -

1. حبتي وإلا الديك.
2. حبحب على السكين.
3. الحذر ولا الشجاعة.
4. الحر تكفيه الإشارة والنذل يلبج بالعصى (يلبج: يضرب).
5. حلق الله ذقنك.
6. الحليم تكفيه الإشارة.

- خ -

1. خس البقر خمبج الماء.

- د -

1. ديمة خلفنا بابها.
2. دي ما يعرف البخور يحرق استه.

- ر -

1. الرجال تحبل من لساسينها.

2. الربح في عين أمه غزال.
3. الرفيق قبل الطريق.

– ز –

1. زاد الماء على الطحين.
2. زبيبة ما تحلي بير.

– س –

1. السارق برأسه قشاشة.
2. سيد القوم خادمهم.

– ش –

1. شلوك إلى حيس.

– ص –

1. صابح القوم ولا تماسيهم.
2. صام سنة وفطر على بصلة.
3. الصبر مفتاح الفرج.

– ض –

1. ضربني وبكى وسبقني واشتكى.

– ط –

1. طير في اليد ولا عشرة على الشجرة.
2. طريق الأمان ثمان ولا طريق الخوف ساعة.

– ع –

1. العاشق الكذاب يفرح بالتهم.
2. عظم بحنجرة.
3. العفو عند المقدرة.
4. على قدر فراشك مد رجلك.
5. عمياء تخضب مجنونة.
6. عادت حليمة لعادتها القديمة.

-غ-

1. غطي على الضرطة بالنحنحة.

- ف -

1. فرحنا بالأعمى يوانسنا وفتح عيونه وخوفنا.

- ق -

1. القبقبة للولي والفائدة للقيوم.
2. قطع الرأس ولا قطع المعاش.
3. قليل دائم ولا كثير منقطع.

- ك -

1. كثر الحكوك يسيل الدم.
2. كلب ينبح والقافلة تسير.
3. كل تأخير منه خير إلا تأخير الزواج.
4. كل زبيبة وفي طيزها عود.
5. كلكم في الهوى سواء.
6. كم الديك وكم مرقه.
7. كيد النساء كيد عظيم وكيد الرجال كيد رحيم.
8. الكلب كلب ولو طوقته بالذهب.

- ل -

1. لا يجدم ولا يسيل دم.
2. لا تبكِ على من مات ابكِ على من خفّ عقله.
3. لا تخاف من الدولة وخاف من كلابها.
4. لا تدخل برمتك بين الطسوت.
5. لا تسأل عن سوق وأنت وارد إليه.
6. لا تعلم الدب لقط الحجر.
7. لا تندم على ما فات.
8. المبلول لا يهمه الطرش.

9. لا يسمن ولا يغني من جوع.
10. لسانك حصانك.
11. ليلة العيد تظهر من المآرب. (المغرب)

- م -

1. ما تحرق النار إلا رجل واطيها.
2. ما تموت العرب إلا وهي متساوية.
3. ما حكّ جلدي مثل ظفري.
4. ما صديق إلا وقت الضيق.
5. ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.
6. ما على الرسول إلا البلاغ المبين.
7. ما له في البطة ولا في السليط.
8. ما يأكلك إلا قمل ثوبك.
9. ما يصلي المصلي إلا وهو ساهن مغفرة.
10. ما يعرف كوعه من بوعه.
11. ما هو مكتوب في الجبين لازم تراه العين.
12. من جالس القوم أربعين صباح أصبح مثلهم.
13. من خدم الناس بلاش اتهموه بالسرقة.
14. من دقّ الباب سمع الجواب.
15. من دخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه.
16. من سابل عاش أكل من لحم الكباش.
17. من قلت رجاله صلى.
18. من لطمك أعماك.
19. من لقي العافية دقّ بها صدره.
20. من يبي الدحة لا يقول إحه.
21. موس جازع على كل رأس.
22. من جيز البل يا بعير.

23. ما يفهم رطني إلا أبن بطني.
24. مع خوتك ولا بذلق اموهر.

– ن –

1. النار ما تورث إلا رماد.
2. النقمة زوال النعمة.

– و –

1. وجع ساعة ولا كل ساعة.
2. الوحدة خير من جليس السوء.
3. الوحدة عبادة.
4. واحدة بواحدة والحَبْ يكتال.

– هـ –

1. هدية الغراب دودة.
2. الهربة سنة والمسكة يوم.
3. الهنجمة نصف الفعال.

– ي –

1. يا حافر الحفرة نسم تراقيها يا العبد يا لسود خافك تقع فيها.
2. يا داخل مصر من مثلك كثير.
3. يا هارب من الموت إلى حضرموت.
4. يا ويلك من المسكين إذا تمكن.
5. يد ما تقدر تكسرها بوسها.
6. يستاهل البرد من ضيع دفاه.
7. يا فصيح لمن تصيح.
8. يا رايح كثّر بالفضائح.

ملحق (5)

لهجة دثينة

دثينة الحالية هي بلاد قبائل الحسني والميسري والسعيدي والعلهي وترجع هذه القبائل إلى جحفل بن علة بن جلد بن مدحج، ودثينة قديماً كانت واسعة جداً تمتد إلى أحور جنوباً وشبوة شرقاً ويافع غرباً.

* تتميز لهجة دثينة بنطق حرف الغين ألفاً في بعض الكلمات، وليس كلها مثلا: «غابت الشمس» تصبح «ابت امشمس»، و«غبني» تصبح «ابني» وغيرها.
* نطق حرف الشين للمخاطب المؤنث بدلاً من الكاف مثل بيتك = بيتش. أبوك=أبوش.
* نطق حرف الضاد كما تنطق اللام المفخمة في كلمة الجلالة الله في بعض الكلمات، وليس كلها، مثل «عضة» تصبح «علة»، وهي الشجيرة، و«عوض» تصبح «عول» ونحوها.
* ابدال ال التعريف (ام التعريف)، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على الكلمات الدخيلة عن لهجة دثينة ولها مفردات تقابلها في المعنى في لهجة دثينة، مثلاً لا يقولون عن «البحر» «امبحر» فكلمة بحر لها مفردة تقابلها في لهجة دثينة، وهي السيف بكسر حرف السين يقولون على امسيف يعني على شاطئ البحر.
* إضافة حرف الألف إلى الصفات للمبالغة، حيث يستعاض عن حرف الياء في بعض الكلمات مثل كلمة كبير بالألف فتصبح كباري بعد إضافة حرف الياء في آخر الكلمة لإعطاء صفة المبالغة مع ضرورة

تشديد الحرف الذي يسبق الألف، ويؤدي التشديد دوراً مهماً في المبالغة والتعبير. وهكذا الأمر مع كلمات مثل:

سمين = سماني (م) مشددة للمبالغة وتأكيد السمنة وامتداد الفعل وتوسعه

طويل= طوالي (شديد الطول) مع تشديد الواو.

* إضافة حرف «ي» إلى الصفة للمبالغة في التصغير أو التحقير مثل «صغيير» عند المبالغة في التصغير.
* حذف حرف العلة عند فعل الأمر مثل: «اجر=اجري» و« اهر=اهرا» ، «خل=خلي».
* إضافة حرف ميم للاسم الثاني من أسماء العلم التي تبدأ بحرف الميم مثلا تقول: «علي امحمد» أو «علي امسعود» ونحو ذلك.

ومن مصطلحات دثينة وكلماتها الشائعة:

حاجا = حاصر أو حجب عنه والمحجا = المترس.

سدّة = الباب الخارجي.

خلف = (بتشديد اللام) ويعني تراجع أو ترك (وخلف يسافر) يعني تراجع عن السفر.

حرِد = غضب.

لِهج = نافذة صغيرة.

خَلوة = مرادف غرفة، وعادة تكون غرفة وحيدة في الأعلى.

دَيمة = غرفة قديمة.

جُب = سطح المنزل.

سَعف = عيدان النخل

شقص = عيدان صغيرة أو قشاش لإشعال النار.

سِعيف = صاحب رفيق.

فسْل = جبان.

نبِر = انقرض، انتهى.

ونّيس = رفيق يوانس الطريق.
ناموس = شرف.
يحَف = يتمشى.
يهْبع = يمشي مع تحريك رأسه إلى الأسفل.
ذاعر – فازع = منتبه – خائف.
حاذق = عاقل ذكي.
ذاهن = صاحي.
شخل = لمح أو ينظر بنظرة حادة.
تنسّم = تنفس او استراح.
يقرم = بدأ بأكل الطعام بدل الحليب للصغير.
سلقة = أي فرشة للجلوس فوقها.
سقيفة = أي سقف أو خشبة عريضة توضع كسقف ونحوها.
صيني = قلص الشاهي والقهوة.
مسرفة = سفرة الطعام.
تَورة = حافظة للمخلم.
جَعبة = أصغر من التورة.
يموض = يحرك ويخضّ بشدة مثل يموض اللبن ليخرج السمن.
زير = إناء كبير يوضع فيه الماء.
حدَجة = إناء يوضع فيها اللبن ويموض إلى ان يخرج منه السمن.
جحلة = إناء كبير يوضع فيه الماء.
شارح = حارس على الزرع من الطيور.
حكيم = طبيب.
مَخدم = مطبخ.
سَلب = سلاح.
مسياه = مراه.
مرّغه = اوسخه بالتراب.

صغيير = مبالغة في التصغير، حيث إن حرف الياء يستخدم عند إضافته إلى الكلمة لتصغيرها الكلمة.

والالف لتكبير الكلمة أو المبالغة في التكبير.

عَود = كبير في السن.

قابل = الشمال أو إلى الأعلى.

باطن = الجنوب أو إلى الإسفل.

عسْر = صعب.

عجي = صعب.

عيّن = انظر.

قُداك = بتجاهك.

قدو = ساني أمام.

تجاه = قبل.

أدحق = أسرع في مشيك.

رمَحه = ركله بأسفل قدمه كالحمار.

رزحه = ركله بقدمه إلى الأسفل.

منارة = مئذنة المسجد.

عَرم = عظام.

خام = سيّئ رديء.

صوي = يابس نحيف.

حانق = زعل.

عاتب = غير راضٍ.

وراك = لماذا أو مالك.

سخط = غير راضٍ أو غاضب.

كازوز = عود في طرفه جمرة.

ثَم = مرادف فم.

ارويد = مهلاً.

لبّدت (باء مشددة) = أقبلت من كل جهة.
يرَدين امنسوان = أي يذهبن لجلب الماء.
سعة نسم = نفس، مجال، فسحة.
نِسعة = حزام المراءة من الفضة.
وحي = خبر وذكر مثلا ماشي وحي لفلان لا يوجد خبر عنه.
حاق = بقي.
مثرا = أي ولد وجمعها مثاري.
عاقبة = ولد.
ذُراق = براز سائل.
جعراني = خنفساء.
فخاخي = حرباء.
جعار = ضبع.
حفِش = نوع من السحالي (ضب).
سرح = ذهب بالغنم صباحاً.
نشر = ذهب بالغنم ما بعد العصر.
سرح تستخدم من الفجر إلى الضحى.
نشر تستخدم من الظهر إلى الليل.
الخلا = برع.
خالي وخلي = فاضي.
القابلة = غداً.
باكر = اليوم القادم صباحاً.
شيعة = بعد بعد بكرة.
بكرة ((«ك» ساكنة)) و«ب» مفتوحة = العمود الذي وسط البيت أو أي بناء وأيضا تعني الناقة الصغيرة.
رشِن لطي = التصق وتمسك.
وزاة = طريق ضيق أو إلى جانب شيء.

ملْط = أزال الشيء عن جسمه وغيرها.
لَبَج = ضرب.
متْوحي = منتظر.
قَر = انتظر اهدأ.
فاقة = شهية.
مَلص = طحس ملص من إيدي.
حاص = هرب.
فرّ = هرب.
كَرده = طرده.
سرط أو مرط = ابتلع.
أمرد أحلس = أي بدون شعر.
زل = سقط.
عاكي = دخان.
مكبة = كرة.
يتعتق = يحمل على كتفه.
يتوكى = مثلاً يتوكى على أموكى يستخدم العصا لتساعده على السير.
علكمة = الشديد الصلب الكثيف وتعني أيضاً كتلة.
عَصَب = ربط.
شدّه بقوة = اعصبه شدا = اربطه بقوة.
عقّل «ق» مشددة = ربط أرجل الحيوان بعضها مع بعض.
ثخين = سميك.
رهيف = عكس سميك.
لَهج = نافذة صغيرة.
زولي، مغسال = حمام.
الشاجب = أطراف الجربة.
شَعف = مطر مع ريح.

دحق = دعس أو داس.
دحر = دهف وحشا، مثلاً دحر امعطب أي ملأه بشدة.
دُفرة = جميعاً أو مع بعض.
عرّا = أهمل وترك.
أشوَص = مرادف أحول.
أجهص = لا يرى بوضوح أعمى أو شبه أعمى.
شكيم = شخصيه قوية شديدة.
محجور = محروم أو محجوز. مثلاً أرض محجورة أي أرض محرَّمة محجوزة.
احجر الأرض = منع وحرّمها على الآخرين.
ربض = مرادف جلس.
برك = مرادف جلس، جلس على ركبتيه.
درشوم = الفم وما حوله.
ثم = فم.
جِخر = مرادف فم.
دَلقوم = مقدمة الوجه.
أشرف = كبير الأذنين.
أصمع = صغير الأذنين.
كُباري = مبالغة في التكبير.
نهم = أذاع باسم.
أزهد = أعرف.
أفطن = أفهم.
خُورة = الرقبة من الخلف.
خشم = أنف.
أظلاف = مقدمة القدم وأصابعها
حارَ = رجع إلى بيته.

نَده = صاح وحذر أو أذاع.
تكالبوا = اتفقوا على شخص.
تنمّر = أصبح عدائياً.
يتفقد = يشوف ويتأكد من شيء.
يعقّب «ق»مشددة = يتأكد أو يتفقد.
نفض = حرّك الشيء ليذهب عنه شيء راشن به.
ضْبر– حرره = ركن – جدار.
راحلة = ناقة.
بعير = جمل.
قُعود = جمل شاب أو صغير.
بل = جمال.
خُف بعير = رجل بعير.
ظلف نعجة = رجل نعجة.
نتج = تستخدم للحيوانات عندما تلد.
دبة = أنثى الحمار.
عُفو = ذكر الحمار الصغير.
مرباطة حمير = حيث تربط الحمير.
مربض = زريبة الأغنام.
زرْبة = شجرة شوكية.
مخرَط = ممرّ ضيّق بين بيتين.
مارود = مريض.
نعجة تخوّر = تصيح.
عَرسة = الشاة الصغيرة.
معزا = ماعز.
رخل = صغيرة النعجة.
بَهم = صغار الأغنام ونحوها.

ضان = نعاج، أغنام.
تيس = ذكر الماعز.
نعجة ناقض = حامل.
راحلة عشرا = راحلة حامل.
بقارة = بقرة.
تبعْ = ثور صغير.
برذعة = التي توضع فوق ظهر الحمار والحصان.
بَكْرة = ناقة صغيرة.
شُخب لبن = كمية صغيرة من الحليب المتدفق من ضرع الماشية.
علي بالثعيل = الثعلب.
جدَّع أذانه (بتشديد الدال وفتحها) = قطع أذنيه.
شادق جخره = فاتح فمه من طرف.
رمضاء = الحرّ وتعني أيضاً التراب الساخن من الشمس.
قحفَ = قشط.
جرف = حفرة أو جحر أو مكان جرفه السيل وغيرها.
حيْد = جبل.
عَضَة (عله) = شجرة.
زقر = أمسك بالشيء.
كزم = قطع بأسنانه.
جزّ = قصّ وقطع.
صربَ = قص أو قطع.
نتخَ == سحبه من جذره
نتشَ = قطع قطعة بفمه، وتستخدم لفعل العضّ الشديد لجسم صلب أو شديد المقاومة المصحوب بالسحب والنتر.
كسرة = قطعة خبز.
مَلوّح = خبز طاوة.

سرح = ذهب.
ولّى = ذهب.
مُبرطم = عبوس غاضب.
مبعثر = مفرق.
رزيمة = أحجار ثقيلة توضع لتثبيث الأشياء وتوضيح حدود الأرض.
مرزم = مدفا بدفاء.
وثن = حجر مركوز توضع لتوضح حدود الأرض.
مركوز = منصوب.
سحبول = حجر كبير مستطيلة.
أدرم = مستدير أو شبه دائري قبيح من دون ملامح.
جرعول = ثوب بالٍ.
دارم = متسرع أو مجنون.
مقرون = مجنون.
أنْوَل – أدوع = أحمق غبي وغيرها.
حتّ = فركه وقشره (مثلاً حتّ السقف أي تساقط منه بعض القشور).
أربد = أسود فيه نقط حمر أو أسود قريب إلى الأحمر أو رمادي.
أبرق = فيه بقع بيضاء وسوداء مثل البقر الدانماركي.
أرقط = منقَّط اللون (مثل النمر).
أرقش = فيه نقط بيضاء وسوداء.
ذاق = أكل.
مذلق = حادّ.
باهجاك = أسبّك وأدعو عليك.
بحثّ «ث» مشددة = حفر وقلب التربة.
هبْشة = مجموعة.
جعم = صوته ثخين وكبير.
خِنن = صوته يخرج من أنفه.

وحيت = سمعت.
أتخبر = أسأل.
معوّل = مهتم.
ضاري = متعود ووالف.
رجم = رمى.
ينوس = يتحرك ويتأرجح.
نَود = ريح.
مثنى وأزيد = مرتين وأكثر.
عامد = واقع.
عمد = وقع.
ناشد = مهتم.
مُستكن = مختبئ من المطر.
عِقمة = حفرة لتجمّع الماء في الوادي.
عُقلة = حفرة لتجمّع الماء في الحيد.
كَريف = مكان يصبّ فيه الماء.
نذق = رمى به.
جِشم = كتلة صخرية أو جبل صغير.
عقر فلان = أصابته.
ثوب معقر= فيه بقع متسخ.
مدفن = مكان تخزين الحبوب.
يهرا = يتكلم.
صمصوم = شجاع.
قر = انتظر واهدا.
يهرف = يتكلم كثيراً.
يهرِف = مسرع.
يجعَر = يصرخ كالحيوان.

سهج = طارده دون توقف.
شدّ = مرادف انتقل بما يملك، رحل.
مُهيم = شارد.

وفي الشعر الحديث كتب الشاعر عبد الصمد عبد الجبار قصيدته عن دثينة ومودية وتقديرا له ولاشعاره وللعلاقات التي ارتبطنا معه به في عدن وصنعاء والقاهرة ولمواقفه المبدأية فقد أضفنا هذه القصيدة إلى الشعر والشعراء في هذا الكتاب:

تبقينَ منجمة البواسلِ
والسنابل يا دثينة
وتبقين رغم جحودهم
أمَّ الوفاءِ بلا ضغينة

يكفيكِ ما قدمتِ من شعل النصالْ
وهمو هناك على موائد غيرَهم
لا يتقنونَ سوى التسكع ، والسؤال.
وسطَ المواخير التي تبتزهم
وتردَّهم
أشباهَ كتاب إلى الصحف السجينة
البومُ ينعق ماله يجتَّر أضغاثاً دفينة !!

ما هَّمك النثريةَ البلهاءَ...
إن جاءت من المنبوذ تعرجَ
لن يضيركِ يا دثينة.....

مازلت فوق النثر ، أنت قصيدةٌ
لم يكتب الشعراءُ مطلعها
سلي (فحمان) يكتبها...

لتخرسَ ألسنُ
وتضيعَ بين جحورها...
نابحة المنفى اللعينة

ما غبروكِ...
فأنت أنقى من طلوع الصبح...
همٌ خسروا الرهانَ مع الرهينة
وبقيت نبع الحب خيمتنا التي
تأتي الَسكينة
منها ، إذا عزَّ الأمان بعالم
لا يعرف الأيدي الأمينة

يا أيها الدثينة الحسناء معذرة...
إذا طال الغياب
في القلب أنتِ ..
وفي حضور الروح تلهف للشباب
لا تسأليني من أنا

أنا يا ابنة (القوز) المعنى في الهوى
أنا عاشق ،
والعشق يرهقه العتاب
فدعي الذين تقولوا ،
وخذي الجواب ،
مني ، فأنت الحسن كل الحسنِ..
إن رفع النقاب

موديةَ العينين أعماهم سراب
فلتصفحي عنهم ،

سيفضحوهم نقاء
وستظهرين أجلَّ ، أسمى ،
من بهذا الكونِ ،

أفخرُ أنني أحببتُ
أجمل ما (بمرّان) الجميلِ ،
(وثوعة) من نساء ...

سقط القناع !
فلتعذريه لأنه
قد كان من سقط المتاع.

لم يغمد السكين فيك وإنما
جاءت بصدر (المجعَلي)
غاصت بظهر (الميسري)
وتوالت الطعنات في (عباس)
(وابن الرخم)...
في نحر (العبوَدي)
من بعد (أبناء البصير) من بعد(السعيدي)
وسواهُم ، ممن أضأتِ بهم الطرق المجدِ
فانحسر الدجى
وتحقق النصر المبين على العدا
يا أم كوكبة النضال تهللي..
قد أخطأ الرامي..
عليه ارتدت الأشياء
فافتقد الرجا
وأضاع كل صوابه ،
أقوالهُ البلهاءَ قد ذهبت سُدى

الأصلُ أنت..
وأنت صدرُ المحفلِ

يكفيك فخراً يا دثينة أنك الأمُ التي
قد أنجبت يوماً ..(محمد)و(علي)

مواسم الزراعة في دثينة

يعاد تنظيم وترتيب الجدول ببرنامج الجداول

اسم الموسم	تاريخ دخول الموسم	تاريخ خروجه	المحاصيل الزراعية
مواسم الربيع			
جبهة	31/ 1 – 15/ 2	تاسعة	لا توجد فيه زراعة
خرشان (الزبرة)	13/ 2 – 25/ 2	تاسعة	لا توجد فيه زراعة
صرفة	26/ 2 – 10/ 3	موسم جلجل ممتاز حتى آخر عومة في العلب (23/ 3)	
عواد (عوى)	11/ 3 – 23/ 3	موسم جلجل ممتاز	
سماك	24/ 3 – 5/ 4	موسم جلجل ضعيف إلى 6/ 4	
غفرة (الغفر)	6/ 4 – 18/ 4	تعلوق + قصب	

اسم الموسم	تاريخ دخول الموسم	تاريخ خروجه	المحاصيل الزراعية
زبان (البواردة)	19/ 4 – 2/ 5	(حادية) لا توجد فيه زراعة	
مواسم الصيف			
الإكليل	3/ 5 – 15/ 5	(حادية) لا توجد فيه زراعة	
القلب	16/ 5 – 28/ 5	دخن + سنيسلة	
الشول	29/ 5 – 10/ 6	فحل الموسم دخن + سنيسلة	
النعايم (النعيم)	11/ 6 – 23/ 6	لا توجد فيه زراعة	
البلدة	24/ 6 – 7/ 6	لا توجد فيه زراعة	
امقويدم	7/ 7 – 19/ 7	جلجل + دخن + سنيسلة + قطن	
المرزم	20/ 7 – 1/ 8	لا توجد فيه زراعة	
مواسم الخريف			
سهيل	2/ 8 – 14/ 8	سنيسلة + قطن+ دخن	
سعد لبيب	15/ 8 – 27/ 8	جلجل + تعلوق + قطن	

اسم الموسم	تاريخ دخول الموسم	تاريخ خروجه	المحاصيل الزراعية
ناهز مزع امقدم (القترة)	28/ 8 – 9/ 9	لا توجد فيه زراعة (حادية)	
معرج مزع مؤخر	10/ 9 – 22/ 9	موسم ممتاز لزراعة القرع	
الخامس ربشة	23/ 9 – 5/ 10	حيمر + طماطم + بطاطس	
سادس شرطي	6/ 10 – 17/ 10	حيمر (نوع من الذرة الرفيعة معقوفة السنبلة)	
السابع	18/ 10 – 30/ 10	حيمر (نوع من الذرة الرفيعة معقوفة السنبلة)	
مواسم الشتاء			
الثرياء	31/ 10 – 12/ 11	بطاطس + حيمر	
البركان	13/ 11 – 26/ 11	لا توجد فيه زراعة مقرانة (10)	
هنعة (هقاع)	27/ 11 – 9/ 12	لا توجد فيه زراعة مقرانة (13)	

اسم الموسم	تاريخ دخول الموسم	تاريخ خروجه	المحاصيل الزراعية
هقعة (هناع)	10/ 12 – 22/ 12	لا توجد فيه زراعة مقرانة	
ذراع	23/ 12 – 4/ 1	لا توجد فيه زراعة (حادية)	
نثرة	5/ 1 – 17/ 1	لا توجد فيه زراعة (حادية)	
طرفة (الطرف)	18/ 1 – 30/ 1	لا توجد فيه زراعة (حادية)	

المحتويات

المقدمة 5
الفصل الأول: الطفولة المبكرة 7
الفصل الثاني: بداية الرحلة 21
الفصل الثالث: دخول الإنكليز إلى دَثينة عام 1942م 49
الفصل الرابع : عادات وأعراف 85
الفصل الخامس: سلطنة الفضلي 109
الفصل السادس: الزراعة والمجاعة 175
الفصل السابع: مائدة من الجراد المشويّ 211
الفصل الثامن: آل الظهر وبيت البسم 227
الفصل التاسع: الوصول إلى شقرة 239
الفصل العاشر: السفر ليلاً وحكايات عن السيارات 257
الفصل الحادي عشر: المسيمير القطن والغجريات 281
الفصل الثاني عشر: كائن أسطوري له رغوة وزبد 301
الفصل الثالث عشر: الوصول إلى عدن 325
الخاتمة: العودة إلى جمهورية دثينة 365
ملاحق الكتاب 369
ملحق (1) 371
ملحق (2) 389
ملحق (3) 391
ملحق (4) 397

ملحق (5) 403